

نجیب محفوظ

الاولاد



دار الآداب

مطبعة

أولاد هارِتنا

بجيب محفوظ

أولاد حارتنا

رواية

دار الآداب - بيروت

جميع حقوق الطبع
محفوظة لدار الآداب - بيروت

الطبعة السادسة

١٩٨٦

إفتتاحية

هذه حكاية حارتنا ، أو حكايات حارتنا وهو الأصدق . لم أشهد من واقعها إلا طوره الأخير الذي عاصرته ، ولكنني سجلتها جميعاً كما يرونها الرواة وما أكثرهم . جميع أبناء حارتنا يروون هذه الحكايات ، يرويها كلٌ كما يسمعها في قهوة حبه أو كما نقلت إليه خلال الأجيال ، ولا سند لي فيما كتبت إلا هذه المصادر . وما أكثر المناسبات التي تدعو الى ترديد الحكايات . كلما ضاق أحد بحاله ، أو ناء بظلم أو سوء معاملة ، أشار الى البيت الكبير على رأس الحارة من ناصيتها المتصلة بالصحراء وقال في حسرة : « هذا بيت جدنا ، جميعنا من صلبه ، ونحن مستحقو اوقافه ، فلماذا نجوع وكيف نضام ١٩ » ، ثم يأخذ في قصّ القصص والاستشهاد بسير أدهم وجبل ورفاعة وقاسم من أولاد حارتنا الأجداد . وجدنا هذا لغز من اللغاز . عمر فوق ما يطمع انسان أو يتصور حتى ضُرب المثل بطول عمره . واعتزل في بيته لكبره منذ عهد بعيد ، فلم يره منذ اعتزاله أحد . وقصة اعتزاله وكبره مما يحير العقول ، ولعل الخيال أو الاغراض قد اشتركت في انشائها . على أيّ حال كان يدعى الجبلأوي وباسمه سميت حارتنا . وهو صاحب أوقافها وكل قائم فوق أرضها والأحكار المحيطة بها في الخلاء . سمعت مرة رجلاً يتحدث عنه فيقول : « هو أصل حارتنا ، وحارتنا أصل مصر أم الدنيا ، عاش فيها

وحده وهي خلاء خراب ، ثم امتلكها بقوة ساعده ومزله عند الوالي ،
كان رجلاً لا يجود الزمان بمثله ، وفتوة تهاب الوحوش ذكره ، وسمعت
آخر يقول عنه : « كان فتوة حقاً ، ولكنه لم يكن كالفترات الآخرين ،
فلم يفرض على أحد أتاوة ، ولم يستكبر في الارض ، وكان بالضعفاء
رحماً » ، ثم جاء زمان فتاولته قلة من الناس بكلام لا يليق بقدرة
ومكانته ، وهكذا حال الدنيا . وكنت وما زلت أجد الحديث عنه
شائعاً لا يمل . وكم دفعني ذلك الى الطواف ببيته الكبير لعلي افوز بنظرة
منه ولكن دون جدوى . وكم وقفت امام بابه الضخم ارنو الى التمساح
المحيط المركب أعلاه ، وكم جلست في صحراء المقطم غير بعيد من
سوره الكبير فلا ارى الا رءوس اشجار التوت والجميز والنخيل تكتنف
البيت ، ونوافذ مغلقة لا تم على أي اثر للحياة . أليس من المحزن أن
يكون لنا جدٌ مثل هذا الجلد دون أن نراه أو يرانا ؟ أليس من
الغريب ان يختفي هو في هذا البيت الكبير المغلق وأن نعيش نحن في
التراب ؟ وإذا تساءلت عما صار به وبنا الى هذا الحال سمعت من
فورك القصص ، وترددت على أذنك اسماء أدهم وجبل ورفاعة وقاسم ،
ولن تظفر بما يبيل الصدر أو يريح العقل . قلت إن أحداً لم يره منذ
اعتزاله . ولم يكن هذا بلدي بال عند أكثر الناس ، فلم يهتموا منذ بادىء
الأمر الا بأوقافه وبشروطه العشرة التي كثر القيل والقال عنها ، ومن هنا
ولد النزاع في حارتنا منذ ولدت ، ومضى خطره يستفحل بتعاقب الأجيال
حتى اليوم ، والغد . ولذلك فليس أدعي الى السخرية المريرة من
الإشارة الى صلة القرى التي تجمع بين أبناء حارتنا . كنا وما زلنا
أسرة واحدة لم يدخلها غريب . وكل فرد في حارتنا يعرف سكانها
جميعاً نساء ورجالاً . ومع ذلك فلم تعرف حارة حدة الخصام كما
عرفناها ، ولا فرق بين ابنائها النزاع كما فرق بيننا ، ونظير كل ساع
الى الخبر نجد عشرة فترات بلوحون بالنبايت ويدعون الى القتال . حتى

اعتاد الناس ان يشترروا السلامة بالاناوة ، والأمن بالخضوع والمهانة ، ولاحتقتهم العقوبات الصارمة لأدنى هفوة في القول او في الفعل بل للخطاة تحظر فيشي بها الوجه . وأعجب شيء ان الناس في الحارات القريبة منا كالعطوف وكفر الزغاري والدراسة والحسنية يحسدوننا على أوقاف حارتنا ورجالنا الأشداء ، فيقولون حارة منيعة وأوقاف تسدر الخيرات وفتوات لا يغلبون . كل هذا حق ، ولكنهم لا يعلمون اننا بتنا من الفقر كالمسولين ، نعيش في القاذورات بين الذباب والقمل ، نقنع بالفتات ، ونسعى باجساد شبه عاريسة ، وهؤلاء الفتوات يرونهم وهم يتبخثون فوق صدورنا فيأخذهم الإعجاب ، ولكنهم ينسون أنهم انما يتبخثون فوق صدورنا ، ولا عزاء لنا الا ان نتطلع إلى البيت الكبير ونقول في حزن وحسرة ، « هنا يقيم الجبلاني ، صاحب الأوقاف ، هو الجلد ونحن الأحفاد » .

شهدت العهد الأخير من حياة حارتنا ، وعاصرت الأحداث التي دفع بها الى الوجود « عرفة » ابن حارتنا البار . والى أحد اصحاب عرفة يرجع الفضل في تسجيل حكايات حارتنا على يدي ، اذ قال لي يوماً : « انك من القلة التي تعرف الكتابة ، فلماذا لا تكتب حكايات حارتنا ؟ .. انها تروى بغير نظام ، وتخضع لأهواء الرواة ونمزجياتهم ، ومن المفيد ان تسجل بامانة في وحدة متكاملة ليحسن الانتفاع بها ، وسوف أمدك بما لا تعلم من الاخبار والأسرار » . ونشطت الى تنفيذ الفكرة ، اقتناعاً بوجاهتها من ناحية ، وحباً فيمن اقترحها من ناحية أخرى . وكنت أول من اتخذ من الكتانة حرفة في حارتنا على رغم ما جرت به عادة علي من تحقير وسخرية . وكانت مهمتي ان اكتب العرائض والشكاوي للمظلومين وأصحاب الحاجات . وعلى كثرة المتظلمين الذين

يقصدونني فان عملي لم يستطع ان يرفعني من المستوى العام للمسؤولين
في حارتنا ، الى ما اطلعني عليه من أسرار الناس واحزانهم حتى ضيق
صدري وأشجن قلبي . ولكن مهلاً ، فاني لا اكتب عن نفسي ولا
عن متاعي ، وما أمون متاعي إذا قيس بمتاعب حارتنا . حارتنا
العجيبة ذات الأحداث العجيبة . كيف وجدت ؟ وماذا كان من
أمرها ؟ ومن هم أولاد حارتنا ؟

أدم

كان مكان حارتنا خلاء . فهو امتداد لصحراء المقطم الذي يربض في الأفق . ولم يكن بالخلاء من قائم الا البيت الكبير الذي شيده الجبلابي كأنما ليتحدى به الخوف والوحشة وقطاع الطريق . كان سوره الكبير العالي يتحلق مساحة واسعة ، نصفها الغربي حديقة ، والشرقي مسكن مكون من أدوار ثلاثة . وبوماً دعا الواقف ابتاءه إلى مجلسه بالبهو التحتاني المتصل بسلامك الحديقة . وجاء الأبناء جميعاً ، ادريس وعباس ورضوان وجيل وأدهم ، في جلابيهم الحريرية ، فوقفوا بين يديه وهم من إجلاله لا يكادون ينظرون نحوه إلا خلسة . وأمرهم بالجلوس فجلسوا على المقاعد من حوله ، وراح يتفحصهم هنيهة بعينه النافذتين كأعين الصقر ، ثم قام متجهاً نحو باب السلامك . ووقف وسط الباب الكبير ينظر إلى الحديقة المترامية التي تزحمها أشجار التوت والجميز والنخيل ، وتعرش في جنباتها الحناء والياسمين ، وتثب فوق غصونها مزقزقة العصافير . ضجت الحديقة بالحياة والغناء على حين ساد الصمت بالبهو . وخيل إلى الاخوة ان فتوة الخلاء قد نسيم ، وهو يسدو بطوله وعرضه خلقاً فوق الآدميين كأنما من كوكب هبط . وتبادلوا نظرات متسائلة . ان هذا شأنه إذا قرر أمراً ذا خطر ، وما يقلقهم إلا انه جبار في البيت كما هو جبار في الخلاء وانهم حياله لا شيء . التفت

الرجل نحوهم دون ان يبرح مكانه وقال بصوت خشن عميق تردد بقوة في أنحاء البهو الذي توارت جدراننه العالية وراء ستائر وطنافس :

— أرى من المستحسن أن يقوم غيري بإدارة الوقف ...

وتفحص وجوههم مرة أخرى ، ولكن لم تتم وجوههم على شيء . لم تكن ادارة الوقف مما يغري قوماً استحبوا الفراغ والدعة وعريضة الشباب ، وفضلاً عن هذا فادريس الأخ الأكبر هو المرشح الطبيعي للمنصب ، فلم يعد أحد منهم يتساءل عما هنالك . وقال ادريس لنفسه : « يا له من عبء ، هذه الافكار لا حصر لها ، وهؤلاء المستأجرون المناكيد ! »
اما الجبلاوي فاستطرد قائلاً :

— وقد وقع اختياري على أخيك أدهم ليدبر الوقف تحت اشرافي .. عكست الوجوه وقع مفاجأة غير متوقعة ، فتبدلت النظرات في سرعة وانفعال ، إلا أدهم فقد غض بصره حياء وارتبساً ، وولاهم الجبلاوي ظهره وهو يقول في عدم اكتراث :

— لهذا دعوتكم ..

تفجر الغضب في باطن ادريس ، فبدا كالثلج من سدة مقاومته ، ونظر اليه إخوته بخرج ، ودارى كل منهم — عدا أدهم طبعاً — غضبه لكرامته باحتجاجة الصامت على تخطي ادريس ، الذي كان تخطياً مضاعفاً لهم . اما ادريس فقال بصوت هادي كأنما يخرج من جسم آخر :

— ولكن يا أبي ..

قاطعه الأب ببرود وهو يلتفت نحوهم :

— ولكن ؟

فغضبوا الابصار حذراً من ان يقرأ ما في نفوسهم ، الا ادريس فقد قال باصرار :

— ولكنني الأخ الأكبر ..

فقال الجبلاوي مستاء :

أظن انني اعلم ذلك ، فأنا الذي انجبتك .
فقال ادريس وحرارة غضبه آخذة في الارتفاع :
- للأخ الأكبر حقوق لا تهضم الا لسبب ..
فحدجته الرجل بنظرة طويلة كأنما يمنحه فرصة طيبة لتدبر أمره وقال :
- أؤكد لكم اني راعيت في اختياري مصلحة الجميع ..
تلقي ادريس اللطمة بصبر ينفد . انه يعلم كم يضيق أبوه بالمعارضة ،
وان عليه ان يتوقع لطمات أشد اذا تمادى فيها ، ولكن الغضب لم يدع
له فرصة لتدبر العواقب ، فاندفع خطوات حتى كاد يلاصق أدهم ،
وانتفخ كالديك المزهو ليعلم للأبصار فوارق الحجم واللون والبهاء بينه
وبين أخيه ، وانطلق الكلام من فيه كما ينطلق نثار الريق عند العفس
بغير ضابط :
- اني واشقائي ابناء هانم من خيرة النساء . أما هذا فابن جارية
سوداء ..
شحب وجه أدهم الأمر دون ان تند عنه حركة ، على حين لوح
الجبلاوي بيده قائلاً بنبرات الوعيد :
- تأدب يا ادريس ..
ولكن ادريس كانت تعصف به عواصف الغضب المدبورة فهتف :
- وهو اصغرنا أيضاً ، فدلي ، على سبب برجحني به الا ان يكون
زماننا زمان الخدم والعبيد ..
- اقطع لسانك رحمة بنفسك يا جاهل ..
- ان قطع رأسي أحب إلي من اخوان ..
ورفع رضوان رأسه نحو أبيه وقال برقة باسمه :
- نحن جميعاً ايتاؤك ، ومن حقنا ان نحزن اذا فتقدنا رضيعنا عنا ،
والأمر لك على أي حال . وغاية مرأنا ان نعرف السبب ..
وعده الجبلاوي عن ادريس أو رضوان مروضاً غضبه لغاية في

نفسه ، فقال :

- أدهم على دراية بطباع المستأجرين ، ويعرف أكثرهم باسمائهم ،
ثم أنه على علم بالكتابة والحساب ..

وعجب ادريس من قول أبيه كما عجب اخوته . متى كانت معرفة
الأوشاب ميزة يفضل من أجلها انسان ؟! . ودخول الكتاب ، أهو ميزة
أخرى ؟! . وهل كانت أم أدهم تدفع به الى الكتاب لولا بأسها من
فلاحه في دنيا الفتوة ؟! . وتساءل ادريس متهمكاً :

- أتكنفي هذه الأسباب لتبرير ما يراد بي من مذلة ؟

فأشار الجبلاوي نحوه بضجر وقال :

- هذه ارادتي ، وما عليك إلا السمع والطاعة ..

والضفت الرجل التفاتة حادة صوب أشقاء ادريس وهو يسأل :

- ما قولكم ؟

فلم يحتمل عباس نظرة أبيه ، وقال وهو واجم :

- سماعاً وطاعة ..

وسرعان ما قال جليل وهو يفيض طرفة :

- أمرك يا أبي ..

وقال رضوان وهو يزدرد ريقه الجاف :

- على العين والراس ..

عند ذاك ضحك ادريس ضحكة غضب تقلصت الى اساربره حتى

قبحت وجهه وهتف :

- يا جناء ، ما توقعت منكم الا الهزيمة المزرية . وبالجن يتحكم

فيكم ابن الجارية السوداء ..

فصاح الجبلاوي مقطباً عن عينين تتطاير منها الشر :

- ادريس !

ولكن الغضب كان قد اقتلع جذور عقله فصاح بحوره .

ما أهون الأبوة عليك ، خلقت فتوة جباراً فلم تعرف الا ان
مكون فتوة جباراً ، ونحن أبناءك تعاملنا كما تعامل ضحاياك العديدين ..
اقرب الجبلاوي خطوتين في بطاء كالتوئب ، وقال بصوت منخفض
وقد أذرت أساريه المتقبضة بالشر :

— اقطع لسانك !

ولكن ادريس واصل صياحه قائلاً :

— لن ترعيني ، أنت تعلم أنني لا أرتعب ، وأنتك اذا أردت أن
ترفع ابن الجارية عليّ فلن أسمعك لحن السمع والطاعة .
— ألا تدرك عاقبة التحدي يا ملعون ؟

— الملعون حقاً هو ابن الجارية ..

فعلت نبرات الرجل واخشوشنت وهو يقول :

— انها زوجتي يا عريد ، فتأدب ولا سويت بك الأرض ..

وفزع الاخوة وأولهم أدهم لدرايتهم يبطش ابيهم الجبار، ولكن لإدريس
كان قد بلغ من الغضب درجة لم يعد يدرك معها خطراً كأنه مجنون
يهاجم ناراً مندلعة ، فصاح :

— انك تبغضني ، لم أكن أعلم هذا ، ولكنك تبغضني دون ريب ،
لعل الجارية هي التي بغضتنا اليك ، سيد الخلاء وصاحب الاوقاف والفتوة
الرهيبة ، ولكن جارية استطاعت أن تعيث بك ، وغداً يتحدث عنك
الناس بكل عجيبة يا سيد الخلاء .

— قلت لك اقطع لسانك يا ملعون .

— لا تستبني من أجل أدهم ، طوب الأرض يأبى ذلك ويلعنه ،
وقرارك الغريب سيجعلنا أحدىثة الاحياء والحواري ..

فصاح الجبلاوي بصوت صلك الاسماع في الحديقة والحريم :

— أغرب بعيداً عن وجهي ..

— هذا بيتي ، فيه أمي ، وهي سيدته دون منازع

— لن تُرى فيه بعد اليوم ، والى الأبد ..
واكفهر الوجه الكبير حتى حاكى لونه النيل في احتدام فيضانه ،
ونحرك صاحبه كالبنيان ، مكوراً قبضة من صوان . وأيقن الجميع أن
ادريس قد انتهى . ما هو الا مأساة جديدة من المآسي التي يشهدها
هذا البيت صامتاً . كم من سيدة مصونة تحولت بكلمة الى متسولة نعيمة .
وكم من رجل غادره بعد خدمة طويلة مترنحاً يحمل على ظهره العاري
آثار سباط حملت اطرافها بالرصاص والدم يطفح من فيه وأنفه . والرعاية
التي تحوط الجميع عند الرضا لا تشفع لأحد وان عزّ جانبه عند الغضب .
لهذا أيقن الجميع ان ادريس قد انتهى . حتى ادريس بكري الواقف
ومثله في القوة والجمال قد انتهى . وتقدم الجبلوي خطوتين أخريين
وهو يقول :

— لا أنت ابني ولا أنا ابوك ، ولا هذا البيت بيتك ، ولا أمّ لك
فيه ولا اخ ولا تابع ، امامك الارض الواسعة فاذهب مصحوباً بغضبي
ولعنتي ، وستعلمك الایام حقيقة قدرك وأنت تهيم على وجهك محروماً
من عطفي ورعايتي !

فضرب ادريس البساط الفارسي بقدمه وصاح :

— هذا بيتي ، ولن أغادره ..

فانقضّ عليه الأب قبل أن يتقيه ، وقبض على منكبه بقبضة كالمصرة ،
ودفعه أمامه والآخر يتراجع مقهقراً ، فعبراً باب السلامك ، وهبط السلم
وادريس يتعثر ، ثم اخترق به ممراً تكتنفه شجيرات الورد والحناء مفروشا
بالياسمين حتى البوابة الكبيرة فدفعه خارجاً وأغلق الباب . وصاح بصوت
سمعه كلّ من يقيم في البيت :

— الهلاك لمن يسمح له بالعودة أو يعينه عليها ..

ورفع رأسه صوب نوافذ الحريم المغلقة وصاح مرة أخرى :

— وطالفة ثلاثاً من تجزيء على هذا ..

منذ ذلك اليوم الكئيب وأدهم يذهب كل صباح إلى إدارة الوقف في المنظرة الواقعة إلى يمين باب البيت الكبير . وعمل بهمة في تحصيل أجور الأحكار وتوزيع أنصبة المستحقين وتقديم الحساب إلى أبيه . وأبدى في معاملة المستأجرين لباقة وسياسة، فرضوا عنه على رغم ما عرف عنهم من مشاكسة وفظاظة . وكانت شروط الوقف سراً لا يدري به أحد سوى الأب ، فبعث اختيار أدهم للإدارة الخوف أن يكون هذا مقدمة لا يثاره في الوصية . والحق أنه لم يبد من الأب قبل ذلك اليوم ما ينم عن التحيز في معاملته لأبنائه . وعاش الاخوة في وئام وانسجام بفضل مهابة الأب وعدالته . حتى إدريس - على قوته وجهاله واسرافه أحياناً في اللهو - لم يسيء قبل ذلك اليوم إلى أحد من اخوته . كان شاباً كريماً حلو المعشر حائزاً الود والاعجاب . ولعل الأشقاء الأربعة كانوا يضمرون لأدهم شيئاً من الاحساس بالفارق بينهم وبينه ، ولكن أحداً منهم لم يعلن هذا ولا اشته منه في كلمة أو إشارة أو سلوك . ولعل أدهم كان أشد احساساً منهم بهذا الفارق ، ولعله قارن كثيراً بين لونهم المضيء ولونه الأسمر ، بين قوتهم ورقته ، بين سمو أمهم ووضاعة أمه ، ولعله عانى من ذلك أسى مكتوماً وألماً دفيناً ، ولكن جو البيت المعبق بشذى الرياحين ، الخاضع لقوة الأب وحكمته ، لم يسمح لشعور سيء بالاستقرار في نفسه ، فنشأ صافي القلب والعقل .

وقال أدهم لأمه قبيل ذهابه إلى إدارة الوقف :

-- باركيني يا أمي ، فما هذا العمل الذي عهد به إليّ إلا امتحان شديد لي ولك ..

فقالت الأم بضراعة :

- ليكن التوفيق ظلك يا بني . أنت ولد طبيب والعقبى للطيبين ..

ومضى أدهم الى المنظرة ترمقه العيون من السلامك والحديفة ومن وراء النوافذ ، وجلس على مقعد ناظر الوقف وبدأ عمله . وكان عنه أخطر نشاط انساني يزاول في تلك البقعة الصحراوية ما بين المقطم شرقاً والقاهرة القديمة غرباً . واتخذ أدهم من الأمانة شعاراً ، وسجل كل ملهم في الدفتر لأول مرة في تاريخ الوقف . وكان يسلم اخوته رواتبهم في أدب ينسبهم مرارة الحنق ثم يقصد أباه بحصيلة الأموال . وسأله أبوه يوماً :

— كيف تجد العمل يا أدهم ؟

فقال أدهم بنشوع :

— ما دمت قد عهد به اليّ فهو أعظم ما في حياتي .

فشاعت في الوجه العظيم البشاشة ، إذ أنه على جبروته كان يستخفّه طرب الثناء . وكان أدهم يحب مجلسه . وإذا جلس اليه اختلس منه نظرات الاعجاب والحب . وكلّ كان يسعده أن يتابع أحاديثه وهو يروي — له ولأخوته — حكايات الزمان الأول ، ومغامرات الفتوة والشباب ، اذ هو ينطلق في تلك البقاع ملوحاً بنبوته المخيف غازياً كل موضع تطأه قدماه . وبعد طرد ادريس ظل عباس ورضوان وجليل على عادتهم من الاجتماع فوق سطح البيت ، يأكلون ويشربون ويقامرون . أما أدهم فلم يكن يطيب له الجلوس إلا في الحديفة . كان عاشقاً للحديفة منذ درج ، وكان عاشقاً للناي . ولازمته تلك العادة بعد اضطراره بشئون الوقف وإن لم تعد تستأثر بجلّ وقته . فكان اذا فرغ من عمله في الوقف افترش سجادة على حافة جدول ، واسند ظهره الى جذع نخلة او جميزة ، أو استلقى تحت عريشة الياسمين ، وراح يرنو الى العصافير وما اكثّر العصافير ، او يتابع الياهم وما أحلى الياهم ، ثم ينفخ في الناي محاكياً الزقزقة والهديل والتغريد وما أبدع المحاكاة ، أو يمد الطرف نحو السماء خلال الغصون وما أجمل السماء . ومرّ به اخوه رضوان وهو على تلك

الحال فرمقه بنظرة ساخرة وقال :

— ما أضيع الوقت الذي تنفقه في إدارة الوقف !

فقال أدهم باسمًا :

— لولا إشفائي من اغضاب أبي لشكوت ..

— فلنحمد نحن المولى على الفراغ !

فقال أدهم ببساطة :

— هنيئاً لكم ..

فسأله رضوان وهو يداري الامتعاض بالابتسام :

— أتود أن تعود مثلنا ؟

— خير ما تمضى الحياة في الحديقة والناي ..

فقال رضوان بمرارة :

— كان ادريس يود ان يعمل ..

فغض أدهم بصره وهو يقول :

— لم يكن عند ادريس وقت للعمل ، ولا اعتباراتٍ اخرى غضب ،

اما السعادة الحقة ففي هذه الحديقة تجدها ..

ولما ذهب رضوان قال ادهم لنفسه : « الحديقة ، وسكانها المغردون ،

والماء ، والسماء ، ونفسي النشوى ، هذه هي الحياة الحقة . كأنني

أجد في البحث عن شيء . ما هذا الشيء ؟ الناي أحياناً يكاد يجيب .

ولكن السؤال يظل بلا جواب . لو تكلمت هذه العصفورة بلغتي لشف

قلبي باليقين . وللتجوز الزاهرة حديث كذلك . أما تحصيل الايجار فشاز

بين الانعام .

ووقف أدهم يوماً ينظر الى ظله الملقى على الممشى بين الورود ،

فاذا بظل جديد يمتد من ظله واشياً بقدم شخص من المنعطف خلفه .

بدا للظل الجديد كأنما يخرج من موضع ضلوعه . والتفت وراءه فرأى فتاة

سمراء وهي "هم" بالتراجع عندما اكتشفت وجوده ، فأشار بالوقوف

فوقفت ، وتفحصها ملياً ، ثم سألتها برقة :

— من أنت ؟

فأجابت بصوت ملهم :

— أميمة ..

انه يذكر الاسم ، فهو لجارية ، قريبة لأمه ، وكما كانت أمه قبل ان يتزوج منها أبوه .

ومال الى محادثتها أكثر فسألها :

— ماذا جاء بك الى الحديقة ؟

فأجابت مسيلة الجفنين :

— حسبته خالية ...

— لكن ذلك محرم عليك ..

فقلت بصوت لم يكده يسمع :

— أخطأت يا سيدي ..

وتراجعت حتى توارت وراء المنعطف ، ثم ترامى الى أذنيه وقع أقدامها المسرعة ، وإذا به يغمغم متأثراً « ما أملحك ! » . وشعر بأنه لم يكن قط أدخل في خلائق الحديقة منه في هذه اللحظة . وان الورد والياسمين والقرنفل والعصافير واليام ونفسه نغمة واحدة . وقال لنفسه : « أميمة مليحة ، حتى شفتاها الغليظتان مليحتان ، وجميع اخوتي متزوجون عدا ادريس الكبير ، وما أشبه لونها بلوني ، وما أجمل منظر ظلها وهو مفروش في ظلي كأنه جزء من جسدي المضطرب بالرغبات ، ولن يسخر أبسي من اختياري وإلا فكيف جاز له أن يتزوج من أمي ؟ ! » .

رجع أدهم الى ادارة الوقف بقلب مغمم بجمال غامض كالعبر .

وحاول كثيراً ان يراجع حساب اليوم ، ولكنه لم ير في صفحة عقله
الا السمرء . ولم يكن عجباً ان يرى أميمة اليوم لأول مرة ، فالحریم
في هذا البيت كالأعضاء الباطنية يعرفها صاحبها على نحو ويعيش بفضلها
ولكنه لا يراها . واستسلم ادهم الى تيار افكاره الوردية حتى انتزع منه
على صوت مرعد قريب كأنما انفجر في المنظرة نفسها وهو يصيح :
« أنا هنا ، في الخلاء يا جبلاوي ، ألعن الكل ، اللعنة على رءوسكم
نساء ورجالا » ، واتحدى من لم تعجبه كلماتي ، سامعني يا جبلاوي ؟ ! » .
وهتف أدهم : « ادريس ! » وغادر المنظرة الى الحديقة فرأى أخاه
رضوان متجهاً نحوه في اضطراب ظاهر ، وبادره قائلاً :

— ادريس سكران ، رأيته من النافذة مختلّ التوازن من السكر ،
أي فضائح تخبىء الأقدار لأسرتنا ؟
فقال ادهم وهو يغضي ألماً :

— قلبي يتقطع أسفاً يا اخي ..

— وما العمل ؟! ان كارثة تهددنا !

— الا ترى يا اخي انه يجب علينا ان نحدث ابانا في الأمر ..؟
فقطب رضوان قائلاً :

— أبوك لا يراجع في أمر ، وحال ادريس هذه لا شك ضاعفت
من غضبه عليه ..

فغمغم أدهم في كآبة :

— ما كان أغنانا عن هذه الأحزان !

— نعم ، النساء يبكين في الحریم ، عباس وجليل معتكفان من
الكدر ، وأبونا وحده في حجرته لا يجرؤ أحد على الاقتراب منه ..
فتساءل أدهم في قلق وهو يشعر بأن ملابسات الحديث تدفعه الى مأزق :
— الا ترى انه ينبغي ان نعمل شيئاً ؟

— يبدو ان كل واحد منا يود أن يلوذ بالسلامة ، ولا يهدد السلامة

مثل طلبها بأي ثمن ، غير اني لن اجازف بمركزي ولو انطبقت السماء على الأرض ، أما كرامة اسرتنا فتتمرغ الساعة في التراب في ثوب ادريس ..

لماذا قصدتني اذن ؟ ١٩ . بين يوم وليلة انقلب ادهم غراب بين ينق . وتنهد قائلاً :

— اني برىء من كل هذا ، ولكن لن تطيب لي الحياة ان سكنت .. فقال رضوان وهو يهمّ بالذهاب :

— لديك من الأسباب ما يوجب عليك العمل ! ..

ومضى راجعاً . ولبت ادهم وحده وأذناه ترددان هذه العبارة « لديك من الأسباب .. » . نعم . انه المتهم دون ذنب جناه . كالقطة التي تسقط على رأس لأن الريح أطاحت بها . وكلما أسف أحد على ادريس لعين ادهم . واتجه ادهم نحو الباب ففتحه في رفق ومرق منه . رأى ادريس غير بعيد يترنح دائراً حول نفسه ، يقلب عينين زائغتين ، وقد تشعث رأسه وانحسر جيب جلبابه عن شعر صدره . ولما عثرت عيناه على ادهم توثب للانقضاض كأنه قطعة لمحت فأراً ، ولكن أعجزه السكر فمال نحو الارض وملاً قبضته تراباً ورمى به ادهم فأصاب صدره وانتثر على عباءته . وناداه ادهم برقة :

— اخي ..

فزجر ادريس وهو يترنح :

— اخرس يا كلب يابن الكلب ، لا أنت أخي ولا ابوك ابني ، ولأدكن هذا البيت فوق رؤوسكم ..

فقال ادهم متودداً :

— بل انت اكرم هذا البيت وأنبله ..

فقهقه ادريس من فيه دون قلبه وصناح :

— لماذا جئت يا ابن الجارية ؟ ، عد الى امك وأنزلها الى بدروم الخدم ..

- فقال ادهم دون ان تتغير مودته :
- لا تستسلم للغضب ، ولا توصد الابواب في وجه الساعين بخبرك ..
- فلوَّح ادريس بيده ، ثائراً وصاح :
- ملعون البيت الذي لا يطمئن فيه الا الجبناء ، الذين يغمسون اللقمة في ذل الخنوع ، ويعبدون مذلمهم ، لن اعود الى بيت انت فيه رئيس ، فقل لأبيك انني اعيش في الخلاء الذي جاء منه ، وانني عدت قطاع طريق كما كان ، وعريداً أثمياً معتوياً كما يكون ، وسيشربون اليّ في كل مكان اعيث فيه فساداً ويقولون : « ابن الجبلاوي » ، بذلك أمرغكم في التراب يا من تظنون انفسكم سادة وانتم لصوص ..
- وتوسل ادهم قائلاً :
- اخي أفق ، حاسب نفسك على كل كلمة توجب اللوم ، ليس الطريق مسدوداً في وجهك الا ان تسده بيديك ، واني أعدك بأن يعود كل شيء طيب الى اصله ..
- فخطا ادريس نحوه بصعوبة كأن ربحاً ترجعه وقال :
- بأي قوة تعدني يا ابن الجارية ؟
- فقال وهو يرمقه بخذر :
- بقوة الأخوة !
- الأخوة ! قذفت بها في اول مرحاض صادفتي ..
- فقال ادهم متألماً :
- ما سمعت منك من قبل الا الجميل ..
- طغيان ابيك أنطقني بالحق ..
- لا احب ان يراك الناس على هذه الحال .
- فأرسل ادريس ضحكة معربة وصاح :
- وسبروني على اسوأ منها كل يوم ، العار والفضيحة والجريمة ستحل بكم على يدي ، طردني ابوك دون حياء فليتحمل العواقب ..

ورمى بنفسه نحو أدهم فتحتى هذا عن موقفه دون تردد، فكاد ادريس -
يهوى على الأرض لولا ان استند الى الجدار ، ولبت يلهث حائقاً .
وينظر في الأرض مفتشاً عن حجر، فراجع ادهم بحفة الى الباب ودخل .
واغرورقت عيناه من الحزن . وكان صياح ادريس ما زال صاخباً
وحانت منه التفاتة نحو السلامك فلمح اباه خلال الباب وهو يعبر البهو ،
فضى نحوه وهو لا يدري ، متغلباً على خوفه بحزنه . ونظر اليه الجبلأوي
بعينين لا تفصحان عن شيء . وكان يقف بقامته المديدة ومنكببيه
العريضين امام صورة محراب نقشت على جدار البهو خلفه . واحنى
أدهم رأسه قائلاً

- السلام عليكم ..
- فتفحصه الجبلأوي بنظرة عميقة ثم قال بصوت نفذ الى اعماق قلبه :
- صرّح بما جثت من اجله ..
- فقال ادهم بصوت مهموس :
- أبى ، ان اخي ادريس ..
- فقاطعه الأب بصوت كضربة الفأس في الحجر :
- لا تذكر اسمه أمامي ..
- ثم وهو يمضي الى الداخل :
- اذهب الى عملك !

٤

توالى مشرق الشمس ومغيبها على هذه البقعة الخلاء وادريس يتردى
في مهاوي الشقاوة . في كل يوم يسجل في كتابه حماقة جديدة . كان

يدور حول البيت ليقدفه بأقذع الشتائم . او يجلس على كئيب من الباب ، عارياً كما ولدته أمه كأنما يتشمس ، وهو يترجم بأفحش الأغاني . وكان يتجول في الأحياء القريبة في خيلاء الفتوات ، يتحدثى كل عابر بنظرات هجومية ، ويتحرش بكل من يعترض سبيله ، والناس يتحاشونه كاظمين ، وهم يتهمسون « إبن الجبلأوي ! » ولم يحمل لغذائه هماً ، فكان يمد يده بكل بساطة الى الطعام حيث وجده ، في مطعم او على عربة ، فيأكل حتى يكتظ ثم يمضي دون شكر من ناحيته أو محاسبة من الآخرين . وإذا تاقت نفسه الى العريضة مال الى اول حانة تصادفه ، فتقدم اليه البوظة حتى يسكر ، ثم ينطلق لسانه كالنافورة بأسرار أسرته وأعاجيبها ، وتقاليدها السخيفة وجبنها المهيئ ، منوهاً بنورته على أبيه ، جبار هذه الأحياء جميعاً ، ثم يدخل في قافية ليغرق في الضحك ، ويفني إذا لزم الحال ويرقص ، وتتناهى مسرته إذا ختمت السهرة بمعركة ، ثم يذهب مشيعاً بالتحيزات . وفي كل مكان اشتهر بهذه السيرة ، فتحاماه الناس ما استطاعوا ، ولكنهم سلموا بأمره كأنه مصيبة من مصائب الدهر . ونال الأسرة من ذلك ما نالها من الغم والكرب . وغلب الحزن أم ادريس فشلت واحتضرت . وجاء الجبلأوي ليودعها فأشارت نحوه بيدها السليمة محتجة وفاضت روحها في أسى وغضب ، ونخيم الحزن على الأسرة كخيوط العنكبوت ، فتوقف سمر الاخوة فوق السطح ، وسكت ناي ادم في الحديقة .

ويوماً تفجر الأب عن ثورة جديدة كانت ضحيتها تلك المرة امرأة . اذ تعالى صوته الجهير وهو يلعن نرجس الخادمة ويطردها من البيت . وعلم في نفس اليوم أن أعراض الحمل ظهرت على المرأة ، فقررت حتى أقرت بأن لإدريس اعتدى عليها قبل طرده . وغادرت نرجس البيت وهي تصوت وتلطم خديها . وهامت على وجهها سحابة النهار حتى عثر عليها ادريس فالحقها بركابه دون ترحيب ، ودون جفاء كذلك إذ

لم نكن نخلو من نفع عند الحاجة .
على أن كل مصيبة وإن جلت لا بد يوماً أن تُؤلف . لذلك أخذت
الحياة تعود إلى مجراها المألوف في البيت الكبير كما يعود السكان إلى
ديارهم عقب زلزال أكرههم على الفرار منها . عاد رضوان وعباس
وجليل إلى ندوة السطح ، كما عاد أدهم إلى سهرة الحديقة يناجي الناي
فيناجيه . ووجد أميمة تضيء خواطره وتدفيء مشاعره ، وصورة ظلها
المعاني لظله ترسم بوضوح في مخيلته ، فقصده مجلس أمه في حجرتها
حيث كانت تطرز شالاً ، فأفضى إليها بذات نفسه ، إلى أن قال :
— إنها أميمة يا أمي ، قريبتك ..

فابتسمت أمه ابتسامة باهتة دلت على أن فرحة الخبر لم تستطع التغلب
على عناء مرضها وقالت :
— نعم يا أدهم ، أنها فتاة طيبة ، تصلح لك كما تصلح لها ،
وستسعدك بمشيئة المولى ..

ولما رأت توردهم في وجنتيه استدركت قائلة :
— لا ينبغي أن تدلها يا بني حتى لا تفسد حياتك ، وسأخاطب
أباك في الأمر لعلني أنعم برؤية ذريتك قبل أن يدركني الموت ..
وعندما دعاه الجبلأوي إلى مقابلته وجده يبسم ابتسامة لطيفة حتى
قال لنفسه : « لا شيء يعادل شدة أبي إلا رحمته » . وقال الأب :
— ها أنت تطلب زوجة يا أدهم ، ما أسرع الزمن ، وهذا البيت
يحتقر المساكين ولكنك باختيار أميمة تكرم أمك ، لعلك تنجب ذرية
صالحة . لقد ضاع إدريس ، وعباس وجليل عقيان ، ورضوان لم
يعش له ولد حتى اليوم ، وجميعهم لم يرثوا عني إلا كبريائي ، فاملاً
هذا البيت بذريتك ، وإلا ذهب عمري هباء .

وكانت زفة أدهم التي لم يشهد لها الحي نظيراً من قبل . وحتى
اليوم يجري ذكرها مجرى الأمثال في حارتنا . تدلت ليلتنا الكلوبات

من غصون الاشجار ومن فوق السور حتى بسدا البيت بحيرة من نور
وسط الخلاء المظلم . وأقيم سرادق فوق السطح للمغنين والمغنيات .
وامتدت موائد الطعام والشراب في البهو والحديقة والخلاء المتصل بمدخل
البيت الكبير . وبدأت زفة أدهم من أقصى الجبالية عقب منتصف الليل .
سار فيها كل من يحب الجبلاوي أو يخافه حتى انتظمت الجميع . وخطر
أدهم في جلباب حريري ولاسة مزركشة بين عباس وجليل ، أما رضوان
فسار في المقدمة ، وعلى اليمين وعلى اليسار حاملو الشموع والورود ،
وتقدم الموكب مجموعة ضخمة من المنشدين والراقصين ، وتعالى الغناء ،
وتبعته تأوهات المطربين وتحيات المعجبين بالجبلاوي وأدهم ، حتى استيقظ
الحي ودوت الزغاريد . وسار الموكب من الجبالية فالعطوف ثم كفر الزغاري
والمبيضة ، ينهال عليه الترحيب حتى من القنوات ، وحطب من حطب ،
ورقص من رقص ، ووزعت الحانات البوطة مجاناً فسكر حتى الغلمان ،
وتهادت الجيوز من جميع الغرز في طريق الموكب هدية للمحتفلين فعبق
الجو بحسن كيف والهندي .

وفجأة لاح لإدريس كمارد انشقت عنه الظلمة في آخر الطريق . لاح
عند المنعطف المفضي إلى الخلاء على ضوء الكلوبات التي تتقدم الموكب
فتوقف حاملو الكلوبات عن السير وانتشر التهامس باسم إدريس . ولمحته
أعين المنشدين فاعترض الخوف حناجرهم فكفمت عن الغناء ، ورآه
الراقصون فجمدت أوساطهم . وسرعان ما سكنت المزامير وخرست
الطبول ، وغاضت الضحكات . وتساءل كثيرون عم يفعلون : فهم
إن استكانوا لم يأمنوا الأذى وإن ضربوا لم يضربوا إلا ابن الجبلاوي .

ولوح لإدريس بنبوته وهو يصيح :

— لمن الزفة يا حثالة الجبناء ؟

فساد الصمت واشربت الأعناق نحو أدهم وإخوته ، وعاد إدريس

يتساءل :

- متى كنتم لابن الجارية أو لأبيه أصدقاء ؟
عند ذلك تقدم رضوان خطوات وهتف قائلاً ؛
– لإخي ، من الحكمة ان تدع الزفة تمر ..
فصاح لإدريس مقطباً :
– أنت آخر من يتكلم يا رضوان ، أنت أخ خائن وابن "جبان" ،
وذليل يشتري رغد العيش بالكرامة والأخوة ..
فقال رضوان باشفاق :
– لا شأن للناس باختلافاتنا ..
فقهقه ادريس قائلاً :
– الناس يعلمون بخبركم ، ولولا جبنهم العريق ما وجدت هذه الزفة
زامراً أو منشداً ..
فقال رضوان بعزم ثابت :
– أبوك عهد إلينا بأخيك ، ولا بد أن نحفظه ..
فعاد ادريس يقهقه وهو يتساءل :
– أرايت انك تدافع عن نفسك لا عن ابن الجارية ؟
– أين رشادك يا أخني ؟ بالحكمة وحدها تعود الى بيتك .
– إنك كاذب ، وأنت تعلم أنك كاذب ..
فقال رضوان في حزن :
– لن ألومك فيما يخصني ، ولكن دع الزفة تمر بسلام ..
فكان جوابه ان انقضّ على الموكب كالثور الهائج . وأخذ نبوته
يرتفع ويهوى فتتحطم الكلوبات وتتصدع الطبول وتبعثر الورود ؛ وراح
الناس يولون مذعورين كالرمال أمام العاصفة . وتكاتف رضوان وعباس
وجليل أمام أدهم فتضاعف غضب ادريس :
– يا أنذال ، تدافعون عن تكرهون خوفاً على الطعام والشراب ..
وهجم عليهم ، فتلقوا ضرباته بنبايتهم دون ان يردوا عليها وهم

يتراجعون . وإذا به يرمي بنفسه فجأة بينهم فيثور سبيلا الى موقف
أدهم فعلا الصوات في النوافذ ، وهتف أدهم وهو يتحفز للدفاع
عن نفسه :

- ادريس ، لستُ عدواً لك فارجع الى عقلك .
ورفع ادريس نبوته . وهنا صاح صائح : « الجبلاوي » . وصاح
رضوان مخاطباً ادريس :
- أبوك قادم ..

فوثب ادريس الى جانب الطريق والتفت الى الورا فرأى الجبلاوي
قادماً وسط هالة من الخدم يحملون المشاعل . وعرض ادريس على أسنانه
ثم هتف ساخراً :

- سأهيك عما قريب حفيداً من الزنا تقرّ به عينك .
واندفع نحو الجالية والناس توسع له على الجانبين حتى ابتلعتة الظلمة .
وبلغ الأب موقف الأخوة وهو يتظاهر بهدوء تحت آلاف الأعين المحدقة
فيه ، ثم قال بلهجة أمرة :
- ليعد كل شيء الى أصله ..

ورجع حملة الكلوبات الى مواقعهم ، ودقت الطبول ، وعزفت
المزامير ، ثم غنى المنشدون ، ورقص الراقصون ، واستأنفت الزفة
مسيرها ..

وسهر البيت الكبير حتى الصباح في طرب وشراب وغناء . وعندما
دخل أدهم حجرته المظلة على خلاء المقطم وجد أميمة واقفة الى جانب
المرأة والنقاب الأبيض ما يزال يغطي وجهها . كان مخموراً مسطولاً لا
تكاد تحمله قدماه ، فاقترّب منها وهو يبذل جهداً شديداً ليبالك
اعصابه . ورفع النقاب عن وجهها الذي طالعه في أحسن رواء ، وهوى
برأسه حتى لثم شفّتيها المكتنزتين ، ثم قال بلسان مخمور :
- لنهن الموموم جميعاً ما دمت حسن الختام ..

وانجحه نحو الفراش ، يستقيم خطوة ويترنح خطوة ، حتى استلقى على عرض السرير باللاسة والركوب ، وكانت أميمة تنظر الى صورته المتعكسة على المرآة وهي تبسم في إشفاق وحنان ..

٥

وجد أدهم في أميمة سعادة لم يعرفها من قبل . ولبساطته أعلن عن سعادته بأقواله وأحواله حتى تندّر به لإخوته . وعند ختام كل صلاة كان يبسط يديه هاتفاً : « الحمد لصاحب المن ، على رضى أبي الحمد له ، على حب زوجي الحمد له ، على المنزلة التي أحظى بها دون من هم أجدر مني بها الحمد له ، على الحديقة الغناء والنساي الرفيق الحمد له » . وقالت كل امرأة من نساء البيت الكبير إن أميمة زوجة واعية ، فهي ترعى زوجها كأنه ابنها ، وتوادد حمائها وتخدمها حتى أسرتها ، وتولي مسكنها العناية التامة كأنه قطعة من جسدها . أما ادهم فكان زوجاً مترع القلب بالمحبة وحسن المعاشرة . وكما شغلته إدارة الوقف عن جزء من ملامه البريئة في الحديقة من قبل ، فقد شغل الحب بقية يومه ، واستبد به حتى نسي نفسه . وتوالت ايام هائنة ، وامتدت فوق ما قدر رضوان وعباس وجليل الساخرون ، ولكنها ارتطبت في النهاية بذلك الهدوء الحكيم كما تنتهي مياه الشلال المتدفقة الراعية المزبدة في النهر الرصين . وعاد التساؤل يحتل مكانه في قلب ادهم ، ف شعر بأن الزمن لا يمر في غمضة عين ، وان النهار يعقبه الليل ، وان المناجاة اذا تواصلت الى غير نهاية فقدت كل معنى ، وان الحديقة ملهاة صادقة لا يجدر به أن يهجرها ، وان شيئاً من هذا لا يعني بحال ان قلبه تحول عن أميمة ، فما تزال في صميمه ، ولكن للحياة أطواراً لا يخبرها المرء الا يوماً بيوم .

وعاد الى مجلسه عند القناه ، وأجال بصره في الأزهار والعصافير ممتناً
ومعتذراً . وإذا بأميمة تلحق به مشرقة بالبهجة ، فجلست الى جانبه
وهي تقول :

— نظرت من النافذة لأرى ما أحرك ، لماذا لم تدعني معك ؟
فقال باسماء :

— خفت ان اتعبك ..

— تتعبنى ؟.. طالما احببت هذه الحديقة ، اذكر اول لقاء لنا هنا ؟
واخذ يدها في يده ، واسند رأسه الى جذع النخلة مرصلاً طرفه الى
الفصون ، والى السماء خلال الفصون ، وعادت هي تؤكد له حبها
للحديقة ، وكلما امعن في الصمت أمعت في التوكيد ، اذ أنها كانت
تكره الصمت بقدر ما تحب الحديقة ، وكان حديث حياتها اطيب حديث .
ولا بأس بالوقوف بعض الوقت عند أهم الاحداث في البيت الكبير ،
خاصة ما يتعلق بزوجات رضوان وعباس وجليل ، ثم تغير صوتها مائلاً
نحو العتاب وهي تقول :

— أنت تغيب عني يا أدهم ..؟

فابتسم إليها قائلاً :

— كيف وأنت ملء القلب !

— ولكنك لا تصفى إلي ..؟

هذا حق . ومع انه لم يرحب بمقدمها فانه لم يضق به . ولو همت
بالرجوع لأمسك بها صادقاً . والحق انه يشعر بأنها جزء لا يتجزأ منه .
وقال كالمعتذر :

— اني أحب هذه الحديقة ، لم يكن في حياتي الماضية أطيب من
جلستها ، وتكاد أشجارها الباسقة ومياهها المفضضة وعصافيرها المزرقة
تعرفني كما أعرفها ، وأود ان تقاسمني حبها ، أرأيت الى السماء كيف
تبدو خلال الفصون ؟

- فرفعت عينها مقدار لحظة ثم نظرت اليه باسمه وقالت .
- انها جميلة حقاً ، وجديزة بأن تكون اطيب ما في حياتك
- فآنس من قولها العتاب دون افصاح وبادرها قائلاً :
- بل كانت كذلك قبل ان اعرفك ..
- والآن ؟
- فضغط على يدها بخنوق قائلاً :
- لا يتم جمالها الا بك ..
- فقالت وهي تجده بصرها نحوه :
- من حسن الحظ انها لا تؤاخذك على انصرافك عنها الي ..
- فضحك أدهم وجذبها نحوه حتى التصق خدها بشفتيه ، ثم سألها :
- أليست هذه الأزهار اجدر بالتفاتنا من الكلام عن زوجات اخوتي ؟!
- فقالت أميمة باهتمام :
- الأزهار اجمل ولكن زوجات اخوتك لا يكفئن عن الحديث عنك ،
- ادارة الوقف ، دائماً ادارة الوقف ، وثقة أبيك فيك ، يُبدثن ويُعدن في هذا ..
- وقطب أدهم غائباً عن الحديقة ، وقال بحدة :
- لا شيء يتقصهن !
- الحق اني اخاف عليك العين ..
- فهتف ادهم غاضباً :
- لعنة الله على الوقف ، أرهقني وغير القلوب عليّ وسلبني راحة البال ، فليذهب في داهية ..
- فوضعت أصبها على شفثيه وهي تقول :
- لا تكفر بالنعمة يا أدهم ، ان ادارة الوقف شأن خطير ، وقد تجر وراءها نفعاً لا يخطر بالبال ..
- جرّت حتى الآن المتاعب .. ، وحسبنا مأساة ادريس ..

فابتسمت ، لكن ابتسامتها لم تنم عن بهجة وانما دارت بها اهتماماً جدياً تجلى في نظرة عينيها ، وقالت :

— انظر الى مستقبلنا كما تنظر الى الغصون والسماء والعصافير ..
وواظبت أميمة على مشاركته جلسته في الحديقة . ولم تكن تعرف الصمت إلا في النادر . لكنه اعتادها ، كما اعتاد الاصغاء بنصف انتباه او دون ذلك ، وعند الحاجة يتناول الناي لينفخ فيه ما شاء له الطرب . واستطاع ان يقول في رضى تام ان كل شيء طيب . حتى شقاوة اديس باتت شيئاً مألوفاً . لكن المرض اشتد على أمه . وعانت آلاماً لم تعرفها من قبل تقطع لها قلبه . وكانت تدعوه الى جانبها كثيراً فتسبغ عليه اكرم الدعاء . ومرة قالت له بتوسل حار : « أدع ربك دائماً ان يقيك الشر ويهديك سواء السبيل » . ولم تدعه يذهب . وظلت تراوح بين الأنين وبين مخاطبته وتذكيره بوصيتها حتى فاضت روحها بين يديه . وبكاها أدهم ، وبكتها أميمة ، وجاء الجبلاوي فنظر في وجهها ملياً ثم سجد لها باحترام وقد تجلت في عينيه الحادثين نظرة كثيفة مليئة بالشجن .
وما كاد ادهم يعود رويداً الى مألوف الحياة حتى ارتطم بتغير طارئ على أميمة لم يعرف له علة . بدأ بانقطاعها عن مجلسه في الحديقة فلم يسر بذلك كما كان يتوهم احياناً . وسألها عن سر انقطاعها فاعتلت بأعذار شتى كالعمل او التعب . ولاحظ أنها لم تعد تقبل عليه بالاندفاع المعهود ، فاذا اقبل هو عليها لاقته دون عاطفة حقيقية ، كأنما تجامله ، وكأنما مجاملته عناء . وتساءل عما هنالك ! لقد مر بشيء شبيه بهذا ، ولكن حبه صمد له وتغلب عليه . وكان بوسعه ان يقسو عليها ، وود احياناً لو يفعل ذلك ولكن منعه انكسارها وشحوبها ومغالاتها في التأذب معه . احياناً تبدو حزينة ، وأحياناً تبدو حائرة ، ومرة باغت في عينيها نظرة نافرة حتى ركبه الغضب والجزع معاً . وقال لنفسه : « فلأصبر عليها قليلاً » ، إنما ينصلح حالها او فلتذهب في الف داهية ! .

وجلس الى ابيه في مخدع الرجل ليعرض عليه حساب الشهر الختامي .
وتفحصه الأب دون ان يغني بمتابعتة وسأله :

— مالك ؟

فرفع أدهم رأسه نحوه في دهش وقال :

— لا شيء يا ابي ..

فضيق الرجل عينيه وتمتم :

— خبّرني عن اميمة ..

فانحذلت عيناه تحت نظرة ابيه النافذة وقال :

— بخير ، كل شيء طيب .

فقال الجبلأوي بضجر :

— صارخني بما عندك .

فصمت ادهم ملياً ، وهو يؤمن بأن اياه قادر على معرفة كل شيء ، ثم قال معترفاً :

— تغيرت كثيراً ، وتبدو كالنافرة .

فتجلت في عيني الأب نظرة غريبة وقال :

— هل وقع بينكما خلاف ..

— ابدأ .

فقال الجبلأوي في ارتياح وهو يتسم :

— يا جاهل ، ترفق بها ، لا تقترب منها حتى تدعوك ، سوف

تكون أباً عما قريب .

٦

جلس ادهم في ادارة الوقف يستقبل مستأجري الأحكار الجدد ، واحداً
بعد آخر ، وقد وقفوا طابوراً ، أوله امامه وآخره في نهاية المنظرة

الكبيرة . ولما جاء آخر المستأجرين سأله ادهم دون ان يرفع رأسه عن دفتره في عجلة وضجر :

— إسمك يا معلم ؟

فجاءه صوت يقول :

— ادريس الجبلاوي .

فرفع ادهم رأسه في فزع فرأى اخاه واقفاً امامه ، ثم وقف متوثباً للدفاع عن نفسه وهو ينظر نحوه بحذر . لكن ادريس بدا في مظهر جديد لا عهد لأحد به . بدا رث الهيئة ، هادئاً ، متواضعاً ، حزين الطرف ، مأمون الجانب ، كالثوب المنشئ بعد نقعه في الماء . ومع ان هذا المنظر استل من نفس ادهم كل حنق قديم الا انه لم يطمئن الى السلامة كل الاطمئنان ، فقال في تحذير مشوب بالرجاء :

— ادريس . !

فأحنى ادريس رأسه قائلاً في رقة عجيبة :

— لا تخف ، لست الا ضيفك في هذا البيت اذا وسعني كرم

اخلاقك .

أهذا الكلام اللطيف يصدر عن ادريس حقاً ! . هل أدبته الآلام ؟ . الحق ان خشوعه محزن كفجوره . وألا تعد استضافته له تحدياً للأب ؟ . لكنه جاء دون دعوة منه . ووجد نفسه يشير إليه بالجلوس على مقعد قريب من مقعده ، فجالسا معاً وهما يتبادلان النظر في غرابة حتى قال ادريس :

— اندسست في جموع المستأجرين لأتمكن من الانفراد بك .

فتساءل ادهم في قلق :

— ألم يرك احد ؟

— لم يرني احسب من البيت ، اطمئن الى هذا ، لم أجيء لأكثر

صفوك ، لكنني ألحاً الى لطاف اخلاقك

فغض ادهم عينيه متأثراً وقد تصاعد الدم الى وجهه ، فقال ادريس .
— لعلك تعجب لما غيرني ، لعلك تتساءل اين ذهب تكبره واصله ،
فاعلم اني قاسيت آلاماً لا يقدر عليها احد ، ورغم هذا كله فاني
لا اقف موقفي هذا من احد سواك اذ ان مثلي لا ينسى كبرياهه الا حيال
الخلق اللطيف .

فغمغم ادهم قائلاً :

— خفف الله عنك وعنا ، فكم نغص مصيرك حياتي وكدرها .
— كان ينبغي ان اعرف هذا من اول الأمر ، ولكن الغضب
جنتني ، وفتكت الخمر بكرامتي : ثم اجهزت حياة التشرد والبلطجة
على الرمح الأخير من انساني ، أعهدت مثل ذاك السلوك في اخيك
الأول ؟

— ابدأ ، كثبت خير أخ وأنبل انسان !

فقال ادريس بصوت المتوجع :

— حسرة على تلك الأيام ، لست اليوم الا شقياً ، أخط في الخلاء
جاراً ورائي امرأة حلي ، اشبع في كل مكان باللعنات ، واشتري رزقي
بالمسكر والعدوان .

— انك تمزق قلبي يا اخي .

— معذرة يا ادهم ، لكن هذه هي طويتك التي خبرتها منذ قديم ،
ألم احملك صغيراً على يدي ، ألم اشهد صباك ويناعتك وألمس فيها نبلك
وسجاياك الحميدة ؟ لعن الله الغضب حينما احترق .

— لعنة ابدية يا اخي .

وثنهد ادريس وهو يقول وكأنما يخاطب نفسه :

— شدة ما اسأت اليك ، ان ما حاق بي من شر وما سيحيق لحو
دون ما استحق من جزاء .

— خفف الله عنك ، اندري أنني لم اياس ابداً من عيوبك .

حتى في ابان غضب ابينا جازفت بمخاطبته في شأنك .
فابتسم ادريس عن اسنان علاها الاصفرار والقدارة وقال :
— هذا ما حدثني به نفسي ، قلت ان يكن ثمة رجاء في مراجعة
ابي فلن يتأتى عن سبيل سواك .

فلمعت عينا ادهم وهو يقول :
— اني المس الهداية في روحك الكريم ، الا ترى انه قد آن الآوان
لكي نخطب والدنا في الأمر ؟
فهز ادريس رأسه الأشعث في يأس وقال :

— اكبر منك بيوم يعرف اكثر منك بسنة ، وأنا اكبرك بعشر
سنوات لا بسنة واحدة ، فاعلم ان ابانا يغفر كل شيء الا ان يهينه
احد ، لن يغفو عني ابوك بعد ما كان ، ولا أمل لي في العودة الى
البيت الكبير .

لا شك فيما قاله ادريس ، وهذا ما زاده حرجاً وضيقاً ، وتتم
في كتابة :

— ماذا في وسعي ان افعل من اجلك ؟
فابتسم ادريس مرة اخرى قائلاً :
— لا تفكر في مساعدات مالية ، فاني واثق من امانتك كمدير للوقف ،
واعلم انك اذا مددت لي يد المعونة فسيكون من حر مالك وهو ما
لا اقبله ، انك اليوم زوج وغداً أب ، وأنا لم اجثك مدفوعاً بفقرتي ،
ولكني جثت لأعلن لك ندمي عما فرط مني في حقك ، ولا سترد مودتك ،
ثم ان لي رجاء .

فتطلع اليه ادهم باهتمام وتساءل :
— قل يا اخي ما رجأوك ؟
فأدنى ادريس رأسه من اخيه كأنما يخشى ان تسمعه الجدران وقال :
— اريد ان اطمئن على مستقبلي بعد ان خسرت حاضري ، سأكون

اباً مثلك ، فما مصير ذريتي ؟

— ستجدني رهن اشارتك في كل ما استطيع ..

فربت ادريس كتف ادهم بامتنان وقال :

— أريد ان اعرف هل حرمني أبي حقّي في الميراث ؟

— كيف لي بمعرفة هذا ، ولكن ان سألتني عن رأيي ..

فقاطعه ادريس قلقاً :

— اني لا أسأل عن رأيك ولكن عن رأي أبيك ..

— إنه كما تعلم لا يصارح احداً بما يدور في رأسه ..

— ولكنه دون شك قد سجله في حجة الوقف ..

فهز أدهم رأسه دون ان ينبس ، فعاد ادريس يقول :

— كل شيء في الحجة ..

— لا علم لي بها ، وانت تعلم ان احداً في بيتنا لا يدري عنها شيئاً ،

وعلمي في الادارة يسير تحت اشراف أبي. الكامل ..

فحدجه ادريس بنظرة حزينة وقال :

— الحجة في مجلد ضخّم ، وقد لمحته مرة في صباهي وسألت أبي

عما فيه — وكنت وقتذاك قرة عينه — فقال لي إنه يضم كل شيء عنا ،

ولم نعد الى الحديث عنه ، ولم يسمح لي بذلك حين بسدا لي ان اسأل

عن بعض ما جاء فيه ، ولا أشك الآن في ان مصيري قد تقرر فيه ..

فقال ادهم وهو يشعر بأنه ينحصر في ركن ضيق :

— الله أعلم .

— انه في الخلوة المتصلة بمخدع ابيك ، ولا شك انك رأيت بابها

الصغير في نهاية الجدار الأيسر . وهو باب مغلق دائماً ، لكن مفتاحه

مودع في صندوق فضي صغير في درج الخوامة القريب من الفراش ،

اما المجلد الضخم فعلى ترابيزة في الخلوة الضيقة ..

فرفع ادهم حاجبيه الخفيفين في انزعاج وتّم :

— ماذا تريد ؟

فقال ادريس متنهداً :

— إن كان ثمة راحة بال باقية لي في هذه الدنيا فهي رهن بمعرفتي

ما سجلت في الحجة غني ..

فقال ادهم في ارتياح :

— أهون علي ان أسأله عما في الشروط العشرة صراحة !

— لن يجيب ، وسيغضب ، وربما اساء بك الظن ، او خن الدافع

الحقيقي وراء سؤالك فتار سخطه ، وكـم أكره أن تخسر ثقة ابيك جزاء

احسانك الي ، وهو لا شك لا يريد ان يذيع شروطه العشرة ، ولو

أراد ذلك لعرفناها جميعاً ، فلا سبيل مأموناً الى الحجة الا السبيل الذي

وصفته لك ، وهو ميسور جداً عند الفجر حين يتجول ابوك في

الحديقة ..

فامتقع وجه ادهم وهو يقول :

— ما افظع ما تدعوني اليه يا أخي ..

فدارى ادريس خيئته بابتسامة شاحبة وقال :

— ليس جريمة ان يطلع ابن علي ما يخصه في حجة أبيه .

— لكنك تطلب إلي سرقة سر يحرس ابونا على صونه ..

فتنهـد ادريس بصوت مسموع وقال :

— قلت لنفسي عندما قررت اللجوء إليك : « ما اصعب ان اقنع

ادهم بعمل يعتبره مخالفـاً لارادة الاب » ، ولكن داعبني أمل قوي

فقلت : « لعله يقدم اذا لمس مدى حاجتي الى معونته » ، وليس في

الأمر جريمة ، وسيمر بسلام ، وستجد أنك انتشلت روحاً من الجحيم

دون ادنى خسارة ..

— ليحفظنا المولى من الأخطار ..

— آمين ، لكنني اتوسل اليك ان تنقذني من العذاب ..

نهض ادهم في جزع واضطراب ، فنهض ادریس في أثره ، وابتسم
 ابتسامة دلت على تسليمه بالأس ، وقال :
 - أزعجتك حقاً يا ادهم ، من امارات تعاسي اني لا ألقى شخصاً
 حتى تدركه المتاعب على وجه أو آخر ، بات ادریس لعنة ساخرة ..
 - كم يعذبني عجزی عن مساعدتك ، انه عذاب ما بعده عذاب ..
 فدنا منه حتى وضع يده على منكبه في رقة ، ثم لثم جبينه في
 عطف ، وقال :
 - لا يسأل عن تعاسي إلا نفسي ، لماذا احملك فوق ما تطيق ؟
 دعني أتركك بسلام وليفعل الله ما يشاء ..
 قال ادریس ذلك ثم ذهب ..

٧

دبت الحيوية في وجه أميمة لأول مرة منذ عهد قصير ، فسألت ادهم
 باهتمام :
 - ألم يحدثك ابوك عن الحججة من قبل ؟
 كان ادهم متربهاً على الكنية ، ينظر من النافذة الى الخلاء الغارق
 في الظلمة . فأجابها :
 - لم يحدث أخذاً عنها قط ..
 - لكن انت ..
 - لست إلا احد ابنائه الكثيرين ..
 فابتسمت ابتسامة خفيفة وقالت :
 - لكنه اختارك انت لتدير الوقف ..
 فالتفت نحوها قائلاً بحدة :

- قلت إنه لم يحدث أحداً عنها قط ..
- فابتسمت مرة أخرى كأنما لتلطف حديثه ، ثم قالت بمكر :
- لا تشغل بالك ، ادريس لا يستحق ذلك ، إن أساءاته لك لا تُنسى أبداً ..
- فحول ادهم رأسه نحو النافذة ، وقال بحزن :
- ادريس الذي جاءني اليوم غير ادريس الذي اساء إلي ، إن منظره النادم الحزين لا يبرح مخيلتي ..
- فقالت بارتياح ظافر :
- هذا ما أدركته من حديثك ، وهو سر اهتمامي بالأمر ، ولكنك تبدو ضيق الصدر بخلاف عادتك ..
- كان ينظر إلى ظلام الليل الكثيف ، لكن رأسه المشغول لم يستجب له ، فقال :
- لا فائدة ترجى من الاهتمام ..
- لكن أخاك النادم يسألك الرحمة ..
- العين بصيرة واليد قصيرة ..
- يجب ان تحسن علاقتك به ، وبأخوته ، والا وجدت نفسك يوماً وحيداً أمامهم ..
- انك تهتمين بنفسك لا بادريس ..
- فهزت رأسها كأنما تزيج عنه نقاب المكر وقالت :
- من حقي ان اهتم بنفسي ، ومعنى هذا ان اهتم بك وبما في بطني ..
- ماذا تريد المرأة ؟ وهذا الظلام ما أشد كثافته ، حتى المقطم العظيم قد ابتلعه . وأراح نفسه بالصمت . وإذا بها تسأله :
- ألا تذكر انك دخلت الخلوة أبداً ؟
- فأجاب خارجاً من صمته القصير :

— أبدأ ، احببت في صباي ان ادخلها ففنعني أبي ، ولم تكن أمي
تسمح لي بالاقتراب منها ..

— لا شك انك كنت تمنى دخولها ..

ما حدثها في الأمر الا وهو ينتظر ان تدفعه عنه لا ان تجيز به
اليه . كان بحاجة الى من يؤكد له صواب موقفه من أخيه . كان
بحاجة ماسة الى ذلك ولكنه كمن كان ينادي في الظلام خفيراً فيخرج
اليه قطاع طريق . وعادت أميمة تسأله :

— والخوان الذي به الصندوق الفضي هل تعرفه ؟

— كل من دخل الحجرة يعرفه ، لماذا تسألين عنه ؟

تزعزعت من مجلسها على الكنية مقربة منه وسألته باغراء :

— بربك ألا تود ان تتطلع على الحجة ؟

فأجاب بحدة :

— كلا ، لماذا أود ذلك ؟

— منذا يقاوم الرغبة في الاطلاع على المستقبل ؟

— تعنين مستقبلك أنت ؟!

— مستقبلي ومستقبلك ، ومستقبل ادريس الذي حزنت عليه رغم ما
سبق منه ضلك !

المرأة تعرب عما في نفسه . وهذا ما يثير حنقه . ومسد رأسه نحو
النافذة كأنما يهرب منها وهو يقول :

— لا أود ما لا يود أبي ..

فرفعت حاجبيها المزججين متسائلة :

— لماذا يخفي هذا الأمر ؟

— ذلك شأنه ، ما أكثر استئذائك الليلة !

فقالت وكأنما تخاطب نفسها :

— المستقبل ! نعرف مستقبلنا ونقدم احساناً كبيراً الى ادريس

التعيس ، لن يكافئنا هذا كله الا قراءة ورقة دون ان يدري أحسد ،

واتحدى أي صديق أو عدو ان يثبت علينا سوء نية في عملنا هذا أو
انه يمس من قريب أو من بعيد والدك المحبوب !
وكان ادهم يراقب نجماً فاق الأنجم بضياءه اللامع فقال متجاهلاً
قولها :

— ما اجمل السماء ! لولا رطوبة الليل جلست في الحديقة أراقبها
من خلل الغصون ..

— لا شك انه ميمّز البعض في شروطه ..

فهتف ادهم :

— ما ازهدني في امتياز لا يجر وراءه الا المتاعب ..

فقال متنهدة :

— لو كنت اعرف القراءة لذهبت بنفسي الى الصندوق الفضي ..

تمنى لو كان ذلك كذلك . وتضاعف حنقه عليها وعلى نفسه . بل
شعر بأنه قد وقع في المحذور فعلاً وأنه يفكر فيه كحدث مضى .
وتحول نحوها مقطباً فبدا وجهه على ضوء المصباح المرتعش بالنسيم المتسلل
من النافذة متجهماً ، ضعيفاً رغم تجهمه وقال :

— لعنت حين افضيت اليك بالخبر !

— لا أريد بك شراً ، وعجيتي لوالدك مثل محبتك له ..

— دعيك من هذا الحديث المتعب ، في هذه الساعة تستحب الراحة.

— يبدو ان قلبي لن يرتاح قبل الاقدام على هذا العمل السهل ..

ففنخ قائلًا :

— اللهم ارجع اليها عقلها !

فرمقته بنظرة المتحفر ثم سأله :

— ألم تخالف أباك باستقبالك ادريس في النظرة ؟

فانسعت عيناه دهشة وقال :

— وجدته أمامي فلم يسعني الا استقباله ..

— هل اخبرت والدك بنبأ زيارته ؟

— ما انقلك الليلة يا أميمة ..

فقلت بصوت الظافر :

— اذا جاز لك ان تخالفه فيما قد يضرك فكيف لا تخالفه فيما يفيدك

ويفيد أخاك ولا يضر أحداً ..؟

بوسعه ان يقطع الحديث لو شاء . ولكن المنحدر كان شديد الانحدار .

والحق انسه لم يتركها تسترسل في حديثها الا لان جزءاً من نفسه كان

بحاجة الى تأييدها . وتساءل فيما يشبه الغضب :

— ماذا تعنين ؟

— أعني ان تسهر حتى الفجر ، او حتى يخلو المكان لنا ..

فقال بامتعاض :

— ظننت الحمل قد افقدك عاطفتك وحدها ، ولكن ها هو يفقدك

عقلك ايضاً ..

— انت مقتنع بما أقول وحق من خلق الروح في بطني ، ولكنك

خائف ، والخوف لا يليق بك ..

فاكفهر وجهه اكفراً متقطع الاسباب بالترائي الساري في داخله

وقال :

— سنذكر بهذه الليلة اول زعل فرق بيننا ..

فقلت برقة عجيبة :

— أدهم ، دعنا نفكر جادين في الامر ..

— لن نجني خيراً ..

— هذا قولك ولكنك ستري ..

شعر بوهج النار وهو يقترب منها . قال لنفسه : واذا احترقت فلن

تجدي دموعي في انقاذها ، وحول رأسه الى النافذة فخیل اليه ان سكان

ذلك النجم اللامع سعداء لبعدهم عن هذا البيت . وتم بصوت ضعيف :

- لم يحب احد أباه كما احبه .
 - ما ابعذك عما يسيئه ..
 - أميمة ، ما أحوجك الى النوم !
 - أنت الذي طيرت النوم عن عيني ..
 - أمثلت ان اسمع عندك صوت العقل ..
 - ما اسمعتك غيره ..
 وسأعل نفسه بصوت منخفض كالهمس :
 - ترى هل أندفع نحو الخراب ؟
 فربت يده الملقاة على مسند الكنية وقالت بعتاب :
 - مصبرنا واحد يا فاكرا الحب !
 فقال في استسلام دل على انه اتخذ قراره :
 - ولا هذا النجم يدري ما مصيري !
 فقالت بانطلاق :
 - ستقرأ مصبرك في الحجة ..
 ومدّ بصره نحو النجوم الساهرة ، وقطع السحاب المستضيئة بنورها
 الهادى ، وخيل اليه انها مطلعة على نجواه فغمغم : « يا لطف السماء » .
 ثم سمع أميمة وهي تقول في نبرات مداعبة :
 - أنت علمتني حب الحديقة ، دعني أرد إليك الجميل ..

٨

وعند الفجر غادر الأب حجرته قاصداً لحديقة . كان ادهم بأقصى
 الردهة يترب وأميمة خلفه ممسكة بكتفه في الظلام . تابعا وقع الأقدام

الثقل المتزن ولكنها لم يتبين اتجاهها في الظلام ، وكان من عادة الجبلأوي ان يسير في هذه الساعة دون حاجة الى ضوء او رفيق . وسكت الصوت فالتفت ادهم نحو زوجه هامساً :

— الا يحسن بنا ان نعود ؟

فدفعته وهي تهمس في أذنه :

— عليّ اللعنة ان كنت أضمر سوءاً لانسان .

فتقدم بخطوات حذرة ، في اضطراب أليم ، ويده قابضة على شمعة صغيرة في جيبه ، وجعل يتحسس الجدار حتى مست يده مصراع الباب . وهست أميمة :

— سأبقى هنا لأرقب المكان ، اذهب مصحوباً بالعناية .

ومدت يدها فدفعت الباب حتى انفتح ثم تراجعت . ومضى ادهم نحو الحجرة بخطواته الحذرة فتلقى من داخلها رائحة مسكية شديدة النفاذ . ورد الباب وراءه ووقف يحملق في الظلام حتى تبين له خصائص النوافذ المظلة على الخلاء وهي تنضج بنور الفجر . شعر ادهم بأن الجريمة — ان كان ثمة جريمة — قد وقعت بدخوله الحجرة وان عليه ان يتم عمله . سار مع الجدار الأيسر ، مرتطلاً احياناً بالمقاعد ، ماراً في طريقه بباب الخلوة ، حتى بلغ نهايته ، ثم مال مع الجدار الأوسط ، وما لبث ان عثر على الخوان . جذب الدرج ، وتحسس ما بداخله حتى وجد الصندوق ، ثم شعر بحساجة الى الراحة ليأخذ نفسه . ورجع الى باب الخلوة ، ففتش عن ثقبه ، ثم وضع فيه المفتاح واداره ، وفتح الباب ، واذا به يتسلل الى الخلوة التي لم يدخلها احد قبله الا الأب . رد الباب ، فأخرج الشمعة ، ثم اشعلها ، فرأى مربعاً ذا سقف عال لا منفذ فيه الا الباب ، مفروش الارض بسجادة صغيرة ، وعند ضلعه الأيمن ترايزة انيقة عليها المجلد الكبير الذي ثبت في الجدار بعلاقة من صلب . ازدرد ادهم ريقه الجاف بشيء من الألم كأن وعكة اصابت اللوزتين ، وعرض

على اسنانه ، كأنما ليعصر الخوف الساري في اوصاله المرعش لاشمعة في يده . واقترب من الترابيزة وهو يحملق في غلاف المجلد المزخرف بخطوط مموهة بالذهب ، ثم مد يده ففتحه . وجد مشقة في تركيز ذهنه ونفص الاضطراب عنه . وبدأ يقرأ بالخط الفارسي « باسم الله .. »
لكنه سمع الباب وهو يفتح بغنة . انجذب رأسه نحو الصوت بقوة ودون وعي كأن الباب شده اليه وهو يفتح . رأى الجبلأوي على ضوء شمعتيه يسد الباب بجسمه الكبير ملقياً عليه نظرة باردة قاسية . حملق ادهم في عيني ابيه في صمت وجمود ، وتخلت عنه قوى الكلام والحركة والتفكير . وأمره الجبلأوي قائلاً :

- اخرج .

لكن ادهم لم يستطع حراكاً . بقي في موقفه كالجماد الا ان الجماد لا يشعر بالقنوط . وهتف الأب :
- اخرج .

ايقظه الرعب من نجمده فتحرك ، وتخلى الأب عن الباب ، فغادر ادهم الخلوة والشمعة ما تزال تحترق في يده . ورأى أميمة واقفة وسط الحجرة صامتة ، والدمع ينحدر تبعاً من مقلتيها . وأشار له الأب ان يقف الى جانب زوجته ففعل ، ثم خاطبه بصرامة قائلاً :

- عليك ان تجيب على استلتي بالصدق .

فنطقت اساريه بالامثال . وسأله الرجل :

- من الذي اخبرك بالكتاب ؟

فقال ادهم دون تردد كوعاء تحطم فسأل ما فيه :

- ادريس .

- متى ؟

- صباح الأمس .

- كيف تم اللقاء بينكما ؟

- اندسَ بين المستأجرين الجدد وانتظر حتى انفرد بي .
- لماذا لم تطرده ؟
- عز عليّ طرده يا ابي .
- فقال الجبلاوي بحدة .
- لا تخاطبني بالابوة .
- فاستجمع ادهم قواه قائلاً :
- انك ابي رغم غضبك ورغم حماقتي .
- أهو الذي اغراك بفعلتك ؟
- وأجابت أميمة دون ان يوجه اليها السؤال :
- نعم يا سيدي .
- اخبرني يا حشرة .. (ثم موجهاً الخطاب الى ادهم) .. اجب !
- كان يائساً حزيناً نادماً وود لو يطمئن على مستقبل ذريته .
- وفعلت هذا من اجله !
- كلا .. اعتذرت له عن عجزتي .
- وماذا غيرك ؟
- فتنهد ادهم يائساً وتتم .
- الشيطان !
- فسأله ساخراً :
- هل اخبرت زوجتك بما جرى بينك وبينه ؟
- هنا انتحبت اميمة فنهرا الجبلاوي ان تخرس ، وحث ادهم على
- الاجابة باشارة من اصبعه ، فقال :
- نعم .
- وماذا قالت لك ؟
- لاذ ادهم بالصمت كي يزدرد ريقه فصاح به :
- اجب يا وضيع .

— وجدت بها رغبة في الاطلاع على الوصية وظنت ان ذلك لن يضر احداً .

فحدجته باحتقار شديد وقال :

— وهكذا انصعت الى خيانة من فضلك على من هم خير منك .

فقال ادهم بصوت كالأنين :

— لن يسعفني دفاع عن ذنبي ، لكن مغفرتك اكبر من الذنب والدفاع .

— تتآمر عليّ مع ادريس الذي طردته اكراماً لك ؟

— لم اتآمر مع ادريس ، لقد اخطأت ، ولا نجاة لي الا بمغفرتك .

وهتفت أميمة بتوسل :

— سيدي ..

فقاطعها قائلاً :

— اخرسي يا حشرة .

وجعل يردد عينيه بينهما عابساً ، ثم قال بصوت رهيب :

— اخرجنا من البيت .

وهتف ادهم :

— ابي .

فقال الرجل بصوت غليظ :

— غادرا البيت قبل ان تلقيا خارجاً .

٩

فتح باب البيت الكبير ليشهد هذه المرة خروج ادهم وأميمة مطرودين .
خرج ادهم يحمل بقعة ملابس ، وتبعته أميمة حاملة بقعة ثانية وأطعمة خفيفة .

خرجنا ذليلين حزينين باكيين بلا أمل . وعندما سمعنا صوت الباب وهو يغلق خلفها ارتفع صوتهما بالنعيب . وقالت أميمة وهي تنتسج :
- الموت دون ما استحق من جزاء !

فقال ادهم بصوت متهدج :
- لأول مرة تصدقين ، ولكن الموت دون ما أستحق كذلك !
وما كادا يبتعدان قليلاً عن البيت حتى دوت ضحكة ساخرة مخمورة ، فنظرا نحو مصدرها ، فرأيا ادريس امام كوخه الذي بناه من الصفائح والاختشاب وقد جلست امرأته نرجس وهي تغزل صامتة . كان ادريس يضحك في سخرية وشماتة حتى ذبل ادهم وأميمة فوقفا يحملقان فيه . وراح ادريس يرقص ويفرقع بأصابعه حتى ضجرت نرجس فلآوت الى الكوخ . تابعه ادهم بعينين محمرتين من البكاء والغضب . ادرك في لحظة المكر الذي مكره فتكشف له عن حقيقة الخبيثة المجرمة . وادرك ايضاً مدى حقه وغبائه الذي يرقص له المجرم شماتة وفرحاً . هذا هو ادريس الذي استحال شراً مجسداً . وغلى دمه حتى فار فأغرق نحه . وقبض على حفنة من تراب ورماء بها وهو يصيح بصوت مختنق بالغضب :

- يا قدر ، يا لعين ، ان العقرب بالقياس اليك حشرة مستأنسة !
فأجاب ادريس بمزيد من حركاته الراقصة ، هز رقبتة يمناً ويسرة ، ولعب حاجبيه وما زال يفرقع بأصابعه . وتضاعف غضب ادهم فصاح :
- الفساد والدناءة والوضاعة هذه هي صفات المخادعين الكاذبين .
فراح ادريس يهز وسطه بمثل الرشاقة التي هز بها رقبتة ويرسم بفيه ضحكة صامتة قبيحة ، فصاح ادهم دون التفات الى أميمة التي حاولت ان تدفعه الى المسير :

- حتى الدعارة تجربها يا أقدر من خلق !
فضى ادريس يهز عجيذته وهو يدور حول نفسه في بطاء ودلال فأعنى الغضب ادهم فرمى بالبقعة ارضاً ودفع أميمة التي همت بالتعلق

به وجرى نحوه حتى قبض على عنقه وشد عليه بكل قوته . لم يبد على ادريس انه تأثر بالمنقضى ولا بقبضته . وواصل الرقص وهو يتأنتق في تأوذه . وجن جنون ادهم فانها على ادريس ضرباً ولكن ادريس ازداد عبثاً وراح يغني بصوت كربه :

حطة يا بطة ويا دقن القطة

وتوقف بغته وهو يزجر ، ثم دفع ادهم في صدره دفعة قوية تفهقر على اثرها يترنخ ثم اختل توازنه فسقط على ظهره . وهرعت اليه أمية صارخة فساعدته على النهوض وأخذت تنفض الغبار عن ثوبه وتقول :
— مالك انت وهذا الوحش ؛ فلنبعد عنه ..!

وتساول البقجة صامتاً ، وحملت زوجه بقبحتها وابتعدا حتى طرف البيت الآخر ، وكان الاعياء قد نال منه فرمى بالبقجة وجلس عليها وهو يقول : « لنسرح قليلاً » . فجلست المرأة قبالة وقد رجعت تبكي . واذا بصوت ادريس يترامى اليها قوياً كالرعد ، صاحبه يقف ناظراً الى البيت الكبير نظرة التحدي ويصيح :

— طردتني اكراماً لأحققر من انجبت ، أرايت كيف كان سلوكه نحوك ، ها انت ترميه بنفسك الى التراب ، عقاب بعقاب والبادي اظلم ، كي تعلم ان ادريس لا يقهر ، فلتبق وحدك مع ابنائك العقماء الجبناء ، لن يكون لك حفيد الا من يسعى في التراب ويتقلب في القاذورات ، غداً يسرحون بالبطاطة واللب ، غداً يتعرضون لصفعات الفتوات في العطوف وكفر الزغاري ، غداً يمتزج دمك بأحققر الدماء ، وتقع انت وحيداً في حجرتك تبدل وتغير في كتابك كيف شاء لك الغضب والفشل وتعاني وحدة الشيخوخة في الظلام ، حتى اذا جاء الأجل فلن نجد عيناً تبكيك .

ثم التفت صوب ادهم وواصل صياحه الجنوني :
— وأنت ايها الضعيف كيف تلقى الحياة وحدك ؟! لا قوة فيك

تؤيدك ولا قوي" لديك تعتمد عليه ، وماذا تفيدك مبادئ القراءة والحساب
في هذا الخلاء ١؟ ها .. ها .. ها ..

ولم ترل أميمة تبكي حتى ضاق بها ادهم فقال في فتور :
- كفّي عن البكاء .

فقالت وهي تجفف عينيها :

- سأبكي كثيراً ، انا الآثمة يا ادهم .

- لست دونك أثماً ، لو لم تلقي مني ضعيفاً نذلاً ما وقع الذي وقع .
- الذنب ذنبي وحدي .

فهتف بغیظ :

- انك تحملين على نفسك لتتقي حملتي عليك ..

فباخت حيتها في اتهام نفسها وأخت رأسها ملياً ، ثم عادت تقول
بصوت ضعيف :

- لم اكن اتصور ان تبلغ قسوته هذا الحد !

- اني اعرفه ولا عذر لي .

فترددت قليلاً ثم قالت :

- كيف اعيش هنا وأنا حبلی ١؟

- في هذا الخلاء نعيش بعد البيت الكبير ، ليت للدموع جدوى ،
ولكن ليس اسامنا الا ان نقيم كوخاً لنا .

- اين ؟

فنظر فيما حوله ، ووقف نظره قليلاً صوب كوخ ادریس ، ثم
قال بقلق :

- لا يجوز ان نبتعد كثيراً عن البيت الكبير ولو اضطررنا الى البقاء

غير بعيد من كوخ ادریس ، والا هلكنا وحدنا في اطراف هذا الخلاء .

ففكرت أميمة قليلاً ثم قالت بوجه مال الى الاقتناع برأيه :

- نعم ، ولكي نبقى على مرمى بصره لعلّه يرقّ لنا .

فتأوه ادهم قائلاً :

— الحسرة تقتلني ، ولولاك لتوهمت ما بي كابوساً ، هل يحزنوني
قلبه الى الأبد ؟ لن اتناول عليه كادريس ، هيهات ، لست كادريس
في شيء ، فهل القى نفس المعاملة ؟
فقلت أميمة في حنق :

— لم تعرف هذه الأحياء أباً مثل أهلك .

فتساءل بعينين حادتين :

— متى يتوب لسانك !

فانفعلت قائلة :

— والله ما ارتكبت جريمة ولا اثماً ، خبر من تشاء بما فعلت وبما
نلت جزاء ما فعلت واراهاك على انه سيضرب كفاً بكف ، والله ما
عرفت الابوة أباً كأهلك .

— ولا عرفت الدنيا رجلاً مثله ، هذا الجبل وهذه الصحراء وهذه
السماء تعرفه ، ومثله يُجنّ عند التحدي .

— بهذا الجبوت لن يبقى في البيت احد من ابنائه .

— نحن اول الخارجين فنحن شر من فيه .

فقلت بامتعاض :

— لست كذلك ، لسنا كذلك .

— الحكم الصحيح لن يكون الا عند الامتحان .

لاذ كلاهما بالصمت. لم يكن بالخلاء حي يُرى ، الا بعض العابرين
عن بعد عند سفح الجبل . وكانت الشمس ترسل اشعة حامية من سماء
صافية فتغمر الرمال المترامية حيث يلمع الحصا او قطع الزجاج المتناثرة .
ولم يكن من قائم الا الجبل في الأفق ، وصخرة كبيرة في الشرق كأنها
رأس جسم مطمور في الرمال ، وكوخ ادريس عند الطرف الشرقي
للبيت الكبير ينغرس في الأرض متحدياً بهيئته الزرية . كان الجو كله

ينذر بالشقاء والتعب والخوف . وتنهدت اميمة بصوت مسموع وقالت :
- سنتعب كثيراً حتى تتيسر لنا الحياة .
فرنا ادهم الى البيت الكبير وقال :
- وسنتعب اكثر حتى يفتح لنا هذا الباب مرة اخرى .

١٠

شرع ادهم واميمة في اقامة كوخ لهما عند الطرف الغربي للبيت الكبير .
كانا يجيشان بالاحجار من المقطم ، ويجمعان الصفائح من سفح الجبل ،
ويلتقطان الاخشاب من مشارف العطوف والجمالية وياب النصر . وتبين
لهما ان بناء الكوخ سيستغرق وقتاً اطول مما قدرا ، وصادف ذلك نفاذ
الزاد الذي حملته اميمة من البيت من جبن وبيض وعسل اسود ، فقرر
ادهم ان يبدأ بالسعي في سبيل رزقه . ورأى ان يبيع بعض ثيابه الثمينة
ليشترى بئونها عربة يد لبيع البطاطة والملانة والخيار وغيرها على حسب
المواسم . وعندما اخذ في جمع ثيابه اجهشت اميمة في البكاء من شدة
التأثر ، ولكنه لم يستجب لعواطفها ، فقال وهو بين السخط والسخرية :
- لم تعد هذه الثياب تناسبني ، أليس من المضحك ان اسرح ببطاطة
وأنا متلفع بعباءة مزركشة من وبر الجمل ؟!

ثم شهده الخلاء وهو يدفع عربته نحو الجمالية ، الجمالية التي لم تنس
بعد زفته ، وانقبض قلبه وانحبس صوته فكف عن النداء ، وكادت
تغرورق عيناه . واتجه نحو الاحياء البعيدة متهرباً . وكان يواظب على
المشي والنداء من الصباح الى المساء حتى كلت يداه وانجرد نعلاه وسرت
الاوجاع في قدميه ومفاصله . ولم كان يشق عليه مساومات النسوان ،
او ان يضطره الاعياء الى افتراش الأرض لصق جدار ، او ان يقف

في ركن لبفك حصره . بدت الحياة غير حقيقية ، وأيام الحديقة وإدارة الوقف والمخدع المطل على المقطم كالأساطير . وجعل يقول لنفسه : « لا شيء حقيقي في هذه الدنيا ، هي البيت الكبير ، هي الكوخ الذي لم يتم ، هي الحديقة هي عربة البلد ، هي الأمس واليوم والغد ، لعلني أحسنت صنعاً بالاقامة قبالة البيت حتى لا أفقد الماضي كما فقدت الحاضر والمستقبل ، وهل من عجب أن أخسر الذاكرة كما خسرت أبي وكما خسرت نفسي ؟ ! » . فاذا عاد أول الليل إلى أميمة فليس إلى الراحة يعود ، ولكن ليواصل العمل في بناء الكوخ . ومرة جلس في حارة الطوايط عند الظهر ليستریح فنعمس . واستيقظ على حركة فرأى غلاماً يسرقون عربته فنهض مهديداً . وراه غلام فنبه أقرانه بصفير ودفع العربته ليشغله بها عن مطاردتهم فاندلق الخيار على الأرض على حين تفرق الغلمان مسرعين كالجراد . وغضب ادهم غضباً شديداً حتى قذف فوه المهذب بسيل من اقلع الشتائم ، ثم انكب على الأرض يجمع الخيار الذي لوث بالطين . وتضاعف غضبه دون أن يجحد له متنفساً فراح يقول بتأثر وانفعال : « لماذا كان غضبك كالنار تحرق بلا رحمة ؟ لماذا كانت كبرياؤك أحب اليك من لحمك ودمك ؟ وكيف تنعم بالحياة الرغيدة وأنت تعلم أننا نداس بالأقدام كالحشرات ؟ والعفو واللين والتسامح ما شأنها في بيتك الكبير أيها الجبار ! » . وقبض على يدي العربة وهم يدفعها بعيداً عن الحارة اللعينة ، وإذا بصوت يقول منهكاً :

— بكم الخيار يا عم ؟

رأى ادريس واقفاً يتنسم ابتسامة ساخرة ، رافلاً في جلباب مقلم بألوان زاهية ، وعلى رأسه لاسة بيضاء . رآه باسمًا ساخراً لا تأثراً ولا هائجاً فضاقت لمنظره الدنيا في عينيه رغم ذلك . ودفع العربة ليذهب ، ولكن ادريس اعترض سبيله وهو يقول في دهشة :

— ألا يستحق زبون مثلي حسن المعاملة ؟

فارتفع رأس ادهم في عصبية وهو يقول :

— دعني وشأني .

فأمعن ادريس في السخرية متسائلاً :

— ألم تجد خيراً من هذه اللهجة تخاطب بها اخاك الأكبر ؟

فقال ادهم بلهجة المتصبر :

— يا ادريس اما كفاك ما فعلت بي ؟ لا اريد ان تعرفني او

ان اعرفك !

— كيف يتأتى هذا ونحن في حكم الجيران ؟

— ما اردت جوارك ولكني قصدت أن أبقى قريباً من البيت الذي ..

فقاطعه هازئاً :

— الذي طردت منه !

فسكت ادهم وقد تجلى الضيق في شحوب وجهه ، فاستطرد الآخر قائلاً :

— النفس تتعلق بالمكان الذي تطرد منه ، أليس كذلك ؟

فلم يخرج ادهم عن صمته ، فقال الآخر :

— انك تطمع في العودة الى البيت يا ماكر ، انك ضعيف حقاً

ولكنك ملء بالمر ، الا فاعلم بأنني لن اسمح لك بالعودة وحدك ولو

انطبقت السماء على الأرض .

فتساءل ادهم ومنخراه يتحركان من الخلق :

— ألم يكفك ما فعلت بي ؟

— ألم يكفك انت ما فعلت بي ؟ من اجلك طردت وكنت

كوكب البيت المنير .

— بل طردت بسبب نفسك المتعجرفة .

فقهقه ادريس قائلاً :

— وطردت انت بسبب نفسك الضعيفة ، فلا مكان في البيت الكبير

للقوة ولا للضعف ! فانظر الى استبداد ابيك . انه لا يسمح باجتماع القوة

والضعف في نفس الا نفسه هو ، انه القوي لحد الفتك بفلذات كبراء ،
الضعيف لحد الزوج من أم كأملك .

فقطب ادهم غاضباً وقال بتهديج :

— دعني اذهب ، وتحرش اذا شئت بقوي مثلك .

— ابوك يتحرش بالاقوياء والضعفاء .

فصمت ادهم وازداد وجهه عبوساً فقال ادريس هازئاً :

— لا تريد ان تتورط في تجريحه ! هذا مكر من مكرك ، ودليل

على انك ما زلت تحلم بالعودة .

ثم تناول خيارة وأخذ ينظر اليها باشمئزاز ثم قال :

— كيف سولت لك نفسك ان تسرح بهذا الخيسار الملوث ! الم

تجد عملاً اشرف من هذا ؟

— اني راض عنه !

— بل اضطرتك الحاجة اليه ، على حين ينعم ابوك بالعيش الرغيد ،

فكّر قليلاً في الأمر ، أليس من الأكرم لك ان تنضم اليّ ؟ !

فقال ادهم في ضجر :

— لم اخلق لحياتك !

— انظر الى جلباببي ! كان صاحبه يرفل فيه امس دون وجه حق !

فلاح التساؤل في عيني ادهم وقال :

— وكيف حصلت عليه ؟

— كما يفعل الأقوياء !

أسرق أم قتل ! . وقال بحزن :

— لا أصدق انك اخي ادريس !

فقال وهو يقهقه :

— لا تعجب ما دمت تعلم انني ابن الجبلاوي !

فهتف ادهم في نفاذ صبر :

— هلا اوسعت لي الطريق ؟

— كما تشاء لك حماقتك !

وملاً بجيبه بالخيار ، وألقى عليه نظرة ازدراء ، ثم ابصق على العربة ومضى .
ووقفت اميمة تستقبله وهو يقترب من الكوخ . كانت الظلمة تغشى
الحلاء ، وفي داخل الكوخ شمعة تحترق كأنها رمق في صدر محتضر ،
اما في السماء فالنجوم تزهو ، وعلى ضوئها يبدو البيت الكبير كشبح
عملاق . ادركت اميمة من صمته انه على حال يستحسن معها تجنبه .
قدمت اليه كوز ماء ليغسل اطرافه وجاءته بجلباب نظيف . وغسل وجهه
وقدميه وبدل جلبابه ثم جلس على الأرض ومد ساقيه . واقتربت منه
في حذر ، فجلست وهي تقول بلهجة الاسترضاء :

— ليتني أتحمل عنك بعض تعبك .

وكأنها حكمت اجرب فصاح :

— اخرسي يا اصل الشر والتعاسة .

فترحزحت بعيداً عنه حتى كادت تختفي ، ولكنه صاح :

— انك خير من يذكرني بغفلي وحقاقتي ، ملعون اليوم الذي
رايتك فيه .

فجاءه في الظلام انتحابها ولكنه ضاعف من غضبه فقال :

— سحقاً لدموحك ! ان هي الا عرق الخبث الذي يمتسلي
به جسدك .

فجاءه صوتها الباكي قائلاً :

— كل قول يهون بالقياس الى عذابني .

— لا تسمعيني صوتك ، وابعدي عن وجهي .

وكور ثوبه المخلوع ورمأها به فتأوهت قائلة : « بطني ! » . وسرعان
ما برد غضبه ، وأشفق من العواقب . وآنتست هي من صمته تراجعاً فقالت
بصوت المتوجع :

— سأذهب بعيداً كما تريد .
وقامت فحضت تبتعد حتى صاح بها :
— هل ترين الوقت مناسباً للدلال ؟
ثم تحفز للقيام وهو بصيح :
— ارجعي لا رجعت اليك الراحة .
وأحدت بصره في الظلام حتى رأى شبحها يعود فأسند ظهره الى جدار
الكوخ ورفع رأسه نحو السماء . وود لو يطمئن على بطنها ولكن ابت
كبرياؤه . اجل ذلك الى اجل قريب . ثم مهد له بقوله :
— أغسلي بعض الخيار للعشاء .

١١

مجلس لا يخلو من الراحة . لا نبت فيه ولا ماء ، ولا عصافير
تترقق فوق الغصون ، لكن أرض الخلاء الجرداء المشاكسة تكتسي في
الليل حلة غامضة يخالها الخالم ما يشاء . وفوقه قبة السماء المرصعة بالنجوم
والمرأة داخل الكوخ ، والوحدة ناطقة ، والحزن كالجمر المدفون تحت
الرماد . وسور البيت العالي يعاند المشتاق ، وهذا الأب الجبار كيف
السبيل الى اسماعه أنيني . ومن الحكمة نسيان الماضي ، لكن ليس لنا من
زمن غيره ، لذلك كرهت ضعفي ولعنت نذاتي ورضيت الشقاء رفيقاً
وسألد له أبناء . والعصفورة التي لا تصدبها قوة عن الحديقة أسعد من
أحلامي ، وعيناي احترقتا شوقاً الى المياه الجارية بين شجيرات الورد ،
وأين عبر الحناء والياسمين أين ، أين خلو البال والنأي أين ، أيها
القاسي ، مضى نصف عام فتى يذوب ثلج قسوتك ؟ !
وعن بعد ترامي صوت ادريس مغنياً بصوت كربه : « عجائب والله

عجائب » . واذا به يوقد ناراً امام كوخه فاشتعلت كأنها شهاب هوى فانغرس في الأرض ، وكانت زوجته تذهب وتجيء ببطنها المتدلى لتقدم طعاماً او شرباً . ولطمته موجة سكر فصاح في السكون موجهاً الخطاب إلى البيت الكبير : « هذا أوان الملوخية والفراخ المحمرة ، اطفئوها سماً يا أهل البيت ! » ، ثم عاد الى الغناء .

وقال أدهم لنفسه متأسفاً : « كلما خلوت الى نفسي في الظلام جاء الشيطان فأشعل ناره وعربسده فأفسد علي خلوتي ! » . وظهرت أميمة عند باب الكوخ فعلم انها لم تنم على خلاف ظنه . وكانت من الحمل في أعياء ، ومن الجهد والفقر على حال لا تسر . وقالت برقة واشفاق :

— ألا تنام !؟

فقال في ضجر :

— دعيني للساعة الوحيدة التي تطيب فيها الحياة ..

— ستسعى بعربتك مع الصباح الباكر فما احوجك الى الراحة ..

— في وحدتي ارتد سيداً أو شبه سيد ، أنسأمل السماء واتذكر

الأيام الخالية .

فتنهدت بصوت مسموع وقالت :

— أود لو رأيت أباك ذاهباً من البيت أو راجعاً اليه ان أرمي بنفسي

تحت اقدامه وان استغفره .

فقال أدهم في جزع :

— قلت لك مراراً ان تقلعي عن هذه الأفكار ، فليس بهذه الوسيلة

يمكن ان نسترد عطفه .

فصمت ملياً ثم قالت همساً :

— إنني أفكر في مصير الشيء الذي في بطني .

— ولا شغل لي إلا هذا رغم اني لم أعد الا حيواناً قدراً .

فتمتمت بحزن :

— والله انك خير الرجال جميعاً .
فصحك أدهم ساخراً وقال :
— لم أعد انساناً ، فالحيوان وحده هو الذي لا يهتم الا الغذاء .
— لا تخزن ، كم من رجل بدأ مثلك ، ثم تيسر له العيش الرغيد
فهلك الدكاكين والبيوت !

— أراهن على ان أوجاع الحبل قد بلغت رأسك !
فقلت باصرار :
— ستكون رجلاً ذا شأن ، وسينشأ ولدنا في أحضان النعم ..
فضرب أدهم كفاً بكف وتساءل ساخراً :
— أبلغ ذلك بالبوطة أم بالحشيش ؟
— بالعمل يا أدهم .
فقال في سخط :

— العمل من أجل القوت لعنة اللعنات ، كنت في الحديقة أعيش ،
لا عمل لي إلا ان انظر الى السماء أو انفخ في الناي ، أما اليوم فلست
إلا حيواناً ، ادفع العربة أمامي ليل نهار في سبيل شيء حقير نأكله مساء
ليلفظه جسمي صباحاً ، العمل من أجل القوت لعنة اللعنات ، الحياة
الحقة في البيت الكبير ، حيث لا عمل للقوت ، وحيث المرح والجمال
والغناء .

واذا بصوت ادريس يقول :
— نطقت بالحق يا أدهم ، العمل لعنة ، وهو ذل لم نعتده ، ألم
أعرض عليك الانضمام إلي ؟
التفت أدهم نحو الصوت فرأى شيخ ادريس واقفاً على قرب منه
هكذا يتسلل في الظلام دون ان يشعر به فيتنصت الى الحديث ما شاء
له التنصت ، ويترك فيه اذا حلا له ذلك . ووقف أدهم منفصلاً
وهو يقول :

— عد إلى كوخك .

فقال ادريس بلهجة جديدة مفتعلة :

— اني مثلك اقول إن العمل لعنة لا تليق بكرامة الانسان ..

— انك تدعوني الى البلطجة وهي أقدر من اللعنة .

— اذا كان العمل لعنة والبلطجة قذارة فكيف يعيش الانسان ؟

فلم يرتج الى محادثته فصمت ، وانتظر ادريس ان يتكلم فلم يتكلم ، فقال :

— لعلك تريد رزقاً بلا عمل ؟ ولكن ذلك سيكون حتماً على حساب

الآخرين !

وثابر أدهم على صمته فعاد الآخر يقول :

— أم لعلك تريد رزقاً بلا عمل دون ان يضار .. أحد ؟!

وضحك ضحكة كريهة وقال :

— هذه فزرة يا ابن الجارية !

وصاحت أميمة بغضب :

— عد الى كوخك واخز الشيطان .

ونادته امرأته بجدلة ، فرجع من حيث أتى وهو يترنم : « عجائب والله

عجائب » .

وتوسلت أميمة الى زوجها قائلة :

— تجنب الاشتباك معه بأي ثمن .

— اني اجدته فجأة فوق رأسي دون ان ادري كيف جاء .

وساد صمت اتخذوا منه مسكناً لانفعالها . وعادت أميمة تقول بركة :

— قلبي يحدثني بانني ساجعل من كوخنا بيتاً شبيهاً بالبيت الذي

طرردنا منه ، لن تنقصه الحديقة ولا البلابل ، وسيلقى وليدنا فيه كل راحة ومتعة .

فوقف أدهم وهو يبتسم ابتسامة لم ترها في الظلام ، وقال ساخراً

وهو ينفض التراب عن جلبابه :

— الخيار القشطة ! .. الخيار السكر !. والعرق يتصبب من جسدي والغلمان يتسلون بمعاكستي ، والأرض تأكل قدمي ، في سبيل ملاليم ..

ودخل الكوخ فتبعته وهي تقول :

— لكن سيأتي يوم المرح والغناء .

— لو كنت تشقين ما وجدت وقتاً للاحلام .

ورقد كل منهما على خيشة محشوة بالقش ، وهي تقول :

— أليس الله بقادر على ان يجعل من كوخنا بيتاً كالبيت الذي طردنا منه ..؟

فقال أدهم وهو يتشاءب :

— أمنيقي أن أعود إلى البيت الكبير .

ثم وهو يتشاءب بدرجة أعلى :

— العمل لعنة !

فقالت بصوت هامس :

— ربما ، ولكنها لعنة لا تزول الا بالعمل !

١٢

وذاث ليلة استيقظ أدهم على تأوهات عميقة . ولبث وهو بين النوم واليقظة حتى تبين صوت أميمة وهي تتوجع هاتفة : « آه يا ظهري .. آه يا بطني » ، فجلس من فوره وهو يحملق صوبها ، ثم قال :

— هذا حالك هذه الأيام ثم ينجلي عن لا شيء ، أشعلي الشمعة .

فقالت وهي تئن :

— اشعلها بنفسك ، هذه المرة جد .

فقام يتحسس موضع الشمعة بين أدوات الطهي حتى عثر عليها ، فأشعلها ، رثبتها على الطاوية ، فبدت أميمة على الضوء الحافت جالسة

متكة على ساعديها ، تنن ، وترفع رأسها لتتنفس بصعوبة ظاهرة .
وقال الرجل بقلق :

- هذا ما تظنينه كلما شعرت بوجع .

فقالت بوجه متقلص :

- كلا ، أنا متأكدة ان هذه المرة جد .

وساعدها حتى اسند ظهرها الى جدار الكوخ ثم قال :

- هو شهرك على أي حال ، تجلّدي حتى أذهب الى الجالية
لأحضر لك الداية .

- صحتك السلامة . ما الوقت الآن ؟

مضى أدهم خارج الكوخ ، وجعل ينظر الى السماء ؛ ثم قال :

- الفجر قريب ، لن أغيب إلا مسير الطريق .

واندفع يسير على عجل نحو الجالية . ثم عاد يشق الظلام وهو قابض
على يد الداية العجوز ليهدىها السبيل . وعند اقترابه من الكوخ ترامى
إليه صراخ أميمة الذي مزق السكون ، فخفق قلبه وأوسع خطاه حتى
تشكت الداية . ودخلا الكوخ معاً ، فخلعت المرأة ملاءتها وهي تقول
لأميمة ضاحكة :

- جاء الفرج ، وما بعد الصبر إلا الراحة .

وسألها أدهم :

- كيف حالك ؟

فقالت في صوت كالأنين :

- أكاد أموت من الألم ، جسمي يتفكك ، وعظامي تنكسر ، لا تذهب ؛

فقالت الداية :

- بل ينتظر في الخارج بسلام .

وغادر أدهم الكوخ إلى العراء فلمح شبحاً واقفاً عن قرب ، عرفه

قبل ان يتبينه ، فانقبض صدره ، ولكن ادريس قال مصطنعاً لهجة الأدب :

جاءها الطلق ؟ مسكينة ، مرت زوجي بهذه الحالة كما تسلم منذ زمن قصير ، انه ألم كاذب لا يلبث ان يزول ، ثم تتلقى نصيبك من عالم الغيب كما تلقيتُ هند ، انها طفلة ساحرة ولكنها لا تكف عن التبول والبكاء ، تجلّد .

فقال أدهم على مضض وضيق :

— الأمر لصاحب الأمر .

فصدرت عن ادريس ضحكة خشنة وتساءل :

— جئت لها بداية الجمالية ؟

— نعم .

— امرأة قلرة ، طماعه ، جئتُ بها أيضاً فغالت في تقدير انعامها فطردتها ، وما تزال تدعو علي كلما رأني ماراً ببيتها .

فقال أدهم بعد تردد :

— ما ينبغي ان تعامل الناس هكذا .

— يا ابن الأكابر ، علمني أبوك ان أعامل الناس بالفضاظة والقسوة .

وارتفع صوت أميمة بصراخ كأنما هو صدى للتمزق الذي يقع في جوفها ، فانطبقت شفثا أدهم على ما همّ بقوله ، واقترب من الكوخ قلقاً ، وهتف بصوت رقيق :

— شدي حيلك .

فردد ادريس قوله بصوت مرتفع :

— شدي حيلك يا امرأة أخي .

فأشفق أدهم من سماع زوجه هذا الصوت ، لكنه دارى حنقه قائلاً :

— يحسن بنا ان نقف بعيداً عن الكوخ .

— تعال بنا الى كوخني أقدم لك الشاي ، وترّ هند وهي تغط

في النوم .

لكن أدهم ابتعد عن كوخه دون ان يتجه نحو كوخ الآخر ، وهو

يلعنه في سره في غيظ مكثوم ، فتبعه ادريس وهو يقول :
- ستكون أباً قبل طلوع الصبح ، انه تغير خطير ، من فوائده ان
تشر بالرابطة التي يمزقها أبوك في يسر وبلادة .

فنفس أدهم عن ضيقه بقوله :

- هذا الكلام يضايقي .

- ربما ، لكن لا هم لنا غيره .

فسكت أدهم متردداً ، ثم قال بشيء من الاشفاق :

- ادريس ، لماذا تتبغني وأنت تعلم ألا مودة بيننا ؟!

فقهقه ادريس عالياً وقال :

- يا لك من طفل قليل الحياء ، لقد أبقتني صراخ زوجك من
أحلى نومة فلم أسمع لنفسي بالضرب ، وعلى العكس جئت لأقدم لك
المعونة ان كنت في حاجة اليها ، وان أباك ليسمع الصراخ كما سمعته
ولكنه عاود النوم كمن لا قلب له .

فقال أدهم في صبحر :

- حسبنا ما كتب لنا من مصير ، ألا تستطيع أن تتجاهلني كما

أتجاهلك ؟

- انك تكرهني بما أدهم لا لأنني كنت السبب في طردك ولكن
لأنني اذكرك بضعفك ، انك تكره في نفسك الآثمة ، أما أنا فلم
يعد لي من مبرر لكراهيتك ؛ بل أنت اليوم عزائي وتسايتي ، ولا
تنس أننا جيران ، وأول من سكن هذا الخلاء من الأحياء ، وسيدب
عليه أولادنا جنباً الى جنب .

- انك تتلذذ بتعديبي .

فصمت ادريس ملياً حتى منى ادهم نفسه بالخلاص ، ولكنه عاد
يسأل بلهجة جدية :

- لماذا لا نتفق ؟

فقال أدهم وهو يتنهد :
— لأنني بياع على قد حالي وانت رجل هوايتك الضرب والاعتداء .
وعاد صراخ أميمة يعلو ويشدد فرفع أدهم رأسه متوسلاً ، فأدرك
من توه ان كثافة الظلام قد خفّت ، وان الفجر تسلّق الجبل .
وهتف أدهم :

— ما ألعن الألم !

فقال ادريس ضاحكاً :

— ما أجمل الرقة ، خلقت لادارة الوقف والنفخ في الناي .

— أسخر ما شئت ، لأنني متألم .

— لماذا ؟ حسبت امرأتك هي المتألّمة !

فصاح أدهم من فرط جزعه :

— دعني وشأني .

فتساءل الآخر في هدوء مغيظ :

— أتريد ان تصير أباً بلا ثمن ؟

فلزم ادهم الصمت وهو ينفخ فقال ادريس متعطفاً :

— أنت حكيم ، وقد جئت أعرض عليك عملاً تستعين به على

اسعاد المخلوقات القادمة ، ان هذا الذي نسمع مقدمات تشريفه الأول

وليس الأخير ، فان شهواتنا لا تقنع الا بأن تبني فوقنا تلاً من الذرية

الصاخبة ، ما رأيك ؟

— الضياء يلوح فاذهب لتستوفي نومك .

وتعالى الصراخ ، متتابعاً متواصلًا حتى ضاق ادهم بموقفه فرجع الى

الكوخ الذي شق عنه الظلام ، وبلغه وأميمة ترسل تنهدة عميقة مثل

ختام أغنية حزينة . اقرب من باب الكوخ وهو يتساءل :

— كيف الحال عندكم ؟

فجاءه صوت الداية وهو يقول : « انتظر » . تحفز قلبه للارتياح

عندما خيل اليه ان الصوت يوحى بالظفر . وما لبث ان لاحت المرأة
 في الباب وهي تقول :
 - رزقت بذكرين !
 - توأمين ؟
 - فليرزقك الله برزقهما .
 وصكت أذنيه ضحكة ادريس من وراء ظهره وسمعه يقول :
 - ادريس الآن أب لأثني وعم لذكرين .
 ومضى نحو كوخه وهو يغني : « البخت والقسمة فين يا دي الزمان
 قلّي » . وعادت الداية تقول :
 - ترغب الأم في ان يسميا قدري وهمام .
 فراح ادهم يغمغم وقد استخفه السرور :
 - قدري وهمام ، قدري وهمام .

١٣

قال قدري وهو يحفف وجهها بذيل جلبابه :
 - فلنجلس لتناول طعامنا .
 فقال همام وهو ينظر نحو الشمس المائلة للغروب :
 - نعم ، سرقنا الوقت .

ثربعا على الرمال تحت سفح المقطم . وحل همام عقدة المنديل الأحمر
 المخطط فكشف عن خبز وطعمية وكراث ، وراحا يأكلان ، وينظران
 بين حين وآخر نحو اغنامهما ، التي هام بعضها على وجهه ، وقعد
 البعض ليجتر في راحة وسلام . لم يكن ثمة ما يميز بين الشقيقتين في
 الملامح والقسمات ، غير ان نظرة الصائد المتجالية في عيني قدري أضفت

على سحنته حدة مبرزته بطابع خاص . وعاد قدري يقول وهو يطحن الطعام المحتشد في فيه :

— لو كان هذا الخلاء لنا دون شريك لرعيننا أغنامنا مرتاحي البال .
فقال همام باسمًا :

— ولكن هذا الخلاء مقصد الرعاة من العطوف وكفر الزغاري والحسينية ، ومن الممكن ان نصادقهم فنتقي شرهم .

فضحك قدري ضحكة هازئة انطلقت من فيه مع فتات من طعامه وقال :

— هذه الحواري عندها جواب واحد لمن ينشد صداقتها هو الصفعات .

لكن ..

— لا لكن يا ابن ابي ، اني اعرف طريقة واحدة ، وهي ان اجذب الرجل من جلبابه وأنطحه في جبينه فينقلب على وجهه او على قفاه .
— لذلك لا نكاد نحصي اعداءنا .

— ومن كلفك باحصائهم ؟!

وتابع همام جدياً أوغل في الابتعاد فراح يصفر له حتى توقف ودار عائداً في صمت الحكيم . وانتقى عوداً من الكراث ومسحه بأصابعه فدفعه في فيه متلذذاً ، ثم قال وهو يتمطى :

— ولذلك تجمدنا وحدنا ، ويمضي الوقت الطويل دون ان نتكلم .

— وما حاجتك الى الكلام وانت تغني طوال الوقت ؟!

فنظر همام اليه بثقة وقال :

— يخيل اليّ انك تضيق بهذه الوحدة احياناً .

— سأجد دائماً عللاً للضيق ، الوحدة او غيرها .

وساد صمت وضح فيه التملق . ولاحث عن بعد جماعة عائدة من الجبل نحو العطوف ، تسير على غناء منشد كالحادي والآخرون يرددون .

فقال همام :

— هذه الناحية من الخلاء امتداد لحينا ، ولو ذهبنا شمالاً او جنوباً

فأغلب الظن ان لن نعود .

فضحك قدري ضحكة مجلجلة وقال :

— ستجد في الشمال وفي الجنوب اناساً يودون قتلي ولكنك لن تجد واحداً يجرؤ على منازلتي .

فقال همام وهو ينظر نحو الأغنام :

— لا يمكن انكار شجاعتك ، ولكن لا تنس أننا نعيش بفضل اسم جدنا وسمعة عمنا المخيفة رغم ما بيننا وبينه من خصام .

فمقد قدري ما بين حاجبيه احتجاجاً ، ولكنه لم يجهر بمعارضة .
وانجبه بصره نحو البيت الكبير الذي لاح عن بعد في الغروب هيكلاً ضخماً مطموس المعالم ، وقال :

— هذا البيت ! لم اشهد له مثيلاً ، في خلاء يكتنفه من جميع النواحي ، وعلى مقربة من حوار وأزقة اشتهرت بالجبروت والمشاكاة ، صاحبه جبار بلا جدال ، هذا الجلد الذي لم ير اخفاده وهم على بعد اذرع منه !

فاتجه بصر همام ناحية البيت ، ثم قال :

— ان ابانا لا يذكره الا مصحوباً بالاجلال والاكبار .

— وعمنا لا يذكره الا مصحوباً باللعنات .

فقال همام باشفاق :

— هو جدنا على اي حال .

— وما جدوى ذلك يا غلام ؟ ان ابانا يكدح وراء عربته ، وأما تكد طوال النهار وشطراً من الليل ، ونحن نعاشر الأغنام حفصة شبه عراة ، اما هو فقابع وراء الأسوار ، بلا قلب ، متمتع بنعيم لا يخطر على بال .

فرغا من الطعام ، نفص همام المنديل ولفه ثم دسه في جيبه ، واستلقى على ظهره متوسداً ذراعيه ، مرسلًا نظريه الى السماء الصافية ، وهي

تقطر هدوء المنيب . والحداي تولد في الآفاق . ونهض قدري فانتحي
جانبا ليول ، وقال :

— يقول ابونا انه كان يخرج كثيراً في الماضي فيمر بهم في ذمابه
وايابه ، اما اليوم فلا يراه احد ، وكأنا نخاف على نفسه .
قال همام بنبرات حاملة :

— كم تمنيت ان اراه .

— لا تحلم بأن ترى شيئاً خارقاً ، مستجده شبيهاً بأيينا او بعننا ،
او بكليهما معاً ، اني اعجب لوالدي كيف لا يذكره الا بالاجلال رغم
ما ناله على يديه .

— الظاهر انه كان شديد التعلق به ، او انه آمن بعدالة ما نزل به
من عقاب .

— او انه ما زال يطمع في عفوهِ !

— انك لا تفهم ابانا ، انه رجل ودود المعشر .

وعاد قدري الى مجلسه وهو يقول :

— انه لا يعجبني ، وأنت لا تعجبني ، أوكد لك ان جدنا شخص
شاذ لا يستحق الاحترام ، ولو كانت به ذرة من خير ما جفا لحمه هذا
الجفاء الغريب ، اني اراه كما يراه عننا لعنة من لعنات الدهر .
فقال همام باسمًا :

— لعل ارذل ما فيه هو ما تتباهى به انت ، اعني القوة والبطش .
فقال قدري بحدة :

— لقد نال هذه الأرض هبة بلا عناء ثم طغى واستكبر .

— لا تنكر ما اعترفت به منذ قليل ، ان الوالي نفسه لم يكن بوسعه
ان يعيش وحده في مثل هذا الخلاء .

— وهل تجد في الحكاية التي رويت لنا مسوغاً حقاً لغضبه على والدينا ؟

— انك تجد اهون منها سبباً كافياً للبطش بالناس !

ساوول قدرى الكوز ومضى يشرب حتى روي ، ثم تجشأ وقال :
- ما ذنب الأحفاد ؟ انه لا يدري ما رعي الغنم ، سحقاً له !
اود لو اعرف وصيته ، وماذا أعد لنا !
فتنهدهمهم وقال بصوت حالم :
- ثروة تربح من العناء ، كي يفرغ المرء لقلبه ، ويمضي العمر
في سر وطرب .

- انك تردد قول ابينا ، نشقى في التراب والطين ونحلم بالناي في
ظل حديقة غناء ، الحق اقول اني أعجب بعمي اكثر من ابي .
فجلس همام وهو يتشاءب ، ثم نهض يتمطى ، وقال :
- على اي حال صرنا شيئاً ، لنا مأوى يسعنا ، ورزق يحفظ علينا
الحياة ، واغنام نرعاه ، نبيع لبنها ونسمنها لنبيعها ايضاً ، ومن شعرها
تغزل امنا الكساء .

- والناي والحديقة ؟
فلم يجب ، واتجه نحو الأغنام بعد ان تناول عصاه الملقاة عند قدميه .
ووقف قدرى ، وصاح موجهاً خطابه الى البيت الكبير في عبث :
- أسمع بكأن نرثك ام ستعاقبنا في موتك كما عاقبتنا في حياتك ؟
اجب يا جبلاوي .
وردد الصدى : « اجب يا جبلاوي ! »

١٤

ورأيا عن بعد شخصاً يتجه نحوهما لم تتضح معالمه . ومضى القادم
يقترب رويداً حتى تبيناه ، فانصببت قامة قدرى بحركة تلقائية وشعت
عيناه الجميلتان نور ابتهاج . ولحظ همام اخاه باسم ، ثم نظر الى الأغنام

في غير مبالاة وهمس بلهجة تنبيه :

— الظلام غير بعيد .

فهتف قدري باستهانة :

— فليأت الفجر اذا شاء .

وخطا خطوات نحو الأمام ملوحاً بذراعيه في ترحاب الفتاة . وأخذت تدنو من موقفها ، مجهدة من المشي ، لطول المسافة من ناحية ومقاومة الرمال لشبشبها من ناحية أخرى ، متطلعة نحوها يبصر لامع يعكس مع فتنة العينين الخضراوين جرأة . وبدت ملتفة بملاءها اللف حتى الكتفين ، مطلقة الرأس والعنق عاريين فعبث الهواء بضفيرتيها . وارتفع صوت قدري بسرور مسح عن وجهه امارات الحدة :

— أهلاً بهند .

فأجابت بصوت رقيق :

— أهلاً بك (ثم مخاطبة همام) مساء الخير يا ابن عمي .

فقال همام باسماء :

— مساء الخير يا بنت العم ، كيف حالك ؟

وتناول قدري يدها وسار بها نحو الصخرة الكبيرة القائمة على بعد أمتار من موقفها ، ودارا حول الصخرة حتى ضلعتها المواجه للجبل فصارا في منعزل عن الخلاء ومن فيه . وجذبها نحوه فأحاطها بذراعيه ، ثم قبل ثغرها قبلة طويلة حتى تماسست ثناياهما وغابت الفتاة في اللحظة استسلام مذهلة . واستطاعت ان تتخلص من ذراعيه ، وان تقف مضطربة الانفاس فتحكم لف ملاءها ، وتنلقى نظرتة المهاجمة بنظرة باسماء . ولكن الابتسامة اختفت كأنما لحاظرة خطرت ، وتقوصت الشفتان في تبرم ، ثم قالت :

— جئت بعد معركة ، أف ، هذه الحياة لا تطاق .

فقطب قدري لادراكه ما تعني وقال بحدة :

- لا تبالي بشيء ، أننا أبناء اللحم ، ابي الطيب رجل غبي ، وأبولك الشرس لا يقل عنه غباء ، انهما يودان ان يورثانا الكراهية ، فيا للغباء !
خبرني كيف تيسر لك المجيء ؟ .
فنفخت وقالت :

- مضى اليوم كالأيام السابقة في تقاسر متواصل بين أبي وأمي ، وصفعها مرة او مرتين فصرخت ثلغته وصبت غضبها على قلة فحطمتها ، ولكن غضبها اليوم وقف عند هذا الحد ، انها كثيراً ما تمسك بخناقها متحدية لطماته ، وتدعو عليه اذا غلبت على أمرها ، أما اذا غلبته الحمر فلا سلامة الا البعد عن وجهه . كثيراً ما أشعر برغبة في الهرب ، وبكراهية شديدة لهذه الحياة ، ولكنني أروّح عن نفسي بالبكاء حتى تؤلمني عيناى . ما علينا ، انتظرت حتى ارتدى ثيابه وذهب ، فتناولت الملاعة ولكن أمي تعرضت لي تحاول منعي كالعادة ، ولكنني تخلصت منها ومضيت الى الخارج .

فتناول قدري يدها بين يديه وتساءل :

- ألا تخمن أين تذهبن ؟

- لا أظن ، لا يهمني ، انها على أي حال لا تجرؤ على إخبار أبي .
فضحك قدري ضحكة مقتضية وسألها :

- ماذا تظننه يفعل لو عرف ؟

فرددت ضحكته في حيرة ولكنها قالت :

- اني لا أخشاه رغم شدته ، بل اقول لك اني أحبه ، وهو يحبني في سداجة لا تتفق وحدة طبعه ، ولا يسالي أن يقول إنني أغلى شيء في دنياه ، ولعل هذا هو أصل متاعبي .

جلس قدري على الأرض أسفل الصخرة ودعاها الى الجلوس بأن ربت الموضع جانبه ، فجلست وهي تتخفف من حبكة الملاعة ، ومال نحوها فلم يخذها ، ثم قال :

- يبدو ان غزو أبي أيسر من غزو أبيك ، ومع ذلك فشلت ما يبدو فظاً اذا جاء ذكر لأبيك ، أنه ينكر عليه صفات .

فضحكت قائلة وهي تذكر ما تردد عن ذكره :

- بني آدم !.. كذلك ينكر أبي عليه .

فحدجها بنظرة استنكار فقالت :

- أبوك ينكر علي أبي فظاظته ، وأبي ينكر على أبيك طبيته ،

والمهم أنهما لم يتفقا على شيء .

فندت عن رأس قدرتي - ترنة كذا ينطح الهواء وقال بتحد :

- لكننا سنفعل ما نشاء .

فقالت هند وهي تنظر نحوه بعطف واشفاق :

- أبي يستطيع ان يفعل ما يشاء كذلك !

- وأنا قادر على أشياء كثيرة ، ماذا يريد لك هذا العم السكير ؟

فضحكت على رغها ، وقالت بلهجة تشي بالاحتجاج والمداعبة معاً :

- تكلم عن أبي بأدب .

وواصلت الكلام وهي تقرصه في أذنه :

- طالما ساءلت نفسي عما يريد لي ، فخيّل إلي أحياناً أنه يكره أن

يزوجني من أحد .

فحملق فيها منكراً فعادت تقول :

- رأيت مرة يرمي بيت جدنا بنظرة غاضبة ويقول : « اذا كان قد

رضي لأبنائه واحفاده بالهوان فهل يرضى به لخصيدته ؟ لا مكان لائق

بهند الا هذا البيت المغلق » . ومرة قال لأمي إن فتوة كفر الزغاري

يرغب في الزواج مني ففرحت أُمي فصاح بها حانقاً : « يا وضبعة .. يا

خسيسة ، من يكون فتوة كفر الزغاري هذا ؟ ان احقر خادم في

البيت الكبير اشرف منه وانظف » فسألته أُمي في حسرة : « فن تراه

الجدبير بها ؟ » فصاح : « علم ذلك عند الطاغية المتواري خلف أسوار

بيته ، انها حفيدته ، وليس في الأرض من هو أهل لها ! أريد لها زوجاً مثلي أنا » فقالت امي على رغبتها : « أتريدها ان تكون تبعية مثل أمها ! » فهجم عليها كالوحش وراح يركلها بشدة حتى جرت خارج الكوخ !

— هذا هو الجنون بعينه .

— انه يكره جدنا ، ويلعنه كلما ذكره ، لكنه في أعماقه يتبه ادلالا بأبوتيه .

فكور قدرتي قبضته وجعل يضرب بها فخذيه ويقول :

— لعلنا كنا نكون أسعد حالاً لو لم يكن ذلك الرجل جداً لنا ..

فقالت بمرارة :

— لعلنا .

فجذبها الى صدره بشدة تناسب الحدة في قوله وضمها اليه بقوة ، واستبقاها هكذا بين يديه ريثما تمر فترة الانتقال بين الشواغل المتعبة وبين الهيام الموعود ، وقال :

— اعطيني فاك .

عند ذاك تراجع همام من موقفه عند الصخرة ، واتجه بخفظة نحو الأغنام وهو يتسهم في حياء وأسى . خيل إليه ان الهواء يشمل بأنفاس الحب ، وان الحب ينذر بالمآسي . لكنه قال لنفسه : « صفا وجهه ورق » ، لا يرى على هذا الحال الا خلف الصخرة ، فن لنا بقوة هذا الحب السحرية لتزيل متاعبنا ؟ . هنا والسماء تشحب في استسلام ، وانفاس المغرب تردد في خول ، والسحرة تزحف كنغمة وداع وانية ، وهناك تيس يشب على عترة . وعساد همام يحدث نفسه : « ستفرح أمي يوم تلد هذه العترة ، ولكن ميلاد انسان قد يجيء بالكوارث ، فوق رموسنا لعنة من قبل ان نولد ، واعجب عداوة هي التي لا تجد هي لها من مبرر الا انها بين أخوين ، الى متى نعاني من هذه الكراهية ، لو نسي

الماضي لا يتجهج الحاضر ، ولكننا سننظر نتطلع الى هذا البيت الذي لا عزة لنا الا به ولا تعاسة الا بسبب منه . . . وعلفت عيناه بالتيس فابتسم . ومضى يدور حول الغنم وهو يصفر ويلوح بعصاه . وحانت منه الذماتة نحو الصخرة الكبيرة الصامتة فبدت في وقفته كأنها لا تبالي شيئاً في الوجود .

١٥

استيقظت أميمة كعادتها عندما لم يسبق في السماء الا نجمة واحدة . ونادت ادهم حتى استيقظ متأوهاً . ونهض الرجل فغادر غرفته مثقلاً بالنعاس الى غرفة خارجية متصلة بها حيث بنام قدرتي وهمام فأيقظهما . وبدأ الكوخ في مطهره الجديد نامياً ممتداً كأنه بيت صغير ، وأحاط به سورٌ ضم اليه فراغاً خلفياً لايواء الاغنام . وانتشرت على السور أفرع اللبلاب فلطفت من جفء منظره ، ودلت على ان أميمة لم تياس بعد من تحقيق حلمها القديم بان تهذب ما استطاعت كوخبها على مثال البيت الكبير . واجتمع الرجال في الفناء حول صفيحة مملوءة بالماء ، فغسلوا وجوههم ، وارتدوا جلابيب العمل ، وحمل الهواء من داخل الكوخ رائحة احتراق خشب ، وبكاء الاخوة الصغار . واخيراً جلسوا حول الطبلية امام مدخل الكوخ يأكلون من حلة فول مدمس . وكان جو الخريف رطيباً مائلاً للبرودة في هذه الساعة المبكرة ولكنه لاقى اجساماً قوية صمدت حيال نزواته . وعن بعد بدا كوخ ادريس وقد كبر وامتد كذلك ، أما البيت الكبير فقام في صمت منظوياً على ذاته كأنما لا يربطه سبب بهذا العالم الخارجي . وجاءت أميمة تحمل كوز لبن مخلوب لتوه فوضعت على الطبلية وجلست . وعند ذاك سألتها قدرتي بسخرية :

- لماذا لا تبعين اللبن الى بيت جدنا الموقر ؟
 فالتفت اليه أدهم برأسه الذي وخط المشيب فوديه وقال :
 — كل وأنت ساكت ، السكوت غاية ما نرجو عندك من خير .
 وقالت أميسة وهي تطحن ما في فيها :
 — آن لنا ان نخلل الليمون والزيتون والقلقل الأخضر ، كنت يا
 قدري تبتهج في أيام التخليل وتشترك في حشو الليمون .
 فقال قدري بمرارة :
 — كنا نبتهج ونحن صغار حتى بلا سبب .
 فسأله أدهم وهو يعيد الكوز الى موضعه :
 — وماذا يشقيك اليوم يا أبو زيد الهلالي ؟
 فضحك قدري ولم يجب . أما همام فقال :
 — يوم السوق قريب ، ينبغي أن نفرز الأغنام .
 فهزت الأم رأسها بالايجاب ، على حين وجه الأب خطابيه الى
 قدري قائلاً :
 — يا قدري لا تكن فظاً ، لا أقابل شخصاً يعرفك إلا شكاك إلي ،
 أخشى ان تعيد سيرة عمك في هذه الحياة .
 — أو سيرة جدي !
 فانقدت عينا أدهم استياء وقال :
 — لا تذكر جدك بسوء ، هل سمعني أفعل ذلك ؟ ثم انه لم
 يسيء إليك .
 فقال قدري باستنكار :
 — أساء الينا ما دام أساء اليك .
 — اسكت ، نقطنا بسكوتك .
 — بسببه كتبت علينا هذه الحياة ، وهي أيضاً مصير بنت عمنا .
 فقال أدهم في عبوس :

— مالنا وماها ، أبوها علة الكارثة .

فهتف قدري :

— أعني أنه ما كان يصح ان تنشأ نساء من دمناء في الخلاء والعراء ،
ثم خبّرني أي رجل ستزوج هذه الفتاة ؟
— ليكن الشيطان نفسه ، لا شأن لنا بها ، لا شك انها مفترسة
مثل أبيها .

ونظر نحو زوجه كأنما ينشد تأييداً فقالت أميمة :

— نعم ، مثل أبيها .

فبصق أدهم قائلاً :

— ملعونة هي وأبوها !

فتساءل همام :

— الا يفسد هذا الحديث علينا طعامنا ؟

فقالت أميمة برقة :

— لا تبالغ ، ان اسعد الاوقات وقت اجتماعنا .

هنا ترامى إليهم صوت لإدريس كالحدير وهو يلعن ويسب ، ففسال
أدهم بتمزز :

— بدأت صلاة الصبح !

وتناول آخر لقمة ونهض ، ثم اتجه نحو عربته وراح يدفعها امامه
وهو يقول : « تركبكم بعافية » فردوا عليه : « مع السلامة » . ومضى
الرجل مبتعداً صوب الجالية . وقام همام فضي نحو الحظيرة من ممشي
جانبي ، وما لبث ان تعالى ثغاء الأغنام ووقع اطلاقها فلألت الممشي
في طريقها الى الخارج . ونهض قدري كذلك فتناول عصاه ولوح لأمه
مودعاً ولحق بأخيه . وعندما اقتربا من كوخ إدريس تصدّى لهما فتساءل
ساخراً :

— بكم الرأس يا جدع ؟

فحدجته قدرتي بنظرة حب استطلاع على حين تجتنب همام النظر اليه.
وعاد إدريس يتساءل في انكار :

— ألا يتفضل احدكما بالجواب يا ابني؟ يباع الخيار ؟
فقال قدرتي بحدة :

— إذا اردت الشراء فاذهب الى السوق .
فتساءل إدريس مقهقهاً :

— وإذا قررت الاستيلاء على احداها ؟
وجاء صوت هند من الداخل وهي تقول :
— أبي ، لا نريد فضائح .

فأجابها مداعباً :
— اهتمي بشأنك أنت ، ودعيني لسلالة الجواري !
فقال همام :

— نحن لا نتعرض لك فلا تتعرض لنا .
— آه ، صوت أدهم ، كان ينبغي ان تكون بين الأغنام لا وراءها .
فقال همام محتدأً :

— أمرنا أبي بالانجيب على تمرؤشك بنا .
فقهقه إدريس عالياً وقال :

— جزاه الله كل خير ، لولا امره هذا لكنت في الهالكين ! (ثم
بلهجة خشنة) .. انكما تعيشان عزيزين بفضل اسمي ، لعنة الله عليكم
جميعاً ، غورا من وجهي .

وواصل سيرهما وهما يلوحان من حين الى حين بعصويهما ، ولبت
همام ممتقع اللون من الانفعال فقال لقدرتي :

— هذا الرجل مقيت ، ما أقدره ، حتى في هذه الساعة المبكرة
ثفت انفاسه رائحة الخمر .

فقال قدرتي وهما يوغلان وراء الاغنام في الخلاء :

— انه يتكلم كثيراً ، ولكنه لم يمد لنا يداً بأذى .
فقال همام محتجاً :

— بل استولى أكثر من مرة على بعض اغنامنا .

— انه سكير ، وهو للأسف عمنا ، لا مهرب من الاقرار بذلك .
وساد الصمت قليلاً وهما يتجهان نحو الصخرة الكبيرة ، وفي السماء
سحب متفرقة ، والشمس ترسل اشعتها فتغمر الرمال المترامية . وضاق
همام بكتمان ما يود قوله فقال :

— ستخطيء خطأ كبيراً إذا وصلت أسبابك بأسبابه .

فاشتعلت عيننا قدرى بنظرة غاضبة وهتف :

— لا تحاول نصحي ، حسبي أبوك .

فقال همام وهو لم يفق بعد من إهانات ادريس :

— حياتنا موفورة المتاعب فلا تزدها .

فصاح قدرى :

— فلتسحقكم المتاعب التي تخلقونها بأنفسكم ، أما انا فأفعل
ما أشاء .

وكانا قد بلغا الموضع الذي يسرحان عنده الأغنام فالتفت همام نحو
أخيه وتساءل :

— أظن أنك ناجٍ من عواقب افعالك ؟

فقبض قدرى على منكبه بقبضته وصاح :

— ما أنت إلا حسود .

فدهش همام . دهمه قول أخيه الذي لم يتوقعه . ولكنه كان متعوداً
من ناحية أخرى على مفاجآته ومفرقاته . ورفع يده عن منكبه وهو
يقول :

— اللهم احفظنا .

فشبك قدرى يديه على صدره وهو بهز رأسه ساخراً فقال همام :

- خير ما أفعل ان اتركك لنفسك حتى تتدم ، لن تقر بخطأ ،
ولن تقر به إلا بعد فوات الفرصة .
واولاه ظهره متجهاً نحو جانب الصخرة الظليل . ووقف قدرى
مكفهر الوجه تحت الأشعة الحامية .

١٦

جلست أسرة ادهم أمام الكوخ تتناول عشاءهما في ضوء النجوم
الخافت . وإذا بحدث يقع لم يشهد له الخلاء مثيلاً منذ طرد ادهم .
فتح باب البيت الكبير وخرج منه شيخ حاملاً مصباحاً . وتطلعت الأعين
الى المصباح في دهشة انعقدت لها الألسنة ، وتابعتسه وهو يتحرك في
الظلام ككوكب أرضي ، وعندما توسط المسافة بين البيت والكوخ
تركزت الأبصار على الشيخ لتبينه على ضوء المصباح المنعكس حتى هس
ادهم: « هذا عم كريم بواب البيت » . وتضاعفت الدهشة عندما أيقنوا
من انه يقصدهم فوققوا جميعاً ، بعضهم اللقمة في يده والبعض اللقمة في
فيه بلا حراك . وبلغ الرجل موقفهم فوقف رافعاً يده وهو يقول :
- مساء الخير يا سيدي ادهم .

ارتجف ادهم لدى سماعه الصوت الذي انقطع عنه منذ عشرين عاماً ،
فدعا من أعماق ذاكرته نبرات الأب العميقة وشذا الباسمين والحناء وحنيناً
وأشجاناً فمادت به الأرض . وقال وهو يقاوم دموعه :

- مساء الخير يا عم كريم .

فقال الرجل بتأثر غير خاف :

- لعلك انت وأهلك بخير .

- الحمد لله يا عم كريم .

فقال الرجل برقة :

— أود أن أعرب لك عما بنفسي ولكني كلفت فقط بأن ابلغك بأن سيدي
الكبير يدعو ابنك همام إلى مقابلته فوراً
وساد الصمت ، فتبادلوا النظرات ، ولفتهم الحيرة ، وإذا بصوت
يتساءل :

— همام وحده ؟

والفتوا ساخطين نحو ادريس الذي بدا عن كذب وهو يصغي ، غير
ان عم كريم لم يجب ، ورفع يده نحية ورجع صوب البيت الكبير تاركاً
الجميع في ظلام . وتغيظ ادريس منه فصاح به :

— اتركني بلا جواب يا ابن اللثيمة ؟

وأفاق قدرى من ذهوله فتساءل غاضباً :

— لماذا همام وحده ؟

فردد ادريس تساؤله :

— نعم لماذا همام وحده ؟

فقال له ادهم ، ولعله وجد في مخاطبته متنفساً عن ازمته :

— عد الى كوخك ودعنا في سلام .

— سلام ؟ اني اقف حيث اشاء .

وتطلع همام الى البيت الكبير صامتاً ، وقلبه يخفق بشدة خيل اليه

معها ان المقطم يردد صدهاء . وقال له ابوه بتسليم :

— اذهب يا همام الى جدك مصحوباً بالسلامة .

فالتفت قدرى الى ابيه يسأله بحدة وتحد :

— وأنا ؟ أأست ابنك مثله ؟

— لا تتكلم كما يتكلم ادريس يا قدرى ، انك ابني مثله بلا أدنى

ريب ، ولا لوم عليّ فلست انا الداعي .

فقال ادريس محتجاً :

- ولكن بوسعك ان تمنع تمييز اخ عن اخيه .
- هذا شأن لا يعنيك (ثم مخاطباً همام) يجب ان تذهب . وسيأتي
ور قدرتي ، اني واثق من ذلك .
- فقال ادريس وهو يهمّ بالذهاب :
- انك أب ظالم مثل ابيك ، مسكين قدرتي ، لماذا يعاقب دون
ذنب ؟ لكن اللعنة تنزل اول ما تنزل في اسرتنا بالملتازين ، الا لعنة
الله على هذه الأسرة المجنونة !
- ومضى فابتلعه الظلمة . وعند ذاك هتف قدرتي :
- انك تظلمني يا ابي .
- لا تُعد أقواله ، تعال يا قدرتي ، واذهب يا همام .
- فقال همام بحرج :
- وددت لو كان معي اخي .
- سيلحق بك .
- فصاح قدرتي بحق :
- اي ظلم هذا ! لماذا آثره عليّ ؟ انه لم يعرفه كما لم يعرفني فلماذا
يختصه بالدعاء ؟
- فدفع ادهم همام قائلاً :
- اذهب .
- فسار همام . وهمت اميمة :
- تحفظك العناية .
- واحتضنت قدرتي باكية ولكنه تخلص من ذراعيها ومضى في اثر اخيه
فصاح به ادهم :
- عد يا قدرتي ولا تقامر بمستقبلك .
- فقال قدرتي بغضب :
- لن ترجعني قوة على الأرض .

وعلا صوت اميمة بالبكاء ، وبكى الصغار في الداخل . وأوسع قدري خطاه حتى لحق بأخيه ، وعلى كثر منه في الظلام رأى شيخ ادريس يسير ممسكاً بيد هند . ولما بلغوا باب البيت دفع ادريس قدري الى يسار همام وهند الى يمينه وتراجع خطوات وهو يصيح :

-- افتح يا عم كريم ، جاء الأحفاد للقاء جدّهم .

وفتح الباب وظهر على عتبة عم كريم وبيده المصباح ، وقال بأدب :
-- فليتفضل سيدي همام بالدخول .

فهتف ادريس :

-- وهذا اخوه قدري ، وهذه هند وهي صورة مكررة من امي التي ماتت باكية .

فقال عم كريم بأدب :

-- أنت تعلم يا سيدي ادريس انه لا يدخل هذا البيت الا من يؤذن له .

وأشار الى همام فدخل ، وتبعه قدري آخذاً بيد هند ولكن علا صوت من الخديقة عرفه ادريس وهو يقول بصرامة :
-- اذهبا بعاركما ايها الملوّثان .

تسمرت اقدامهما . وأغلق الباب . وانقض ادريس عليها فقبض على منكبيهما بقبضتيه وتساءل بصوت متهدج من الغضب :
-- اي عار يعني ؟

وصرخت هند المأ ، على حين نحول قدري فجأة نحو ادريس ورفع يديه عنه وعن هند ، فافلتت هند وولت هاربة في الظلام . وتراجع ادريس بخفة الى الوراء ثم وجه الى قدري لكمة فتحملها الشاب رغم قوتها ووجه اليه لكمة اشد . واندفعا يتبادلان الضرب والركل بقسوة ووحشية تحت سور البيت الكبير . وصاح ادريس :
-- سأقتلك يا ابن العاهرة .

فصاح قدري :
 - سأقتلك قبل ان تقتلني .
 وتبادلا الضربات حتى سال الدم من فم قدري وأنفه . وجاء ادهم
 جرياً كالجنون وصاح بأعلى صوته :
 - اترك ابني يا ادريس .
 فصاح ادريس بحقد :
 - سأقتله بجريته .
 - لن ادعك تقتله ، ولن ادعك تعيش ان قتله .
 وجاءت أم هند مولولة وهي تصيح :
 - فرّت هندا يا ادريس ، ادركها قبل ان تختفي .
 ورمى ادهم بنفسه بين ادريس وقدري ، وصاح بأخيه :
 - أفق ، انك تقا تل بلا سبب ، بنتك طاهرة لم تمس لكنتك ارعبتها
 فغرت ، أدركها قبل ان تختفي .
 وجذب قدري اليه ، ورجع به مسرعاً وهو يقول :
 - أسرع .. تركت أمك في حالة اغماء .
 اما ادريس فانطلق في الظلام وهو يصرخ بأعلى صوته : « هند ..
 هند .. »

١٧

تبع همام عم كريم فاجتازا المشى تحت عريشة الياسمين متجهين نحو
 السلامك . بدا الليل في الحديقة شيئاً جديداً ، لطيفاً رطباً مترعاً بنشوات
 الازهار والرياحين فانسكب بروعته في اعماق روحه . وامتأ الشاب بشعور
 جلال وافئنان ، وحين مودة عميقة للمكان ، وبأنه مقبل على أجل لحظات

عمره . وتراءت لعينيه انوار وراء شيش بعض النوافذ ، ونور قوي ينبعث من باب اليهود فارشاً على ارض الحديقة تحته شكلاً هندسياً ، فحقق قلبه وهو يتخيل الحياة خلف النوافذ وفي الأبهاء ، كيف تكون ومن يحياها . وزاد قلبه خفقاناً حيناً تمثلت لحاظه هذه الحقيقة العجيبة وهي انه مخلوق من سلالة هذا البيت ونطفة من هذه الحياة ، وانه جاء ليلقاها وجهاً لوجه في جلباب أزرق بسيط وطاقية باهتة ، متعللاً أديم الأرض . ورقياً في سلم السلامك ، فالألى جناح الشرفة الأيمن نحو باب صغير ، ففتح على سلم فصعداً في صمت لا ينم عن حياة ، حتى بلغا ردهة طويلة مضاءة بمصباح يتدلى من سقف مزركش ، وانجها نحو باب كبير مغلق يتوسط الردهة . وقال همهم لنفسه في تأثر بالغ : « في موضع من هذه الردهة ، لعله هذا الموضع عند رأس السلم ، وقفت أُمى منذ عشرين عاماً لتراقب الطريق ، أية ذكرى تعيسة ! » ونقصر عم كريم على الباب الكبير مستأذناً للقادم ، ثم دفعه برقة وتنحى لهمام جانباً وهو يشير له بالدخول . ودخل الشاب في أناة وأدب ورهبة ، فلم يسمع صوت الباب وهو يغلق وراءه ، ولم يشعر الا شعوراً غامضاً بالنور المضيء في السقف والأركان ، اما وعيه كله فقد انجذب نحو الصدارة حيث تربع الرجل على ديوان . لم يكن رأى جدّه من قبل ولكنه لم يشك في هوية الجالس أمامه ، فمن يكون هذا الهائل ان لم يكن جدّه الذي سمع عنه الأعاجيب ؟ واقترب من مجلسه وهو يتلقّى من عينيه الكبيرتين نظرة استملت من ذاكرته جميع ما فيها ، ولكنها بثت في قلبه في الوقت نفسه طمأنينة وسلاماً . وانحنى حتى كادت تمس جبهته طرف الديوان ، ومد يده ، فأعطاه الآخر يده ، فلثمها من الأعماق ، وقال بشجاعة غير متوقعة :

— مساء الخير يا جدي .

فجاءه الجواب من صوت جهوري لم يخل من انغام رحمة :

— اهلاً بك يا بني ، اجلس .
وانجه الشاب نحو مقعد الى يمين الديوان وجلس على حافته ففسال
الجبلاوي :

— خذ راحتك في مجلسك .
فتزحزح همام الى الداخل وقلبه يرتوي من السرّة ، ونحركات شفاه
بشكر مهموس ثم ساد الصمت . ولبث ينظر في نقوش السجادة تحت
قدميه ، وهو يشعر بموقع النظرة المسددة نحوه كما يشعر بموقع الشمس
منا دون ان نراها . واذا بذهته يتجه فجأة نحو الخلوة القائمة الى يمينه ،
فلمحظ بابها بخوف وكآبة ، واذا بالرجل يسأله :

— ماذا تعرف عن هذا الباب ؟
فارتجفت أوصاله ، وعجب كيف يرى كل شيء ، وقال بخشوع :

— اعرف انه فاتحة مأساتنا .
— وماذا ظننت بجدك لدى سماعك الحكاية ؟
وفتح فاه ليتكلم فبادره الرجل :

— أصدقني القول .
فأثرت به اللهجة الى حد ان قال فيما يشبه الصراخه :

— بدا لي تصرف والدي خطأ كبيراً ، كما بدا لي عقابهما صارماً
شديداً .
فابتسم الجبلاوي قائلاً :

— هذا هو شعورك على وجه التقريب ، اني امقت الكذب واللداع ،
ولذلك طردت من بيتي كل من لوث نفسه .
فاغرورقت عينا همام . فقال الجدد :

— بدا لي انك شاب نظيف ، ولذلك استدعيتك .
فقال همام بصوت رطبته الدموع :

— شكراً يا سيدي .

فقال الجدة بهدوء :

— رأيت ان اعطيك فرصة لم تنح لأحد ممن في الخارج ، وهي ان تعيش في هذا البيت ، وأن تتزوج به ، وأن تبدأ حياة جديدة فيه .
فتابعت دقات قلب همام في نشوة من الافراح ، ولبت ينتظر انغاماً جديدة يستكمل بها هذا اللحن البديع كالسميع الذي ينتظر الجواب بعد ان طرب للقرار ، ولكن الرجل لاذ بالصمت . وتردد همام قليلاً ثم قال :
— الشكر لك على نعمتك .
— انك تستحقها .

واختليج نظر الشاب بين جدته وبين السجادة ، ثم تساءل في اشفاق :
— وأسرتي ؟

فقال الجبلاوي في عتاب :

— قلت ما اريد بوضوح .

فقال همام باستعطاف :

— انهم يستحقون رحمتك وعطفك .

فتساءل الجبلاوي بشيء من البرود :

— ألم تسمع ما قلت ؟

— بلى ، ولكنهم أمي وأبي واخوتي ، ان ابي رجل .

— ألم تسمع ما قلت ؟

وشى الصوت بالضجر فغلب الصمت . واذا بالرجل يقول ايذاناً
بانتهاء الحديث :

— ارجع اليهم لتستأذن ، ثم عد .

وقام همام فلم يد جدته ومضى . وجد عم كريم ينتظر ، فتمحرك الرجل وتبعه الشاب في سكون . ولما انتهيا الى السلامك ، رأى همام فتاة في منطقة الضوء بأول الحديقة ، وقد سارعت الى الاختفاء . غير انه لمح منها العارض والعنق وقامة ممشوقة . وعاد صوت الجدة يتردد في

أذنيه وهو يقول : « ان تعيش في هذا البيت وأن تتزوج به » . بفتاة كهذه الفتاة . وعيشة خبرها ابي . كيف هانت عليه المقامرة ؟ وكيف وبأي قلب تحمّل الحياة بعد ذلك وراء عربة اليد ؟ . وهذه الفرصة السعيدة كأنها حلم . حلم ابي منذ عشرين عاماً . لكني مثقل الرأس .

١٨

عاد همام الى الكوخ فوجد اسرته جالسة ترقب عودته . وأحاطوا به مستطعين وسأله ادهم بلهفة :
— ماذا وراءك يا بني ؟
ولاحظ همام ان قدري معصوب العين فقرّب رأسه من وجهه ليتحقق من الأمر فقال أدهم بأسى :
— نشبت معركة حامية بين اخيك وبين ذلك الرجل .
وأشار بيده نحو كوخ ادريس الذي بدا غارقاً في الظلمة والصمت على حين قال قدري بغضب :
— كل ذلك بسبب التهمة الخبيثة الكاذبة التي قدفت بها من داخل البيت .
وأشار همام نحو كوخ ادريس وتساءل في قلق :
— ماذا يحدث هنالك ؟
فقال ادهم بحزن :
— الرجل وزوجه يبحثان عن ابنتها الهاربة .
فصاح قدري :
— من المسئول عن ذلك الا الرجل الفظّ العين !
فتوسلت أميمة قائلة :
— أخضت من صوتك .

- فصاح قدري في حلق :
 - ماذا تخافين ؟ .. لا شيء الا الطمع في عودة لن تتحقق .. صدقيني
 انك لن تغادري هذا الكوخ حتى الممات .
 فاحتد ادهم قائلاً :
 - كفى هذيانا ، أنت مجنون وحق خالق الكون ، ألم تكن تريد
 ان تلحق بالفتاة الهاربة ؟
 - وسألحق بها .
 - اسكت ، لقد ضقت بحماقتك .
 وقالت أميمة بجزع :
 - لن نطيب لنا الحياة بجوار إدريس بعد اليوم .
 والنفت ادهم نحو همام وسأله :
 - قلت ماذا وراءك ؟
 فقال همام بصوت لا أثر للسرور فيه :
 - دعاني جلدي الى الإقامة في البيت الكبير .
 وترقب ادهم بقية للحديث فلما لم ينبس الشاب تساءل في يأس :
 - ونحن ، ماذا قال عنا ؟
 فهز همام رأسه في حزن وهمس :
 - لا شيء .
 فضحك قدري ضحكة كلدغة عقرب وسأله في سخرية :
 - وماذا جاء بك ؟
 نعم ماذا جساء بي ، لا شيء إلا ان السعادة لم تخلق لينعم بها
 أمثالي . وقال بجزن :
 - لم أقصّر في تذكيره بكم .
 فقال قدري بخنق :
 - شكراً ، ولكن ماذا جعله يؤثر علينا ؟

- انت تعلم ألا شأن لي في ذلك .
 وقال ادهم وهو يتنهد :
 - لا شك انك يا همام خيرنا جميعاً .
 فهتف قدرتي بمرارة :
 - وانت يا أبي الذي لم تذكره الا بخير لا يستحقه !
 فقال ادهم :
 - انت لا تفهم شيئاً .
 - هذا الرجل اسوأ من ابنه ادريس .
 فتوسلت أميمة قائلة :
 - انك تقطع قلبي ، وتغلق أبواب الأمل في وجهك .
 فصاح قدرتي باستهانة :
 - لا أمل إلا في هذا الخلاء ، ادركوا هذا وأريحوا أنفسكم ،
 ليأسوا من هذا البيت اللعين ، انا لا أخاف هذا الخلاء ، حتى ادريس
 نفسه لا أخافه ، وبوسعي ان اكيل له من الضربات أضعاف ما يكيل
 لي ، أبصقوا على هذا البيت وأريحوا أنفسكم .
 وساءل ادهم نفسه : « أيمكن ان تمضي هذه الحياة على هذا النحو
 إلى الأبد ؟ ولماذا أيقظت يا ابي طموحنا إليك قبل ان ترضي
 العفو لنا ؟ وأي شيء يمكن ان يلين قلبك اذا كان ذلك الزمن
 الطويل لم يلينه ؟ وما جدوى الأمل إذا كان ذلك العذاب كله لم يزكنا
 لرحمة من نحب ؟ » . وقال الرجل بصوت كالغروب :
 - خبرني يا همام عما لديك .
 فقال همام في حياء :
 - قال لي اذهب فاستأذن ثم عُدْ .
 وشي الظلام بمحاولة فاشلة من أميمة لكتم انتحابها ، وتساءل قدرتي
 في خبث :

- وماذا يؤخرك ؟
فقال أدهم في حزم :
— اذهب يا همام مصحوباً بالسلامة والبركات .
وقال قدرى بلهجة جدية كاذبة .
— اذهب يا شهيم ولا تلق بالآء الى أحد .
فصاح ادهم :
— لا تنزأ بأخيك الطيب .
فقال قدرى ضاحكاً :
— انه شرنا جميعاً .
فهتف همام بخدة :
— إذا قررت البقاء فلن يكون هذا إكراماً لك أنت .
فقال ادهم بقوة :
— بل اذهب دون تردد .
وقالت أميمة خلال دموعها :
— نعم .. اذهب بالسلامة .
فقال همام :
— كلا يا أمي ، لن أذهب .
فتساءل ادهم :
— أجننت يا همام ؟
— كلا يا أبي ، الأمر يحتاج الى تفكير ومشاورة .
— لا حاجة بك الى ذلك ، ولا تحملني ذنباً جديداً .
فقال همام بعزم وهو يشير نحو كوخ ادريس :
— يخيل لي ان احداثاً ستقع .
فقال قدرى ساخراً :
— انك أضعف من أن تدفع شراً عن نفسك فضلاً عن الآخرين .

فقال همام بازدرء :
— خير ما أفعل ان اتجاهل ما تقول .
فعاد ادهم يقول برجاء :
— اذهب يا همام .
فاتجه همام نحو الكوخ وهو يقول :
— سأظل إلى جانبك .

١٩

لم يبق من الشمس إلا الشفق ، وانقطعت السابلة ، وانفرد بالخلاء
قدري وهمام والأغنام . مر النهار فلم يتبدل طوالة إلا ما تقتضيه ضرورة
الشركة في العمل . وغاب قدري شطراً كبيراً من النهار فخنن همام
انه يتشمم أخبار هند ، ولبث وحده في ظل الصخرة على كשב من
الأغنام . وفجأة ، وفي شيء من التحدي ، سأل قدري همام :
— خبرني عما انتويت من ذهابك الى جدك او عدوك ؟
فقال همام بامتناع :
— هذا شأن يخصني وحدي .
فاحتدم الغيظ في قلب قدري ، ولاحت بواده في وجهه كطلائع
الظلام فوق المقطم ، وتساءل :
— لماذا بقيت ؟.. ومتى تذهب ؟.. متى تجد الشجاعة لاعلان فيتك ؟
— بل بقيت لأتحمل نصيبي من العناء الذي خلقته فضائحك .
فضحك قدري ضحكة كاسرة وقال :
— هكذا تقول لنداري حسدك !
فهز همام رأسه كالمتعجب وقال :

— إنك تستحق الرثاء لا الحسد .
فاقترب قدري منه واطرافه ترتجف من الخفق وقال بصوت مخنوق
بالغضب :

— ما ابغضك حين تتظاهر بالحكمة .
فحدثه همام بنظرة احتكار دون ان ينبس ، فعاد الآخر يقول :
— يجب ان تحجل الحياة لانتساب امثالك اليها .
فلم يغض همام من بصره تحت النظرات المتقدة التي تنصب عليه
وقال بثبات :

— اعلم اني لا أخافك .
— هل وعدك البلطجي الأكبر بالحياة ؟
— ان الغضب يجعل منك شيئاً حقيراً تعافه النفس .
وفجأة لطمه قدري على وجهه . لم تدمه اللطمة فردّها بأشد منها
وهو يقول :
— لا تناد في جنونك .

وانحنى قدري بسرعة فالتقط حجراً وقذف به اخاه بكل ما أوتي
من قوة . وبادر همام ليتفادى من الحجر ولكنه اصاب جبينه . بدت
عنه آهة وجمد في موقفه والغضب يشتعل في عينيه . واذا بالغضب يحني
منها فجأة كأنه شعلة ردمت بتراب كثيف . واذا بهراع قائم يخل فيها
فبدت العينان وكأنهما تنظران الى الداخل . وترنح ثم اكتمأ على وجهه .
وبدل قدري حالاً بعد حال ، فزايه الغضب ، وتركه حديداً بارداً
بعد انصهار ، وركبه الخوف . ترقب بلهفة ان ينهض المنكسر . او ان
يتحرك ولكنه لم يرحم لهنته . وانحنى فوقه ، ومد اليه يده يهزه في
رفق ولكنه لم يستجب . وسواه على ظهره ليخلص انفه وفاه من الرمال
فاستلقى الآخر محمق العينين ولا حراك به : ورع قدري الى جانبه ،
وراح يهزه ، ويدلك صدره وبسديه ، وينظر بفرح الى الدم المتدفق

بغزارة من جرحه . وناداه برجاء فلم يجب . وبدأ صمته كثيفاً عميقاً كأنه - جزء لا يتجزأ من كيانه . كجموده الذي بدا غريباً عن الحي والجماد معاً . لا احساس ولا انفعال ولا اهتمام بشيء . كأنما القي الى الأرض من مكان مجهول فلم يمت اليها بسبب . عرف قدر الموت بنظرته فراح يشد شعر رأسه في يأس . ونظر فيما حوله خائفاً ، ولكن لم يكن هناك من شيء الا الأغنام والحشرات . وجميعاً انصرفت عنه دون اكتراث . سينتشر الليل ويستحكم الظلام . وقام بعزم ، فجاء بعصاه ، وانجه الى موضع بين الصخرة الكبيرة وبين الجبل ، وراح يخفر الأرض ويرفع التراب بيديه ، ويواصل العمل بعناد ، وهو يتصبب عرقاً وترتجف منه الأوصال . وهرع نحو اخيه . هزه وناداه للمرة الاخيرة دون ان يتوقع جواباً . وقبض على اسفل ساقيه وجرحه حتى أودعه الحفرة . وألقى نظرة وهو يتنهد ، وتردد ملياً ، ثم اهل عليه التراب . ووقف يحفف عرق وجهه بكم جلبابه . وكلما رأى بقعة دم في الرمال غطاها بالتراب . وارتقى على الأرض من شدة الاعياء . وشعر بقوته تتخلى عنه ، وبرغبة في البكاء ، ولكن الدموع استعصت عليه . وقال : « غلبنى الموت » . لم يدعه ولم يقصده ولكنه يجيء كما يحلو له . ولو انه انقلب تيساً لغاب في الأغنام . او ذرة من رمال لا تختفي في الأرض . ما دمت لا استطيع ان ارد الحياة فلا يجوز ان ادعي القوة ابدأ . وهيهات ان تمحي تلك النظرة من رأسي ابدأ . ان الذي دفنته لم يكن من الاحياء ولا من الجماد ، ولكنه من صنع يدي !

عاد قدرتي الى الدار يسوق الأغنام ، ولم تكن عربة ادهم بموقفها .

وجاءه صوت امه من الداخل وهي تساءل :

— لماذا تأخرتما عن موعدكما ؟

فدفع الاغنام الى الممشى المفضي الى حظيرتها وهو يقول :

— غلبني النوم ، ألم يحضر همام ؟

رفعت أميمة صوتها ليعلو على اصوات الطفلين قائلة :

— كلا ، لم يكن معك ؟

فازدرد ريقاً جافاً وقال :

— غادرتني منذ الظهر دون ان يخبرني اين هو ذاهب . فظننته رجع

الى هنا .

فتساءل ادهم وكان قد وصل ومضى يُدخل العربة الى الفناء :

— هل تشاجرتما ؟

— ابدأ .

— أظنك كنت السبب في ذهابه ، ولكن اين هو ؟

خرجت أميمة الى الفناء ، على حين أغلق قدري باب الحظيرة وراح

يغسل وجهه ويديه من ماء طشت تحت الزير . لا بد من مواجهة الموقف .

الدنيا تغيرت ولكن اليأس قوة . وانضم الى والديه في الظلام وهو يحفف

وجهه بطرف جلبابه . وتساءلت أميمة :

— أين ذهب همام ؟ لم يغب كهذه المرة من قبل .

فوافقها ادهم قائلاً :

— بلى ، خبرنا كيف ولماذا ذهب .

وارتعد قلب قدري لصورة خطرت برأسه ، لكنه قال :

— كنت جالساً في ظل الصخرة فلاحت مني التفانة فرأيت يبتعد

صوب حيناً ، وهممت ان اناديه ولكني لم افعل .

فقال أميمة في حسرة :

— لينك ناديت ولم تستسلم لزعلك .

ونظر ادهم حائراً في الظلام حوله ، فرأى ضوءاً خافتاً خلال سكون
في كوخ ادريس دلت على ان الحياة دبّت فيه من جديد ، ولكنه لم يأبه
لذلك ، وثبتت بصره على البيت الكبير وتساءل :

— انراه ذهب الى جده ؟

فقالت أميمة بانكار :

— لا يفعل ذلك دون اخبارنا .

فقال قدري بصوت شاحب :

— لعل الحياء منعه !

فسدد ادهم نحوه نظرة ارتياب منقبض الصدر لخلو صوته من السخرية
والعدوان وقال :

— دفعناه الى الذهاب فأبى .

فقال قدري في اعياء :

— تخرج من القبول امامنا .

— ليس هذا من خلقه ، وأنت مالك كالمريض ؟!

فقال قدري بحدة :

— حملت عبء العمل وحدي .

فنهتف ادهم في ضيق المستغيث :

— الحق اقول ان قلبي غير مطمئن .

فقالت أميمة بصوت مبجوح :

— سأذهب الى البيت الكبير لأسأل عنه .

فهز ادهم منكبيه في يأس وقال :

— لن يرد عليك احد ، ولكنني اؤكد لك انه لم يذهب .

فنفخت أميمة في كرتب وقالت :

— رباه ، لم يضطرب هكذا قلبي من قبل ، إفعل شيئاً يا رجل !

فتنهتف ادهم بصوت مشعرج في الظلام وقال :

فلنفتش عنه كل في ناحية

فقال قدري :

— لعله في الطريق إلينا .

فهتفت أميمة :

— لا ينبغي ان ننتظر .

ثم مستدركة في جزع وهي تنظر صوب كوخ ادريس :

— أليكون ادريس قد صادفه في طريقه ؟

فقال ادهم بامتعاض :

— غريم ادريس قدري لا همام .

— انه لا يتردد عن القضاء على اي منا ، اني ذاهبة اليه !

فحال ادهم بينها وبين الذهاب وهو يقول :

— لا تزيدى امورنا تعقيداً ، أعدك اذا لم نعرث عليه ان اذهب الى

ادريس ، وان اذهب الى البيت الكبير .

وحدج شبح قدري بنظرة قلقه . ما باله واجهاً ؟ أليس عنده اكثر

مما قال ؟ وأين انت يا همام ؟

واندفعت اميمة لتغادر الفناء فال ادهم نحوها وأمسك بمنكبيها . واذا

بباب البيت الكبير يفتح ، فتطلعوا نحوه . وبعد قليل لاح شبح عم

كريم وهو يقترب منهم فخرج اليه ادهم وهو يقول : « اهلاً بك

عم كريم » ، فحياه الرجل وقال :

— سيدي الكبير يسأل عما أخّر همام ؟

فقالت اميمة بيأس :

— لا ندري اين هو حتى ظنناه عندكم .

— سيدي يسأل عما أخّره ..

فهتفت أميمة :

— أعوذ بالله من اوهام قلبي .

وذهب عم كريم . وأخذت اميمة تحرك رأسها في اضطراب ينذر
بالانفجار ، فساقها ادهم امامه الى حجرتهما الداخلية حيث علا بكاء
الصغيرين ، وصاح بوحشية :

— لا تغادري الحجرة ، سأعود به ، ولكن اياك ان تغادري الحجرة .
وعاد الى الفناء فعثر على قدري جالساً على الأرض فانحنى فوقه
هامساً :

— خبرني ماذا تعرف عن اخيك ؟
فرفع رأسه نحوه بشدة ولكن شيئاً منعه من الكلام فعاد الرجل يسأله :
— خبرني يا قدري ماذا فعلت بأخيك ؟
فقال الشاب بصوت لا يكاد يسمع :
— لا شيء .

وارتد الرجل نحو الداخل ثم رجع بمصباح فاشعله ووضع على عربته
فسقط نوره على وجه قدري فتفحصه الرجل برهبة وقال :
— وجهك ينذر بالشقاء .

وجاء صوت اميمة من الداخل مختلطاً باصوات الطفلين ليقول كلاماً
لم يميزه احد فصاح ادهم :

— اسكتي يا ولية ، موتي ان شئت ولكن في صمت !
وعاد الى تفحص ابنه . وبغثة ارتعدت اطرافه . وامسك بطرف كفه
وقال في فزع :

— دم ، ما هذا ؟ دم اخيك ؟!
فحلق قدري في كم جلبابه ثم انكمش بحركة لاإرادية ، وحنى رأسه
في يأس . اعترف قدري بحركته اليائسة فجذب ادهم حتى اقامه ، ثم
دفعه الى الخارج . دفعه بقسوة لم يعهدها من قبل ، وغشى عينيه ظلام
فوق الظلام المحيط .

دفعه نحو الخلاء قائلاً :

- سنميل نحو خلاء الدراسة كيلا نمر امام كوخ ادريس .
وأوغلا في الظلام ، وقدري يسير كالمترنج تحت قبضة ابيه الناشبة في
منكبه . وتساءل ادهم وهو يجده في السير بصوت ادركه الهرم :
- خبرني هل ضربته ؟ بأي شيء ضربته ؟ وعلى اي حال تركته ؟
لم يجب قدري . كانت قبضة ابيه شديدة ولكنه لم يكن يشعر بها .
وكان ألمه شديداً ولكنه لم يفصح عنه . وود ان الشمس لا تطلع ابداً .
- ارحمني وتكلم ، ولكنك لم تعرف الرحمة ، وقد قضيت على نفسي
بالعذاب يوم انجبتك ، انا الذي تطاردني اللعنات منذ عشرين عاماً ،
وها أنا اطلب الرحمة ممن لا يعرفها .

فانفجر قدري باكياً حتى ارتجف منكبه في قبضة ادهم القاسية ،
وظل يرتجف حتى سرت عدواه الى ادهم ، لكنه قال :
- أهذا جوابك ؟ لماذا يا قدري لماذا ؟ كيف هان عليك ؟ اعترف
في الظلام قبل ان ترى نفسك في ضوء النهار .

فهتف قدري :

- لا طلع النهار !

- نحن اسرة الظلام ، لن يطلع علينا نهار ! . وكنت احسب الشر
مقيماً في كوخ ادريس ، فاذا به في دمننا نحن ، ان ادريس يفقهه
ويسكر ويعربد ، اما نحن فيقتل بعضنا البعض ، رباه .. هل قتلت اخاك ؟
- ابداً !

- فأين هو ؟

- ما قصدت قتله !

فصاح ادهم :

— لكنه قتل !

واجهش قدرى في البكاء واشتدت قبضة ابيه . اذن قتل همام ،
زهرة العسل وحبيب الجلد ، كأنه لم يكن ، لولا الألم المفترس ما
صدقت .

وبلغا الصخرة الكبيرة فسأله ادهم بصوت غليظ :

— أين تركته يا مجرم ؟

فسار قدرى نحو الموضع الذي حفره لأخيه ووقف عنده فيما بين
الصخرة والجبل . وتساءل ادهم :

— اين اخوك ؟ لا ارى شيئاً .

فقال قدرى بصوت لا يكاد يسمع :

— هنا دفنته .

فصرخ ادهم :

— دفنته ؟

وأخرج من جيبه علبة ثقاب وأشعل عوداً تفحص الموضع على ضوءه
حتى رأى قطعة من الأرض قلقة المستوى كما رأى مسحب الجثة الذي
انتهى عندها . تأوه ادهم من الألم . وراح يزيح التراب بيلدين مرتعشتين .
حواصل عمله في جو رهيب حتى مست اصابعه رأس همام . وغرز يديه
الى ما تحت ابطيه وسحب الجثة في رفق . وجثا على ركبتيه الى جانبها
واضعاً يديه على رأسه ، مغمض العينين ، مثلاً للعاسة والحية . وزفر
من اعماقه ، ثم غمغم :

— ان حياة اربعين عاماً من العمر تبدو سخفاً سقيماً امام جثتك
يا بني .

وقام بغتة ، ونظر نحو قدرى وهو يقف امام الجثة من الناحية
الأخرى ، فعانى لحظات كراهية عمياء ، وقال بصوت غليظ :

— سيعود همام الى الكوخ محمولاً على عنقك .

فجفل قدري متراجماً ، ولكن الرجل سارع اليه دائراً حول الجثة ثم قبض على منكبيه وهتف :

- احمل أخاك !

فقال قدري بصوت كالأنين :

- لا أستطيع .

- انك استطعت قتله .

- لا أستطيع يا ابي .

- لا تقل « ابي » ، قاتل اخيه لا أب له ، لا ام له ، لا أخ له .

- لا أستطيع .

فشد قبضته عليه وقال :

- على القاتل ان يحمل ضحيته .

حاول قدري ان يفلت من قبضة ادهم ولكن ادهم لم يمكنه ، وانهاك في عصبية على وجهه بالكلمات فلم يتفاد من لكمة او يتأوه من ألم . وكف الرجل ، ثم قال :

- لا تضيع الوقت ، امك تنتظر .

وارتعد قدري لدى ذكر امه ، فقال برجاء :

- دعني اختفي .

فجذبه نحو الجثة وهو يقول :

- هلم نحمله معاً .

تحول ادهم الى الجثة ووضع يديه تحت ابطي همام ، وانحنى قدري واضعاً يديه تحت الساقين . رفعوا الجثة معاً ، وسارا في ببطء نحو نخلاء الدراسة . اوغل ادهم في مشاعره الأليمة حتى فقد اي شعور بالألم او بسواه . ولبث قدري يعاني الماء من خفقان قلبه وارتجاف اطرافه . وامتلاً انفه برائحة ترابية نفاذة على حين سرى مس الجثة من يديه الى اعماقه . وكان الظلام غليظاً بينا نضح الأفق بأنوار الأحياء الساهرة . وشعر

قدري : لئاس يكتّم آخر انفاسه فتوقف قائلاً لأبيه :

— سأحمل الجثة وحدي .

ووضع ذراعاً تحت الظهر وأخرى تحت الفخذين ، وسار يتبعه ادهم .

٢٢

وعندما اقتربا من الكوخ جاءهما صوت اميمة متسائلاً في جزع :

— هل وجدتماه ؟

فصاح ادهم بصوت آمر :

— اسبقيني الى الداخل .

وسبق قدري الى الكوخ ليتأكد من اختفائها . ووقف قدري عند

مدخل الكوخ لا يريد ان يتحرك . وأشار له ابوه بالدخول فامتنع قائلاً

في صوت هامس :

— لا استطيع ان القاها .

فهمس الأب حائقاً :

— استطعت ما هو افظع .

فتشبث قدري بموقفه وهو يقول :

— كلا ، هذا افظع .

ودفعه ادهم امامه مجزوم فاضطر الى التحرك حتى بلغ الحجرة الخارجية .

وانقض ادهم على اميمة بسرعة فكتّم براحتة الصرخة التي اوشكت على

الافلات من فيها ، وقال بقسوة :

— لا تصرخي يا ولية ، لا ينبغي ان نلفت الأسماع حتى نتدبر الأمر ،

فلنقاس المقدور صامتين ، ولنتحمل الألم صابرين ، الشر من بطنك ومن

صليبي خرج ، واللعة حقت علينا جميعاً .

وسد فاما بقوة . وحاولت التخلص من يده عبثاً . ارادت ان تعضها فلم تتمكن . اضطربت انفاسها وخارت قواها فسقطت مغشياً عليها . ولبث قدري واقفاً يحمل الجثة في صمت وخزي مركزاً بصره على المصباح ليتجنب النظر اليها . واتجه ادهم نحوه ، فساعدته على وضع الجثة على الفراش ، ثم سجاها برفق . ونظر قدري الى جثة اخيه المسجاة على الفراش الذي اقتسماه طوال العمر ف شعر بأنه لم يعد له مكان في الدار . وحركت اميمة رأسها ، ثم فتحت عينيها فبادر ادهم اليها وهو يقول بحزم :
- اياك ان تصرخي ..

وارادت ان تنهض فساعدتها على النهوض وهو يحذرها من احداث صوت . وهمت بالارتقاء على الفراش فحال الرجل دون ذلك ، فوقفت مغلوبة على امرها واندفعت تنفس عن كبرها بشد شعرها بقسوة فانزعجت منه خصصات بعد خصصات . ولم يبال الرجل بما تفعل ، وقال بغلظة :
- افعلي ما يريحك ولكن في صمت .

فقالت بصوت مبجوح :

- ابني !.. ابني ..

فقال ادهم في ذهول :

- هذه جثته ، لم يعد ابنك ولا ابني ، وهذا هو قاتله ، اقتليه

ان شئت .

ولطمت اميمة خديها وقالت لقدري بوحشية :

- ان احط الوحوش تتبرأ من فعلتك !

فحنى قدري رأسه في صمت على حين قال ادهم بوحشية :

- هل تذهب هذه الروح هدرأ ؟ لا ينبغي ان نحيا ، هذه

هي العدالة .

فهتفت اميمة :

- كان امس املاً مشرقاً ، قلنا له اذهب فأبى ، لبته ذهب ،

لو لم يكن كريماً بطلاً رحيماً لذهب، أليكون جزاء هذا القتل ؟! كيف
هان عليك يا صخري القلب ! لست ابني ولست أمك !
لم ينبس قدري لكنه قال لنفسه : « قتلته مرة وهو يقتلني مرة كل
ثانية ، لست حياً ، من قال اني حي ؟ » . وسأله ادهم بفضاظة :
— ماذا افعل بك ؟

فقال قدري بهدوء :
— قلت انه لا ينبغي ان احيا .
فهتفت اميمة :

— كيف سولت لك نفسك قتله ؟!
فقال قدري في يأس :
— لا جدوى من النواح ، اني مستعد للعقاب ، والقتل اهون مما اعاني .
فقال ادهم بحنق :
— لكنك جعلت حياتنا ايضاً افطع من الموت .
وهبت اميمة هائفة وهي تلطم خديها :
— لن احب هذه الحياة ، ادفنوني مع ابني ، لماذا لا تدعني اصوت ؟
فقال ادهم بمرارة وسخرية :
— ليس شفقة على حنجرتك ولكني اخشى أن يسمعنا الشيطان .
فقال قدري باستهانة :

— فليسمع كيف شاء ، لم اعد اكرث للحياة .
واذا بصوت ادريس يعلو قريباً من مدخل الكوخ :
— اخي ادهم ! تعال يا مسكين !
فسرت الرعدة فيهم جميعاً ، غير ان ادهم صاح به :
— عد الى كوخلك ، واحذر ان تستفزني .
فقال ادريس بصوت قوي :
— شر اهون من شر ، مصيبتكم نجسكم من غضبي ، ولكن لن ندع

هذا الحديث ، كلانا مصاب ، انت فقدت العزيز الغالي ، وأنا ضاعت ابنتي الوحيدة ، كان الابناء عزاءنا في منفانا ولكنهم ذهبوا ، تعال يا مسكين نتبادل العزاء .

اذن ذاع السر ! كيف ذاع ؟! ولأول مرة يخاف قلب اميمة على قدري . وقال ادهم :

— لا نهمني شماتتك ، من يذق ألمي تن عليه الشماتة !
فجاء صوت ادريس مستنكراً :

— شماتة ! الا تدري اني بكيت عندما رأيتك تسحب الجثة من الحفرة التي حضرها قدري ؟!
فصاح ادهم بغضب :
— نجس حقير !

— لم ابك على القتل وحده ولكن على القاتل ايضاً ! وقلت لنفسني يا لك من مسكين يا ادهم ، فقدت شابين في ليلة واحدة !
وصوت اميمة دون اكتراث لأحد ، واندفع قدري خارج الكوخ بغتة . وجرى ادهم وراءه . وصرخت اميمة :
— لا اريد ان افقد الاثنين !

اراد قدري ان يثب على ادريس ولكن ادهم دفعه بعيداً عنه ثم وقف امام الرجل متحدباً وهو يقول :
— احذر ان تتعرض لنا !
فقال ادريس بهدوء :

— انت احق يا ادهم ، لا تفرق بين الصديق وبين العدو ، تريد ان تعارك اخاك دفاعاً عن قاتل ابنتك :
— اذهب عني .

فقال ادريس ضاحكاً :
— كما نشاء ، تقبل عزائي والسلام عليكم .

غاب ادريس في الظلام . وتحول ادهم نحو قدري فوجد اميمة واقفة
تسأل عنه ، فجزع الرجل وراح ينظر في الظلام ويصيح بأعلى صوته :

— قدري .. قدري .. اين انت ؟!

وجاءه صوت ادريس وهو يصيح بقوة :

— قدري .. قدري .. اين انت ؟!

٢٣

دُفن همام في مقبرة تابعة للوقف بباب النصر . سار في جنازته قوم
كثيرون من معارف ادهم ، اكثرهم باعة من زملائه ، وأقلهم زبائن
من أسرهم رقة اخلاقه وحسن معاملته . وفرض ادريس نفسه على الجنازة
فاشترك في تشييعها ، بل وقف يتقبل العزاء بصفته عم الفقيد . وسكت
ادهم كارهاً ، فسار في الجنازة كثيرون من الفتوات والبلطجية والبرجية
واللصوص وقطاع الطرق . وعند الدفن وقف ادريس فوق القبر يشجع
ادهم بكلمات العزاء والآخِر صابر متصبر لا يجيب ودموعه تستبق على
خديه . وروحت اميمة عن كربيها باللطم والصراخ والتمرغ في التراب .
وعندما تفرق المشيعون ، التفت ادهم الى ادريس وقال بحنق :

— الا يوجد حد لقسوتك ؟!

فتظاهر ادريس بالدهشة وتساءل :

— عم تتحدث يا اخي المسكين ؟

فقال ادهم بحدة :

— لم اتصورك على هذا القدر من القسوة رغم سوء ظني بك ، الموت

نهاية كل حي ، فما وجه الشماتة فيه ؟!

فقال ادريس وهو يضرب كفّاً على كف :

— الحزن اخرجك عن ادبك ، لكني مسامحك .
— متى تقر بأنه لم تعد تربطنا صلة ؟
— لترحمنا السماء ، الست اخي ؟! هذه رابطة ليس في الامكان
فصمها .

— ادريس !. كفاك ما فعلت بي .
— الحزن قبيح ، ولكن كلانا مصاب ، انت فقدت همام وقدري
وأنا فقدت هند ، اصبح للجلاوي العظيم حفيدة عاهرة وحفيد قاتل ،
وعلى اي حال فانت خير حالا مني اذ لك ذرية تعوضك عما فات .
فتساءل ادهم في حسرة :
— اما زلت تحسدني ؟
فقال ادريس متعجباً :
— ادريس يحسد ادهم !
فعلا صوت ادهم وهو يهذر :
— اذا لم يكن جزاؤك من جنس عملك فعلى الدنيا العفاء .
— العفاء ، العفاء .

ومرت ايام كثيرة مفعمة بالاشجان . وقهر الحزن اميمة فساءت صحتها
واعترضها الضمور . وفي اعوام قلائل بلغ ادهم من الهرم ما لا يُبلغ
في عمر مديد . وبات الزوجان يعانيان الهزال والمرض . ويوماً اشتدت
عليهما وطأة المرض فركنا الى الرقاد ، اميمة مع طفليها في الغرفة
الداخلية ، وادهم في الغرفة الخارجية ، غرفة قدري وهمام . ومضى النهار
وجاء الليل فلم يشعلا مصباحاً ، وقنع ادهم بنصوء القمر المنبعث من
الفناء . وراح يغفو قليلاً ويستيقظ قليلاً في حال بين الوعي والذهول .
وجاءه صوت ادريس من خارج الكوخ وهو يسأله متهمكاً :
— الست في حاجة الى خدمة ؟
فانقبض صدره ولم يجبه . وكان يكره الساعة التي يغادر فيها الآخر

كوخه ليذهب الى سهرته الليلية . وجاءه الصوت مرة اخرى وهو يقول :
- اشهدوا يا ناس على برّي وعقوقه .
وذهب وهو يغني :

كنا ثلاثة طلعتنا الجبل نصطاد
واحد قتله الهوى والثاني خدوه الاحباب

امتألت عيننا ادهم بالدموع . هذا الشر الذي لا يصد عن اللهو .
يقاتل ويقتل ويحظى بكل احترام . يقسو ويستبد هازئاً بالعواقب وله
ضحكة تجلجل فتملاً الآفاق . له لذة في العبث بالضعفاء ويسمر في
المآتم ويغني فوق شواهد القبور . الموت يدنو مني وهو ما زال يضحك
ساخراً . القتل في التراب والقاتل ضائع وفي كوخني بكاء على الاثنين .
ضحكة الطفولة في الحديقة استحالت مع الايام عبوسة غارقة في الدمع .
وفي الداخل بقية جسدي يتوجع . لماذا هذا العناء كله وأين صفو
الاحلام أين ؟

وخيل الى ادهم انه يسمع وقع اقدام . اقدام بطيئة وثقيلة استثارت
ذكريات غامضة كرائحة زكية مؤثرة تستعصي على الادراك والتحديد .
حول وجهه نحو مدخل الكوخ فرأى الباب يفتح ، ثم رآه يمتلئ بشيء
كبجسم هائل . حلق في دهش ، وأحدّ بصره في أمل يكتنفه يأس ،
ونذرت عنه آهة عميقة ، وغمغم متسائلاً :

- أبي ١٩

وخيل اليه انه يسمع الصوت القديم وهو يقول :
- مساء الخير يا ادهم .

فاغرورقت عيناه ، وهم بالقيام فلم يستطع ووجد غبطة وبهجة لم
يجدهما منذ اكثر من عشرين عاماً . وقال بصوت متهدج :
- دعني اصدق .

فقال :

— أنت تبكي وأنت الذي انخطأت .

فقال ادهم بصوت يشرق بالدمع :

— الخطأ كثير والعقاب كثير ولكن حتى الحشرات المؤذية لا تيأس من العثر على ظل .

— هكذا تعلمني الحكمة !

— عفواً عفواً ، الحزن ارمقني ، والمرض ركبي ، حتى اغنامي مهددة بالهلاك .

— جميل ان تخاف على أغنامك .

تساءل ادهم في رجاء :

— هل عفوت عني ؟

أجاب بعد صمت :

— نعم .

فهتف ادهم بحسم مرتعش :

— الشكر لله ، منذ قليل كنت اقرع قاع هاوية اليأس بيدي .

— فعثرت علي فيها !

— نعم كالصحو بعد الكابوس .

— لذلك فأنت ولد طيب .

فتأوه ادهم قائلاً :

— أنجبت قائلاً وقتيلاً .

— الميت لا يعود فإذا تطلب ؟

فتنهدهم ادهم قائلاً :

— كنت أهفو للغناء في الحديقة ولكن لن يطيب لي اليوم شيء .

فقال :

— سيكون الوقف لذريتك .

- الشكر لله .

فقال :

- لا تجهد نفسك واركن الى النوم .

وفي تواريخ متقاربة ودع الحياة أدهم فأمية ثم إدريس . وكبر
الأطفال . وعاد قدري بعد غيبة طويلة ومعه هند ومعها أطفال . نشأوا
جنباً الى جنب وخالطوا غيرهم فازدادوا بهم عدداً . ولانتشر العمران
بفضل أموال الوقف فارتسمت في صفحة الوجود حارتنا . ومن هؤلاء
وأولئك جاء أبناء حارتنا .

جبل

أقيمت بيوت الوقف في خطين متقابلين يصنعان حارتنا . ويبسداً
الخطان من خط يقع أمام البيت الكبير ، ويمتدان طولاً في اتجاه الجمالية .
أما البيت الكبير فقد ترك خالياً من جميع الجهات على رأس الحارة من
ناحية الصحراء . وحارتنا ، حارة الجبلأوي ، أطول حارة في المنطقة .
أكثر بيوتها ربوع كما في حي آل حمدان ، وتكثر الأكواخ من منتصفها
حتى الجمالية . ولن تتم الصورة الا بذكر بيت ناظر الوقف على رأس
الصف الأيمن من المساكن ، وبيت الفتوة على رأس الصف الأيسر قبالة .
كان البيت الكبير قد أغلق أبوابه على صاحبه وخدمه المقربين .
ومات أبناء الجبلأوي مبكرين فلم يبق من سلالة الذين أقاموا وماتوا في
البيت الكبير إلا الأفندي ناظر الوقف في ذلك الوقت . أما أهل الحارة
عامة فمنهم البائع الجوال ، ومنهم صاحب الدكان أو القهوة ، وكثيرون
يتسولون ، وثمة تجارة مشتركة يعمل فيها كل قادر هي تجارة المخدرات
وبخاصة الحشيش والأفيون والمدافع . وكان طابع حارتنا - كمحالتها
اليوم - الزحام والضييق . الاطفال الحفاة اشباه العرايا يلعبون في كل
ركن ، ويملأون الجو بصراخهم والأرض بقاذوراتهم . وتكتظ مداخل
البيوت بالنساء ، هذه تخرط الملوخية ، وتلك تقشر البصل ، وثالثة
توقد النار ، يتبادلن الأحاديث والنكات ، وعند الضرورة الشائم والسباب .
والغناء والبكاء لا ينقطعان ، ودقة الزار تستأثر باهتمام خاص . وعربيات

اليد في نشاط متواصل . ومعارك باللسان أو بالأيدي تنشب هنا وهناك . وقطط تموء وكلاب تهر وربما تشاجر النوعان حول أكوام الزبالة . والفئران تنطلق في الأفنية وعلى الجدران ، وليس بالنادر ان يتجمع قوم لقتل ثعبان أو عقرب . أما الذباب فلا يضاهيه في الكثرة إلا القمل ، فهو يشارك الآكلين في الأطباق والشاربين في الأكواز ، يلهو في الأعين . يغني في الأفواه كأنه صديق الجميع .

وما أن يجد شاب في نفسه جرأة أو في عضلاته قوة حتى يتدفع إلى التحرش بالآمنين ، والاعتداء على المسالمين فيفرض نفسه فتوة على حي من أحياء الحارة ، يأخذ الاتاوات من العاملين ، ويعيش ولا عمل له إلا الفتونة . هكذا وجد فتوات الأحياء مثل قدره والليثي وأبو سريع وبركات وحمودة . وكان زقلط أحد هؤلاء الفتوات ، فخاض معارك كثيرة مع فتوة بعد فتوة حتى هزم الجميع وصار فتوة الحارة كلها . وفرض الاتاوات على الفتوات جميعاً . ورأى الأفندي ناظر الوقف انه بحاجة الى مثل هذا الرجل لينفذ أوامره أو يدفع عنه ما قد يتهدهده من شر فقربه ورتب له راتباً عظيماً من ريع الوقف ، فأقام زقلط في بيته المقابل لبيت الناظر واستحكم سلطانه . وعند ذاك ندر وقوع المعارك بين الفتوات ، اذ ان الفتوة الأكبر لا يرتاح الى هذا النوع من المعارك الذي قد ينتهي بتكبير فتوة وبالتالي بتهديد مركزه هو : لذلك لم يجد الفتوات متنفساً لقوة شرهم الحبيسة إلا في الاهالي المساكين المسالمين . كيف انتهى الأمر بجارتنا الى هذه الحال ؟

لقد وعد الجبلاوي أدهم بأن يكون الوقف لخير ذريته . وشيدت الربوع ووزعت الخيرات وحظي الناس بفترة من العمر السعيد . ولما أغلق الأب بابه واعتزل الدنيا احتذى الناظر مثاله الطيب حيناً ، ثم لعب الطمع بقلبه فتنزع إلى الاستئثار بالريع . بدأ بالمغالطة في الحساب والتفتير في الأرزاق ثم قبض بسده قبضاً مطمئناً إلى حماية فتوة السارة الذي

اشتراه . ولم يجد الناس بداً من ممارسة أحقر الاعمال . وتكاثف عددهم فزاد فقرهم وغرقوا في البؤس والقدارة . وعمد الأقوياء الى الارهاب والضعفاء الى التسول ، والجميع الى الممخدرات . كان الواحد يكد ويكدح نظير لقمة يشاركه فيها فتوة ، لا بالشكر ، ولكن بالصنع والسب واللعن . الفتوة وحده يعيش في بحبوحة ورفاهية ، وفوق هذا الفتوة الاكبر ، والناظر فوق الجميع ، أما الاهالي فتحت الأقدام . واذا عجز مسكين عن أداء الاتاة انتقم منه فتوة حيه شر الانتقام ، واذا شكأ أمره الى الفتوة الاكبر ضربه الفتوة الاكبر وأسلمه الى فتوة حيه ليعيد تأديبه ، فاذا سولت له نفسه أن يشكو الى الناظر ضربه الناظر والفتوة الاكبر وفتوات الاحياء جميعاً . وهذه الحال الكئيبة شهدتها بنفسى في أيامنا الاخيرة ، صورة صادقة مما يروي الرواة عن الزمان الماضية . أما شعراء المقاهى المنتشرة في حارتنا فلا يروون الا عهود البطولات متجنين الجهر بما يخرج مراكز السادة ، ويتغنون بمزايا الناظر والفتوات ، بعدل لا تحظى به ورحمة لا نجدها وشهامة لا نلقاها وزهد لا نراه ونزاهة لا نسمع عنها . واني لأتساءل عما أبقي آباءنا - أو عما يبقينا نحن - بهذه الحارة اللعينة ؟ الجواب يسير . لن نلقى في الحوارى الاخرسات الا حياة اسوأ من الحياة التي نكابدها هنا ، هذا إذا لم يهلكنا فتواتها انتقاماً مما لاقوا على أيدي فتواتنا . والادهى الامر أننا محسودون ! بقول أهالي الحوارى حولنا يا لها من حارة سعيدة ! تحظى بوقف لا مثيل له ، وفتوات تقشعر عند ذكرهم الابدان . ونحن لا ننال من الوقف إلا الحشرات ، ومن قوة فتواتنا إلا الاهانات والاذى . على ذلك كله فنحن باقون ، وعلى الهم صابرون . نتطلع إلى مستقبل لا ندرى منى يجيء ، ونشير الى البيت الكبير ونقول هنا أبونا العتيد ، ونومى إلى الفتوات ونقول هؤلاء رجالنا ، والله الامر من قبل ومن بعد .

ونفذ صبر آل حمدان فاصطخبت في حيههم أمواج التمرد .
كان آل حمدان يقيمون في قمة الحارة فيما يلي بيتي الافندي وزقلط ،
حول البقعة التي بنى أدهم فيها كوخه . وكان رئيسهم حمدان صاحب
قهوة ، قهوة حمدان ، أجمل قهوة في الحارة كلها ، التي تتوسط حي
حمدان بين الربوع . جلس المعلم حمدان في الجهة اليمنى من مدخل القهوة ،
في عباءة رمادية ، وعلى الرأس لاسة مزركشة ، يتابع عبدون صبي
القهوة في نشاطه المتواصل ، ويتبادل مع بعض الزبائن الاجاديث .
وكانت القهوة ضيقة العرض ولكنها تمتد طويلاً حتى أريكة الشاعر في
الصدر تحت صورة خيالية ملونة لادهم في رقاده الاخير وهو يتطلع الى
الجبلاوي الواقف بباب الكوخ . أشار حمدان إلى الشاعر فتناول الرابعة
واستعد للانشاد . وبين انغام الأوتار بدأ بتحية الناظر حبيب الجبلاوي ،
وزقلط زين الرجال ، ثم روى فترة من حياة الجبلاوي قبيل مولد
أدهم . وندت عن احتساء القهوة والقرقة والشاي أصوات ، وانعقد
الدخان المتصاعد من الجوز حول الفانوس سحباً شفافة . وتركزت الأعين
في الشاعر ، واهتزت الرؤوس لجمال ذكرى أوحش موعظة . ومضى
وقت الخيال في شغف وانسجام حتى وافاه الختام ، وترامت على الشاعر
نحيات الاستحسان . عند ذاك تحركت في الأعماق موجة التمرد التي
اجتاحت آل حمدان ، فقال عتريس الأعمش من مجلسه وسط القهوة ،
معلقاً على ما سمع من قصة الجبلاوي :

— كان في الدنيا خير ، حتى أدهم لم يجمع يوماً واحداً .
وإذا بتمرحنة العجوز تقف أمام الدكان وتنزل قفص البرتقال من

فوق رأسها ، ثم تقول موجهة الخطاب الى عتريس الأعمش :

— يسلم فلك يا عتريس ، كلامك كالبرتقال السكري !

فنهرها المعلم حمدان قائلاً :

— اذهبي يا وليه وأريجينا من كلامك الفارغ .

لكن تمرحنة جلست على الأرض لصق مدخل القهوة وهي تقول :

— ما أحلى القعدة جنبك يا معلم حمدان (ثم وهي تشير الى قفص

البرتقال) يوم ونصف ليلة في المشي والنداء نظير ملايم يا معلم ..

وهمّ المعلم بالرد عليها ولكنه رأى ضلمة مقبلاً مقطباً وقد ثلوث

جبينه بالتراب فنظر اليه حتى وقف أمامه في مدخل القهوة وهتف بصوت

مرتفع :

— ربنا على المفترى ! قدره ... قدره هو اكبر مفترى ، قلت

له امهلني الى الغد حتى يفتح الله عليّ فرماني على الأرض وبرك فوق

صدري حتى كتم أنفاسي .

فجاء صوت عم دعس من أقصى القهوة وهو يقول :

— تعال يا ضلمة اقعد جنبي ، تعال الله يلعن أولاد الحرام ، نحن

أسياد هذه الحارة ولكننا نُضرب فيها كالكلاب ، ضلمة لا يجد اتساوة

لقدره ، تمرحنة تسرح بالبرتقال وهي لا ترى أبعد من ذراع أمامها ،

وأنت يا حمدان أين شجاعتك يا ابن أدهم ؟!

فانجبه ضلمة الى الداخل ، ونساءلت تمرحنة :

— أين شجاعتك يا ابن ادهم ؟!

فهتف بها حمدان :

— غوري يا تمرحنة ، أنتِ فت من الزواج من خمسين سنة فلم

تجبن مجالس الرجال ؟

فتساءلت المرأة :

— أين هم الرجال ؟!

فقطب حمدان ولكن تمرحنة بادرت به كالمعتذرة :
 - دعني اسمع الشاعر يا معلم .
 فقال دعيس للشاعر بمرارة :
 - حدثها عن هوان آل حمدان في هذه الحارة .
 فابتسم الشاعر قائلاً :
 - حلمك يا عم دعيس ، حلمك يا سيد الناس .
 فقال دعيس محتداً :
 - من سيد الناس ؟ ان سيد الناس يضرب الناس ويظلم الناس
 ويغتال الناس ، أنت تعرف من هو سيد الناس !
 فقال الشاعر بقلق :
 - قد نجد بيتنا فجأة قدره او غيره من الشياطين !
 فقال دعيس بخدة :
 - كلهم ذرية لإدريس !
 فقال الشاعر بصوت خافت :
 - حلمك يا عم دعيس قبل ان تهدم القهوة فوق رؤوسنا .
 فنهض دعيس من مجلسه وقطع القهوة في خطوات واسعة ثم جلس
 الى يمين حمدان على أريكة وهم بالكلام ، ولكن ضجة غلمان علت بغتة
 حتى غطت على صوته ، وانتشروا أمام القهوة كالجراد وهم يتبادلون
 السباب فصرخ فيهم دعيس :
 - يا أولاد الشياطين أليس لكم جحور تؤيكم في الليل ؟
 لكنهم لم يبالوا بصراخه فوثب كالمسدوخ وأنتفض عليهم ، فجروا
 في الحارة وهم يصيحون « هيه » ، وترامى أكثر من صوت نسائي
 من نوافذ الربع المواجه للقهوة ، « وحد الله يا عم دعيس » ،
 « خوفت الأولاد يا رجل » ، فلوح بيده ساخطاً وعساد الى مجلسه
 وهو يقول :

- الواحد حيران ، لا عند الأولاد راحة ولا عند الفتوات راحة
ولا عند الناظر راحة .

آمن كل على قوله . آل حمدان ضاع حقهم في الوقف ، آل حمدان
تمرغوا في تراب القذارة والبؤس . آل حمدان تسلط عليهم فتوة ليس
منهم بل من أخط الأحياء . قدّره يسير بينهم مختالا يصفع من يشاء
ويأخذ الاتاة ممن يشاء . لذلك نفسد صبر آل حمدان واصطخبت في
حيهم أمواج التمرد .

والنفث دعبس الى حمدان وقال :

- يا حمدان ، الجميع على رأي واحد ، نحن آل حمدان ، عددنا
كبير ، أصلنا معروف ، وحققنا في الوقف كحق الناظر نفسه .
فغمغم الشاعر :

- اللهم فوت الليلة على خير .

حمدان حبك العبادة حوله ورفع حاجيه المثلثين الغزيرين وقال :

- قلنا في هذا وعدنا ، سيحدث أمر ، اني اشم الأحداث شماً .
وارتفع صوت علي فوانيس بالتحية وهو يدخل القهوة مشمر الجلباب
وطاقيته الترابية مائلة حتى حاجبيه ، وما لبث ان قال :
- الكل مستعدون ، ولو احتاج الأمر الى نقود سيعطون ، حتى
الشحاذون .

وانحشر بين دعبس وحمدان وهو يهتف بعبدون صبي القهوة :

- شاي من غير سكر .

فانتبه اليه الشاعر قائلاً :

- إحم !

فابتسم علي فوانيس ودس يده في صدره فأخرج كيساً ثم فتحه
واستخرج منه لفافة صغيرة رمى بها الى الشاعر . وربت فخذ حمدان
متسائلاً فقال هذا :

- أمامنا المحكمة .
- فقلت تمرحنة :
- خير ما نفعل .
- فقال الشاعر وهو يخرج الشيء من اللقافة :
- فكروا في العواقب .
- فقال علي فوانيس بحدة :
- لا هو ان أحط مما نحن فيه ، ولنا عدد وفير يجب حسابه ،
- والأفندي لا يمكن ان يتجاهل أصلنا وقرابتنا اليه والى صاحب الوقف .
- فقال الشاعر وهو ينظر الى حمدان نظرة ذات معنى :
- لم تضق بنا الحلول .
- فقال حمدان كأنما يجيبه :
- عندي فكرة جريئة !
- نطلعت اليه الأبصار فقال :
- أن نلجأ الى الناظر !
- فقال عبدون وهو يقدم الشاي الى فوانيس :
- خطوة عزيزة وبعدها تخفر قبور .
- فضحكت تمرحنة قائلة :
- اسمعوا فالكم من عيالكم .
- لكن حمدان قال بتصميم :
- ينبغي ان نذهب ، ولنذهب جماعة .

على رأسهم حمدان ودعبس وعتريس الأعمش وضلمة وعلي فوانيس
ورضوان الشاعر . كان من رأى رضوان ان يذهب حمدان وحده نفيًا
لشبهة العصيان واتقاء لعواقبه، ولكن حمدان قال له بصراحة : « ان قتل
شيء يسير ولكن قتل آل حمدان لا يتدرون عليه » . ولفت التجمهر
انظار اهل الحارة وبخاصة الجيران الأقربين ، فبرزت رؤوس النساء من
النوافذ ، وتطلعت أعين من تحت السلال والمقاطف ومن فوق عربات
البد ، وأقبل كثيرون كباراً وصغاراً وتساءلوا ماذا يريد آل حمدان ؟ .
وقبض حمدان على المطرقة النحاسية وطرق الباب ، ففتح بعد قليل عن
البواب بوجهه الكئيب ونسائم محملة بشذا الفل والياسمين . نظر البواب
الى المتجمهرين بانزعاج وتساءل :

— ماذا تريدون ؟

فقال حمدان بقوة استمدها ممن خلفه :

— نريد مقابلة حضرة الناظر .

— كلكم ؟

— ليس فينا من هو احق بالمقابلة من الآخرين .

— انتظروا حتى استأذن لكم .

وهمّ برد الباب لكن دعبس مرق الى الداخل وهو يقول :

— الانتظار في الداخل أكرم .

واندفع وراءه الآخرون كالسرب وراء الحمامة ، ودُفِع حمدان بينهم
رغم سخطه على اندفاع دعبس فانقلبت المظاهرة الى الممشى المفروش
بين السلامك والحديقة . وصاح البواب :

— يجب ان تخرجوا .

فقال حمدان :

— الضيف لا يطرد ، اذهب وخبر سيدك .

وتحركت شفتا الرجل باحتجاج غدير مسموع ، وشت به قسماته

المكفهرة ثم تحول مهزولاً نحو السلامك . وتبعته الأعين حتى اختفى وراء الستار المسدل على باب البهو ، وظلت أعين عالقـة بالستار ، وجالت أعين في انحاء الحديقة ، حول فسقية المحاطة بالنخيل ، وأعراش العنب لصق الجدران ، وفروع الياسمين المتسلقة الأسوار ، جالت بنظرات حائرة وحواس مغلقة بالهمّ وما لبثت ان ردت الى الستار المسدل على باب البهو . وانزاح الستار فخرج الأفندي بنفسه متجهـم الوجه ، وتقدم في خطوات حادة غاضبة حتى وقف عند رأس السلم . لم يبد من شخصه المتلفع بالعباءة الا وجهه الغاضب وشبهه الوبري وسبحة طويلة في يمينه . القى نظرة ازدراء على المظاهرة ثم استقرت عيناه على حمدان فقال هذا بأدب جم :

- صبحك الله بالسعادة يا حضرة الناظر .
- فاكتفى برد التحية بحركة من يده ، وتساءل :
- من هؤلاء ؟
- آل حمدان يا حضرة الناظر .
- من اذن لهم بالدخول في بيـي ؟
- فقال حمدان بدهاء :
- انه بيت ناظرهم ، فهو بيتهم ، وهم في حماه .
- فلم يلق وجه الأفندي وقال :
- تحاول الاعتذار عن سوء سلوككم !
- وضاق دعيس بتأدب حمدان فقال :
- نحن اسرة واحدة ، جميعنا ابناء ادهم وأميمة .
- فقال الأفندي بامتناع :
- ذاك تاريخ مضى ، ورحم الله امراء عرف قدر نفسه .
- فقال حمدان :
- نحن في كرب من الفقر وسوء المعاملة ، فاجتمع الرأي بيننا على

اللاجوء اليك لتفرج كربنا .

وهنا قالت تمرحنة :

— وحياتك عيشتنا تعرف الصراصير .

فقال دعيس بصوت ارتفع درجات :

— اكثرا متسولون ، اطفالنا جياع ، وجوهنا متورمة من صفع

الفتوات ، أيليق ذلك بأبناء الجبلاوي ومستحقي وقته ؟!

فتقبض يد الأفندي على المسبحة وهتف :

— اي وقف يا هذا ؟

حاول حمدان ان يمنع دعيس من الكلام ولكنه اندفع قائلاً كمن

لطشت الحمر رأسه :

— الوقف الكبير ، لا تغضب يا حضرة الناظر ، الوقف الكبير الذي

يملك حارتنا من أولها الى آخرها ، ويتبعه كل حكر في الخلاء المحيط ،

وقف الجبلاوي يا حضرة الناظر .

فاندلعت ألسنة الغضب من عيني الأفندي وصاح :

— هذا وقف ابي وجددي ما لكم به صلة ، انكم تتناقلون الحكايات

الخرافية وتصدقونها ، وما لديكم دليل او حجة .

فقال اكثر من صوت وضح بينها صوتا دعيس وتمرحنة :

— الجميع يعرفون ذلك ؟

— الجميع ؟ ما قيمة ذلك ؟ لو تناقلتم فيها بينكم ان بيتي هو بيت

فلان او علان منكم فهل يكفي هذا لاغتصاب بيتي يا هؤلاء ؟ حارة

حشاشين حقيقة ! خبروني متى اخذ احدكم ملياً من ريع الوقف ؟

فساد الصمت ملياً ثم قال حمدان :

— كان اباؤنا يأخذون .

— أليكم دليل ؟

فعاد حمدان يقول :

— قالوا لنا ونحن نصدقهم .

فهتف الأفندي :

— كذب في كذب : وتفضلوا غير مطرودين .

فقال دعيس بتصميم :

— أطلعنا على الشروط العشرة .

فصاح الأفندي :

— لماذا اطلعكم عليها ؟ من انتم ؟ ما علاقتكم بها ؟

— نحن المستحقون .

عند ذاك تعالى صوت هدى هائم حرم الناظر من وراء البساط

وهي تقول :

— دعهم وادخل ، لا تبسج صوتك بمناقشتهم .

فقال تمرحنة :

— كوني محضر خير يا ست هائم .

فقال هدى هائم بصوت متهدج من الغضب :

— قطع الطرق لا تكون بالنهار والشمس طالعة !

فقال تمرحنة بامتناع :

— الله يسامحك يا ست هائم ، الحق على جدنا الذي اغلق على

نفسه الأبواب .

فرفع دعيس رأسه وصاح بصوت كالرعد :

— يا جبلاوي ! تعال شف حالنا ، تركتنا تحت رحمة من

لا رحمة لهم .

دوى الصوت قويا حتى خيل إلى البعض انه سيلغ الجلد في بيته .

ولكن الأفندي صاح مرتعش النبرات من الحق :

— اخرجوا ، اخرجوا دون تردد .

وقال حمدان بضيق :

— هيا بنا .

وتحول عن موقفه ومضى نحو الباب . واخذوا يتبعونه صامتين . حتى
دعيس تبعه . لكنه رفع رأسه مرة أخرى وصاح بالقوة نفسها :
- يا جبلاوي !

٢٧

دخل الافندي البهو مصنر الوجه من الغضب فوجد زوجه واقفة
مقطبة ، فقالت :

- حركة غريبة لها ما بعدها ، ستكون حديث الحارة كلها : وإذا
تهاونا في الأمر قتل علينا السلام .
فقال الافندي بتقرز :

- رعا ع ابناء رعا ع ويطمعون في الوقف ، منذ الذي يستطيع ان
يعرف اصله في حارة مثل خلية النحل ؟

- احسم الأمر ، ادع زقلط ودبر امرك ، زقلط يقاسمنا الربع دون
ان يفعل شيئاً فدعه يحلل ما ينهب من أموالنا .
فحدجها الافندي بنظرة طويلة ثم تسام :
- وجبل ؟!

فقالت بطمأنينة وثقة :

- جبل ! انه ربينا ، بل هو ابني ، لم يعرف من الدنيا الا بيتنا ،
آل حمدان فلا يعرفهم ولا يعرفونه ، ولو كانوا يعدونه منهم لتشفعوا
به الينا ، اطمئن من ناحيته ، وسوف يعود من جوائه بين المستأجرين
فيحضر الاجتماع .

وجاء زقلط تلبية لدعوة الناظر . كان متوسط القامة : بديناً ، متين
البنان ، وبقيساته سماجة وغلظة ، وريقته وذقنه نديوب . جلسوا متقاربين
وزقلط يقول :

— سمعت اخباراً لا تسر .

فقلت هدى بغیظ :

— ما اسرع ما تجري اخبار السوء .

وقال الافندي وهو يلحظ زقلط بمكر :

— انها تمس هيئتنا كما تمس هيئتك .

فقال زقلط بصوت كالخوار :

— مضى زمن غير قصير دون ان تحرك نبوتاً او نسفك دمأ .

فابتسمت هدى قائلة :

— يا لهم من مغرورين آل حمدان ، لم يظهر منهم فتوة واحد ،

ومع ذلك فأحقرهم يزعم انه سيد الحارة .

فقال زقلط باشمتراز :

— باعة ومتسولون ، ولن يظهر فتوة من قوم خرعين !

فتساءل الافندي :

— والعمل يا زقلط ؟

— سأدوسهم بقدمي كالصراصير .

سمع جبل قول زقلط وهو يدخل البهو . بدا مورد الوجه بعد

جولته في الخلاء ، وجرت حيوية الشباب في جسمه انفارح القوي ،

ووجهه ذي الملامح الصريحة وبخاصة انفه المستقيم وعينه الكيبريتين الدكيبتين .

حيا الموجودين بأدب وبدأ يتكلم عن الأحكار التي تم تأجيرها اليوم ولكن

هدى هانم قاطعته قائلة :

— اجلس يا جبل ، نحن في انتظارك لأمر عظيم .

فجلس جبل وعينه انعكسان نظرة تحرج لم تغب عن عيني الهانم

فقلت :

— ارى انك تحمدس ما نحن مهتمون له .

فقال بصوت هادئ :

- الجميع يتحدثون في الخارج .
- فنظرت الهانم صوب زوجها هاتفة :
- أسمعت ؟.. الجميع يتوقعون منا الجواب .
- فقال زقلط وقسماته تزداد سماجة :
- شعلة تطفئها حفنة تراب ، بودي ان ابدأ العمل !
- فالتفت هدى الى جبل متسائلة :
- ألدبك ما تقوله يا جبل ؟
- فقال وهو يداري ضيقه بالنظر في الأرض :
- الأمر منكم واليكم يا سيدتي .
- يهمني ان اعرف رأيك !
- تفكر ملياً وهو يشعر بنظرات الأفندي الحادة ، ونظرات زقلط المتعضة ثم قال :
- سيدتي ، اني ربيب نعمتك ، ولكني لا أدري ماذا أقول ،
- فلست الا أحد ابناء حمدان !
- قالت هدى بحده :
- لماذا تذكر حمدان ولا أب ولا أم ولا أقارب لك فيهم ؟
- ولدت عن الأفندي صوت ساخر مقتضب يشبه الضحك لكنه لم يتكلم.
- وبدا في وجه جبل انه يعاني ألماً صادقاً ، لكنه أجاب :
- كان أبي وأمي منهم ، لا يمكن انكار ذلك .
- وقالت هدى :
- ما أخيب أُملي في ابني .
- معاذ الله ، ان المقطم لا يستطيع ان يزحزحني عن الوفاء لك ،
- لكن انكار الحقائق لا يغيرها .
- وقام الأفندي نافذ الصبر وقال مخاطب زقلط :
- لا تضيع وقتك في سماع هذه المعاتبات .

فقام زقلط باسمًا ، واذا بالهائم تقول له وهي ترمي جبل بلحظ خفي :
- لا تجاوز المعتقد يا معلم زقلط ، نريد تأديبهم لا إبادتهم .
غادر زقلط البهو . وألقى الأفندي على جبل نظرة لوم وهو يتساءل
ساخرًا :

- اذن أنت من آل حمدان يا جبل ؟!
ولاذ جبل بالصمت حتى رحمته هدى فقالت :
- قلبه معنا ولكن شق عليه ان يتنكر لأصله أمام زقلط .
فقال جبل بحزن واضح :
- انهم يؤساء يا سيدتي رغم أنهم اكرم أهل الحارة أصلًا .
فصاح الأفندي :
- حارة لا أصل لها .
فقال جبل جادًا :
- اننا أبناء أدهم ، وما زال جدنا حيًا أطال الله بقاءه .
فتساءل الأفندي :

- منذ يستطيع ان يثبت بنوته لأبيه ؟.. انه كلام لا بأس ان يقال
أحيانًا ولكنه لا ينبغي ان يتخذ وسيلة لنهب أموال الغير .
وقالت هدى :

- نحن لا نريد بهم شرًا على شرط ألا يطمعوا في أموالنا .
وأراد الأفندي ان ينهي الحديث فقال للجبل :
- إذهب الى عمك ولا تفكر في سواه .

غادر جبل البهو فذهب الى ادارة الوقف في منظره الحديقة . كان
عليه ان يسجل في الدفاتر عددًا من عقود الایجار وان يراجع الحساب
الختامي للشهر ولكن الحزن شتت عقله . ومن عجب ان آل حمدان لا
يحبونه ، وهو يعلم ذلك ويذكر كيف كان يقابل بالبرود في قهوة
حمدان في المرات القلائل التي غشيها . مع ذلك أحزنه ما يدبر لهم من

شر . احزنه اكثر مما اسخطه سلوكهم الجريء . وود ان يدفع عنهم الشر لولا اشفاقه من اغضاب البيت الذي آواه ورباه وتبناه . ماذا كان يكون لو لم يدركه عطف هدى هام ؟ . منذ عشرين عاماً رأت الهانم طفلاً عارياً يستحم في حفرة مملوءة بمياه الأمطار . مضت تتسلى بمشاهدته قال قلبها الذي حرمه العقم من نعم الأمومة اليسه . ارسلت من حمله اليها وهو يبكي خائفاً . وتحرت عنه فعلمت انه طفل يتيم ترعاه بياعة دجاج . استدعت الهانم بياعة الدجاج وطلبت اليها ان تنزل لها عن الطفل فرجبت بذلك كل الترحيب . هكذا نشأ جبل في بيت الناظر وفي رعاية حضرته ينعم بأسعد أمومة في الحارة جميعاً . وأدخل الكتاب فتعلم القراءة والكتابة ، ولما بلغ رشده ولاه الافندي ادارة الوقف . في كل بقعة فيها للوقف املك يدعوّه « حضرة الوكيل » . وتتابعه نظرات الاكابر والاعجاب ابنها حلّ . وكانت الحياة تبدو ودودة واعدة بكل جميل حتى كان تمرد آل حمدان . وجد جبل انه ليس شخصاً واحداً كما توهم طوال عمره ولكنه شخصان . أحدهما يؤمن بالوفاء لأمه وآخرهما يتساءل في حيرة : وآل حمدان ؟ !

٢٨

انبعثت الرباب تحكي مصرع همام على يد قدرتي . اتجهت الأعين نحو رضوان الشاعر في انتباه يشوبه القلق . ليست الليلة كبقية الليالي ، ليلة ختمت نهراً ثائراً ، وظل كثيرون من آل حمدان يتساءلون هل تمر بسلام ؟ وشمل الحارة ظلام ، حتى النجوم توارت وراء سحب الخريف فلم يبد من ضوء الا ما فضحت به النوافذ المغلقة او ما ارسلته مصابيح عربات اليد المتباعدة في أحياء الحارة . وضجت الأركان بغوغاء

الغلمان المتجمعين كالفراشات حول مصابيح العربات ، على حين افترشت
تدريجاً خيشة أمام أحد ربوع حمدان وراحت تدندن :

على باب حارتنا حسن القهوجي

وارتفع مواء قطط في نوبات متقطعة واشياً بمنافسات جنسية أو
منازعات تمويينية . واحتد صوت الشاعر وهو يروي قائلاً : وصرخ
أدهم في وجه قدري « ماذا فعلت بأخيك ؟ » في تلك اللحظة ظهر
زقلط في دائرة الضوء التي يرسمها فانوس القهوة على الأرض . ظهر
فجأة كأنما انشق عنه الظلام . بدا عابساً متحدياً كارهاً مكروهاً يتفجر
الشر في عينيه وتشد قبضته على نبوته المرعب . وزحفت من محجريه نظرة
ثقيلة مخيفة على القهوة والجالسين كأنها حشرة سامة ، فتمحجر الكلام
في حلق الشاعر . وباخبت نشوة ضلمة وعتريس ، وانقطع عن التهامس
دعس . وعلي فوائيس ، وكف عن الحركة عبدون . أما حمدان فشدت
يده على خرطوم النارجيلة بعصبية ، وساد صمت كالموت .

وتتابعت حركات خاطفة . غادر القهوة سراعاً الزبائن الذين لا
يتسبون لآل حمدان . جاء فتوات الأحياء قدره والليثي وأبو سريع
وبركات وحمودة فصنعوا جداراً وراء زقلط . وسرى الخبر في الحارة
بسرعة كأنه بيت تهدم ففتحت النوافذ ، واقبل الصغار يجرون والكبار
بتنازع قلوبهم الإشفاق والشماتة . وكان حمدان أول من خرق الصمت
فقام في هيئة استقبالية وهو يقول :

— أهلاً بالعلم زقلط فتوة حارتنا ، تفضاوا .

لكن زقلط تجاهله . كأنه لا يسمعه ولا يراه . وظل يطلق الطعنات
من عينيه القاسيتين . ثم تساءل بصوت غليظ :

— من فتوة هذا الحي ؟

فأجاب حمدان ولو ان السؤال لم يوجه إليه :

- فتوتنا قدره .
 التفت زقلط نحو قدره متسائلاً في سخرية :
 — انت حامي آل حمدان ؟
 فتقدم قدره خطوات بحجمه القصير المدمج ووجهه المتحرش بكل شيء وقال :
 — أنا حاميههم من الجميع لإلاك يا معلم .
 فابتسم زقلط ابتسامة كالامتعاض وقال :
 — ألم نجد حياً غير حي النسوان لتكون فتوة عليه ؟
 ثم صاح بالقهوة :
 — يا نسوان ، يا أولاد الزواني ، ألا تعرفون بأن للحارة فتوة ؟
 فقال حمدان بوجه شاحب :
 — يا معلم زقلط ليس بيتنا وبينك الا الخير .
 فصاح به :
 — اخرس يا عجوز يا قارح ، الآن تتمسكن بعد ان تهجمت على
 أسيادك وأسياد أهلك .
 فقال حمدان بصوت المتألم :
 — لم يكن في الأمر تهجم ، لكنها شكوى سرنا بها الى حضرة
 الناظر .
 فصاح زقلط :
 — — أسمعتم ما يقول ابن الزانية ؟ حمدان يا نثن أنسيت ما
 كانت تفعله أمك ؟ والله لن يسير أحدكم آمناً في هذه الحارة حتى يقول
 بأعلى صوته : أنا مرة .

ورفع بسرعة نبوته وهوى به بشدة على الطاولة فتطايرت الفناجيل
 والاكواب والصواني والملاعق وعلب البن والشاي والسكر والقرفة والزنجبيل
 والكنجات . وثب عبدون الى الورااء فارتطم بترابيزه وسقطا معاً . وبغنة

وجه زقلط لظمة الى وجه حمدان ففقد الرجل توازنه وسقط على جنبه فوق النارجيلة التي تحطمت . ورفع زقلط نبوته مرة اخرى وهو يصيح :
— لا ذنب بلا عقاب يا أولاد الزواني .

وتناول دعبس كرسياً ورمى به الفانوس الكبير فتحطم وساد الظلام قبل ان يهوي النبوت على المرأة الكبيرة وراء الطاولة . وصوتت تمرحنة فرددت نساء حمدان الصوات في النوافذ والأبواب كأنما انقلبت الحسارة حنجرة كلب رمي بحجر . وجن جنون زقلط فاطلق ضرباته في كل ناحية فأصابت أناساً ومقاعد والجدار . وتلاطمت أمواج الصراخ والاستغاثات والتأوهات . ونطائرت الأشباح في كل ناحية . وارتطمت أشباح بأشباح . وصاح زقلط بصوت كالرعد :
— كل واحد يلزم بيته .

فبادر إلى تنفيذ الأمر كل شخص ، من آل حمدان او من غيرهم ، وتتابع وقع الاقدام المتراجعة . وجاء الليثي بفانوس فظهر على ضوءه زقلط والفتوات من حوله ، في حارة خالية ، لا يسمع بها إلا صوات النسوان . وقال ببركات متودداً :

— وفر نفسك يا معلم للشدائد ، وعلينا نحن تأديب الصراصير .
وقال ابو سريع :

— لو شئت جعلنا من آل حمدان تراباً تمشي عليه بحصانك .
وقال قدره فتوة حمدان :

— لو كلفتني بتأديبهم لحققت لي امنية كبيرة وهي ان اخدمك يا معلم .

وعلا صوت تمرحنة من وراء باب الربع :
— ربنا على الظالم .

فصاح بها زقلط :

— يا تمرحنة أحمدي أي رجل من حمدان ان بعد الزاين بك !

فهتفت تمرحنة وان دل آخر كلامها على ان يسداً وضعت على فيها
لتمنعها من الاستمرار :

— ربنا بيننا وبينك ، حمدان اسياذ آل ...

ووجه زقلط الخطاب الى الفتوات بصوت اراد ان يسمعه آل
حمدان ، قال :

— لا يغادر رجل من حمدان داره الا ضرب .

فصاح قدره مهدداً :

— من ير نفسه رجلاً فليخرج .

وتساءل حمودة :

— والنسوان يا معلم ؟

فقال زقلط بحدة :

— زقلط يعامل الرجال لا النسوان .

وطلع النهار فلم يغادر الربوع رجل من آل حمدان . وجلس كل
فتوة عند باب قهوة حية يراقب الطريق . وجعل زقلط يمر بالحارة كل
بضع ساعات فيستبق الناس الى نحيته والتودد اليه والثناء عليه ، « والله
اسد بين الرجال يا فتوة حارتنا » ، « عفارم عليك يا زين الرجال
يا ملبس حمدان الطرح » ، والحمد لله الذي اذل حمدان المتعجرفين
بيدك التوية يا زقلط » . ولم يكن يعبر احداً ادنى اهتمام .

٢٩

هل يرضيك هذا الظلم يا جبلاوي ؟

تساءل جبل وهو يفتش الأرض اسفل الصخرة التي تقول الحكايات
ان عندها كان يخلو قدري الى هند ، وان عندها قتل همام . ونظر الى

الشفق بعين لم تعد ترى الا ما يكدر الصفو . لم يكن ممن يركنون الى
الخلوات لكثرة مشاغله لكنه شعر اخيراً برغبة قاهرة في الخار بنفسه التي
زلزلها ما حاق بآل حمدان . لعل في الخلاء ان تسكت الأصوات التي
تعيّره والتي تعذبه . أصوات تهتف به من النوافذ وهو مار : « يا خنان
حمدان يا لثيم » ، وأصوات تهتف به من اعماق نفسه : « لن تطيب
الحياة على حساب الغير » . وآل حمدان اهله ، ففيهم ولدت أمه
وأبوه ، وفي مقابرهم دفنا . وهم مظلومون وما أقبح الظلم ، اغتصبت
أموالهم ولكن من الظالم ؟ انه ولي نعمته ، الرجل الذي انتشلته زوجه
من الطين فرفعته الى مصاف آل البيت الكبير . وجسيع الأمور تجري
في الحارة على سنة الارهاب ، فليس عجيباً ان يُسجن سادتها في بيوتهم .
وحارتنا لم تعرف يوماً العدالة او السلام . هذا ما قضى به عليها منذ
طرد ادهم وأميمة من البيت الكبير ، الا تعلم بذلك يا جبلاوي ؟ ويبدو
ان الظلم سستند كثافة ظلماته كلما طال بلك السكوت فحتى متى تسكت
يا جبلاوي ؟ الرجال سجناء في البيوت والنساء يتعرضن في الحارة لكل
مسخرة ، وأنا امضغ المهانة في صمت . ومن عجب ان اهل حارتنا
يضحكون ! علام يضحكون ؟ انهم يهتفون للمتصر اياً كان المنتصر ،
ويهللون للقوي اياً كان القوي ، ويسجدون امام الثبايت ، يدارون بذلك
كله الرعب الكامن في اعماقهم . غموس اللقمة في حارتنا الهوان . لا يدري
احد متى يجيء دوره ليهوي الثبوت على هامته . ورفع رأسه الى السماء
فوجد لها صامته هادئة ناعسة ، يوشي اطرافها الغمام ، وتودعها آخر حدأة .
وانقطع المارة وآن للحشرات ان تزحف . وفجأة سمع جبل صوتاً غليظاً
يصبح من قريب : « قف يا ابن الزانية » . استيقظ من افكاره فنهض
قائلاً وهو يحاول ان يتذكر أين سمع هذا الصوت ، ثم اتجه حول صخرة
هند الى الجنوب فرأى رجلاً يركض في رعب وآخر وراءه يطارده
ويوشك ان يلحق به . وأمعن النظر فعرف في الهارب دعيس وفي المطارد

قدره فتوة حي حمدان ، وفي الحمال ادرك حقيقة الموقف . ومضى يراقب المطاردة التي تقترب منه بفؤاد قاق . وما لبث قدره ان ادرك دعبس فقبض بيده على منكبيه وتوقف الاثنان عن العدو وهما يلهثان من الجهد . وصاح قدره بصوت متقطع من اليهر :

— كيف تجرؤ على مغادرة جحر ك يا ابن الأفعى ؟ لن تعود سالماً .
فهتف دعبس وهو يحمي رأسه بذراعه :

— دعني يا قدره ، انت فتوة حيتنا وعليك ان تدافع عنا .

فهزه قدره هزة اطارت اللاسة عن رأسه وصاح به :

— انت تعرف يا ابن اللثيمة اني ادافع عنكم ضد اي مخلوق الا زقلط .
وحانت من دعبس نظرة نحو موقف جبل فراآه وعرفه فناداه قائلاً :

— اغثني يا جبل ، أغثني فأنت منا قبل ان تكون منهم .
فقال قدره بغلظة وتحد :

— لا مغيث لك مني يا ابن الداحخة .

ووجد جبل نفسه يتقدم منها حتى وقف عندهما وهو يقول بهدوء .
— ترفق بالرجل يا معلم قدره .

فحدجه قدره بنظرة باردة وهو يقول :

— اني اعرف ما ينبغي ان افعله .

— لعل امرأ ضرورياً دفعه الى مغادرة بيته .

— ما دفعه الا قضاؤه المحتوم .

وشد على منكبيه حتى أن دعبس انبأ مسموعاً ، فقال جبل بحدة :

— ترفق به ، الا ترى انه اكبر منك سناً وأضعف بنية ؟

رفع قدره يده عن منكبيه فصنعه على قفاه بقوة تقوس لها ظهره ،
ثم ضرب بركبته دبره فانكفاً على وجهه ، وسرعان ما برك فوقه وراح يكيل له الضربات وهو يقول بصوت يزفر الغل والحنق :

— ألم تسمع ما قال زقلط ؟!

واشتعل الغضب في دماء جبل فصاح به :
- اللعنة عليك وعلى زقلط ، اتركه يا قليل الحياء !
فكف. قدره عن ضرب دعبس ورفع رأسه الى جبل وجهاً ذاهلاً
ثم قال :

- انت تقول هذا يا جبل ! ألم تشهد حضرة الناظر وهو يأمر زقلط
بتأديب حمدان ؟

فصاح جبل وغضبه آخذ في ازدياد :
- اتركه يا قليل الحياء .

فقال قدره بصوت يرتعش من الحق :
- لا تظن ان خدمتك في بيت الناظر تحميك مني اذا اردت محاسبتك !
فانقض عليه جبل كمن فقد وعيه . وركله فالتفاه جانباً وصاح به :
- عد الى امك قبل ان تشكلك .

وثب قدره قائماً وهو يتناول نبوته من على الأرض ثم رفعه بخفية
ولكن جبل بادره بضربة في بطنه من يد قوية فترنح متألماً . وانتهر
جبل هذه الفرصة فخطف النبوت من يده ووقف وهو ينظر نحوه بخذر .
تراجع قدره خطوتين ، ثم انحنى بسرعة خاطفة فالتقط حجراً ولكنه قبل
ان يقذف به أصاب النبوت رأسه فصرخ ، ودار حول نفسه ، ثم
سقط على وجهه والدم يتفجر من جبينه بغزارة . كان الليل يهبط فنظر
جبل فيما حوله فلم يرَ احداً الا دعبس الذي وقف يتفحص جلبابه ويتحسس
المواضع التي تؤله من جسده ، ثم اقترب من جبل وهو يقول ممتناً :
- عوفيت من أخ كريم يا جبل .

فلم يجبه جبل ، وانحنى فوق قدره فعدله على ظهره ، ثم تمتم :
- أغمي عليه !

فانحنى دعبس فوقه كذلك ثم بصق على وجهه ، فجذبه جبل بعيداً
عنه ، وانحنى فوقه مرة اخرى ، وراح يهزه برفق ولكنه لم يبد أملاً

في الافاقة ، فتساءل :

— ما له ؟

فانحنى دعبس فوقه والصق أذنه بصدرة ، ثم قرب وجهه من وجهه ،
واشعل عوداً من الثقاب ، ثم وقف وهو يهمس :
— انه ميت .

فاقشعر بدن جبل وقال :

— كذبت !

— ميت ابن ميت وحياتك .

— يا خبير اسود .

فقال دعبس مهوناً الأمر :

— كم ضرب وكم قتل فليذهب الى الزبانية !

فقال جبل بصوت حزين وكأانه يخاطب نفسه :

— لكنني لم اضرب ولم اقتل .

— كنت تدافع عن نفسك .

— لكنني لم اقصد قتله ولا اردته .

فقال دعبس باهتمام :

— ان يدك لشديدة يا جبل ، لا خوف عليك منهم ، وبوسعك ان

تكون فتوة لو اردت .

فضرب جبل جبينه بيده وهتف :

— يا ويلى ، هل أنقلب قاتلاً من اول ضربة ؟

— انتبه الى نفسك وهلم ندفنه والا قامت القيامة .

— ستقوم القيامة دفنآه ام لم ندفنه .

— لست آسفاً ، عقبى للباقي ، عاونتي على اخفاء هذا الحيوان .

وتناول دعبس الثبوت وراح يحفر في الأرض غير بعيد من الموضع

الذي حفر فيه قدري من قبل . وما لبث جبل ان انضم اليه بقلب كئيب .

وتواصل العمل في صمت حتى قال دعبس ليخفف عن جبل ثقل مشاعره :
- لا تخزن فالقتل في حارتنا مثل أكل الدوم .

فقال جبل متنهداً :

- ما وددت ان اكون قاتلاً قط ، رباه ما كنت احسب ان غضبي

بهذه الفظاعة !

ولما فرغاً من الحفر وقف دعبس يحفف جبينه بكم جلبابه ويتمخط
ليطرد الرائحة الترابية التي تملأ خيشومه . قال بحقد :

- هذه الحفرة تسع ابن الزانية والفتوات الآخرين .

فقال جبل بضجر :

- احترم الميت فجميعنا اموات .

فقال دعبس بحدة :

- عندما يحترمونا احياء نحترمهم امواتاً .

ورفعاً الجثة فأودعها الحفرة ، ووضع جبل النبوت الى جانبها ، ثم
اهالا عليها التراب .

ولما رفع جبل رأسه رأى الليل قد اخفى الدنيا وما عليها فتنهد من
الأعماق وهو يكبت نزوعاً نحو البكاء .

٣٠

أين قدره ؟

سأل زقلط نفسه كما سأل الفتوات الآخرين . لكن الفتوات كانوا
يتساءلون ايضاً عن صاحبهم الذي اختفى من الوجود كما اختفى رجال
حمدان من الحسارة . كان قدره يسكن في الحي التالي لحي حمدان .
وكان اعزب يسهر الليل في الخارج فلا يعود الى مسكنه الا مع الفجر

او بعد ذلك ، ولم يكن من النادر ان يغيب عن مسكنه ليلة او ليلتين ، ولكن لم يحدث ابداً ان غاب اسبوعاً كاملاً دون ان يعلم احد بمكانه وبخاصة في ايام الحصار هذه التي اوجبت عليه اعباء لا يستهان بها من اليقظة والمراقبة . وقامت الظنون حول حمدان فتقرر تفتيش بيوتهم . واقتحم الفتوات وعلى رأسهم زقلط ربوعهم ففتشوها تفتيشاً دقيقاً من البدروم الى السطح ، وسفرت الأفنية بالطول والعرض ، وتعرض رجال حمدان لاهانات شتى ، ولم يسلم احد منهم من لطمة او ركلة او بضعة ، ولكنهم لم يعثروا على شيء يريب . وتفرقوا في اطراف الخلاء يسألون فلم يدهم احد على امر ذي بال . وبات قدره الموضوع الذي تدور به الجوزة في غرزة زقلط تحت تكعيبة العنب بحديقة بيته . كان الظلام يغش الحديقة عدا نور حيي ينبعث من مصباح صغير قائم على الأرض على بعد شبرين من المجمرة ليستضيء به بركات وهو يقطع الحشيش ويبسطه ، ويفتت الجمرات ، ويرص الحجر ويخشنه ليعد الجوزة . وكان نور المصباح الراقص في مجرى النسيم ينعكس على وجوه زقلط وحمودة والليثي وأبو سريع الكالحة فيبدي عن أعين مترامية الجفون ، انعكاسات في نظراتها الشاردة نوايا معتمة . وتعالى نقيق ضفادع كأنه استغاثات خرس في هدأة الليل . قال الليثي وهو يتناول الجوزة من بركات ويوجهها نحو زقلط :

— ابن ذهب الرجل ؟ كأن الأرض بلعته .

شد زقلط نفساً عميقاً وهو ينقر الغسابة بسبابته ثم زفره دخاناً كثيفاً وقال :

— قدره بلعته الأرض وهو راقد في جوفها منذ اسبوع .

تطلعت اليه الأبصار باهتمام عدا بركات الذي بدا مسلوباً بعمله ، فعاد زقلط يقول :

— لا يختفي فتوة لغير ما سبب ، وللموت رائحة اعرفها .

فتساءل أبو سريع بعد سعال تقوّس له ظهره كأنه سنبله في مهب
ريح عاتية :

- ومن قاتله يا معلم ؟
- عجيبة ! ومن يكون غير رجل من حمدان ؟
- لكنهم لا يغادرون بيوتهم وقد فتشناها .
- فضرب زقلط طرف الشلثة بقبضته وتساءل :
- ماذا يقول أهل الحارة الآخرون ؟
- فقال حمودة :
- يعتقد حيناً بأن لحمدان يداً في اختفاء قدره .
- افهموا يا مساطيل ! ما دام الناس يعتقدون ان قاتل قدره فيه
حمدان فالواجب علينا ان نعتبره كذلك !
- ولو كان القاتل من العطوف ؟
- ولو كان من كهر الزغاري ، نحن لا يهمننا عقاب القاتل بقدر
ما يهمننا ارهاب الآخرين .
- فهتف أبو سريع باعجاب :
- الله اكبر .
- فقال الليثي وهو ينفض الحجر في الكوز ويعيد الجوزة الى بركات :
- الله برحكم يا آل حمدان .
- فندت عن أفواههم ضحكات جافة اختلطت بتقيق الضفادع وتحركت
منهم الرؤوس حركات الوعيد على حين هبت نسمة بقوة طارئة أعقبتها
خشخشة في الأوراق الجافة . وصفق حمودة بيديه وهو يقول :
- لم تعد المسألة صراعاً بين حمدان والناظر ولكنها كرامة الفئوات .
- فناد زقلط يضرب طرف الشلثة بقبضته ويقول :
- لم يقتل فتوة بيد حارته من قبل .
- وتصلبت ملامحه من الغضب حتى خاف شره ندماؤه فحذروا أن تنده

عنهم كلمة او حركة تحول غضبه إليهم . وساد الصمت فلم يعد يسمع
إلا قرقرة الجوزة وسعلة أو نحنة . وإذا بركات يسأل :
- وإذا عاد قدره على غير ما نظن ؟
فقال زقلط بحق :
- أحلق شاربى يا ابن المسطولة .

كان بركات اول من ضحك ثم عادوا الى الصمت . تخالبت للأعين
المذبحة ، والعصي تحطم الرؤوس ، والدماء تسيل حتى تصبغ الأرض ،
والصوات يعلو من النوافذ والاسطح ، وعشرات الرجال يصعدون حشيرة
الموت . اضطربت في النفوس رغبة نمرية في الاقتراس وتبادلوا نظرات
قاسية . لم يهمهم قدره لذاته ، بل لم يكن أحد منهم يحبه ، ولم يكن
أحد منهم يحب الآخر قط ، ولكن جمعتهم رغبة واحدة في الارهاب
والذود عن الفتوة . وتساءل الليثي :
- وبعد ؟

فقال زقلط :

- ينبغي ان ارجع الى الناظر كالعهد بيننا .

٣١

قال زقلط :

- يا حضرة الناظر ، قتل آل حمدان فتوتهم قدره .
وركز بصره في الناظر ولكنه كان يرى في الوقت نفسه هدى هامم
الى يمينه وجبل الى يمينها . وبدا ان الأفندي لم يفجأه الخبر إذ قال :
. بلغتني أنباء عن اختفائه ولكن هل يشتم حقاً من العثور عليه ؟

قال زقلط وكان نور الضحى الذي يمتحم باب البهو يؤكد سماجة
ملاحمه :

— لن يُعثر عليه وأنا خير بهذه المكائد .
فقال هدى بعصية وهي تلحظ وجه جبل الذي راح ينظر الى الجدار
المواجه له :

— لو صح انه قتل لكان ذاك حدثاً خطيراً ..
فقال زقلط وهو يشد على أصابعه المتشابكة :
— ويقتضي عقاباً شاملاً أو قولوا علينا وعليكم السلام !
فلعبت أصابع الأفندي بحبات مسبحته وقال :
— انه يمثل هيتنا !
فقال زقلط بتركيز مقصود :
— ويمثل الوقف كله !
وخرج جبل من صمته قائلاً :
— لعلها جريمة مزعومة لم تقع .
واندلع الغضب في صدر زقلط لدى سماعه صوت جبل فقال :
— لا ينبغي ان نضيع الوقت في الكلام .
— هات دليلاً على مقتله .

فقال الأفندي بلهجة اصطنع لها القوة ليخفي ما وراءها من ارتياب :
— لا يخفي أحد من ابناء حارتنا على هذا النحو الا إن كان قتل !
ولم تفلح زفرات الخريف الرطبة في تلطيف هذا الجو المشحون بالنوايا
الدموية فهتف زقلط :

— الجريمة تنادينا بصوت سوف تسمعه الحوارى المجاورة وما الكلام
إلا مضیعة الوقت .

لكن جبل قال باصرار :
— رجال حمداً في بيوتهم مسجونون !

فضحك زقلط بصوته دون وجهه وقال ساخراً :

— فزوره حلوه !

ثم وهو يستريح في مجلسه ويتحداه بنظرة نافذة :

— لا يهلك إلا تبرئة أهلك !

ومع ان جبل بذل جهداً صادقاً لشكم غضبه إلا ان صوته احتد وهو يقول :

— يهمني الحق ، انكم تعتدون لأوهى الأسباب ، وأحياناً بلا سبب ، وما هلك الآن الا الحصول على إذن لاجداث مذبح في قوم مسالمين .

وتبدى الحقد في عيني زقلط وهو يقول :

— أهلك مجرمون ، قتلوا قدره وهو يدافع عن الوقف !

فالتفت جبل نحو الأفندي وقال :

— يا سيدي الناظر لا تسمح لهذا الرجل باشباع شراسته الدموية .
فقال الأفندي :

— إذا ضاعت هيبتنا ضاعت حياتنا !

وتساءلت هدى وهي تنظر نحو جبل :

— أتريد ان ندفن أحياء في حارتنا ؟

فقال زقلط بحق :

— انك تنسى فضل أصحاب الفضل عليك وتذكر المجرمين .

وارتفعت موجة الغضب في صدر جبل حتى قلقلت جذور ارادته فقال

بصوت شديد :

— ليسوا مجرمين وان غصت حارتنا بالمجرمين !

قبضت يد هدى بشدة على طرف شالها الأزرق ، وتحركت فتحتنا

أنف الأفندي وقد عبرت وجهه صفرة ، فتشجع زقلط بهذه المظاهر

وقال بحقد ساخر :

— لك عذر في دفاعك عن المجرمين ما دمت منهم !
— نهجك على المجرمين شيء لا يصدق وانت شيخ الاجرام في
حارتنا .

قام زقلط قومة عنيفة وقد اربد وجهه ، وقال :
— لولا مكانتك عند آل هذا البيت لانخرجتك من مجلسك على أجزاء !
فقال جبل بهدوء مخيف يشف عما تحته :
— أنت واهم يا زقلط !

وصاح الأفندي :
— أنجروُن على هذا أمامي ؟
فقال زقلط بجبث :
— لاني أناطحه دفاعاً عن هيتك !

فأوشكت أصابع الأفندي ان تفتك بالمسبحة ، وخاطب جبل
بشدة قائلاً :

— لا اسمح لك بالدفاع عن حمدان .
— هذا الرجل يفترى الكذب عليهم لغاية سوء في نفسه .
— دع هذا لتقديري أنا !
وساد الصمت هنيهة . ترامت من الحديقة زقزقة لاهية ، وتعالى في
الحارة موجة تهليل صاخبة يتخللها سباب فاحش . وابتسم زقلط قائلاً :
— أياذن لي حضرة الناظر في تأديب الجناة ؟
أيقن جبل ان ساعة المنايا قد دنت فالتفت نحو الهائم وقال بائساً :
— سيدتي ، سأجد نفسي مضطراً الى الانضمام الى أهلي في سجنهم
لألقى معهم مصيرهم .

فهتفت هدى في عصبية ظاهرة :
— يا لخيبة رجائي !
فتأثر جبل حتى انحنى رأسه ، ودفعه شعور مرهف الى ان ينظر نحو

زقلط فرآه بيتسم ابتسامة شماتة كريمة فانطبقت شفتاه في حنق ، ثم قال في أسى :

- لا خيار لي ، ولن أنسى صنيعك معي ما حييت .
فحدجه الأفندي بنظرة قاسية وسأله :

- يجب ان أعرف إن كنت معنا أم علينا ؟
فقال جبل بحزن وهو يشعر بأنه في التزع الأخير من حياته الراهنة :
- ما أنا إلا ربيب نعمتك فلا يمكن ان أكون عليك ، ولكن من العار أن اترك اهلي يبادون وأنا انعم بظلك .

وقالت هدى وهي تتلوى من انفعال الأزمة التي تهدد أمومتها :
- يا معلم زقلط فلنؤجل الحديث الى وقت آخر .
فقطب زقلط كأنما ركب على وجه حافر بغل ، ونقل عينيه بين الأفندي وزوجه ثم تتمم :

- لا أدري ماذا يحدث غداً في الحارة !
فتجنب الأفندي النظر إلى هدى وتساءل :
- أجبني يا جبل أنت معنا أم علينا ؟
وتبادت موجة الغضب به حتى بلغت قمة رأسه فهتف دون ان ينتظر الجواب :

- فاما ان تبقى معنا كواحد منا وأما ان تذهب إلى أهلك !
وثار جبل ، وخاصة وهو يلحظ أثر هذا القول في صفحة وجهه زقلط فقال بعزم :

- يا سيدي انك تطردني واني ذاهب .
وهتفت هدى بصوت معذب :

- جبل !

وهتف زقلط ساخراً :

- امامكم الرجل كما ولدته أمه .

وضاق جبل بمجلسه ، فقام ، ثم سار بخطوات ثابتة نحو باب البهو. ووقفت هدى ولكن ذراع الافندي حالت دون تحركها . وسرعان ما اختفى جبل . وفي الخارج هبت ريح تحركت بهما الستائر وأصططقت مصاريع نوافذ . وامتلاً جو البهو بتوتر وانقباض . وقال زقلط بهدوء :
- ينبغي ان نعمل .

ولكن هدى قالت باصرار وعصبية ينذران بالعناد :
- كلا ، حسبهم الآن الحصار ، وحذار ان يُمسَّ جبل بشراً
لم يغضب زقلط اذ انه لم يهضم بعد ما احرز من فوز ، ورفع الى الناظر عيناً متسائلة .

فقال الافندي وهو يبدو كمن يتمصص لبعوضة :
- سنعود الى الحديث مرة أخرى .

٣٢

ألقى جبل نظرة وداع على الحديقة والمنظرة فتذكر مأساة أدهم التي ترونها الرباب كل مساء . واتجه نحو الباب فوقف له البواب وهو يتساءل :
- ماذا يدعوك الى الخروج ثانية يا سيدي ؟
فقال جبل بامتعاض :

- اني ذاهب بلا عودة يا عم حسنين !
ففغر الرجل فاه وجعل ينظر اليه ملياً في انزعاج ثم غغم متسائلاً :
- بسبب آل حمدان ؟
فأحنى جبل رأسه صامتاً ، فعاد البواب يقول :
- من يصدق هذا ؟ كيف تسمح به الهانم ؟ يا رب السماوات !
وكيف تعيش يا بني ؟

فعبّر جبل عتبة الباب مرسلًا بصره إلى الحارة المكتظة بالناس
والحيوان والقاذورات وهو يقول :

- كما يعيش أهل حارتنا .

- لم تخلق لهذا .

فابتسم جبل ابتسامة ذاهلة وقال :

- انها الصدفة وحدها التي انشلتني منه .

ومضى يبتعد عن البيت وصوت البواب يحذره في حسرة من التعرض
إلى غضب الفتوات .

وامتدت أمام عينيه الحارة بأثربتها ودوابها وقططها وغلماها وجحورها
فأدرك مدى الانقلاب الذي جرى على حياته ، ما ينتظره من متاعب ،
وما خسره من نعيم . لكن غضبه غطى على آلامه فبدا وكأنه لا يبالي بالازهار
والعصافير والامومة الحانية . ومر في سبيله بالفتوة حمودة فقال هذا
بسخرية ملساء :

- ليتك تعيرنا قوتك لتؤدب بها آل حمدان .

فلم يعره التفاناً وقصد ربعاً كبيراً من ربوع حمدان وطرقه . وإذا
بحمودة يلحق به ويسأله في دهشة واستنكار :

- ماذا تريد ؟

فأجابه في هدوء :

- اني أعود إلى أهلي .

وارتسمت الدهشة في عيني حمودة الضيقتين وبدا انه لا يصدق
ما سمع . ورآهما زقلط وهو يقادر بيت الناظر متجهاً نحو مسكنه فصاح
بحمودة :

- دعه يدخل ، وإذا خرج بعد ذلك ادفنه حياً .

فزايلت حمودة دهشته وابتسم ابتسامة بلهاء متشفية . ومضى جبل
بطرق الباب حتى فتحت نوافذ في الربيع وفي الربوع الملاصقة ، واطلت

رؤوس كثيرة من بينها حمدان وعتريس وضلمة وعلي فوانيس وعبدون
ورضوان الشاعر وتمرحنة ، وتساءل ضلمة ساخرآ :

— ماذا تريد يا ابن الأكابر ؟

وسأله حمدان :

— معنا أم علينا ؟

فصاح حمودة :

— طردوه فعاد الى أصله القدر !

فتساءل حمدان بلهفة :

— طردوك حقآ ؟

فقال جبل بهدوء :

— افتح الباب يا عم حمدان .

وزغردت تمرحنة ثم صاحت :

— كان أبوك رجلاً طيباً وأملك امرأة شريفة .

فضحك حمودة قائلاً :

— مباركة عليك شهادة الزانية .

فصاحت تمرحنة غاضبة :

— اسم الله على أملك ولياليتها الملاح عند حمام السلطان .

وأسرعت باغلاق النافذة فصك الحجر المنطلق من يد حمودة الضلفة
من الخارج محدثاً دويأ هلل له الصبية في الأركان . وفتح باب الربع
فدخل جبل مستقبلاً جواً رطباً وهواء غريب الرائحة . واستقبله أهله
بالعناق واختلطت الكلمات الطيبات . ولكن قطع الترحيب عايمهم جمعة
شجار آتية من اقصى الحوش فنظر جبل فرأى دعبس مشتبكاً في شد
وجذب مع رجل يدعى كعلها ، فضى نحوهما ودفع نفسه بينهما وهو
يقول بحدة :

— تتشاجران وهم يحبسونا في بيوتنا !

- فقال دعبس خلال انفاسه المضطربة :
- سرق البطاطة من حلة على نافذتي .
- وصاح كعبها :
- هل رأيتني وأنا اسرق ؟ حرام عليك يا دعبس !
- فصاح جبل غاضباً :
- فلنرحم انفسنا كي يرحمنا من في السماء !
- لكن دعبس قال بأصرار :
- بطاطتي في بطنه وسأستخرجها بيدي .
- فقال كعبها وهو يعيد طاقينه الى رأسه :
- والله ما ذقت البطاطة من اسبوع .
- انت اللص الوحيد في هذا الربع .
- فقال جبل :
- لا تقض بلا دليل كما بفعل زقلط معكم .
- فصاح دعبس :
- لا بد من تأديب ابن الخطافة :
- فصرخ كعبها :
- يا دعبس يا ابن بياعة الفجبل !
- وثب دعبس على كعبها فطاحه فترنح كعبها وسال الدم من جبينه ، وراح يكيّل له الضربات غير مبال بزرجر الواقفين حتى غضب جبل فانقض عليه وقبض على عنقه بشدة . وعيثاً حاول دعبس ان يتخلص من قبضة جبل فقال بصوت مبجوح :
- اتريد ان تقتلني كما قتلت قدره ١٩ ؟
- فدفعه جبل بقوة فارتدى على الجدار وراح يحرق فيه بحرق وغيظ .
- وردد الرجال ابصارهم بين الرجلين ، وتساءلوا أجبل حقاً الذي قتل قدره ؟ وقبله ضلعة ، وصاح عتريس : « فلتحل بك البركة يا خير

- آل حمدان » . وقال جبل لدعبس حانقاً :
- لم اقتله الا دفاعاً عنك !
- فقال دعبس بصوت منخفض :
- لكنك استحليت القتل .
- فصاح ضلمة :
- يا لك من جاحد يا دعبس ، اخجل من نفسك يا رجل .
- ثم وهو يجذب جبل من ذراعه :
- ستترنل ضعيفاً عليّ في شقتي .. تعال يا سيد حمدان !
- طاوع جبل يد ضلمة لكنه شعر بأن الهاوية التي انفتحت اليوم تحت قدميه لا قرار لها .
- وهمس متسائلاً في اذنه وهما يسيران معاً :
- الا يوجد سبيل الى الهرب ؟
- فقال ضلمة باستنكار :
- اتخاف يا جبل ان يشي بك احد الى اعدائنا ؟
- دعبس احمق .
- نعم ولكنه ليس بالندل !
- اخاف ان تثبت عليكم التهمة بسبي !
- فقال ضلمة بثقة :
- سأدلك على طريق الهرب اذا اردته ، ولكن اين تقصد ؟
- الحلاء واسع لا يحيط به خاطر .

٣٣

لم يتيسر الفرار للجبل الا في الهزيع الأخير من الليل . جعل ينتقل

من سطح الى سطح في هدأة الليل ، وفي رعاية النوم المرفق بالأجفان حتى وجد نفسه في الجمالية . ومضى رغم الظلام الحالك نحو الدراسة ثم مال نحو الحلاء ، متجهاً نحو صخرة هند وقدري ، فلما بلغها على ضوء النجوم الخافت لم يعد بوسعه ان يغالب النوم ، من فرط ما نال منه الأعياء والسهر ، فاستلقى على الرمال ملتفعا بعباءته وغط في النوم . وفتح عينيه مع اول شعاع يضيء أعلى الصخرة ، فقام من فوره كي يصل الى الجبل قبل ان يعبر الحلاء عابر . لكن بصره انجذب نحو البقعة التي دفن فيها قدره قبل ان يهيم بالسير . ارتعدت فصائله وهو ينظر اليها حتى جف ريقه ثم فر بنفسه وهو في ضيق شديد . ما قتل الا مجرماً ، لكنه بدا كالمطارد وهو يتبعد عن قبره . وقال لنفسه : « لم نخلق لنقتل وان فاق عدد قتلتنا الحصر » . وعجب لنفسه كيف انه لم يجد مكاناً ينام فيه الا المكان الذي دفن فيه قتيله ! وشعر برغبته في الابتعاد تنضاعف ، وان عليه ان يودع الى الأبد من يحب ومن يكره . على السواء ، أمه وحمدان والقنوات الى الأبد . وبلغ سفح المقطم ونفسه تفيض بالأسى والوحشة ، فسار معه نحو الجنوب حتى بلغ سوق المقطم وسط الضحى . وألقى نظرة طويلة الى الحساء وراءه وقال في شيء من الاطمئنان : « الآن بعد ما بيني وبينهم » . وراح يتفحص سوق المقطم أمامه ، ذلك الميدان الصغير الذي تصب فيه جملة حوارى من جميع نواحيه ، وتتصاعد من جنباته ضوضاء عالية تختلط فيها اصوات الأدمين بنهيق الحمير . وكان ثمة ما يدل على مولد يقام ، لازدحام الميدان بالمارة والباعة والمجدوبين والدراويش والمهرجين رغم ان حركة المولد الحقيقية لا تبدأ قبل الغروب ، ففلقت عيناه بين امواج البشر المتلاطمة . ورأى عند حافة الحلاء كوخاً من الصفائح صنعت حوله مقاعد خشبية فبدأ على حقارته اصلح مقهى في السوق وأحفله بالزبائن ، فاتجه نحو مقعد خال وجلس بجسم امتد حينه الى الراحة . وأقبل نحوه صاحب الكوخ محتفلاً

بظهوره المتميز بين الجلوس بعباءة فاخرة وعمامة عالية ومركوب ثمين فطلب قدح شاي وراح يتسلى بمتابعة الناس . وما لبث ان جذب سمعه ضوضاء اشتدت حول كشك حنفية مياه عمومية ، رأى الناس يتزاحمون أمامها ليملأوا أوعيتهم بالماء ، وكان التزاحم كالقتال عنفاً وضجائاً ، فارتفع الصخب وتهاوت اللعنات ، ثم نددت صرخات رفيعة حادة من الوسط عن فتاتين غرقتا في بلجة الزحام وراحتا تتراجعان لئنجوا بنفسيهما حتى خرجتا من المعترك بصفيحتين فارغتين . بدتا في جلبابين فاقعي الالوان ينسدلان على جسميهما من العنق حتى الكعبين ، فلم يظهر منهما الا وجهان يزهر فيها الشباب . مرت عيناه بأقصرهما دون توقف ، ثم ثبتتا على الأخرى ذات العينين السوداوين فلم تتحولا عنها . أقبلتا نحو مكان خال قريب من مجلسه فتبين في ملامحها شيئاً أخوياً على تميز جاذبته بقسط أوفر من الحسن فقال جبل لنفسه متشياً : « ما ابدع هذه الملاحه ، لم تقع عيني على مثلها في حارتنا » . وقفنا تسويان ما تشعث من شعريهما وتعيديان الخمار الى رأسيهما ، ثم وضعنا الصفيحتين متناوبتين وجلسنا عليهما ، والقصيرة تقول متشكية :

— كيف نملأ الصفيحة في هذا الزحام ؟

فقالت جاذبته :

— المولد اجارك الله ! وأبونا الآن ينتظر غاضباً !

فدخل جبل في الحديث دون وعي منه متسائلاً :

— لماذا لم يحضر بنفسه ليملأ الصفيحتين ؟

فالتفتنا نحوه باحتجاج ، ولكن منظره المتميز لم يخل من اثر مسكن فاكثفت فئاته بأن قالت :

— ما شأنك انت ! هل شكونا اليك !؟

فسر جبل بخطابها وقال معتذراً :

— اردت ان اقول ان الرجل اقدر على اقتحام زحام المولا . !

— هذا عملنا ، وله عمل اثنى .

فتساءل مبتسماً :

— ماذا يعمل ابوك ؟

— هذا ليس من شأنك .

وقام جبل غير مبال بالأعين المحدقة حوله ، حتى وقف امامها وقال بأدب :

— سأملأ لكما الصفيحتين .

فقالت جاذبته وهي تدبر عنه وجهها :

— لسنا في حاجة اليك !

ولكن القصيرة قالت بجرأة :

— افعل ولك الشكر .

وقامت وهي تشد الأخرى لتقوم معها ، فتناول جبل الصفيحتين من مقبضيهما ، وسار بحسمه القوي ، يشق الزحام ، ويرتطم بالرجال ، ويلقي الجهد ، حتى بلغ الحنفية التي يجلس وراءها الساقى في كشكه الخشبي ، فنقده مليمين ، وملأ الصفيحتين وعاد بهما نحو موقف الفتاتين . وأزعجه ان يجد الفتاتين مشتبكتين مع بعض الشبان في معركة كلامية بسبب معاكستهم لها ، فوضع الصفيحتين على الأرض ، وتصدى للشبان مهدداً . وتحرش به احدهم ولكنه صرعه بضربة في صدره فتجمع الشبان للهجوم عليه وهم يسبونهم ، غير ان صوتاً غريباً صاح بهم :

— اذهبوا يا شين الرجال .

انجعت الابصار نحو رجل كهل ، قصير مدمج الجسم ، يراق العينين ، يشد جلبابه على وسطه بحزام فهتفوا خجولين : « المعلم البلقيطي » وسرعان ما تفرقوا وهم يرمقون جبل بحق . ولأذت الفتاتان بالرجل والقصيرة تقول :

— اليوم عسير بسبب المولد وهؤلاء الاوغاد .

- فقال البلقيطي يجيبها وهو يتفحص جبل :
- تذكرت المولد لتأخيركما فجئت ، جئت في الوقت المناسب .
- ثم خاطب جبل قائلاً :
- وأنت من اهل الشهامة وما اندرهم في ايماننا !
- فقال جبل في حياء :
- ما هي الا مساعدة تافهة لا تستحق شكراً .
- في أثناء ذلك حملت الفتاتان الصفيحتين وغادرتا المكان صامتتين .
- ود جبل بأن يملأ من المليحة عينيه ولكنه لم يجرؤ على نزعها من عيني البلقيطي الحادثين . خيل اليه ان هذا الرجل يستطيع ان يرى الأعماق فخشى ان يقرأ رغائبه ولكن المعلم قال :
- دفعت عنها الأشرار ، امثالك يستحقون الحب ، وهؤلاء الشبان كيف نجروا على التحرش بابنتي البلقيطي ؟ انها البوطة ! الم تلاحظ انهم سكارى !
- فhez جبل رأسه نفياً فقال الآخر :
- اني اشم كالجن الأحمر ، ما علينا ، الا تعرفني ؟
- كلا يا معلم ، لم يحصل لي هذا الشرف .
- فقال بثقة :
- اذن فأنت لست من هذه الناحية .
- بلى .
- انا البلقيطي الحاوي .
- وأضاء وجه جبل بنور التذكر المباغت فقال :
- حصل لنا الشرف ، كثيرون يعرفونك في حارتنا .
- وما حارتكم ؟
- حارة الجبلالوي .
- فرجع البلقيطي حاجبيه الخفيفين الابيضين وقال بصوت منغوم :

- انعم واكرم ، مندا الذي يجهل الجبلوي صاحب الوقف ؟ او
فتوتكم زقلط ! وهل جئت للمولد يا معلم ؟

- جبل .

ثم قال بمكر :

- جئت ابحث عن مقام جديد .

- هجرت حارتك ؟

- نعم ..

فاشتد تفحص البلقيطي له ثم قال :

- ما دام يوجد فتوات فلا بد ان يوجد مهاجرون ! ولكن خبرني

اقتلت رجلاً أم امرأة ؟

فانقبض قلب جبل وقال بثبات :

- مزاحك ليس لطيفاً مثلك !

فضحك البلقيطي عن قم خرب وقال :

- لست من الرعاع الذين يعيث بهم الفتوات ، ولا انت من اهل

السرقة ، فثلك لا يهاجر من حارته الا بسبب القتل !

فقال جبل بحدة وضيق :

- قلت لك ..

فقطاعه قاتلاً :

- يا سيدي انا لا يهمني ان تكون قاتلاً خاصة بعد ان ثبتت لي

شهامتك ، ما من رجل هنا الا وقد سرق او نهب او قتل ، ولكي تطمئن

الى صدق قولي فاني ادعوك الى فنجان قهوة ونفسين في داري !

فعاود الأمل جبل وقال :

- حباً وشرفاً .

سارا جنباً الى جنب يخترقان السوق نحو حارة قلة ، وعندما خلفا

الزحام وراءهما سأله البلقيطي :

— اكنـت تقصد احداً في حيننا ؟

— لا أعرف أحداً .

— ولا مأوى ؟

— ولا مأوى .

فقال البلقيطي في انبساط :

— كن ضيفي إذا شئت حتى تجد لنفسك مأوى .

فرقص قلب جبل فرحاً وقال :

— ما أنبلـك يا معلم بلقيطي .

فقال الرجل ضاحكاً :

— لا تعجب لذلك ، في داري تقيم الشعابين والحيات فكيف تضيق

عن انسان ؟ هل أفزعك قلبي ؟ اني حاور واستعرف عندي كيف

تستأنس الشعابين !

عبرا الحارة فانتھيا الى خلاء لا يجد . ورأى جبل في مطلع الخلاء

داراً صغيرة بعيدة عن الحارة ، جدرانها احجار غير مطلية ، لكنها

تعتبر جديدة بالقياس الى بيوت حارة قلة المتداعية ، فإشار البلقيطي

اليها وقال بفخار :

— بيت البلقيطي الحاوي .

٢٣٤

ولما بلغا البيت قال البلقيطي :

— اخترت هذا المكان المنـزل لبيتي لان الناس لا يرون في الحاوي

الا ثعباناً كبيراً .

دخلا ممأ الى دهليز غير قصير يفضي في نهايته الى حجرة مغلقة ،

على حين قامت على الجانبين حجرتان مغلفتان . واردف البلقيطي وهو يشير الى الحجرة المواجهة للداخل :

- في هذه الحجرة توجد أدوات العمل ، الحي منها والجامد ، لا تخش شيئاً فبابها محكم الاغلاق ، أؤكد لك ان الثعابين أصلح للمعاشرة من أناس كثيرين ، كالذين فررت منهم مثلاً ! .

ثم ضحك كاشفاً عن فيه الحرب وقال :

- الناس تخاف الثعابين ، حتى الفتوات تخافها ، أما انا فأدين لها برزقي ، وبفضلها اقم هذا البيت .

وأشار الى الحجرة اليمنى وهو يقول :

- هنا تنام ابنتاي ، ماتت أمهما من زمن تاركة اباي لشيخوخة لا تصلح للزواج من جديد (ثم أشار الى اليسرى) وهنا سنام معاً .

وترامى صوت الفتاة القصيرة من سلم جانبي يصعد الى السطح وهي تنادي :

- شفيقة ، ساعديني في الغسل ولا تقفي هكذا كالحجر بلا عمل .
فصاح البلقيطي :

- يا سيدة ! صوتك سيوقظ الثعابين ، وأنت يا شفيقة لا تقفي كالحجر !

اسمها شفيقة ! ما أبدع المليحة ! وزجرها غير الجارح . والشكر الصامت في عينيها السوداوين . من يخبرها بأنه ما قبل هذه الضيافة الخطيرة الا من اجل عينيها ؟

ودفع البلقيطي باب الحجرة اليسرى وأوسع لجبل حتى دخل ثم تبعه ورد الباب . ومضى الرجل الى كنية تمتد بطول الحجرة الصغيرة في جانبها الأيمن ، متباطئاً ذراع جبل حتى جلسا معاً . وأحاط جبل بالحجرة بنظرة واحدة ، فرأى فراشاً في الجانب الآخر مغطى ببطانية ترايبسة اللون ، وفي أرض الحجرة فيما بين الفراش والكنية حصيرة مزركشة

تتوسطها صينية نحاس حال لونها من كثرة البقع ، ويرقد وسطها موند
هرمي الرماد ، مركونة الى قائمة جوزة ، وعلى مسطح حافته سيخ
وكباشه وحفنة من معسل جاف . ولم يكن يرى من النافذة الوحيدة
المفتوحة إلا الخلاء والسماء الشاحبة وجدار شاقق راكن عن بعد من جدران
المقطم ، على حين ورد منها خلال الصمت المخيم زعيق راعية ونسائم
مشبعة بحرارة الشمس الساطعة . وكان البلقيطي يتفحصه لحد المضايقة
ففكر في ان يشغله عن نفسه بالحديث ولكن السقف فوقها اهتز لوقع
أقدام تمشي فوق السطح فاهتز قلب جبل . تخيل أول ما تخيل قدميها
ففاض قلبه برغبة كريمة في ان تحل السعادة بالبيت ولو انطلقت ثعابينه،
وقال لنفسه: « قد يغتالي هذا الرجل ويدفني في الخلاء كما دفنت قدره
دون ان تدري فتاني أني ضحيتها هي » .

وأبغظه صوت البلقيطي وهو يسأله :

- هل لك عمل ؟

فاجابه وهو يتذكر آخر نقود يملكها في جيبه :

- سأجد عملاً ، أي عمل .

- لعلك في غير حاجة عاجلة الى عمل ؟

فداخله شيء من القلق لهذا السؤال وقال :

- بل يحسن بي ان أبحث عن عمل اليوم قبل الغد !

- لك جسم فتوات !

- لكنني اكبره العدوان !

فضحك البلقيطي وتساءل :

- ماذا كنت تعمل في الحارة ؟

فتردد قليلاً ثم قال :

- كنت أعمل في ادارة الوقف .

- يا خير اسود ، وكيف تهجر هذا النعم ؟

- نحظي !
 - هل طمعت عينك في احدهم ، الهوانم ؟
 - اتق الله يا شيخ .
 - انك شديد الحذر ، ولكنك ستانس الي سريسا ونفسي لي
 بكل اسرارك .
 - ان شاء الله .
 - معك نقود ؟
 فعاوده القلق ولكنه لم يكشف عنه وقال ببراءة :
 - عندي قليل منها لن يغني عن السعي .
 فقال الباقيطي وهو يرمش :
 - أنت ذكي كالعفاريت ، الا تدري انك تصلح حاويا ؟ لعننا
 نتعاون معاً ، لا تدهش لقولي ، فلاني عجوز في حاجة الى المعين .
 لم يأخذ قوله مأخذ الجد ولكنه كان مدفوعاً برغبة عميقة الى توثيق
 صلته به ، وهم بأن يتكلم ولكن الآخر بادره قائلاً :
 - سنفكر في ذلك على مهل ، أما الآن ...
 ونهض الرجل ، ومال فوق الموقد فرفعه ، ومضى به خارجاً
 كأنما ليشعله .

★

وقبيل العصر خرج الرجلان معاً ، فضى الباقيطي الى تجواله ، وقصد
 جبل السوق للفرجة والتسوق . وعاد مع المساء الى الخلاء فاهتدى الى البيت
 المنزل على بصيص نور ينبعث من نافذة . ولما بلغ البيت ترامت الى
 أذنيه اصوات محتدمة في نقاش فلم يملك ان يصغي . سمع سيدة تقول :
 - ان صح ما تقول يا أبني فان وراءه جريمة ونحن لا قبل لنا
 بفتوات الحارة .

فقال شفيقة :

- لا يبدو انه مجرم !

- فقال البلقيطي بسخرية واضحة :
- وهل عرفته لهذا الحد يا بنت الأفاعي ؟
- فقالت سيدة :
- لماذا يهرب من النعيم ؟
- فقالت شفيقة :
- ليس عجباً ان يهرب الانسان من حارة اشتهرت بكثرة فتواتها !
- فتساءلت سيدة بسخرية :
- من أين أتت هذه القدرة على معرفة الغيب ؟
- فقال البلقيطي متنهداً :
- معاشره الثعابين جعلتني أنجب حيتين !
- أتستضيفه يا أبي وأنت لا تدري عنه شيئاً ؟
- عرفت عنه أشياء ، وسأعرف كل شيء ، لي عينان يعتمد عليهما عند الحاجة ، ثم استصفته متأثراً بشهامته ولن أرجع عن رأيي .
- ما كان يردد عن الذهاب في غير هذا الظرف . ألم يهجر بيت النعيم بلا تردد ؟ ولكنه يذعن للقوة التي تشده الى هذا البيت . وطرب منه الفؤاد حتى سكر لسماع الصوت الذي دافع عنه . صوت الحنان الذي بدد وحشة الليل والخلاء وجعل الهلال السابح فوق الجبل يتسم كمن يزف بشرى في الظلام . ولبث ينتظر في الظلام ، ثم سعل ، واقبل الباب فطرقه . فتح الباب عن وجه البلقيطي الذي انعكس عليه ضوء المصباح في يده . وذهب الرجلان الى حجرتهم ، فجلس جبل بعد ان ترك فوق الصينية النحاس لقمة جساء بها . ونظر البلقيطي الى اللقمة منسائلاً فقال جبل :
- تمر وجبن وحلاوة طحينية وطعمية ساخنة .
- فابتسم البلقيطي ، وجعل يشير الى الجوزة تارة والى اللقمة أخرى ويقول :

— خير الليل ما مضى بين هذا وذاك .

وربت كثفه متودداً وهو يتساءل :

— أليس كذلك يا ابن الواقف ؟

وانقبض قلبه على رغبه ، وتوالت على مخيلته صور الهام التي تبتسئ
والحديقة الغناء باعراش الياسمين والعصافير والمياه الجارية ، والطمأنينة
والسلام والأحلام الناعمة ، دنيا النعيم الزائلة ، حتى أوشكت الحياة ان
تفسد . واذا بموجة تدفع ذكرياته الغارقة في الأسى الى بر الأمان ، الى
هذه الصبية الودودة الطيبة ، الى القوة الساحرة التي تنده الى بيت فيه
وكر للثعابين ، فقال بحماس غير متوقع كنهج مصباح أثر هبة نسيم :
— ما أطيب الحياة في جوارك يا عم .

٣٥

لم يعطف عليه النوم إلا قبيل الفجر إذ عانى من الخوف كثيراً .
وزاره طيفها في هلوسة المخاوف كما تساقط أوراق الياسمين على حشائش
جافة تسعى بينها الحشرات . كابد الأوهام التي تلدها الظلام في البيت
الغريب . وقال لنفسه في الظلام : « ما أنت إلا غريب في بيت الثعابين ،
تطارذك جريمة ويهتر قلبك بالعشق » . ولو ترك شأنه ما رغب في غير
السلام والدعة . وما خاف الثعابين قدر خوفه الغدر من ناحية ذلك الرجل
الذي يتعالى شخيره في فراشه ؛ فن أدراه أن شخيره صادق ؟ وما عاد
يطمئن الى صدق شيء . حتى دعس المدين له بحياته متذيع حماقته .
السرفيثور زقلط وتبكي أمه وتندلع النيران في الحارة التعيسة . والحب
الذي شده الى هذا البيت ، والى حجرة رفيقه مروض الثعابين ، من
أدراه انه سيعيش حتى يصرح بمكنونه . هكذا لم يعطف عليه النوم إلا

فبيل الفجر بعد ان عانى من الخوف كثيراً .
وفتح عينيه الثقيلتين عندما نضحت النافذة المغلقة بنور الصباح . رأى
البلقيطي جالساً في فراشه متفوس الظهر ، يدلك بيديه المعروقتين ساقيه
تحت الغطاء . وابتسم في ارتياح رغم الدوخة الملمة برأسه لقلّة النوم .
لعن الأوهام التي تعشش في الرأس في الظلام وتبتدد في النور كالحفافيش .
أليست أوهاماً جديرة بسوء ظن قاتل ؟ أجل ، ان امرئنا المجيدة تجري
في دماها الجريمة منذ القدم . وسمع البلقيطي يتشاءب بصوت مرتفع
مهاج كالحية الراقصة فهاج صدره وراح يسعل طويلاً بشدة حتى خيل
إليه ان وجهه سيلفظ عينيه . ولما سكّت السعال تأوه الرجل من الأعماق
فقال جبل :

— صباح الخير .
وجلس على الكنبه قالتت البلقيطي نحوه ووجهه ما زال محققاً من
السعال وقال :

— صباح الخير يا معلم جبل ، يا من لم يم من الليل إلا أقله .
— لعل وجهي متغير ؟
— بل أذكر تقلبك في الظلام والثفانات رأسك نحوي كالحائف !
يا لك من ثعبان ! ولكن كن ثعباناً غير سامٍ وحق العينين
السوداوين .

— الحق اني أرقت لتغير مكان النوم .
فضحك البلقيطي قائلاً :
— أرقت لسبب واحد وهو انك كنت تخافني على نفسك ، قلت
سيقتلني ويسلبي نقودي ثم يدفني في الحلاء كما فعلت أنسا بالرجل
الذي قتله .
— أنت ..

— اسمع يا جبل : الخوف شديد الابداء ، والثعبان لا يلدغ إلا

عند الخوف !

فقال جبل في انهزام خفي :

— انك تقرأ ما ليس في الصدور .

— انك تعلم اني ما جاوزت الحق يا موظف الوقف السابق 1

وترامى صوت من الداخل ينادي بقوة : « يا سيده تعالي » فشتمع روحه بانبطاس غير متوقع . هذه الحماة الزجاجية في وكر الثعابين ، التي قضت له بالبراءة وجذبته الى شجرة الآمال المورقة . وقال البلقيطي وكأنه يعلق على نشاط شفيقة :

— النشاط يدب في بيتنا منذ الصباح الباكر ، فتنطلق هاتان البنتان الى الطريق لتعودا بالماء والمدمس لنطعما اباهما العجوز ثم ترسله بجراب الثعابين ليلتقط لنفسه ولها الرزق .

وحلت السكينة بقلبه ، وشعر بأنه عضو في هذه الأسرة ، وفاضت نفسه بالموودة ، فتزع الى فتح صدره والتسليم الى مقاديره في عفوية لا تقاوم فقال :

— يا معلم ، بالحق سأقص عليك قصتي .

فابتسم البلقيطي وتشاغل بتدليك ساقيه فعاد جبل يقول :

— اني قاتل كما قلت ، ولكن لي قصة .

وقص عليه قصته . ولما فرغ قال الرجل :

— يا لهم من قوم ظالمين ، أما أنت فرجل شهم ولم يحب

نظري فيك .

واعتدل في جلسته باعتزاز ثم قال :

— من حقت الآن ان ابادلك صراحة بصراحة ، فاعلم اني انتسب

في الأصل الى حارة الجبلاني .

— أنت !

— نعم ، وفررت منها في صدر الشباب ضيقاً بفتواتها !

فقال جبل والدهشة لم تزايله بعد :

— هم شقاء حارتنا .

— نعم ، لكننا لا ننسى حارتنا رغم فتواتها ، ولذلك أحبيتك عندما عرفت أصلك .

— من أي حي كنت ؟

— من حي حمدان مثلك .

— يا للعجب !

— لا تعجب لشيء في هذه الدنيا ، لكنه تاريخ مضى من بعيد ، فلا أحد يعرفني الآن ولا تمرحنة نفسها التي تربطني بها صاة قريبي .

— اعرف هذه السيدة الشجاعة ، ولكن من كان غريمك من الفتوات ؟ زقلط ؟

— لم يكن في ذلك العهد الا فتوة حي حقيير .

— قلت هم شقاء حارتنا !

— أبصق على الماضي بكل ما فيه .

ثم بلهجة فيها اغراء :

— اشغل نفسك منذ الساعة بمستقبلك ، وها أنذا اكرر لك القول بأنك تصلح حاوياً ماهراً ، ولنا مجال مريح في الجنوب من هنا بعيداً عن حارتنا ، وعلى أي حال ففتواتكم واتباعهم لا يظهرون في هذا الحي ، لم يكن بطبيعة الحال يدري شيئاً عن فن الحواة ولكنه رجب به باختياره الوسيلة التي ستلصقه بهذه الأسرة فتساءل بنبرات فضحت رضاه :

— أتراني اصلح حقاً لذلك ؟

فوثب الرجل الى الأرض في سرعة بهلوانية ووقف امامه بحجمه القصير وقد كشف طوق جلبابه عن شعر كث ابيض وقال :

— أنت موافق ، لم يحب نظري في شيء قط .

ومد له يده فتصافحا ثم قال الرجل :

- اصارحك بأني احبك اكثر من اي ثعبان عندي .
فضحك جبل في نشوة طفل ، وشد على يد الرجل ليمنعه من الذهاب
حتى وقف متسائلاً ثم قال باندفاع لم تجد حيلة في منعه :
- يا معلم ، جبل يطلب القرب منك .

فابتسمت عينا البلقيطي المحمرتين وتساءل :
- حقاً ؟

- نعم ورب السماوات .
فضحك البلقيطي ضحكة قصيرة وقال :
- كنت اتساءل متى يا ترى يفتحني في ذلك ! نعم يا جبل فلست
أحق ، ولكنك الرجل الذي اعهد اليه بابنتي مطمئناً ، ومن حسن الحظ
ان سيدة فتاة ممتازة كما كانت المرحومة امها !
واعترى ابتسامة الابتهاج في فم جبل ارتباك غير خاف كما يعترى
اطراف الزهرة اليانعة الذبول ، وخاف ان يتبدد حلمه بعد ان صار في
قبضته وغنم :
- لكن ..

فتمهقه البلقيطي قائلاً :

- لكنك تطلب شفقة ! اعلم هذا يا ابن والدي ، اخبرني به
عيناك وحديث الصغيرة ومعاشره الثعابين والحيات فلا تؤاخذني فهذه هي
طريقة الحياة فيما يعتقدون من اتفاقات .

تنهد جبل من صميم القلب ، وشعر ببرد الطمأنينة والسلام ، ووثبت
بصدره مشاعر فتوة وحماس وانطلاق ، حتى بيت الذم لم يعد يبالي به ،
ولا الجاه المولى ، ولم يعد يخاف ما ينتظره من كد ومرمطة ، فليسدل
على الماضي ستاراً لا ينضح بضمه ، وليبتلع النسيان كافة المتاعب والآلام
الماضية ، وليبتلع فيما يبتلع حنان القلب الى الأمومة الفضائعة .

في الضحى زغردت سيده .
وسرى النبأ السعيد في الحواري المجاورة .
ثم شهد سوق المقطم وحيه زفة جبل .

٣٦

قال البلقيطي بلهجة انتقاد ساخرة :
— لا يجمل بالرجل ان يركن الى حياة الأرنب والديك ! وها أنت
لم تتعلم شيئاً واوشكت نقودك ان تفرغ !
كانا يجلسان على فروة امام باب الدار ، وكان جبل يمد ساقيه على
الرمال المشمسة تلوح في عينيه الغبطة والدعة فالتفت الى حميه وقال باسم :
— عاش ابونا ادهم ثم مات وهو يتمنى الحياة البريئة اللاهية في
الحديقة الغناء !

فضحك البلقيطي ضحكة مرتفعة ونادى بأعلى صوته :
— يا شفيقة ! ادركي زوجك قبل ان يقتله الكسل .
فظهرت شفيقة على عتبة الباب وهي تنقي عدساً في طبق على يدها ،
وقد لفّت رأسها بخمار ارجواني اكده صفاء وجهها . تساءلت دون ان
ترفع عينيها عن الطبق :

— ما له يا ابي ؟
— يتمنى شيئين : رضاك وحياة بلا عمل .
فضحكت متسائلة في انكار :

— وكيف يجمع بين ارضائي وقتلي جوعاً ؟
فقال جبل :

— هذا سر الحواري !

فلكره البلقيطي في جنبه قائلاً :

— لا تستهن بأشق المهسن . كيف تخفي بيضة في جيب متفرج
وتستخرجها من جيب آخر في الصف الذي يقابله ؟ كيف تحول البلى
الى كتاكيت ؟ كيف ترقص الحية ؟

فقلت شفيقة التي بدت منورة بالسعادة :

— علمه يا ابي ، انه لم يعرف من الحياة الا الجلوس على مقعد
وثير في ادارة الوقف .

فقام البلقيطي وهو يقول : « جاء وقت العمل » ثم دخل البيت .
وراح جبل يتأمل زوجه باعجاب ويقول :

— زوجة زقلاط دونك في الملاحة الف درجة لكنها تقطع النهار على
اريكة ناعمة ، والاصيل في الحديقة تستنشق عبير الفل وتلهو بالمبساه
الجارية .

فقلت بسخرية ومرارة معاً :

— هذا حال المتخمين بارزاق الناس .

فهرش جانب رأسه متفكراً وقال :

— ولكن هنالك سبيل الى السعادة الشاملة .

— لا تحلم ، لم تكن حاملاً عندما نهضت للأخذ بيدي في السوق ،

ولم تكن حاملاً عندما طردت عني ذباب البشر ، ولذلك دخلت قلبي .

فاشتاق ان يقبلها . ولم يهون من قيمة كلامها اقتناعه بأنه يعرف

اكثر منها . وقال :

— اما انا فاحييتك دون ما سبب .

— في هذه الحوارية من حولنا لا يحلم الا المجانين .

— ماذا تريد مني يا حلوة ؟

— ان تكون مثل ابي .

فتساءل معاتباً :

— وهذه الخلاوة تقطر منك ما شأنها ؟

فانفجرت شفتاها عن ابتسامة واسرعت أصابع يدها بين حبات العدس .
- عندما فررت من الحارة كنت اشقى الناس جميعاً ، ولكن لولا
ذلك ما تزوجتك !

فضحكت قائلة :

- نحن مدينان في سعادتنا لفتوات حارتك كما يدين ابي في رزقه
للحيات والثعابين .

فتنهذ جبل قائلاً :

- ومع ذلك فقد آمن خير من عرفته حارتنا من ابنائها بأنه يوجد
سبيل يكفل الرزق للناس وهم في الحداث يغنون .

- رجعتا ! ها هو ابي قادماً بجرابه ، قم رعاك الله .

وجاء البلقيطي بجرابه وقام جبل ومضى الاثنان في طريقهما المعهود .
وجعل البلقيطي يقول له :

- تعلم بعينيك كما تتعلم بعقلك ، انظر ماذا افعل ولا تسألني امام
احد من الناس ، واصبر حتى اوضح لك ما يغمض عليك فهمه .

ووجد جبل الحرفة شاقة حقاً ولكنه لم يستهن بها من اول الامر
وطن نفسه على الخلق فيها مهما كلفه الجهد . والواقع انه لم يكن امامه
من مهنة اخرى الا ان يرضى بمهنة بائع جوال او الفتوة او اللصوصية
وقطع الطريق . لم تكن الحوارى في حيه الجديد لتختلف عن حارته في
شيء عدا الوقف والقصص التي نشأت حوله . وقد رسبت في قرارة
نفسه حسرة متخلفة من احلام الماضي وذكريات المجد الغابر والآمال
التي يتعذب بسببها آل حمدان كما تعذب ادهم من قبل . وكان مصمماً
على النسيان بالقاء نفسه في خضم الحياة الجديدة وتقبلها وفتح الصدر لها ؛
والواذ بزوجه المحبة المحبوبة كلما خطر له خاطر حزن او هوان في
تجواله . وتفوق على احزانه وذكرياته وبرع في تعليمه حتى ادهش
البلقيطي نفسه . وكان يواصل التدريب في الحلاء ويعمل في النهار والليل ،

وتمضي الايام والاسباع والاشهر فلا تن له عزيمة ولا يدركه الكلال .
وقد عرف الحواري والأزقة . واستأنس الثعابين والحيات . ولعب امام
آلاف الصبية . وذاق حلاوة النجاح والربح . وتلقى بشرى الأبوة المقبلة .
واستلقى على ظهره يرعى النجوم حين الراحة . وسهر الليالي يتجاذب
مع البلقطي الجسوزة ويقص القصص التي كانت تروىها الرباب بقهوة
حمدان . وتساءل من حين الى حين أين الجبلأوي . واذا اشفت شقيقة
من ان يفسد عليه الماضي حياته هتف بها : الى هؤلاء ينتسب الشيء الذي
في بطنك ، وآل حمدان آله ، والأفندي رأس الاغتصاب كما ان زقلط
رأس الارهاب ، فكيف تطيب الحياة وبها امثال اولئك ؟

• • •

ويوماً كان يعرض لأعبيه في زينهم وسط حلقة عكمة من الصغار .
ولاحت منه التفاتة فرأى امامه دعبس وقد شق سبيله الى الصف الأمامي
وراح يحمق فيه بذهول . اضطرب جبل وتجنب النظر الى وجهه ولم يعد
بمستطاعه ان يواصل عمله فأنهاه رغم احتجاج الصغار ورفع جرابه ومضى .
وما لبث ان لحق به دعبس وهو يصيح :

— جبل ! أهذا أنت يا جبل !

فتوقف عن السير ملتفتاً اليه وقال :

— نعم ، ماذا جاء بك يا دعبس ؟

ولم يفتق دعبس من دهشته وجعل يقول :

— جبل حار ! متى تعلمت هذا وأين ؟

فقال جبل باستهانة :

— ليس هذا بأعجب ما يقع في هذه الدنيا .

وسار جبل والآخر يتبعه حتى بلغا سفح الجبل ثم جلسا في ظل نتوء ،
ولم يكن بالمكان الا اغنام ترعى وراعٍ جلس عارياً يفتي جلابيه . وتفرس

دعبس في وجه صاحبه وقال :

— لماذا هربت يا جبل ؟ كيف ساء ظنك بي حتى توقعت ان اخونك ؟ والله ما اخون احداً من حمدان ولو يكن كعبها ! ولحساب من اخونك ؟ الأفندي أم زقلط ؟ فليحرقهم رب السماوات جميعاً ، كم سألوا عنك كثيراً ، وكنت اسمعهم يسألون فأغرق في عرقي .
فسأله جبل باهتمام :

— خبرني كيف تعرض نفسك للانتقام بالتسلل من ربك ؟
فلوح دعبس بيده في استهانة قائلاً :

— رفع الحصار عنا من زمن ، لم يعد احد يسأل اليوم عن قدره او قاتله ، ويقال ان هدى هانم هي التي انقذتنا من الموت جوعاً ، ولكن قضي علينا بالذل الى الأبد ، لا مقيى لنا ولا كرامة ، نسعى في اعمالنا بعيداً عن حارتنا واذا عدنا توارينا وراء الجدران ، واذا عثر على احدنا فتوة عبث به صفعاً او بصقاً ، ان تراب حارتنا اليوم اكرم عليهم منا يا جبل ... ما اسعدك في غربتك .
فقال جبل بامتناع :

— دع معادتي في شأنها وخبرني الم يصب احد بسوء ؟

فقال دعبس وهو يتناول طوبة ويضرب بها الأرض :

— قتلوا منا عشرة في عهد الحصار !

— يا رب السماوات !

— ذهبوا فداء لقدره الحقير ابن الحفيرة ، ولكنهم ليسوا من

اصحابنا !

فقال جبل بحنق :

— الم يكونوا من آل حمدان يا دعبس ؟

فرمش دعبس حياء وتحركت شفتاه بعذر غير مسموع فعاد جبل يقول :

— والآخرون ينعمون بالصنع والبصق .

وشعر الرجل بأنه مسئول عن الارواح التي زهقت ، وعصر الالم
قلبه . ووجد ندماً دامياً على كل لحظة سلام مرت به منذ هجرته .
ودهمه دعيس بقوله :

— لعلك الوحيد السعيد اليوم من آل حمدان .

فهتف :

— لم اكف يوماً عن التفكير فيكم .

— لكنك بعيد عن الهم والغم .

فقال بحماسة :

— لم أفلت من الماضي قط .

— لا تبدد راحة بالك بلا امل ، لم يعد لنا أمل .

فردد جبل قوله الأخير ولكن في نبرات غامضة :

— لم يعد لنا أمل !

فرمقه دعيس باهتمام مستظلاً ولكنه لم ينبس اجترأماً للخرن المرسوم
على وجهه . ونظر الى الأرض فرأى خنفساء تدب بسرعة حتى اختفت
تحت كومة احجار . وكان الراعي ينفذ جلبابه ليغطي جسده الذي اهتبه
الشمس . وعاد جبل يقول :

— في الحق لم اكن سعيداً الا في الظاهر .

فقال مجاملاً :

— انك تستحق السعادة عن جدارة .

— تزوجت واتخذت لنفسى عملاً جديداً كما ترى وما برح نداء نخفي
يلح في افلاق منامي .

— فليباركك الله ، اين تقيم ؟

لم يجبه . وبدا وكأنه يخاطب نفسه . ثم قال :

-- لا تطيب الحياة وبها امثال اولئك الأوغاد .

— صدقت ، ولكن كيف التخلص منهم ؟

ارتفع صوت الراعي وهو ينادي اغنامه ، ويسير نحوها متأبطاً عصاه الطويلة ، ثم تراهي عنه لحن غناء غير واضح . وتساءل دعبس :
- كيف استطيع ان ألقاك ؟
- سل عن بيت اليلقيطي الحاوي عند سوق المقطم ولكن اكنم خبري الى حين .
ونهض دعبس فشد على يده ومضى والآخر يتابعه بعينين محزونتين .

٣٧

أوشك الليل ان ينتصف . وكادت حارة الجبلوي تفرق في الظلمة لولا اضواء وانية تتسلل من ابواب المقاهي المواربة انقاء للبرد . ولم يلح في سماء الشتاء نجم واحد وتوارى الغلمان في الحجرات ، وحتى الكلاب والقطط آوت الى الأفنية . ومن خلال الصمت الشامل انبعثت انغام الرباب الرتيبة تردد الحكايات ، أما حيّ حمدان فقد تلفّع بظلمة خرساء . وجاء شبحان من ناحية الخلاء ، فسارا تحت سور البيت الكبير ، ثم مرّا امام بيت الافندي ، قاصدين حيّ حمدان ، حتى وقفا امام الربيع الأوسط وطرق احدهما الباب ، فرنّ الطرق في الصمت مثل قرع الطبول . وفتح الباب عن وجه حمدان نفسه الذي بدا شاحباً على ضوء سراج بيده :
ورفع السراج ليتبين وجه الطارق ، وما عثم ان هتف في دهشة :
- جبل !

وتنحى عن الباب فدخل جبل حاملاً بقجة كبيرة وجراباً ، وتبعته زوجه حاملة بقجة اخرى . وتعانق الرجلان . وألقى حمدان نظرة سريعة على المرأة فلمح بطنها ، وقال :
- زوجتك ؟ أملاً بكيا ، اتبعاني على مهل

اخترقوا دهليزاً طويلاً مسقوفاً حتى بلغوا الحوش الواسع غير المستوف ،
ثم مالوا الى السلم الضيق ووقفوا فيه حتى مسكن حمدان . وادخلت
شقيقة الى الحريم ، ومضى حمدان بجبل الى حجرة واسعة متصلة بشرفة
مطلّة على حوش الربع . وما لبث خبر عودة جبل ان ذاع فأقبل
كثيرون من رجال حمدان على رأسهم دعبس وعتريس وضلمة وفوانيس
ورضوان الشاعر وعبدون ، فصافحوا جبل بحرارة ، وجلسوا في الحجرة
على الشلت يتطلعون الى العائد باهتمام وحب استطلاع . وتناوبت الأسئلة
على جبل فقص عليهم طرفاً من حياته الأخيرة . وتبادلوا نظرات الأسى .
ورأى جبل ان ارواحهم المضغضة تنعكس على اجسادهم المهزولة وأن
الفناء يدب في الأوصال . وقصّوا عليه ما يلقون من هوان فقال دعبس
انه اخبره بكل شيء في لقاء اتفق لها منذ شهر ، وانه لذلك يعجب لما
جاء به ، وسأله ساخرأ :

— أجنّت لتدعونا للهجرة الى مقامك الجديد ؟

فقال جبل بحدة :

— لا مقام لنا الا هنا !

وجذب الأسماع في صوته نبرة قوة حتى لاح الاستطلاع في عيني

حمدان وقال :

— لو كانوا ثعابين لما استعصى عليك ردعهم .

ودخلت تمرحنة بأقداح الشاي فخيّت جبل تحية حارة ، واثنت على

زوجها ، وتنبأت له بأنه سينجب ذكراً ولكنها قالت مستدركة :

— لم يعد من فارق بين رجالنا ونسائنا !

ونهرها حمدان وهي تغادر الحجرة ولكن اعين الرجال عكست

اقتناعاً ذليلاً بقولها ، وتكاثفت سحب الاحزان المخيمة على المجلس فلم

يذق احد للشاي طعماً . وتساءل رضوان الشاعر :

— لماذا عدت يا جبل وأنت لم تألف الاهانة ؟

فقال حمدان بصوت ينم عن الانتصار :
- قلت لكم مراراً ان الصبر على ما تلقى خير من التسكع بين
غرباء سيكرهونا .

فقال جبل بقوة :

- ليس الأمر كما ترى .

وهز حمدان رأسه دون ان ينبس فساد صمت حتى قال دعبس :
- يا جماعة فلنتركه ليستريح .

ولكنه اشار لهم بالبقاء وقال :

- ما جئت لأستريح ولكن لأحدثكم في شأن خطير ، اخطر مما
تتصورون .

وتطلعت اليه الأعين بدهشة وغمغم رضوان متمنياً الخير فيما سيسمع .
اما جبل فراح يقلب في الوجوه عينية القويتين ، ثم قال :
- كان بوسعي ان امضي العمر كله في اسرتي الجديدة دون تفكير
في العودة الى حارتنا .

وصمت ملياً ، ثم عاد يقول :

- لكنه حدث منذ ايام معدودة ان شعرت برغبة في المشي وحدي
رغم البرد والظلام ، فخرجت الى الخلاء ، واذا بقدمي تقوداني الى
البقعة المشرقة على حارتنا ، ولم اكن دنوت منها منذ هروبي .
تجلى الاهتمام في الأعين فواصل الرجل حديثه قائلاً :

- مضيت في تجوالي في ظلام دامس ، فحتى النجوم توارت وراء
السحب ، وما ادري الا وأنا اوشك ان اصطدم بشبح هائل ، توهمته
اول الأمر أحد الفتوات ، ولكنه يدا لي شخصاً ليس كمثله احد في
حارتنا ولا في الناس جميعاً ، طويلاً عريضاً كأنه جبل ، فامتألت رهبة
وهمت بالتراجع واذا به يقول بصوت عجيب : « قف يا جبل » فتسمرت
في مكاني وسألته وجلدي ينضج بالخوف : « من ؟ من انت ؟ » .

وتوقف جبل عن الحديث فالت الرؤوس الى الأمام في اهتمام ،
وتساءل ضلعة :

— من حارتنا ؟

ولكن عتريس قال بسرعة معترضاً :

— قال انه ليس كمثله احد في حارتنا ولا في الناس جميعاً .

ولكن جبل قال :

— بل انه من حارتنا !

وتساءلوا عن هويته جميعاً فقال جبل :

— قال لي بصوته العجيب : « لا تخف ، انا جدك الجبلوي ! »

وارتفعت صيحات الدهشة من الجميع ورمقوه بنظرات الارتباب .

وقال حمدان :

— انك تهز دون شك .

— بل اقول الحق دون زيادة ولا نقصان !

فسأله فوانيس :

— ألم تكن مسطولاً ؟

فصاح جبل بغضب :

— ان السطل لم يذهب بعقلي قط !

فقال عتريس :

— له لطسات لا تعرف عزيزاً وخصوصاً الأصناف الجيدة !

فتبدى الغضب في وجه جبل كالسحاب المظلم وصاح :

— سمعته باذني وهو يقول لي : « لا تخف ، انا جدك الجبلوي »

فقال حمدان برقة ليسكن غضبه :

— لكنه لم يغادر بيته من زمن ولم يره احد !

— لعله يخرج كل ليلة دون ان يدري احد .

فعاد حمدان يتساءل في حذر :

— لكن احداً غيرك لم يصادفه !

— صادفته انا !

— لا تغضب يا جبل فما قصدت التشكيك في صدقك ، ولكن الوهم خداع ، بالله خبرني اذا كان الرجل يستطيع الخروج من بيته فلماذا نزل عن النظارة لغيره ؟ ولماذا يتركهم يعثون محقوق ابنائه ؟ !
فقال جبل مقطباً :

— هذا سره وهو به اعلم .

— ان ما قيل عن اعتزاله لكبره وعجزه اقرب الى المعقول .

فقال دعيس :

— اننا نتمخبط بين الاقاويل ، دعونا نسمع القصة ان كان لها بقية .
فقال جبل :

— قلت له : « لم احلم ان اقابلك في هذه الحياة » فقال : « ها انت ذا تقابلني » وحددت بصري لأتبين وجهه المرتفع في الظلام فقال لي : « لن تستطيع رؤيتي ما دام الظلام » فقلت بذهول لرؤيته محاولة رؤيتي له : « لكنك تراني في الظلام » فقال : « اني ارى في الظلام منده اعتدت التجوال فيه قبل ان توجد الحارة » فقلت باعجاب : « الحمد لرب السماوات على انك ما زلت تتمتع بصحتك » فقال : « انت يا جبل ممن يركن اليهم ، وآي ذلك انك هجرت النعيم غضباً لأسرتك المظلومة ، وما اسرتك الا أسرتي ، وهم لهم في وقفي حق يجب ان يأخذوه ، ولهم كرامة يجب ان تصان ، وحياة يجب ان تكون جميلة » فسألته في فورة حماس اضاءت الظلام : « وكيف السبيل الى ذلك ؟ » فقال : « بالقوة تهزمون البغي ، وتأخذون الحق ، وتحيون الحياة الطيبة » فهتفت من اعماق قلبي : « سنكون اقوياء » فقال : « وسيكون النجاح حليفك » .

وترك صوت جبل وراءه صمتاً كالحلم بدوا فيه جميعاً مسحورين .

كانوا يفكرون ويتبادلون النظرات ثم يتجهون بأعينهم الى حمدان حتى
خرج عن الصمت قائلاً :

— فلنتدبر هذه الحكاية بعقولنا وقلوبنا !

فقال دعبس بقوة :

— انها لا تبدو وهماً من اوهام السطل وكل ما تتضمنه حق .

فقال ضلمة بايمان :

— لن نكون وهماً الا اذا كانت حقوقنا وهماً !

فتساءل حمدان في شيء من التردد :

— ألم تسأله عما يمنعه من اجراء العدل بنفسه ؟ او عما جعله يعهد

بالنظارة الى قوم لا يحسنون القيام على حقوق الناس ؟

فقال جبل بامتناع :

— لم أسأله ، ولم يكن بوسعي ان أسأله ، أنت لم تلقه في الخلاء

والظلمة ولم تستشعر الرهبة في حضرته ، ولو وقع لك ذلك ما فكرت

في مناقشته الحساب ولا داخلك الشك في امره .

فهز حمدان رأسه فيما يشبه التسليم وقال :

— هذا كلام خليق بالجبلاوي حقاً ولكن ما اخلقه بأن ينفذه بنفسه !

فصاح دعبس :

— انتظروا حتى تموتوا في هوانكم !

فتنحج رضوان الشاعر وقال وهو ينظر بحذر في الوجوه :

— كلامه جميل ولكن فكروا فيما يجرنا اليه .

فقال حمدان بحزن :

— ذهبنا مرة نستجدي بعض حقتنا فكان ما كان .

واذا بعبدون الصغير بصيبح :

— علام نخاف وليس هناك اسوأ مما نحن فيه ؟!

فقال حمدان كالمعتذر :

— لست اخاف على نفسي ولكنني اخاف عليكم .

فقال جبل بازديراء :

— سأذهب الى الناظر وحدي .

فقال دعبس وهو يترجّح مقرباً من مجلسه :

— ونحن معك ، لا تنسوا ان الجبلأوي وعده بالنجاح !

فقال جبل :

— سأذهب وحدي عندما اقرر الذهاب ، ولكنني اريد ان اطمئن

الى انكم ستكونون ورائي وحدة متماسكة خليقة بمواجهة الشدة والصمود لها !

ووثب عبدون واقفاً في حماس وهتف :

— وراءك حتى الموت !

وانتقل حماس الغلام الى دعبس وعريس وضلمة وفوانيس . وتساءل

رضوان الشاعر بشيء من المكر ان كانت زوجة جبل تدري بما جاء

زوجها من اجله فقص جبل عليهم كيف انه افضى بسرّه الى البلقيطي ،

وكيف نصحه الرجل بتقدير العواقب ، وكيف أصر على العودة الى

حارته ، وكيف اختارت زوجته ان تسير معه الى النهاية .

وعند ذاك قال حمدان بصوت انبأ بأنه مع الآخرين :

— ومتى تذهب الى الناظر ؟

فأجاب جبل :

— عندما تنضج خطبي .

فقام حمدان وهو يقول :

— سأدبر لك مقاماً في مسكني ، انك اعز الأبناء ، وهذه ليلة لها

ما وراءها ، ولعل الرباب ترونها غداً موصولة بقصة ادهم ، هلموا

نتعاهد على الخير والشر !

عند ذاك تصاعد صوت حمودة الفتوة ، العائد مع الفجر ، وهو

يفني بلسان مخمور مترنج :

يا واد يا سكري تشرب تنجلي وتحش الحارة تطوح ترمي
وعامللي فنجري وتمز بجنبري

فلم يؤخذوا بصوته الا لحظة ، ثم مدوا أيديهم للتعاقد في حماس ،
وفي رجاء .

٣٨

وعلمت الحارة بعودة جبل . رآته يسير بجرايه . ورأت زوجته وهي
تسعى الى الجمالية لابتياح حوائجها . وتحدثوا عن مهنته الجديدة التي لم
يسبقه اليها احد من ابناء الحارة . على انه كان يعرض الأعيه السحرية
في الأحياء المجاورة دون حارته ، وتجنب استعمال الثعابين في ألعيه فلم
يفطن احد الى انه بها خبير . ومر ببيت الناظر مرات وكأنما لم يطره
في حياته وهو يكابد في أعماقه حنيناً أليماً الى أمه . ورآه الفتوات مثل
حمودة والليثي وبركات وابو سريع فلم يصفعوه كما يفعلون مع غيره
من آل حمدان ولكنهم عرضوا به وهزقوا بجرايه . وصادفه مرة زقلط
فحججه بنظرة قاسية ، ثم اعترض سبيله متسائلاً :

— أين كانت غيبتك ؟

فقال في حلم :

— في الأرض الواسعة ..

فقال الرجل متحرشاً :

— اني فتوتك ومن حقي ان اسألك عما أريد وعليك ان تجيب ...

— أجبتك بما عندي .

— وماذا عاد بك ؟

فقال في هدوء :

— ما يعود بالإنسان الى حارته !

فقال بصوت نهم عن وعيد :

— لو كنت في مكانك ما عدت !

وسار فجأة بقوة ، فكاد يرتطم به لولا ان تنحى جبل عن سبيله بسرعة ، كاظماً غيظه . واذا بصوت بواب بيت الناظر يناديه ، فالتفت جبل نحوه دهشاً ، ثم مشى اليه ، فالتقيا امام البيت وتصافحا بحرارة . وجعل الرجل يسأله عن احواله ، ثم اخبره بأن الهانم تود رؤيته . وكان جبل يتوقع هذه الدعوة منذ ظهوره في الحارة . كان قلبه يحده بأنها آتية لا ريب فيها . ومن ناحيته لم يكن يوسع ان يزور البيت للحال التي غادره عليها . وفضلاً عن ذلك فقد قرر الا يطلب المقابلة حتى لا يثير الشكوك حولها قبل ان تقع ، سواء في نفس الناظر أم في نفوس الفتوات . ولكنه ما كاد يدخل البيت حتى جرى الخبر في الحارة جميعاً . وألقى نظرة سريعة — عند مسيره الى السلامك — على الحديقة ، على اشجار الجميز والتوت العالية ، وشجيرات الأزهار والورود التي تغطي الأركان ، وقد اختنى العبير التقليدي تحت قبضة الشتاء ، وغشي الجو نور هادئ وديع كالأصيل كأنه يقطر من السحاب الأبيض المنتشر . وصعد السلم وهو يطرد عن قلبه بقوة اسراب الذكريات . ودخل البهو فرأى في صدره الهانم وزوجها جالسين ، منتظرين . نظر الى أمه فتلاقت نظراتهما ، وقامت المرأة لاستقباله في تأثر شديد ، فهوى على يديها بقبلها ، ولثمت جبينه في حنان ، فاجتاحه في موقفه شعور بالحب والسعادة . والتفت رأسه الى الناظر فرآه جالساً في عباته يطالعها بعينين باردتين ، فدد له يده فقام نصف قومة ليصافحه وسرعان ما جلس . وجرت عينا هدى على جبل في دهشة ممزوجة بانزعاج ، وهو يبدو

بجسمه الفارع في جلباب خشن مشمر وسطه يحزام غليظ ، وفي قدميه
مركوب شبه بال ، وعلى شعره الغزير طاقة عتاء ، فتجلى في عينيها
الراء . وتحدثت عيناها - دون اللسان - فأبدت حزنها على مظهره وعلى
ما ارتضاه لنفسه من حياة ، وكأنما كانت تطالع املاً باهراً تهاوى الى
حطام . وأشارت له بالجلوس فجلس على مقعد قريب منها ، وجلست
هي فيما يشبه الاعياء . وأدرك ما يدور في نفسها فحدثها بصوت قوي
عن حياته في سوق المقطم ، وعن مهنته ، وزواجه ، حدثها حديث
الراضي عن تلك الحياة رغم خشونتها ، والقانع بها . فامتعضت
بقوله وقالت :

- لتكن حياتك ما تكون ، ولكن كيف لم تجعل من بيتي اول بيت
تقصده لدى عودتك الى الحارة ؟

كاد يقول لها انه ليس لعودته الى الحارة من هدف الا بيتها ، ولكنه
اجل ذلك لأن اللحظة لم تكن مناسبة ، ولأنه لم يفق بعد من تأثير اللقيا .
وأجاب قائلاً :

- كان بيتك امنيتي ولكني لم اجد الشجاعة لافتحامه بعد ما كان ..
واذا بالافندي يسأله بصوت بارد :

- ولماذا عدت ما دام العيش قد طاب لك في الخارج ؟
فندت عن الهانم نظرة عتاب نحو زوجها الذي تجاهلها ، أما جبل
فقال باسمًا :

- لعلتي عدت يا سيدي طامعاً في لفيك !
فقال هدى في عتاب :

- ولم نزرنا حتى دعوناك يا جاحد .
فقال جبل وهو يخفض رأسه :

- ثقي يا سيدتي بأنني كلما ذكرت الظروف التي اضطرتني الى
مغادرة هذا البيت لعنتها من صميم قلبي .

فحدجده الافندي بنظرة مريبة وهمّ بسؤاله عما يعني ولكن هدى
سببته قائلة :

— علمت بلا شك بعقونا عن آل حبدان اكراماً لك .
وأدرك جبل انه آن لهذا الموقف العائلي الطيب ان ينتهي كما قدر له
من اول الأمر ، وانه آن للكفاح ان يبدأ فقال :
— الحق يا سيدتي انهم يعانون ذلاًّ ألّعن من الموت ، وقد قتل منهم
من قتل .

فقبض الافندي بشدة على مسبخته وهتف بحدة :
— انهم مجرمون ، وقد نالوا ما يستحقون .
فلوحت هدى بيدها في رجاء وقالت :
— فلتنس الماضي كله .

فقال الافندي باصرار :
— ما كان يجوز ان يضيع دم قدره هدرأ .
فقال له جبل بثبات :

— المجرمون حقاً هم الفتوات .
فوقف الافندي في عصبية ووجه الخطاب الى زوجته قائلاً في لوم :
— أرأيت نتيجة اذعاني لك في دعوته الى بيتنا ؟
فقال جبل بصوت افسحت نبراته عما وراءه من عزم :
— سيدي ، كان في نيتي ان اجيء اليك على اي حال ، ولعل
الاعتراف بالجبل الذي أكنّه نحو البيت هو الذي جعلني انتظر حتى
أدعى اليه .

فرمقه الناظر بنظرة توجس وارتياب ثم سأله :
— ماذا تريد من مجيئك ؟

فوقف جبل مواجهاً الناظر في شجاعة ، وهو يدرك تماماً انه يفتتح
باباً مستهبطاً منه العواصف جاعحة ، ولكنه كان يستمد من مقابلة الخلاء

شجاعة لا تتزعزع . قال :

— جئت مطالباً بحقوق آل حمدان في الوقف وفي الحياة الآمنة !
اسود وجه الافندي من الغضب على حين فغرت الهائم فاما من اليأس ،
وقال الرجل وهو يحده بنظرة محرقة :

— اتجرؤ حقاً على معاودة هذا الحديث ؟ أنسيت ان المصائب تتابع
عليكم منذ جرؤ شيخكم المخرف على التقدم بهذه المطالب الخرافية ؟ !
أقسم على انك جننت ، ولست مطالباً بتضييع وقتي مع المجانين .
وقالت هدى بصوت باك :

— جبل ، كان في نيتي ان ادعوك انت وزوجك للاقامة معنا .
لكن جبل قال بصوت قوي :
— انما رددت على مسامعك رغبة من لا تُردُّ له رغبة وهو جدك
وجدتنا الجبلأوي !

نظر الافندي الى جبل بامعان وتفرس وذهول . نهضت هدى جزعة
وضعت كفها على منكب جبل وهي تتساءل :

— جبل ، ماذا دهاك ؟ !

فقال جبل باسمّاً :

— بخير يا سيدتي .

فقال الافندي في ذهول :

— بخير ! انت بخير ؟ ماذا حصل لعقلك ؟

فقال جبل بهدوء وسكينة :

— اسمع قصتي واحكم بنفسك .

وقصّ عليها ما سبق ان قصه على آل حمدان . ولما فرغ من قصته
قال الافندي وكان يتفرس وجهه طوال الوقت بريية :

— الواقف لم يغادر بيته قط منذ اعتزل ..

فقال جبل :

-- لكُنِّي قابِلته في الخلاء .
فسأله متَهَكِّمًا :
- ولماذا لم يطلِعني أنا على رغبته ؟
فقال جبل :
- هذا سرّه وهو به أعلم .
فضحك الافندي ضحكة حانقة وقال :
- إنك حاورَ بحقّ وجدارة ، ولكنك لا تقنع بالاعيب الحواة وانما
تطمع في اللعب بالوقف كله !
فقال جبل دون ان يزايله هدوؤه :
- علم الله اني ما جاوزت الحق ، فلنحتكم الى الجبل اوي نفسه ان
استطعت ، او الى شروطه العشرة ..
فانفجر غضب الافندي . اربد وجهه وارتعشت أطرافه وصاح :
- ايها اللص المحتال ! لن تنجو من مصيرك الأسود ولو اعتصمت
بقمة الجبل ..
وهتفت هدى :
- يا للشقاء ! ما كنت أتوقع ان نجيني بهذه التعاسة كلها يا جبل .
فساءل جبل في عجب :
- يحدث هذا كله لا لشيء الا لأنني طالبت بحقّ آلي المشروع ؟!
فصرخ الافندي بأعلى صوته :
- اخرس يا محتال ، يا حشاش ، يا حارة حشاشين يا أولاد
الكلب ، اخرج من بيتي ، وان عدت الى هديانك قضيت على نفسك
وعلى اهلك بالذبح كالنجاج .
فقطب جبل غاضباً وصاح :
- احذر ان يحق بك غضب الجبل اوي .
فهجم الافندي على جبل ولكمه في صدره العريض باقصى قوته

ولكن جبل تلقاها بثبات وصبر ، والتفت الى الهائم قائلاً :
- انما اكرمه اكراماً لك .
ثم ولى لها ظهره وذهب .

٣٩

توقع آل حمدان شراً داهماً . وخالفت تمرحنة الاجماع فظنت انه ما دام جبل على رأس آل حمدان هذه المرة فلن تسمح الهائم بالقضاء عليه . لكن جبل نفسه لم يؤمن بظن تمرحنة واكد انه إذا هدّد الوقف طامع فلن يقام وزن لجبل ولا لأحد من الناس ولو كان اقربهم الى الافندي نفسه . وذكرهم جبل بوصية جدهم بأن يكونوا أقوياء وأن يصمدوا للملمات . ومضى دعبس يقول ان جبل كان يرغل في النعيم ولانه بنبذه مختاراً اكراماً لهم فلا يصح ان يخذله أحد ، وإن التذرع بالقوة إذا لم ينفع فلن يدفع بهم الى أسوأ مما هم فيه بحال . والحق أن آل حمدان استشعروا الخوف وتوترت منهم الأعصاب ولكنهم وجدوا في اليأس قوة وعزيمة فكانوا يرددون المثل القائل « لطابق لاتنين عور » . رضوان الشاعر وحده راح يقول متحسراً : « لو شاء الواقف لأعلن كلمة العدل وقضى لنا بالحق ونجّانا من الهلاك المبين » . وقد غضب جبل لما بلغه قوله ، فقصدته عابساً هائجاً ثم هزّه من منكبيه حتى كاد يقتلعه من مجلسه وصاح به : « أهذا هو حال الشعراء يا رضوان ؟ ! تروون حكايات الأبطال وتغنون على الرباب فإذا جد الجلد تفهقتم الى الجحور واشعتم التردد والهزيمة ، الا لعنة الله على الجبناء » . والتفت الى الجالسين قائلاً : « لم يكرم الجبلاوي حياً من أحياء هذه الحارة كما أكرمكم ، ولو لم يكن يعتبركم أسرته الخاصة مالاقاني ولا كلمتي ،

ولكنه نور السيل ووعد بالتأييد ، ووالله لأكافحن ولو كنت وحدي » . لكن بدا أنه لم يكن وحده . أبده كل رجل ، وأبده كل امرأة ، وانتظروا جميعاً المحنة وكأنهم لا يزالون بالعواقب . واحتل جبل مكان الزعامة في حيه بطريقة عفوية أملت لها الأحداث دون قصد منه أو تدبير ، ودون ممانعة من حمدان الذي ارتاح الى تخليه عن موضع سيصير هدفاً لهجوم لن يعرف مداه . ولم يقبع جبل في الربع فخرج - مخالفاً نصيحة حمدان - ليتجول كمعادته . كان يتوقع شراً عند كل خطوة ولكن أحداً من القوات لم يتعرض له بسوء ، فعجب لذلك غاية العجب ، ولم يجد له من تفسير الا ان يكون الافندي قد كتم أنباء المقاتلة على أمل ان يسكت هو أيضاً عن مطالبه فينتهي الأمر وكأنه ما كان . وأشفق من ان ينتهي الأمر وكأنه ما كان . ورأى وراء هذه السياسة وجه الهامم المحزون وأمومتها الصادقة . وخاف ان يثبت حنانها انه أقسى عليه من غلظة زوجها ففكر طويلاً فيما ينبغي ان يفعل لينفض الرماد عن الجمر . وجرت في الحارة أحداث غريبة . فذات يوم ترامت استغاثة امرأة من بدروم ، وتبين ان ثعبانا زحف بين قدميهما فخرجت تجري الى الطريق . وتطوع رجال للتفتيش عن الثعبان فدخلوا مسكنها بعصيتهم ، وفتشوا عن الثعبان حتى عثروا عليه ، فأنهالوا عليه ضرباً حتى قتلوه ، وطرحوه على أرض الحارة فتلقفه الغلمان وراحوا يلعبون به مهللين . ولم يكن الحادث بالغريب في الحارة ولكن لم تكلد تمضي ساعة حتى ارتفعت صرخة استغاثة ثانية من بيت في مطلع الحارة فيما يلي الجمالية . وما جثم الليل حتى تعالت ضجة في ربوع حمدان ، اذ رأى البعض ثعبانا ولكنه اختفى قبل ان يلحق به أحد ، وضاعت جهود القوم للعثور عليه ، وعند ذاك تطوع جبل نفسه لاستخراجه مستعيناً بالخبرة التي اكتسبها عند البلقيطي . وتحدث آل حمدان عن وقفة جبل عارياً في الحوش ، وعن لغته السرية التي خاطب بها الثعبان حتى جاءه طائعا . وكادت تنسى تلك

الأحداث مع صباح اليوم التالي لولا ان تكرر وقوعها في بيوت أناس من ذوي الشأن . فقد ذاع وملاً الاسماع ان ثعباناً لدغ حمودة الفتوة وهو يقطع دهليز الربيع الذي يقيم فيه ، فصرخ الرجل على رغبه حتى أدركه أصحابه وأسعفوه . هنا انقلب الحادث أحدىة . وقال الناس في الثعابين وأعادوا . غير ان نشاط الثعابين العجيب لم يتوقف . فقد رأى بعض الصحاب في غرزة الفتوة بركات ثعباناً بين عمد السقف ، لاح نصف دقيقة ثم اختفى ، فهبوا مذعورين وتقوض المجلس . وغطت اخبار الثعابين على حكايات الشعراء في المقاهي . وبدا ان نشاطها قد جاوز حدود الأدب اذ ظهر ثعبان ضخم في بيت حضرة الناظر . ومع ان خدام البيت الكثيرين انتشروا في اركانه للتفتيش عن الثعبان المخفي الا انهم لم يقفوا له على أثر . وركب الخوف الناظر والهائم حتى فكرت جدياً في مغادرة البيت الى ان تطمئن الى خلوة من الثعابين . وبينما البيت مقلوب رأساً على عقب ترامى من بيت زقلط فتوة الحارة صراخ وضجة ، وذهب البواب ليستطلع الخبر ثم عاد ليخبر سيده بأن ثعباناً لدغ أحد أبناء زقلط ثم اختفى . وتملك الخوف النفوس . وتتابعت الاستغااثات من الثعابين من كل ربيع فصصمت الهائم على مغادرة الحارة . وقال عم حسين البواب إن جبل حاور وللحواة خبرة باصطياد الثعابين ، واكد انه استخرج ثعباناً من أحد ربوع حمدان . وامتقع لون الافندي ولم ينبس ، أما الهائم فأمرت البواب بأن يستدعي جبل . ونظر البواب الى سيده مستأزناً ، فغمغم الافندي بكلمات حانقة دون أن يبين . وخبرته الهائم بين دعوة جبل وبين مغادرة البيت فاذن للرجل بالذهاب وهو ينتفض حقناً وغضباً . وتجمع كثيرون فيما بين بيتي الناظر والفتوة ، وتوافد ذوو الشأن على بيت الناظر وفي مقدمتهم الفتوات : زقلط وحمودة وبركات والليهي وابو سريع . ولم يكن للمجتمعين من حديث الا الثعابين ، فقال ابو سريع :

— لا بد أن شيئاً في الجبل دفع بالثعابين الى بيوتنا .

فصاح زقلط وقد بدا وكأنه يقاتل نفسه لأنه لا يجد من يقاتله :
- طول عمرنا جيران للجبل وما حصل منه شيء .
كان زقلط ثائراً لما أصاب ابنه ، وكان حمودة ما يزال يعرج من
إصابة ساقه ، على حين تملك الخوف الجميع فقالوا إن بيوتهم لم تعد
صالحة للمبيت ، وإن السكان تجمهروا في الحارة .
وجاء جبل حاملاً جرابه ، فحيا الجميع ، ووقف أمام الناظر والهائم
في أدب وثقة .

ولم يستطع الناظر أن ينظر إليه ، اما الهائم فقالت له :
- قيل لنا يا جبل إنك تستطيع استخراج الثعابين من بيوتنا ؟
فقال جبل بهدوء :

- تعلمت ذلك فيما تعلمت يا صاحبة الفضل

- دعوتك لتطهر البيت من الثعابين .

فنظر جبل الى الافندي متسائلاً :

- هل يأذن لي حضرة الناظر ؟

فغمغم الناظر وهو يداري حنقه وقهره :

- نعم .

وهنا تقدم الليثي بإحياء خنفي من زقلط وسأله :

- وبيوتنا وبيوت الآخرين ؟

فقال جبل :

-- إن خبرتي تحت أمر الجميع .

وارتفعت أصوات بالشكر ، فأجال جبل عينيه الكبيرتين في الوجوه
ملياً ثم قال :

- ولعلي في غير حاجة الى تذكيركم بأن لكل شيء ثمنه كما تجري
المعاملات في حارتنا !

فقطع اليه الفتوات في دهشة فقال :

- علام تدهشون ؟ انكم تحمون الأحياء نظير الاناثوات ، وحضرة
الناظر يدير الوقف نظير التصرف في ريعه !

والظاهر ان حرج الموقف لم يسمح للأعين بالانفصاح عما في الصدور ،
غير ان زقلط سأله :

- ماذا تطلب نظير عملك ؟

فقال بهدوء :

- لن أطلب نقوداً ، ولكنني أطلب كلمة شرف باحترام آل حمدان
في كرامتهم وحقهم في الوقف .

وساد الصمت فبدأ ان الجوى يتنفس بالحقن المكتوم . وتضاعف قلق
الهائم على حين أخفى الناظر عينيه في الأرض . وعاد جبل يقول :

- لا تظنوا انني اتحداكم بما يمليه عليكم الحق والعدل نحو اخوانكم
المغلوبين على أمرهم ، ان الخوف الذي أخرجكم من دياركم ما هو الا
جرعة مما يتجرع اخوانكم كل يوم من أيام حياتهم التعيسة .

التمعت في الأعين نظرات غضب سريعة كالبرق في السحاب وسرعان
ما اختفت تحت غيم الكظم . غير ان ابو سريع صاح :

- استطيع ان آتيكم بأحد الرفاعية ولو نبئت خارج بيوتنا يومين أو
ثلاثة أيام حتى يحضر من قريته .

فتساءل الهائم :

- كيف لحارة باكملها أن تبئت خارج بيوتها يومين أو ثلاثة ؟

وكان الافندي يفكر بكل قواه مغالباً ما استطاع عواطف الغضب
والحقن التي تستعر في صدره ، واذا به يقول مخاطباً جبل :

- اني معطيك كلمة الشرف التي تطلب فابدأ عملك .

وذهل الفتوات غير ان الموقف لم يسمح لهم باعلان ما في نفوسهم ،
ورأى على صدورهم همّ قاتل . أما جبل فأمر الجميع بالابتعاد الى اقصى
الحدية فخللا له المكان والبيت . ونجود من ثبات فانقلب كيوم التفتة ،

الهائم من الحفرة المترعة بمياه الأمطار . ومضى ينتقل من مكان الى مكان ،
ومن حجرة الى حجرة ، وهو يصفر صغيراً خائفاً تارة او يغمغم بكلام
غير مبين : واقترب زقلط من الناظر وقال له :
— انه هو الذي بعث بالثعابين الى بيوتنا .
فاشار الناظر اليه بالسكوت وتمتم :

— دعه يخرج ثعابينه .
وأذعن لجبل ثعبان كان مخفياً في المنور ، وأخرج آخر من حجرة
ادارة الوقف ، فلف الثعابين على ذراعه ، وظهر بهما امام السلاملك
حيث اودعهما جرابه . وارتدى ملابسه ووقف ينتظر حتى جاء الجميع ،
فقال موجهاً خطابه لهم :

— هلموا الى بيوتكم لأطهرها .
والتفت نحو الهائم وقال بصوت خافت :
— لولا تعاسة أهلي ما اشترطت في خدمتك شرطاً قط .
واقترب من الناظر فرفع يده تحية وقال بشجاعة :
— وعد الحر دين عليه .
ومضى خارجاً والجمع يسير وراءه صامتاً .

٤٠

وفق جبل في تطهير الحارة من الثعابين على رأى من جميع أهلها .
وكان كلما أذعن له ثعبان تعالى الهتاف والزغاريد حتى باتت حديث الحارة
من البيت الكبير الى الجمالية . ولما فرغ من عمله ومضى الى ربه تجمع
حواله الغلمان والشبان وراحوا يتغنون مصنفين :

جبل يا نصير المساكين
جبل يا فاهر الثعابين

وتواصل الغنساء والتصفيق حتى بعد ذهابه، غير انه كان لذلك رد فعل شديد في انفس الفتوات ، فما لبث ان خرج للمتظاهرين حمودة والليثي وابو سريع وبركات ، فانها لوا عليهم لعناً وسباً وصفعاً وركلاً حتى تفرقوا لائذين بالبيوت ، فلم يبق في الطريق الا الكلاب والقطة والذباب . وتساءل الناس عن سر هذه الحملة ، كيف يجزي الفتوات صنيع جبل بالاعتداء على المتظاهرين من اجله ، وهل يحافظ الأفندي على وعده لجبل او تكون حملة الفتوات بداية لحملة انتقام عاتية ؟ ودارت هذه الأسئلة برأس جبل فدعا رجال حمدان الى الربيع الذي يقم فيه ليتدبروا الأمر معاً . وكان زقاط مجتمعاً في ذات الوقت بالناظر وحرمة ، وكان يقول باصرار والحق يلتهمه :

— لن نبقى منهم على احد .

وبدا الارتياح في وجه الأفندي ، غير ان الهائم تساءلت :

— وكلمة الشرف التي اعطاها الناظر ؟

فعبس زقلط حتى انقلب وجهه اقبح من اي وجه آدمي وقال :

— الناس يخضعون للقوة لا للشرف .

فقالت بامتعاض :

— سيقولون فينا ويعيدون .

— فليقولوا ما حلا لهم ، متى سكتوا عنكم او عنا ؟ ان الغرز

نضج كل ليلة بالقفش والتنكيث علينا ، ولكن اذا خرجنا الى الطريق وقفوا خاشعين ، وهم يخشعون خوفاً من النبوت لا اعجاباً بالشرف .

وحلجها الأفندي بنظرة متمعضة وقال :

— جبل هو الذي دبّر مؤامرة الثعابين ليملي علينا شروطه ، كل

احد يعرف ذلك . فنذا الذي يطالب باحترام كلمة أعطيت لمحتال نصّاب مختل ؟

وقال زقاط مخدراً ووجهه ما زال متشبهاً بقبحه :

- تذكرى يا هانم انه اذا نجح جبل فى استخلاص حق آل حمدان فى الوقف فلن يهدأ بال احد فى الحارة حتى ينال حقه ايضاً ، بذلك يضيع الوقف ونضيع جميعاً .
وقبض الافندي على المسبحة فى يده بشدة حتى طقطقت جانتها وهتف بزقلط :

- لا تبقى على احد منهم .

ودُعِى الفتوات الى بيت زقلط ثم لحق بهم اعوانهم المقربون . وذاع فى الحارة ان امرأ خطيراً يدبر لآل حمدان ، فامتلات النوافذ بالنساء وازدحم الطريق بالرجال . وكان جبل قد أعد خطته ، فاحتشد رجال حمدان فى حوش الربع الأوسط مدججين بالنبايت ومقاطف الطوب على حين توزعت النساء فى الحجرات وفوق السطح . وكان لكل احد منهم عمله المرسوم ، غير ان اى خطأ فى التنفيذ او انقلاب فى التدبير لم يكن يعنى الا هلاكهم الى الأبد . لذلك اتخذوا اماكنهم حول جبل وهم فى غاية من التوتر والجزع . ولم تغب حالهم عن فطنة جبل فضى بذكرهم بتأييد الواقف له ووعد للاقوياء بالنجاح ، فوجد منهم قلوباً مصدقة ، بعضها عن ايمان ، والبعض عن يأس . ومال الشاعر رضوان على اذن المعلم حمدان وقال له :

- اخاف الا تنجح خطتنا ، والأوفى عندي ان نحكم اغلاق البوابة ونضرب من السطح والنوافذ !

فهز حمدان منكبيه امتعاضاً وقال :

- اذن تقضى على انفسنا بالحصار حتى نهلك جوعاً !

وقصد حمدان جبل وسأله :

- أليس الأفضل ان نترك البوابة مفتوحة ؟

فقال جبل :

- دعها كما هي والا شكّوا فى الأمر .

وكأنت ريش بارد تهب بشدة باعثة عواء ، وركضت السحب في السماء كأنها مطاردة ، فتساءلوا هل ينهل المطر ؟ وترامت ضجة المتجمهرين في الخارج حتى ابتلعت مواء القطط ونباح الكلاب . وهتفت تمرحنة محدرة : « جاء الشياطين ! » .

وحقاً غادر زقلط بيته وسط هالة من الفئوات ، يتبعهم الأعوان ، ومقابضهم على نبايتهم . ساروا على مهل حتى البيت الكبير ، ثم عرجوا نحو حيّ حمدان فقابلهم المنجمهرون بالتهليل والختاف . وكان المهللون الهائفون احزاباً . منهم قلة تبتهج للعراك وتتسلّى بمشاهدة الدم المسفوك . ومنهم من يحقد على آل حمدان لادلهم بمكانة لم يعترف لهم بها احد . واكثرهم حسانق على الفتونة والبغي فهو يبطن الكراهية ويظهر التأييد خوفاً ونفاقاً . ولم يُلْقَ زقلط الى احد منهم بالاً ، ومضى في مسيره حتى وقف امام ربيع حمدان ، وصاح :

— ان كان فيكم رجل فليخرج اليّ !

فجاءه صوت تمرحنة من وراء النافذة :

— اعطنا كلمة شرف جديدة حتى لا يغدر بالخارج غادر !

فغضب زقلط لتعريضها بكلمة الشرف وصاح :

— اليس عندكم من مجيب غير هذه الزانية ؟

فصاحت تمرحنة :

— الله يرحم امك يا زقلط !

وصرخ زقلط آمراً رجاله بالهجوم على البوابة . هجم على البوابة رجال ، ورُمى آخرون النوافذ بالطوب حتى لا يمرؤ احد على فتحها واستمالها في الدفاع ، وتكتل الهاجمون على البوابة وراحوا يدفعونها بمناكبهم بقوة وعزيمة . وواصلوا الدفع بشدة حتى اخذ الباب في الاهتزاز . واشتدت عزيمتهم حتى ارنج الباب وتخلخل . وتراجعوا متحفزين ثم اندفعوا نحوه بقوة وصكوه صكوة واحدة فانفتحت على مصراعيه . وتراءى

من خلال الدهليز الطويل الممتد وراء باب الحوش وجبل ورجال حمدان وقد رفع الجميع نبايتهم . ولوح زقلط بيده في حركة فاضحة واطلق ضحكة هازئة ، ثم اندفع الى الدهليز ورجاله خلفه . وما كادوا يتوسطون الدهليز حتى مادت ارضه بهم بغتة وهوت بمن عليها الى قاع حفرة عميقة . وفي سرعة مذهلة فتحت نوافذ الدور على جانبي الدهليز وانصببت المياه من الاكواز والحلل والطشوت والقيرب ، وتقدم رجال حمدان دون تردد ورموا الحفرة بمقاطف الطوب ، ولأول مرة سمعت الحارة الصراخ يصدر عن فتواتها ، ورأت الدم يتفجر من رأس زقلط والنبايت تتمخطف رءوس حمودة وبركات والليثي وابو سريع وهم يتخبطون في المياه المظينة . ورأى الاعوان ما حل بفتواتهم فلاذوا بالفرار ، وترك الفتوات لمصيرهم دون معين . واشتد انصباب الماء ، والاحجار ، ونهارت النبايت بلا رحمة . وترامت الى الناس استغاثات نددت عن حناجر لم تألف طوال حياتها الا السب والقذف . وكان رضوان الشاعر يهتف بأعلى صوته :
— لا تبقوا منهم على احد .

واختلطت المياه المظينة بالدم ، وكان حمودة اول الهالكين ، وعلا صراخ الليثي وابو سريع ، وتشبثت يدا زقلط بجدار الحفرة يريد ان يشب وقد تجلى الحقد في عينيه ، وراح يغالب الاعياء والخور ، ويزفر انات كالخوار ، فانهالت عليه النبايت حتى تهاوى الى الزراء وتراخت يداه عن الجدار فسقط في الماء وفي كل راحة من راحتيه قبضة من طين ! وساد الصمت الحفرة . لم تند عنها حركة ولا صوت واصطبغ سطحها بالطين والدم . ووقف رجال حمدان ينظرون وهم يلوثون . وتراحم عند مدخل الدهليز المتجمهرون وهم يرددون في الحفرة نظرات ذهلة . وصاح رضوان الشاعر :

— هذه عاقبة الظالمين .

وجرى الخبر في الحارة كالنار . وقال المتجمهرون ان جبل قد أهلك

الفتوات كما أهلك الثعابين ! وهتف له الجميع بأصوات كالرعد :
ولفحهم الحماس فلم يبالوا بالريح الباردة . ونادوا به فتوة لحارة الجبلأوي .
وطالبوا بجث الفتوات ليمثلوا بها . وصفقت الأيدي وراح قوم برقصون :
ولم ينـ جبـل عن التفكير لحظة .. وكان كل شيء مدبراً في رأسه .
فصاح بأهله :

— هلموا الساعة الى بيت الناظر .

٤١

في الدقائق التي سبقت خروج جبل وأهله من الزرع تفجرت الأنفس
عن براكين حامية .

غادرت النسوة البيوت منضيات الى الرجال . وهاجم الجميع بيوت
الفتوات فاعتدت الأيدي والأرجل على أهاليهم حتى فروا بأرواحهم وهم
يتحسسون أقفيتهم وخذودهم مصعدين التأوهات سافحين الدموع . أما
البيوت فقد نهب كل ما فيها من أثاث وطعام ولباس وحطم كل قابل
للتحطيم من أخشابها وزجاجها حتى انقلبت خراباً يباباً . وانطلقت الجموع
الغاضبة نحو بيت الناظر فتكتلت أمام بوابته المغلقة وراحت تهتف وراء
مناد منها بأصوات كالرعود :

هاتوا الناظر ..

وان ما جاش ..

ثم يخنمون الحتاف بالتهليل الساخر المازيء . وانجه البعض الى البيت
الكبير منادين جدهم الجبلأوي أن يخرج من عزلته ليعالج ما فسد من
امورهم وامور حارتهم . وراح آخرون يدقون بوابة الناظر بأكفهم
ويدفعونها بمناكبهم معرضين المترددين المهيبين على اقتحامها . وفي تلك

اللحظة المحرجة جاء جبل على رأس أهله نساء ورجالا ، يسبرون في قوة وعزم بما أحرزوا من فوز مبين . واوسعت الجموع لهم ، وتعالى الهتاف والزغاريد حتى أشار جبل لهم بالسكوت فأخذت أصواتهم تخفت رويداً رويداً حتى ساد الصمت ، وعاد عواء الريح يصك الأذان مرة أخرى . ونظر جبل في الوجوه المتطلعة اليه وقال :

— يا أهل حارتنا ، أحييكم وأشكركم .
فارتفعت الأصوات بالهتاف ثانية حتى رفع يده مطالباً بالسكوت ، ثم قال :

— لن يتم عملنا حتى تتفرقوا في هدوء .

فترامى اليه من حناجر شتى .

— نريد العدل يا سيد حارتنا .

فقال بصوت سمعه الجميع .

— اذهبوا في هدوء ولسوف تتحقق إرادة الواقف .

وتعالى الهتاف للواقف ولابنته جبل . ووقف جبل يحث بنظراته الجموع على الذهاب . وكانوا يودون لو يبقون في أماكنهم ولكنهم لم يجدوا بداً أمام نظراته من التفرق فأخذوا يذهبون واحداً في اثر واحد حتى خلا المكان منهم . عند ذاك مضى جبل الى باب الناظر وطرقه صائحاً :

— افتح يا عم حسنين .

فجاءه صوت الرجل المرتعد وهو يقول :

— الناس .. الناس .

— لا أحد هنا غيرنا .

وفتح الباب فدخل جبل ، ودخل وراءه أهله . واخترقوا الممر المعروش الى السلامك فرأوا الهائم واقفة امام باب البهو في استسلام ، على حين بدا الافندي على عتبة الباب ، خافض الرأس شاحب الوجه كأنه ملثم بكفن أبيض . وندت عن الافواه لدى رؤيته دمدمة فقالت هندي

هانم متأومة :

- انسي بحال سيئة يا جبل .

فأشار جبل نحو الافندي بازدراء وقال :

- لو نجحت مكيدة هذا الرجل الفاقد الشرف لكنا الآن جميعنا
جنباً ممزقة .

فأجابت الهانم بتهنئة مسموعة دون كلام . فحذج جبل الناظر بنظرة
قاسية وقال :

- ها أنت ترى نفسك ذليلاً بلا حول ولا قوة ، لا فتوة بحميلك ،
ولا شجاعة تؤيدك ، ولا مروءة تشفع لك ، ولو شئت أن اخلي بينك
وبين أهل حارتنا لمزقوك إرباً ولداسوك بالاقدام .

ارتعدت فرائص الرجل وبدا وكأنه تقوص وضؤل غير ان الهانم
تقدمت من جبل خطورة وقالت برجاء :

- لا أحب أن اسمع منك غير ما عهدت من طيب الكلام ، ونحن في
حال عصبية تستحق من مروءتك الرحمة في المعاملة .

فقطب، جبل ليداري تأثره وقال :

- لولا منزلتك عندي لجرت الأمور بغير ما جرت به .

- لا اشك في ذلك يا جبل ، انك رجل لا يخيب عنده الرجاء .
فقال جبل متأسفاً :

- ما كان أيسر أن يقوم العدل دون إراقة نقطة من الدم ..

فندت عن الافندي حركة غامضة فضمحت تخاذله وازداد انكماشاً ،
فالت الهانم :

- قد كان ما كان ، ولن تلقى منا الا آذاناً صاغية !

وبدا ان الناظر يريد أن يخرج من صمته بأي. فمن فقال بصوت ضعيف :

- ثمة فرصة لاصلاح ما سلف من أخطاء .

أرهفت الآذان لسامع كلامه رغبة في الاطلاع على حال الجبار اذا

- تخلى عنه جبروته وكانوا يرمقونه بشفّ قليل وانكار وحب استطلاع
لا حد لهما . وتشجع الافندي بتغلبه على الصمت فقال :
- تستطيع اليوم أن تحتل مكانة زقلط عن جدارة .
فتعجبهم وجه جبل وقال بازدراء :
- ليست الفتونة مطلبي ، فأبحث لحمايتك عن غيري ، وما أريد الا
حقوق آل حمدان كاملة .
- هي لكم دون نقصان ، ولك ادارة الوقف إن شئت .
فقالت هدى برباء :
- كما كنت يا جبل من قبل .
وهنا صاح دعبس من بين آل حمدان :
- ولم لا يكون الوقف كله لنا ؟
وسرت هممة في آل حمدان حتى اصفر وجه الناظر ، وزوجه حتى
الموت ، غير ان جبل قال بقوة غاضبة :
- أمرني الواقف باسترداد حقكم لا باغتصاب حقوق الآخرين .
فتساءل دعبس :
- ومن أدراك أن الآخرين سيأخذون حقوقهم ؟
فصاح به جبل :
- لا شأن لي بذلك وانك لا تكره الظلم الا إن وقع عليك !
فقالت الهانم بتأثر :
- نعم الرجل الأمين أنت يا جبل ! ولشد ما ارجو ان تعود
الى بيتي .
- فقال جبل بتصميم :
- سأقيم في ربوع حمدان .
- انها لا تليق بمقامك .
- عندما يجري الخير بسين أيدينا سرفعها الى مقام البيت الكبير .

وتلك رغبة جدنا الجبلأوي !
 ورفع الناظر عينيه في شيء من التردد الى وجه جبل وقال :
 - ان ما بدر اليوم من أهل الحارة يهدد أمننا ؟
 فقال جبل باحتقار :
 - لا شأن لي بما بينك وبينهم .
 وإذا بدعيس يقول :
 - وإذا احترمت عهدنا فلن يجرؤ أحد منهم على محدبك !
 فقال الناظر بحماس :
 - سيسجل حقكم على رءوس الاشهاد !
 وهنا قالت هدى برجاء :
 - ستتناول عشاءك معي الليلة ، هذه رغبة أم !
 وفطن جبل الى ما ترمي اليه من اعلان المودة بينه وبين بيت الناظر ،
 ولم يكن في وسعه ان ينبذ رغبته ، فقال :
 - لك ما تشائين يا سيدتي .

٤٢

وابيضت الأيام التالية بأفراح آل حمدان أو آل جبل كما باتوا
 يُدعون . فتحت قهوتهم ابوابها وترجع رضوان الشاعر على الاريكة يلعب
 باوتار الرباب . وجرت البوطة انهاراً وانعقدت في سماء الحجرات سحب
 الحشيش . ورقصت تمرحنة حتى انحل وسطها . ولم يبالوا بأن يكشفوا
 عن قاتل قدره ، وصور لقاء الجبلأوي بجبل في هالات من نور الخيال .
 وكانت تلك الأيام بالنسبة لجبل وشفيفة أطيب الأيام . وقد قال لها :
 - ما اجمل ان ندعو البلقيطي للاقامة معنا .

فقلت وهي تعاني متاعب المخاض الوشيك .

— نعم كي يستقبل حفيده ببركته .

فقال الرجل ممتناً :

— أنت قدم السعد يا شفيقة ، ومستجد سيدة زوجاً كفواً من آل

حمدان .

— قل آل جبل كما يقولون فانك خير من عرف هذا الحي .

فقال باسمًا :

— بل أدهم خيرنا جميعاً ، كم تمنى حياة النعيم حيث لا عمل للانسان

الا الغناء ، وسوف يتحقق لنا حلمه الكبير .

وترامى دعبس وهو سكران يرقص في جمع من آل جبل ، فلما رأى

جبل مقبلاً لوح بنبوته جذلاً وقال له :

— انك لا تبغي الفتوة ، سأكون أنا الفتوة .

فصاح به لسمع الجميع :

— لا فتوة في حمدان ، ولكن ينبغي ان يكونوا فتوات جميعاً على

من بطمع فيهم .

ومضى الرجل الى القهوة فتبعه الجميع وهم يترنحون من السكر .

وكان جبل سعيداً فقال لهم :

— انكم أحب أهل الحارة الى جدكم ، فانتم سادة الحارة دون منازع ،

ولذلك ينبغي أن يسود بينكم الحب والعدل والاحترام ، ولن ترتكب

جريمة في حيكم أبداً ..

وترامى الطبل والغناء من بيوت حمدان ، وأشرقت انوار الافراح

في حيهم ، على حين غرقت الحارة في ظلمتها المألوفة ، وتجمع صغارها

عند مشارف حي حمدان يتفرجون من بعيد . وإذا برجال من أهل الحارة

يفدون على القهوة بوجوههم الكالحة . استقبلوا بالمجاملة ودعوا الى

الجلوس وقدم لهم الشاي . وحدث جبل انهم لم يبحثوا الخالص التهنئة .

وصدق حدسه اذ قال له زناتي وكان اكبرهم سناً :
- يا جبل ، اننا أبناء حارة واحدة ، وجدّ واحد ، وأنت اليوم
سيد الحارة ورجلها الأقوى ، وأنّ يسود العدل الاحياء جميعاً خبر من
ان يسود حيّ حمدان وحده .

لم يتكلم جبل ، وبدا الفتور في وجه آل جبيل . ولكن الرجل
قال بعزم :

- بيدك أن تجري العدل في الحارة كلها .
لم يهتم جبل بأهل الحارة من أول الأمر ، ولم يكن يهتم بهم أحد
من آل . بل أنهم شعروا بالاستعلاء عليهم حتى في أيام محنتهم . وقال
جبل برقة :

- وصاني جدّي بأهلي .

- ولكنه جد الجميع يا جبل .

فقال حمدان :

- في هذا الكلام موضع للنظر .

وتفرس في الوجوه لبتابع أثر قوله فرأى انقباضها يشد فاستطرد :

- أما علاقتنا به فقد أكدها بنفسه في لقاء الحلاء !

وبدا زناتي لحظة وكأنه يود ان يقول : « في هذا الكلام موضع
للنظر » ولكن غلبه الانكسار فقال مسائلاً جبل :

- أيرضيك ما نحن فيه من فقر وذل ؟

فقال جبل دون حماس :

- كلا ولكن لا شأن لنا بذلك .

فتساءل الرجل في إصرار :

- وكيف لا يكون لكم شأن بذلك ؟

وسأل جبل نفسه بأي حق يكلمه ذلك الرجل على هذا النحو ؟

لكنه لم يغضب . وجد بنفسه جانباً يكاد ان يعطف على الرجل . غير

ان جانباً آخر منه استنكر ان يخوض متاعب جديدة من أجل الآخرين .
ومن هم هؤلاء الآخرون ؟ وجاء الجواب على لسان دعبس حين
صاح بالرجل :

— أنسيتم ما كنتم تعاملوننا به يوم محنتنا ؟

فغض الرجل من بصره ملياً ثم قال :

— منذ الذي كان يستطيع ان يجهر برأي أو يعلن عاطفة في أيام
الفتوات ؟ وهل كان الفتوات يعفون عن أحد يعامل الناس بغير ما
يرتضون ؟

فزم دعبس شفتيه في استعلاء وانكار وقال :

— كنتم وما زلتم تحسدوننا على مكانتنا في الحارة ، ولعلكم سبقتم
الفتوات الى ذلك !

فأخني زناتي رأسه في قنوط وقال :

— ساعلك الله يا دعبس !

فصاح دعبس دون رحمة :

— اشكروا رجلنا لأنه لم يقبل ان يوجه لكم يد الانتقام !

وتوزعت الأفكار المتضاربة جبل فلاذ بالصمت . أشفق من أن يمد
يد العون . ولم يرتح إلى الجهر بالرفض . ووجد الرجال أنفسهم حبال
تأنيب قازع من دعبس ، ونظرات باردة تعكسها أعين الآخرين ،
وصمت لا أمل فيه عند جبل ، فنهضوا خائبين ، وذهبوا من حيث
أتوا . وصبر دعبس حتى اختفوا ثم حرك قبضة يمينه في بداءة وهتف :
— إلى حيث القت يا أولاد الخنازير .

فصاح جبل :

— الشمانة ليست من شيم السادة !

كان يوماً مشهوداً يوم تسلم جبل حصّة آله من الوقف . واتخذ في حوش الربيع - ربيع النصر - مجلسه ودعا اليه آل حمدان . وأحصى ما في كل أسرة من أنفس ووزع الأموال بالتساوي فيما بينهم ، وحتى شخصه لم يخصه بامتياز . ولعل حمدان لم يرتح الى هذه العدالة كل الارتياح ولكنه عبر عن مشاعره بطريقة غير مباشرة فخطب جبل قائلاً :

- ليس العدل ان تظلم نفسك يا جبل !
فقطب جبل قائلاً :

- أخذت نصيب اثنين ، أنا وشفيفة .
- ولكنك رئيس هذا الحي .
فقال جبل بصوت سمعه الجميع :
- ما ينبغي لرئيس القوم ان يسرقهم .
وبدا دعبس وهو ينتظر المجاورة في قلق ، ثم قال :
- جبل غير حمدان ، وحمدان غير دعبس ، ودعبس غير كعبها !
فقال جبل معارضاً في غضب :
- تريد ان تجعل من الأسرة الواحدة سادة وخداماً !
ولكن دعبس تشبث برأيه وقال :
- فينسا صاحب القهوة والبائع الجوال والمتسول فكيف تسوي بين هؤلاء ! وأنا كنت أول من خرج على الحصار حتى تعرضت لمطاردة قدره ، وأول من لاقاك في غربتك ، وأول من تحمس لرأيتك بعد ذلك رالقوم مترددون !
اشتد الغضب بجبل فصاح به :

- ماح نصه كذاب ، والله ان أمثالك يستحقون الظلم الذي حاق بهم .

وأراد دعبس مواصلة الجدل ولكنه تبين في عيني جبل غضباً من نار فراجع ، وغادر المجلس دون ان ينبس . وقصد عند المساء غرزة عتريس الأعمش ، وجلس في حلقة الجالسين يدخن مجترأ همومه . وأراد أن يتسلى فدعا كعبلاً الى المقامرة ، فلعبا السبجة ، ولم تكد تمضي نصف ساعة حتى خسر نصيبه من ريع الوقف ! وضحك عتريس وهو يغير ماء الجوزة وقال :

- يا سوء بختك يا دعبس ! الفقر مكتوب عليك ولو رغم ارادة الواقف !

فغمغم دعبس بحقد وقد طير الخسران السطّطل من مخه :

- ليس بهذه السهولة تضيق الثروات !

فأخذ عتريس نفساً من الجوزة ليضبط كمية المياه بها ثم قال :

- لكنها ضاعت يا ابن والدي !

كان كعبلاً يسوّي الأوراق المالية بعناية ، ثم رفع يده بها ليدسها في صدره ، لكن دعبس منعه بيده وأشار بالأخرى اشارة خاصة ان يرد النقود ! وقطب كعبلاً وقال :

- لم تعد نقودك ولا حق لك عليها !

فصاح دعبس :

- دع النقود يا ابن الزبالة !

ونظر عتريس نحوهما بقلق وقال :

- لا تتشاجرا في بيتي .

فصاح دعبس وهو يشد على يد كعبلاً :

- لن يسرقني ابن الزانية !

- أترك يدي يا دعبس ، أنا لم أسرقك .

- يعني ربحتها في تجارة ؟
 - لماذا قامرت ؟
 فلامطه بشدة وهو يقول :
 - نقودي ، قبل ان اكسر عظامك .
 ونش كعبها يده فجأة فثار غضب دعيس لحد الجنون وضربه
 بسببته في عينه اليمنى .
 صرخ كعبها صرخة عالية ، وانتفض واقفاً ، ثم غطي عينيه بكفيه
 تاركاً الأوراق تنهاوى الى حجر دعيس ، وترنح من الألم ، ثم سقط
 وراح يتلوى ويئن أنيناً موحعاً . والتفت حوله الجالسون ، على حين
 جمع دعيس النقود واعادها الى صدره . وإذا بعريس يقرب منه قائلاً
 في هلع :
 - صفت عينه !
 فارتاع دعيس ملياً ، ثم وقف فجأة وغادر المكان .
 ووقف جبل في حوش النصر في جمع من رجال حمدان ، والغضب
 يتفجر من عينيه وشذقيه . وجلس كعبها القرفصاء وقد شد على عينه
 رباطاً محكمًا ، على حين وقف دعيس يتلقى ثورة جبل في صمت وخذلان.
 وأراد حمدان ان يهديء من ثورة جبل فقال بلين :
 - سبرد دعيس النقود الى كعبها .
 فصاح جبل بأعلى صوته :
 - فليرد اليه بصره أولاً .
 فبكى كعبها وقال الشاعر رضوان متأوهاً :
 - ليت في الامكان رد البصر .
 فقال جبل وقد اظلم وجهه كالسماء الراحدة الباردة :
 - ولكن في الامكان ان تؤخذ عين بعين !
 وحمات دعيس في وجهه جبل متوجساً ، واعطى النقود حمدان

وهو يقول :

- كنت فاقد الشئ من الغضب : وما قصدت ايذاءه .

فتفرس جبل وجهه بحق طويلاً ، ثم قال بصوت رهيب :
- عين بعين والباديء أظلم .

تبودلت نظرات الحيرة . لم يُرَ جبل أغضب منه اليوم . وقد برهنت
الاحداث على قوة غضبه . كغضبه يوم ركل بيت النعيم . وكغضبه
يوم قتل قدره . حقاً انه لشديد الغضب واذا غضب لم يردعه عن هدفه
رأدع . وهمّ حمدان بالكلام ولكنه بادره قائلاً :

- ان الواقف لم يؤثركم بحبه ليعتدي بعضكم على بعض ، فاما حياة
تقوم على النظام ولما فوضى لن تبقي على أحد ، لذلك أصر على تصفية
عينك يا دعبس .

وركب الرعب دعبس فصاح :

- لن تمسني بد ولو قاتلتكم جميعاً .

فانقض عليه جبل كالثور الهائج وضربه بجراح يده في وجهه ضربة
هائلة سقط على أثرها دون حراك . واقامه وهو فاقد الوعي ، واحتضنه
من الخلف شاداً ذراعيه حول جسمه ، والتفت نحو كعبلها قائلاً
بلهجة آمرة :

- قم فخذ حقك .

وقام كعبلها ولكنه وقف متردداً ، على حين تعالى الصراخ من
مسكن دعبس . وحدهج جبل كعبلها بنظرة قاسية وصاح به :

- تقدم قبل ان ادفئك حياً .

وانجه كعبلها نحو دعبس ، وبسبابه ضرب عينه اليمنى حتى انفقت
عينه على مرأى من الجميع . واشتد الصراخ من بيت دعبس ، وبكى

بعض اصدقاء دعبس مثل عتريس وعلي فوانيس ، فصاح بهم جبل :
- يا لكم من جبناء وأشرار ، والله ما كرهتم الفتونة الا لأنها
كانت عليكم ، وما ان يأنس احدكم في نفسه قوة حتى يبادر الى الظلم
والعدوان ، وما للشياطين المستترة في أعماقكم إلا الضرب بلا رحمة ولا
هودة ، فاما النظام واما الهلاك .

وترك دعبس بين ايدي اصحابه وذهب . وكان لذلك الحادث في
النفوس أثر وأي أثر . كان جبل من قبل رئيساً محبوباً ، وكان يظنه
آله فتوة لا يريد ان يتخذ لنفسه اسم الفتونة أو شعارها ، فاصبح من
بعده مخوفاً مرهوباً . وتهامس أناس بقسوته وظلمه ولكن وجد هؤلاء
دائماً من يرد عليهم قولهم ويذكر بالوجه الآخر لقسوته ، وهو الرحمة
بالمعتدى عليهم ، والرغبة الصادقة في اقامة نظام يضمن العدل والنظام
والاخاء في آل حمدان . ووجد هذا الرأي الأخير كل يوم ما يستند
في فعال الرجل وأقواله حتى آنس اليه من استوحش ، وآمن من
خاف ، ومال من جفا ، وحرص الجميع على النظام فلم يجاوز حدوده
حد . وسادت الاستقامة والأمان في أيامه ، فلبث بينهم رمزاً للعدالة
والنظام ، حتى غادر الدنيا دون ان يحيد عن مسلكه قيد أنملة .

✱ ✱ ✱

هذه قصة جبل .

كان أول من ثار على الظلم في حارتنا . وأول من حظي بلبقيا
الواقف بعد اعتزاله . وقد بلغ من القوة درجة لم ينزعه فيها منازع .
ومع ذلك تعفف عن الفتونة والبلطجة والاثراء عن سبيل الاتاة وتجارة
المخدرات ، ولبث بين آله مثلاً للعدل والقوة والنظام . أجل لم يهتم

بِالْآخِرِينَ مِنْ أَبْنَاءِ حَارْتَنَا . وَلَعَلَّهُ كَانَ يَضْمُرُ لَهُمْ احْتِقَاراً وَازْدِرَاءً
كَسَائِرِ أَهْلِهِ . لَكِنَّهُ لَمْ يَعْتَدِ مِنْهُمْ عَلَى أَحَدٍ وَلَا تَعَرَّضَ لَهُ بِسُوءٍ ،
وَضَرَبَ لِلْجَمِيعِ مِثَالاً جَدِيداً بِالْإِحْتِدَاءِ .
وَلَوْلَا أَنْ آفَةَ حَارْتَنَا النِّسْيَانَ مَا انْتَكَسَ بِهَا مِثَالٌ طَيِّبٌ .
لَكِنْ آفَةُ حَارْتَنَا النِّسْيَانَ .

★ ★ ★

رفاعة

أوشك الفجر ان يطلع . وآوى إلى المضاجع كل حي في الحارة حتى
 الفتوات والكلاب والقطط . واستقر الظلام بالأركان كأنه لن يبرح
 أبداً . وفي رعاية الصمت الشامل فتح باب ربيع النصر بمحي آل جبل في
 حذر شديد ، فتسلل منه شبهان ، سارا في سكون نحو البيت الكبير ،
 ثم تابعا سوره العالي الى الخلاء . نقلا خطواتهما في حذر ، وجعلا
 يتلفتان وراءهما من حين الى حين ليطمئنا الى ان أحداً لا يتبعهما ،
 وأوغلا في الخلاء مهتدين بتور النجوم المتناثرة ، حتى تبينا صخرة هند
 كقطعة من ظلام أشد كثافة مما حوله . كانا رجلا في اواسط العمر
 وامرأة شابة حبلى ، وكلاهما يحمل بقعة مكتظة . وعند الصخرة تنهدت
 المرأة وقالت باعياء :

— عم شافعي ، تعبت .

فتوقف الرجل عن المسير وهو يقول في غيظ :

— استريحى ، ربنا يتعب المتعب !

وضعت المرأة البقعة على الأرض وجلست عليها مفرجة ما بين
 فخذيهما لتريح بطنها المنداحة ، ووقف الرجل لحظة ينظر فيما حوله ،
 ثم جلس على بقعة أيضاً . وهبت عليها نسائم معبقة بأنفاس الفجر
 الرطبية ، لكن المرأة لم تغفل عما يشغلها فتساءلت :

— أين سألد يا ترى ؟

فقال شافعي ساخطاً :

— أي مكان يا عبدة خير من حارتنا اللعينة .

ورفع عينيه الى شبح الجبل الممتد من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب وقال :

— سنذهب الى سوق المقطم ، اليه قصد جبل أيام محنته ، وسأفتح دكان نجارة وأعمل كما كنت اعمل في الحارة ، لي يدان تدران الذهب ، ومعي نقود للبدء لا بأس بها .

فشدت المرأة خمارها حول رأسها ومنكبيها وقالت بحزن :

— سنعيش في غربة كمن لا أهل له ، ونحن من آل جبل أسياذ الحارة !

فبصق الرجل متأففاً وقال محنقاً :

— أسياذ الحارة ! ما نحن إلا عبيد. أذلاء يا عبدة ، ذهب جبل وعهده الحلو ، وجاء زنفل أجحمه الله ، فتوتنا وهو علينا لا لنا ، يلتهم أرزاقنا ويفتك بمن يشكو .

لم تنكر عبدة شيئاً من قوله . كأنها ما زالت تعيش في أيام المرارة وليالي الأحزان ، لكنها حين ضمنت الابتعاد عن مكاره الحارة حن قلبها الى ذكرياتها الطيبة فقالت متحسرة :

— لا توجد حارة كحارتنا لولا أشرارها ، أين تجد بيتاً كبيت جدنا ؟ او جيراناً كجيراننا ؟ أين تسمع حكايات أدهم وجبل وصخرة هند ؟ الا لعنة الله على الأشرار !

فقال الرجل بصوت مرير :

— والنبأيت تهوي لأنفه سبب ، وأصحاب الوجوه المستكبرة يبخنالون بيتنا كالفقضاء والقدر !

وذكر زنفل اللعين وكيف أشعل بتلاييه ، وهزه بمنف حتى كاد

يقتلع ضلوعه ، ثم مرغه في التراب امام الخلق ، لا لشيء إلا لانسه
جعل مرة من الوقف حديثه ! وضرب الأرض يقدمه واستطرد قائلاً :
- المجرم الملعون خطف وليد سيدهم بياع لحمه الراس ، ثم لم
يسمع عن الوليد بعد ذلك أبداً ، لم تأخذه رحمة بطفل في شهره الأول ،
وتساءل أين أين سألد ، ستلدين بين أناس لا يقتلون الاطفال .

فتنهدت عبدة وقالت برقة كأنما لتخفف من مضمون حديثها :

- ليتك رضيت بما رضي به الآخرون !

فقطب غاضباً وراء قناع الظلمة وقال :

- ماذا جنيت يا عبدة ؟ لا شيء ، كنت اتساءل أين جبل ،
وعهد جبل ، أين القوة العادلة ؟ ماذا أرجع آل جبل الى الفاقة والذل ؟
فحطم دكاني وضربني وكاد يفتك بي لولا الجيران ، ولو بقينا بيتنا
حتى تلدي لانقض على الوليد كما فعل بوليد سيدهم .

فهزت رأسها في حزن وقالت :

- آه لو صبرت يا معلم شافعي ! ألم تسمعهم يقولون إن الجبل لاوي

لا بد ان يخرج يوماً من عزله لينقل أحفاده من الظلم والهم ؟

فنفخ المعلم شافعي طويلاً وقال يسخرية :

- هكذا يقولون ! طالما سمعتم ملة كنت غلاماً ، لكن الحقيقة ان

جدنا في البيت اعتزل ، وان ناظر وقفه وقفه بريع الوقف استأثر ، الا ما

يهب للفتوات نظير حمايته ، وزنفل فتوة آل جبل يتسلم نصيبهم ليدفنه

في بطنه ، كأن جبل لم يظهر في هذه الحارة ، وكأنه لم يأخذ عين

صديقه دعبس بعين المسكين كعبها .

وسكنت المرأة لتسبح في أمواج الظلام . سيطلع عليها الصباح بين

قوم غرماء . سيكون الغرباء جيرانها الجدد . وتستقبل أيديهم ولبدها .

وينحر الوليد في أرض غريبة كخشن مقطوع من شجرة . وما كانت

الا قاذرة في آل جبل . تحمل الطعام الى زوجها في الدكان وتجلس

في الليل وراء النافذة لتسمع رباب عم جواد الشاعر الضرب . ما أحلى
الرباب وما أحلى قصة جبل . ليلة التقى الجبلاني في الظلام فقال له
الا تخف . حياه بالعطف والتأييد حتى انتصر . وعاد الى حارته بجبور
الحاظر ، وما أحلى العودة بعد الاغتراب .

وكان شافعي يقلب وجهه في السماء ، في النجوم الساهرة ، ويرنو
الى طلائع الضياء فوق الجبل كسحابة بيضاء في افق سماء مكفهرة .
وقال محذراً :

- ينبغي ان نسير كي نبلغ السوق قبيل الشروق .
- ما زلت في حاجة الى الراحة .
- الله يتعب المتعب .

ما اجمل الحياة لولا وجود زنفل . الحياة عامرة بالخيرات والهواء
النقي والسماء المرصعة بالنجوم والمشاعر الطيبة ولكن فيها ايضاً ناظر
الوقف ايهاب والفتوات بيومي وجابر وحنوسة وخالد وبطيخة وزنفل .
وفي الامكان ان يصير كل ربع كالبيت الكبير وان ينقلب الأبن الحاناً
ولكن المساكين يطمنون المحال كما تمناه ادهم من قبل . ومن هم المساكين ؟
نهم أقفية متورمة من الصفح وأدبار ملتبهة من الركل وأعين يرعاها
الذباب ورؤوس يعيش فيها القمل .

- لماذا نسينا الجبلاني ؟

غمغت امرأة :

- الله يعلم بحاله .

فصاح الرجل في حسرة وغضب :

- يا جبلاني !

فردد الصوت صوته . وقام وهو يقول :

- توكلني على الله .

قامت عبدة . تناول كفيها في يده . وسارا نحو الجنوب ، نحو
سوق المقطم .

٤٥

قالت عبدة بفرح تألق في عينيها وثغرها :
— ها هي حارتنا ، وها نحن نعود اليها بعد غربة ، فالحمد لله
رب العالمين .

فابتسم عم شافعي وهو يحفف جيئه بكم عبائه وقال برزانة :
— حقاً ما أبهج العودة !
وكان رفاة يصني الى والديه ، ووجهه الصافي الجميل يعكس دهشة
ممزوجة بالحزن . فقال كالمحتج :

— وهل ينسى سوق المقطم وجيرانه ؟
ابتسمت الأم وهي تمجك طرف الملاءة حول شعرها الذي ونطه
المشيب . ادرك ان الفتى يحن الى مولده كما تشن هي الى مولدها ، وأنه
بما جبل عليه من رقة ومودة لا يستطيع ان يسلو الصداقات . وأجابته :
— الأشياء الطيبة لا تنسى ابداً ، ولكن هذه هي حارتك الأصلية ،
هنا أهلك ، سادة الحارة ، ستحبهم وسيحبونك ، ما اجمل حيّ جبل
بعد وفاة زنفل .

فهمت عم شافعي محذراً :
— لن يكون خنفس خيراً من زنفل .
— لكن خنفس لا يضمر لك عداوة .
— عداوات الفتوات تنشأ بسرعة نشوء الطين عقب المطر .
فقالت عبدة برجاء :

— لا تفكر هكذا يا معلم ، عدنا لنعيش في سلام ، ستفتح الدكان وسيجيء الرزق . ولا تنس انك عشت تحت سيطرة فتوة بسوق المقطم ، ففي كل مكان فتوة يخضع له الناس .

واصلت الأسرة مسيرها نحو الحارة ، يتقدمها عم شافعي حاملاً جوالاً ، وتبعه عبدة ورفاعة حاملاً بقجة ضخمة . وبدأ رفاعة بفامته الطويلة وعوده النحيل ووجهه الوضاء في جذاب المنظر ينضح بالوداعة والركة ، غريباً في الأرض الذي يسير فوقها . وتأملت عيناه ما حوله في شغف حتى انجذبتا الى البيت الكبير الذي يقف عند رأس الحارة منفرداً ، ورءوس الاشجار تهتز من فوق سورهِ . رنا اليه طويلاً ثم تساءل :

— بيت جدنا ؟

فقالت عبدة بابتهاج :

— نعم ، أرايت ما حدثتك عنه ؟ فيه جدك ، صاحب هذه الأرض كلها وما عليها ، الخير خيره والفضل فضله ، ولولا عزله لملأ الحارة نوراً .

وأكمل عم شافعي ساخراً :

— وباسمه ينهب ناظر الوقف ايهاب حارتنا ، ويعتدي الفتوات علينا . تقدموا نحو الحارة محاذين للسور الجنوبي للبيت الكبير . لم ترند عينا رفاعة عن البيت المغلق . ثم تراءى لهم بيت ناظر الوقف ايهاب وبوابه المفتحة اريكة عند بابهِ المفتوح . وفي مقابله قام بيت فتوة الحارة بيومي الذي وقفت امامه عربة كارو محملة بمقاطف الارز وسلال الفاكهة وقد مضى الخدم يحملونها للدخل تباعاً . وبدأت الحارة ملعباً للغلمان الجفافة ، على حين افترشت أسر الأرض او الحصر امام مداخل البيوت لينقوا القول او يخرطلوا الملوخية ، وتبدلت احاديث ونكات ، وزجر ونهر ، وتعال ضحكات وصرخات . مالت اسرة عم شافعي الى حثي جيـسـل

غصادفها في عرض الطريق شيخ ضريز ، يتلمس طريقه بعصاه على مهل ،
فأنزل عم شافعي الجوال من فوق ظهره ومضى نحوه منبسط الأسارير ،
حتى وقف امامه وهو يهتف :

- عم جواد الشاعر ، السلام عليكم !
توقف الشاعر وهو يرهف أذنيه في انتباه ، ثم هز رأسه في
حيرة قائلا :

- وعليكم السلام ! صوت غير غريب علي !

- أنسيت صاحبك شافعي النجار ؟

فتהל وجه الرجل وصاح :

- عم شافعي ورب السماوات .

وفتح ذراعيه فتعانق الرجلان بشوق وحنان حتى تطلعت اليهما انظار
القريين وحاكي عناقهما غلامان عابثان . وقال جواد وهو يشد على يد
صاحبه :

- هجرتنا عشرين عاماً او يزيد ؛ يا له من عمر ، وكيف زوجك ؟
فقال عبدة :

- بخير يا عم جواد سألت عليك العافية ، وما هو ابننا رفاعه ،
قبل يد عمك الشاعر .

واقترب رفاعه من الشاعر مبتهجا فتناول يده فلمشها ، وربت الرجل
كتفه ، وتحسس رأسه في استطلاع ، وقسمات وجهه ، وقال :

- بديع بديع ، ما اشبهك بجدك !

فتور الثناء وجه عبدة ، وضحك عم شافعي قائلا :

- لو رأيت جسده النحيل ما قلت ذلك .

- حسبه ما أخذ ، ان الجبلاوي لا يتكرر ، ماذا يعمل الفتي ؟

- علمته التجارة ، لكنه ابن وحيد مدلل ، يمكث في دكاني قليلا
ويهم على وجهه في الخلاء والجبل اكثر الوقت .

فقال الشاعر باسمًا :

— لا يستقر الرجل حتى يتزوج ، وأين كنت يا معلم شافعي ؟
— في سوق المقطم .

فضحك الرجل ضحكة عالية وقال :

— كما فعل جبل ، لكنه عاد حاوياً وتعود نجاراً كما ذهبت ، على
أي حال مات عدوك ولكن الخلف كالسلف .

فقلت عبدة بسرعة :

— كلهم كذلك ، وما نطمع في شيء الا ان نعيش كما يعيش
المسلمون !

وعرف رجال شافعي فهرعوا اليه ، ودار العناق وارتفعت الأصوات ،
وعاد رفاة يتفحص ما حوله باهتمام وشغف ، وأنفاس قومه تتردد من
حوله ، فتخفف كثيراً من وحشة القلب التي غشيتها مذ فارق سوق
المقطم . ومضت عيناه في التجول حتى وقفتا عند نافذة في الربع الأول ،
تطل منها فتاة راحت تحملق في وجهه باهتمام ، فلما التقت عيناهما رفعت
ناظريها الى الأفق . ولمح ذلك رجل من اصحاب والده فهمس قائلاً :
— عيشة بنت خنفس ، نظرة اليها تسبب مذبحة !

فتورد وجه رفاة وقالت أمه :

— ليس هو من هؤلاء الشبان ولكنه يرى حارته لأول مرة .
ومن الربع الأول خرج في متانة الثور ، يرفل في جلباب فضفاض ،
وينطلق من فوق فيه شارب متحرش في وجه كثير الندوب والبقع
فتهامس الناس « خنفس .. خنفس » . وأخذ جواد عم شافعي من
يده واتجه نحو الربع وهو يقول :

— سلام الله على فتوة آل جبل ، اليك أخانا المعلم شافعي النجار ،

عاد الى حارته بعد غربة عشرين عاماً !

ألقى خنفس نظرة حافرة على وجه شافعي ، متجاهلاً يده الممدودة

ملياً ، ثم مد له يده دون ان يلين وجهه ، ثم تتم في برود :
— أهلاً .

وتأمله رفاة بامتعاظ فهمست أمه في اذنه أن يذهب للسلام عليه :
وذهب رفاة متضايقاً فد له يده ، وقال عم شافعي :
— ابني رفاة .

ونظر خنفس الى رفاة نظرة استنكار وازدراء ، اولها الحاضرون
بأنها احتقار لرقته غير المألوفة في الحرارة . وصافحه بعدم اكتراث ثم
التفت الى أبيه متسائلاً :

— ترى هل نسيت في غربتك سنة الحياة في حارتنا ؟
فأدرك شافعي ما يرمي اليه ، وقال مدارياً ضيقه :

— نحن في الخدمة دائماً يا معلم .

فتفرس في وجهه بريرة وسأله :

— لماذا هاجرت من حارتك ؟

فصمت شافعي ريثما يجد جواباً مناسباً ، فقال خنفس :

— هرباً من زنفل ؟

فقال جواد للشاعر مبادراً :

— لم يكن ذلك خطأ لا يغتفر .

فقال خنفس لشافعي محذراً :

— لن تجد مني مهرباً عند الغضب .

فقال عبدة برجاء :

— ستجدنا يا معلم من أطيب الناس .

ومضى شافعي وأسرته وسط الاصحاب الى دهليز ريع النصر ليتسلم
مسكناً خالياً دله عليه عم جواد . وتراءت في نافذة مطلة على الدهليز
عتاة حسناء ذات جمال وقح ، وقفت تمشط شعرها أمام زجاج النافذة ،
فلما رأت القادمين تساءلت في دلال :

— من القادم كالعريس في الزفة ؟
فتضاحك كثيرون وقال رجل :
— جار لك جديد يا ياسمينة سيقم في الدهليز أمامك .
فهتفت ضاحكة :
— ربنا يزيد في الرجال !

ومرت عيناها بعدة دون اكتراث ، لكنها وقفت على رفاة باهتمام
ولإعجاب . ودهش رفاة لنظرها أكثر من دهشته لنظرة عيشة بنت
خنفس . وتبع والديه الى باب المسكن المقابل لمسكن ياسمينة على الجانب
الآخر للدھليز ، وصوت ياسمينة يغني :
آه من بجاله يامّة .

٤٦

فتح عم شافعي دكان التجارة عند مدخل ريع النصر . ومع الصباح
خرجت عبدة تسوق ، ومضى عم شافعي وابنه رفاة إلى الدكان .
وجلسا على عتبة الدكان ينتظران الرزق . وكان في حوزة الرجل مال
يكفيه شهراً أو يزيد فلم يطرقه القلق ، فراح ينظر الى الدهليز المسقوف
بالمساكن ، المفضي الى الحوش الكبير ويقول :

— هذا هو الدهليز المبارك الذي أغرق فيه جبل أعداءنا .
فتأمله رفاة بعينين حالمين وثغر باسم ، فعاد الرجل يقول :
— وفي هذه البقعة أقام أدهم كوخه وحدثت الأحداث ، وفيها
بارك الجبلأوي ابنه وعفا عنه .

فازداد الثغر الجميل ابتساماً وأغرقت البينان في الحلم . الذكريات
الجميلة كلها ولدت في هذا المكان . لولا الزمن لقيت آثار أقدام

الجبلاوي وأدهم ، ولررد الهواء أنفاسهم . ومن هذه النوافذ انصببت المياه على الفتوات في الحفرة . من نافذة ياسمينية انصببت المياه على الأعداء . اليوم لا ينصب منها الا نظرات مرعبة . ويعبث الزمان بكل جليل . أما جبل فانتظر داخل الحوش بين رجال ضعفاء . لكنه انتصر .

— انتصر جبل يا أبني ولكن ما جدوى النصر ؟

فتنهذ الرجل قائلاً :

— تعاهدنا على ألا نفكر في ذلك ، أرايت خنفس ؟

وعلا صوت غنج منادياً :

— يا عم يا نجار .

فتبادل الأب وابنه نظرة إنكار ، ونهض الأب رافعاً رأسه فرأى ياسمينية تطل من النافذة ، وضميرتاها الطويلتان تتدليان وتترجعتان ، فهتف :

— يا نعم ' .

فقال بصوت متهالك من العبث :

— ابعث صبيك ليأخذ تراييزه لإصلاحها .

عاد الرجل الى مجلسه وهو يقول لابنه : « توكل على الله » . ووجد رفاعة باب المسكن مفتوحاً في انتظاره فغمغم قائلاً : « احم » فأذنت له بالدخول فدخل . وجدها في جذاب بني ذي كلفة بيضاء حول الطوق وفوق نهضة النهدين . وحافية وعارية الساقين وجدها أيضاً . ولبثت صامتة ملياً كأنما لتمتحن أثر منظرها في نفسه ، فلما رأت صفاء يمينيه لا يتغير أشارت الى تراييزة صغيرة قائمة على ثلاثة أرجل في ركن الصالة وقالت :

— الرجل الرابعة تحت الكنية ، ركبها وحياتك وادهن التراييزة من جديد .

فتال بصوت دي .وقع عذب :

— في الخدمة يا مت .

- والشمع ؟
- سأسأل أبي .
- فشهقت متسائلة :
- وأنت ؟ الا تعرف الشمع ؟
- هو الذي يخاطب فيه .
- فتفرست في وجهه بقوة وسألته :
- ومن يصلحها ؟
- أنا ، ولكن بأشرافه ومعاونته .
- فضحككت دون مبالاة وقالت :
- بطيخة أصغر فتواتنا دونك في السن لكنه يستطيع أن يدوخ زفة برمتها ، وأنت لا تستطيع ان تتركب رجل تراييزة بمفردك ! ..
- فقال رفاعه بصوت من يروم انهاء الكلام :
- المهم انها ستعود اليك كأحسن ما يكون .
- وتناول الرجل الرابعة من تحت الكنبه ، وحمل التراييزة على كتفه وانجه نحو الباب قائلاً :
- فتك بعافية .
- ولما وضعها أمام أبيه في الدكان قال الرجل بامتعاض وهو يتفحص التراييزة :
- أقول الحق اني كنت أفضل ان يجيء أول رزق من ناحية أنثلف .
- فقال رفاعه في سداجة :
- ليست قدرة بحال يا أبي ، لكنها وحيدة فيما يبدو .
- ليس أخطر من امرأة وحيدة !
- لعلها في حاجة الى هداية !
- فقال عم شافعي ساخراً :
- حرفتنا النجارة لا الهداية ، هات الغرا .

وعند المساء ذهب عم شافعي ورفاعة الى قهوة جبل . كان الشاعر جواد متربحاً على أريكته يحسو قهوته . وجلس شلضم صاحب القهوة عند المدخل ، على حين احتل خنفس مكان الصدارة وسط هالة من المعجبين . وقصد شافعي وابنه الفتوة ليؤديا اليه تحية الخضوع ثم انخسدا مكاناً خالياً جنب شلضم . وما لبث أن تناول عم شافعي الجوزة ، وقدم لابنه قدح قرفة بالبندق . وبدأ جو القهوة ناعياً ، تنعقد في سمائه سحب الدخان ، وتنتشر في هوائه الساكن روائح المعسل والنعناع والقرنفل ، أما الوجوه ذات الشوارب المستنفرة فلاحت شاحبة ثقيلة الاجفان ، وتلاقي السعال والنحنحة بالضحكات الغليظة والنكات الفاجرة ، وترامى من بطن الحارة هتاف غلمان يترنمون :

ياولاد حارتنا توت توت
انتو نصاره ولا يهود
تاكلو ايه ناكل عجوة
تشربوا ايه نشرب قهوة

وكانت عند مدخل القهوة هرة تربص ، فانقضت نحو اسفل اريكة ، وندت وسوسة ، ثم ظهرت راكضة نحو الحارة قابضة بأسنانها على فأرة . ورد رفاعة عن فيه قدح القرنفل متقزراً ، ورفع عينيه فوقعتا على خنفس وهو يبصق . وصاح خنفس مخاطباً الشاعر جواد :

— متى تبدأ يا راس الدواهي ؟

فابتسم جواد وهو يهز رأسه ، ثم تناول الربابة ، وبعث من اوتارها انغام الافتتاح . وبدأ بتحية الناظر ايهاب ، فتحية ثانية ليومي فتوة الحارة ، والثالثة توجت خليفة جبل الفتوة خنفس ، ومضى يقول : « وجلس أدهم في ادارة الوقف يستقبل مستأجري الاحكار الجدد ، وكان ينظر في الدفتر حينما جاءه صوت الرجل الأخير يقول معلناً عن اسمه :

— ادريس الجبلاوي .

فرفع أدهم رأسه في فزع فرأى أخاه واقفاً أمامه .. »

وواصل الشاعر الحكاية في جو من الانصات . وتابعه رفاعة بشغف .
هذا هو الشاعر وهذه هي الحكايات . كم سمع أمه وهي تقول : « حارتنا
حارة الحكايات » . وحقاً كانت جديرة بالحب هذه الحكايات . لعل فيها عزاء
عن ملاعب سوق المقطم وخلواته . وراحة لقلبه المحترق بهيام غامض .
غامض كهذا البيت الكبير المغلق . لا أثر فيه لحياة الا رهوس اشجار
الجميز والتوت والنخيل . وأي دليل على حياة الجبلابي الا الاشجار
والحكايات ؟ وأي دليل على انه حفيده سوى الشبه الذي لمسه الشاعر
جواد بيديه ؟ وكان الليل يتقدم ، وعم شافعي يدخن جوزة ثالثة ،
واختفت من الحارة نداءات الباعة وهتافات الغلمان ، ولم يعد يبقى سوى
انغام الزباب ودقة دريكة آتية من بعيد . وصراخ امرأة ينهال عليها
زوجها ضرباً . أما أدهم فقد جره ادريس الى مصيره . الى الخلاء تتبعه
أميمة الباكية . كما خرجت أمي من الحارة وأنا في بطنها أضطرب .
اللعة على الفتوات . وعلى القطط حين تلغظ الفئران انفاسها بين أسنانها .
وعلى كل نظرة ساخرة أو ضحكة باردة . وعلى من يستقبل أخاه العائد
بقوله لا مهرب مني عند الغضب . وعلى صانعي الرعب وخالقي النفاق .
اما أدهم فلم يبق له إلا الخلاء . وها هو الشاعر يغني أغنية من أغاني
ادريس المخمورة . ومال الى أذن أبيه وقال :

— أريد ان ازور المقاهي الأخرى .

فقال عم شافعي متعجباً :

— قهوتنا خير قهوة في الحارة .

— ماذا يقول الشعراء هنالك ؟

— الحكايات نفسها ولكنك تسمعها هنالك وكأنها غير الحكايات .

وترامى التهامس الى شلضم فقال نحو رفاعة قائلاً :

— ليس أكذب من أهل حارتنا ، والشعراء أكذب الكاذبين ، ستسمع

في القهوة التالية ان جبل قال إنه ابن الحارة ، والله ما قال الا انه

ابن حدان .

فقال عم شافعي :

- الشاعر يريد ارضاء السامعين بأي ثمن .

فقال شلضم همساً :

- بل يريد ارضاء الفتوة !

وغادر الأب والابن القهوة عند منتصف الليل . وكانت الظلمة كثيفة

تكاد ان تتجسد . وهناك اصوات رجال كأنما تصدر عن لا شيء .

وسبجارة تتوهج في يد غير مرئية كأنها نجم تهاوى نحو الأرض .

وتساءل الأب :

- اعجبتك الحكاية ؟

- نعم ، ما اجمل الحكايات .

فضحك الأب قائلاً :

- عم جواد يحبك ، ماذا قال لك في الاستراحة ؟

- دعاني الى زيارته في بيته .

- ما اسرع أن تُحب ، ولكنك صبي بطيء التعلم .

فقال معتذراً :

- لديّ عمر كامل للنجارة ، ولكن يهمني الآن ان ازور المقاهي

جميعاً .

وتلمسا طريقةهما الى الدهليز فترامت اليهما من بيت ياسمينسة ضجة

مخمورة ، وصوت يغني :

يا بو الطاقة الشبيكة قل مين شغلها لك

شبكت قلبي الهسي ينشغل بالك

فهمس رفاعة في أذن أبيه :

- ليست وحيدة كما ظننت .

فتنهّد الأب قائلاً :

- ما أكثر ما ضيعت من عمر في الخلوات !
 وراحا يرقيان في السلم على مهل وحذر ، وإذا برفاعة يقول :
 — أبني ، سأزور عم جواد الشاعر .

٤٧

طرق رفاة باب جواد الشاعر بالربع الثالث بحي جبل . وكان يتصاعد من الحوش سباب حاد تتبادله نسوة ممن اجتمعن للغسل والطهي فأطل من فوق درابزين الطريقة المستديرة المشرفة على فناء الربع . وكانت المعركة الأساسية تدور بين امرأتين ، وقفت اولادهما وراء طشت غسيل تلوح بيدين مغطاتين برغوة الصابون ، ووقفت الأخرى عند مدخل الدهليز مشمرة عن ساعديها ترد السب بأفطع منه وترقص وسطها استهزاء . أما النساء الأخريات فانقسمن الى فرقتين ، وتلاطمت الأصوات حتى تجاوزت جدران الربع بالشتائم المقذعة والقذف العاهر . ومرعان ما جفل مما يرى ويسمع فتحول عن موقفه الى باب الشاعر متقززا . حتى النساء ، حتى القطط ، ودعك من الفتوات . في كل يد مخلب وفي كل لسان سم ، وفي القلوب الخوف والضغائن . أما الهراء النقي ففي خلاء المقطم أو في البيت الكبير حيث ينعم الواقف بالسلام وحسده ! وفتح الباب عن وجه الضرب المستطلع فحياه فابتسمت أسارير الرجل ، وأوسع له وهو يقول :

— أهلاً بابن أخي .

وتلقى رفاة أول ما دخل شذى بخور نافذ كأنه أنفاس ملاك . ومضى وراء الرجل الى حجرة صغيرة مربعة ، اصططبت باضلاعها الشلت ، وانبطت فوق أرضها حصيرة مزركشة ، وبدا جوها خلف خصائص النوافذ المغلقة في سمة الأصيل ، وقد زين سقفها حول النافوس المدلى

بصور العصافير والحمام . تربع الشاعر على شلثة فجلس رفاعة الى جانبه ،
وقال الرجل :

— كنا نعد القهوة .

ونادى زوجته فجاءت امرأة حاملة صينية القهوة فقال جواد :

— تعالي يا أم بخاطرها ، هذا رفاعة ابن عم شافعي .

فجلست المرأة الى جانب زوجها من الناحية الاخرى ، وراحت تصب
القهوة في الفناجيل وهي تقول :

— اهلاً بك يا ابني .

بدت في منتصف الحلقة السادسة ، مستقيمة العود ، قويسة البنية ،
تلفت النظر بعينين نافذتين ووشم فوق الذقن . وأشار جواد ناحية
الضييف وقال :

— انه سميع يا ام بخاطرها ، شغوف بالحكايات ، وبمثله يتمحمس الشاعر
ويرضى ، أما الآخرون فسرعان ما يغلبهم نعاس المتزول والحشيش .
فقالَت المرأة بدعابة :

— حكاياتك جديدة عليه ، معادة عليهم .

فقال الشاعر بغيظ :

— هذا صوت عفريت من عفاربتك .. (ثم موجهها الخطاب الى
رفاعة) .. الولية كودية زار ..

فتطلع رفاعة نحو المرأة باهتمام فالتقت عيناهما وهي تمد له يدها بفنجال
القهوة . كم كانت تجذبه دقة الزار في سوق المقطم . وكان قلبه يتابعها
راقصاً ، فيقف في الطريق رافعاً رأسه نحو النوافل ، متطلعاً الى البخور
السابح في الفضاء والرءوس المترنحة . وسأله الشاعر :

— ألم تعرف في غربتك شيئاً عن حارتنا ؟

— حدثني أبسي عنها كما حدثني أمي . ولكن قلبي كان هنالك ،
فلم اكترث كثيراً للوقف ومشاكله ، وعجبت من كثرة ضحاياها ، فلت

الى رأي أمي في ايثارها الحب والسلام .

فتساءل جواد وهو يهز رأسه في حزن :

- وكيف يتسنى للحب والسلام ان يعيشا بين الفقر ونباييت الفتوات !
فلم يحبه رفاة . لا لأنه لم يكن ثمة جواب . ولكن لأن عينيه رأنا
لأول مرة صورة غريبة فوق الجدار الأيمن للحجرة . صورة مرسومة
بالزيت على الجدار كالصور التي تزين جدران المقاهي . وتمثل رجلاً
هائلاً تبدو الى جانبه ربوع الحارة ضئيلة كلعب الأطفال . فتساءل
الشاب :

- من صاحب هذه الصورة ؟

فأجابت أم بخاطرها :

- الجبلأوي .

- هل رآه أحد ؟

فقال جواد :

- كلا ، لم يره أحد من جيلنا ، حتى جبل لم يتبينه في ظلمة الخلاء ،
ولكن المبيض رسمه على مثال ما يرد من أوصافه في الحكايات .

فتساءل رفاة متنهلاً :

- لماذا أغلق أبوابه في وجه أحفاده ؟

- يقولون الكبر ، من يدري كيف تمضي به الأيام ! والله لو فتح
أبوابه ما بقي أحد من أهل حارتنا في داره القذرة .

- ألا تستطيع أن ..

ولكن أم بخاطرها قاطعته قائلة :

- لا تشغل به نفسك ، فان أهل حارتنا اذا بدأوا بالكلام عن

الواقف جرهم الكلام الى الوقف ثم تقع المصائب اشكالاً وألواناً .

فهز رأسه في حيرة متسائلاً :

- وكيف لا تشغل النفس بمثل هذا الجلد العجيب ؟ !

- لنفعل مثله ، فانه لا يشغل بنا نفسه .
 — فرفع رفاعه بصره الى الصورة ثم قال :
 — لكنه قابل جبل وكلمه .
 — نعم ، ولما مات جبل جاء زنفل ثم خنفس ، وكأننا يا بدر لا
 رحنا ولا جينا .
 فضحك جواد وقال لامرأته :
 — ان الحارة في حاجة الى من يخلصها من شياطينها كما تخلصين
 المسوسين من عفاريتهن .
 فابتسم رفاعه وقال :
 — يا عمي ان العفاريات حقاً هم اولئك الناس ، لو رأيت كيف
 كانت مقابلة خنفس لأبي !
 — لا شأن لي بأولئك ، عفارياتي الآخرون يذعنون لي كما كانت
 تذعن الثعابين لجبل ، وعندني لهم جميع مسا يحبون من بخور سوداني
 وتعاويد حبشية واغان سلطانية .
 فسألها رفاعه باهتمام :
 — ومن أين أتت هذه القدرة على العفاريات ؟
 فحدثته بنظرة حذرة وقالت :
 — هي حرفتي كما ان النجارة حرفة أبيك ، جاءني من وهاب الفن !
 فانفرغ رفاعه ثمالة الفنجان في فيه وهمّ بالكلام ، غير ان صوت عم
 شافعي تصاعد من الحارة صائحاً :
 — يا رفاعه ، يا ولد يا كسول .
 فقام رفاعه الى النافذة ففتحها وأطل منها حتى التقت عيناه عيني
 أبيه وهتف :
 — أمهلني نصف ساعة يا أبي .
 فرفع الرجل منكبيه فيما يشبه اليأس ورجع الى دكانه . وعندما أخذ

رفاعة يغلق النافذة رأى عيشة في موقفها بالنافذة كما رآها أول مرة ،
ترنو اليه باهتمام . خيل اليه انها ابتسمت . او ان عينها تكلمت . وتردد
لحظة ، لكنه اغلق النافذة وعاد الى مجلسه . وإذا بجواد يضحك قائلاً :
— أبوك يريد لك التجارة ، ولكن فيم ترغب أنت ؟

فتفكر رفاعة ملياً ثم قال :

— عليّ ان اكون نجاراً كأبي ، ولكني أحب الحكايات ، وهذه
الأسرار حول العفاريت ، فحدثني عنها يا عمّي .
فابتسمت المرأة وبدأت كأنها سمحت بأن تهيه « قليلاً » من علمها
فقالت :

— لكل انسان عفريت هو سيده ، ولكن ليس كل عفريت بشر
يجب ان يخرج .

— وكيف نميز بين هذا وذاك ؟

— عملك يدل عليه ، انت مثلاً ولد طيب فباستحق سيدك الا الجميل ،
وليس هكذا عفاريت بيومي وخففس وبطيخه !
فقال ببراءة :

— وعفريت باسمينة هل يجب ان يخرج ؟

فضحكت أم بخاطرهما وقالت :

— جارتكم ؟ لكن رجال جبل يريدونها كما هي .

فقال باهتمام جدي :

— أريد ان اعرف هذه الأشياء فلا تبخلي علي .

فقال جواد :

— منذ الذي يبخل على الابن الطيب ؟

وقالت أم بخاطرهما :

— جميل ان تلازمي كلما سمح الوقت ، ولكن على شرط الا يغضب

أبوك ، وسيتساءل الناس ما لهذا الولد الطيب والعفاريت ، ولكن اعلم
الا دام للناس الا العفاريت .
وكان رفاة يستمع وهو يرنو الى صورة الجبلاني .

٤٨

التجارة مهنته ومستقبله ، لا مهرب منها فيما يبدو . إن تكن نفسه
لا ترتاح إليها فأي شيء ترتاح اليه نفسه ؟ انها أفضل من السعي
الكادح وراء عربات اليد ، أو من حمل المقاطف والسلال ، أما المهن
الأخرى كالبلطجة والفتونة فما أبغضها وأمقتها . أم بخاطرها أثارت خياله
كما لم يثره شيء من قبل اللهم الا صورة الواقف المرسومة على جدار
الحجرة في بيت جواد الشاعر . وحض أباه يوماً على رسم صورة مثلها
في بيتهم او في الدكان فقال له الرجل نحن أولى بنفقاتها ، وهي خيال
وما قيمة الخيال ؟ فما كان منه الا ان قال له بودي لو أراه !
فضحك الرجل ضحكة عالية وقال له معاتباً اليس الأفضل ان ترى
عملك ! لن أعيش لك الى الأبد ، وعليك ان تنأهب ليوم تحمل فيه
وحبك اعباء أمك وزوجك وأطفالك . لكنه لم يكن يفكر في شيء كما
كان يفكر فيما تقول او تفعل أم بخاطرها . بدت له أحاديثها عن
العفاريت غاية في الأهمية . ولم تزايل وعيه حتى في الأوقات السعيدة التي
تردد فيها على مقاهي الحارة واحدة بعد أخرى . حتى الحكايات نفسها
لم ترسب في نفسه كما رسبت أحاديث أم بخاطرها . لكل انسان عفريت
هو سيده ، وكما يكون السيد يكون العبد .. هكذا تردد أم بخاطرها .
وكم من ليلة قضاهما في حضرة الست ، يتابع دقات الزار ويشهد ترويض
العفاريت . ومن المرضى من يساق الى البيت في حال خمود وإعياء ،

ومنهم من يحمل مقيداً في الاغلال اتقاء لشره . ويُحرق البخور المناسب اذ لكل حال بخورها ، وتدق الدقة المطلوبة اذ لكل عفريت دقة يطلبها ، ثم تحدث الأعاجيب . اذن عرفنا لكل عفريت دواءه ولكن ما دواء ناظر الوقف وفتواته؟! هؤلاء الاشرار يسخرون من الزار ولعله لم يخلق الا لهم ! القتل هو الوسيلة الى الخلاص منهم اما العفريت فيستكين بالبخور الزكي والنغمة الطيبة . كيف يؤخذ العفريت الشرير بالجميل الطيب؟! الا ما اجل ما نتعلمه من الزار والعفاريت ! وقال لأم بخاطرها انه يرغب من اعماق قلبه في تلقي اسرار الزار ، فسألته أتطمع في المال الكثير؟ فاجابها بأنه في تطهير الحارة يرغب لا في المال الكثير . وضحكت المرأة قائلة انه اول رجل يرغب في هذا العمل فماذا استهواه فيه؟ فأكد قائلاً ان احكم ما في عملك انك تهزمين الشر بالطيب الجميل . ولما مضت تبيح له اسرارها طاب نفساً . ولأعراباً عن مسرته كان يصعد الى سطح الربع في نشوة الفجر ليشهد بقطعة النور ، ولكن يستأثر البيت الكبير بلبه دون النجوم والسكون وصباح الديكة ، ويرنو الى البيت الزاقد بين الاشجار طويلاً ، ثم يتساءل : ابن انت يا جدي؟ لماذا لا تظهر ولو لحظة ! لماذا لا تخرج ولا مرة؟ لماذا لا تتكلم ولو كلمة؟ الا تدري ان كلمة منك تغير حارتنا من حال الى حال؟ أم يرضيك ما يجري بها؟ وما اجمل الاشجار حول بيتك ! اني احبها لأنك تحبها ، وأنظر اليها لأنني نظراتك المطبوعة عليها . وكلما أفضى بخواطره الى ابيه سمع عتاباً وقال له : « وعملك يا كسلان ! ان امثالك من الشبان يجوبون الاحياء سعياً وراء الرزق او يهزون الحارة اذا رغبوا التبايت ! » وبوفاً كانت الأسرة مجتمعة عقب الغداء اذا بعبة تقول لزوجها باسمه :

— قل له يا معلم .

ادرك رفاعة انه المقصود بالكلام فنظر الى ابيه مستظلاً لكن الرجل خاطب زوجته قائلاً :

— حدثني انت بما عندك أولاً .

فنظرت عبدة الى ابنها باعجاب وقالت :

— خبر سعيد يا رفاعة ، زارني ست زكية زوجة فتوتنا خنفس !
ورددت لها الزيارة بطبيعة الحال فاستقبلني بحفاوة وقدمت اليّ ابنتها
عيشة ، بنت جميلة كالقمر ، ثم زارني مرة اخرى ومعها عيشة .
ولحظ عم شافعي ابنه بطرف خفي وهو يرفع فنجال القهوة الى فيه
ليرى اثر الحكاية في نفسه ، ثم هز رأسه هزة من قدر الصعوبة التي
تنتظره ، وقال بتفخيم :

— هذا شرف لم يحظ بمثله بيت في حيّ جبل ، تصور ان زوجة
خنفس وابنته يزوران بيتنا هذا !

رفع رفاعة عينيه الى أمه حائراً فقالت بحماس :

— ما افخم مسكنهم ، المساعد الوثيرة ، السجاد الفاخر ، حتى
الستائر تسدل فوق التوافذ والأبواب .
فقال رفاعة بمتعضاً :

— كل هذا الخير من أموال آل جبل المغتصبة !

فدارى عم شافعي ابتسامة وهو يقول :

— تعاهدنا على ألاّ نتكلم في هذا الموضوع .

وقالت عبدة باهتمام :

— فلنذكر فقط ان خنفس سيد آل جبل وان صداقة امه دعاء

مستجاب .

فقال رفاعة في ضجر :

— مباركة عليك هذه الصداقة !

فتبادلت الأم مع زوجها نظرة ذات معنى ، قالت على اثرها :

— ان مجيء عيشة مع أمها حدث له معنى !

فتساءل رفاعة وهو يشعر بانقباض :

- ما معناه يا أمي ؟
 فضحك شافعي وهو يلوح بيده يائساً وقال غاطباً عبدة .
 — كان ينبغي ان نقصّ عليه كيف تمّ زواجنا !
 فهتف رفاعه بضيق :
 — كلا ! كلا يا ابي .
 — ماذا تعني ؟ ومالك تبدو كالعنراء ؟
 وقالت عبدة باغراء ورجاء :
 — أنت الذي بيدك أن تدخلنا نظارة وقف آل جبل ، سيرحبون بك اذا تقدمت ، حتى خففس سيرحب بك ، اذ لولا ثقة المرأة في مكانتها عنده ما أقدمت على تلك الخطوة ، امامك جاء ستحسدك الحارة عليه من أولها الى آخرها .
 وقال الأب ضاحكاً :
 — من يدري فلعلنا نراك يوماً ناظراً لوقف جبل او ترى انت احد ابنائك فيه .
 — أنت الذي تقول ذلك يا أبي ؟ أنسيت لماذا هاجرت من الحارة منذ عشرين عاماً ؟
 فرمش عم شافعي في شيء من الارتباك وقال :
 — نحن نعيش اليوم كما يعيش غيرنا ، فلا يجوز أن نهمل انتهـاز فرصة تجيء بنفسها الينا .
 وتتم رفاعه وكأنه يحدث نفسه :
 — كيف أصهر الى عفريت وأنا لا همّ لي اليوم الا مطاردة العفاريت !
 فصاح شافعي محتداً :
 — ما طمعت يوماً في أن أجعل منك أكثر من نجار ، ولكن الحظ يعرض عليك درجة مرموقة في حارتنا ، ولكنك تريد أن تكون كودبة زار ، يا للعار ، أي عين أصابتك ؟

قل انك ستتزوجها ودعنا من الهزر :
 — لن أتزوجها يا أبي .
 فقال شافعي دون مبالاة :
 — سأزور خنفس لأطلب القرب منه .
 فهتف رفاعه بحرارة :
 — لا تفعل يا أبي .
 فسأله أبوه في جزع :
 — خبرني ما شأنك يا ولد ١٩
 وتوسلت عبدة الى زوجها قائلة :
 — لا تشتد عليه ، أنت أعلم بحاله .
 — يا سوء ما أعلم ، حارتنا تعبرنا برقته .
 — ترفق به حتى يفكر في الأمر .
 — أقرانه آباء ، والأرض تهتز عند وقع أقدامهم .
 وحده بنظرة مغيظة ثم استطرد محتداً :
 — لماذا يهرب الدم من وجهك ؟ انك من صلب رجال !
 وتنهذ رفاعه . الصدر منقبض لحد البكاء . وشائج الأبوة يمزقها
 الغضب . والبيت يقسو حيناً فيرتد سجيناً كثيباً . ومرادك ليس في هذا
 المكان ولا بين هؤلاء الناس . وقال بصوت مبسوح :
 — لا تعذبني يا أبي .
 — أنت الذي تعذبني ، كما عذبتني منذ ولدت .
 وأحني رفاعه رأسه حتى اختفى وجهه عن والديه ، وأخفض الرجل
 من صوته وسكن ما استطاع غضبه ، ثم سأله :
 — هل تخاف الزواج ؟ الا تحب ان تتزوج ؟ صارحني بما في نفسك ،
 أم اذهب الى أم بخاطرهما فلعلها تعرف عنك ما لا نعرف !
 فهتف بحدة :

- كلا ..
وقام فجأة فغادر الحجرة .

٤٩

ونزل عم شافعي ليفتح الدكان فلم يجد رفاعة هناك كما توقع . لكنه لم يناد عليه وقال لنفسه : إنه من الحكمة أن يتظاهر بالبرود لغيابه . ومضى النهار يزحف رويداً وضوء الشمس ينحسر عن أرض الحارة والنشارة تتكاثر حول قدمي شافعي دون أن يظهر رفاعة . وأتى المساء فأغلق الرجل الدكان وهو في غاية من الضيق والغضب . وقصد كعادته قهوة شلضم واتخذ مجلسه ، ولما رأى جواد الشاعر قادماً وحده تولاه العجب وسأله :

- إذن أين رفاعة ؟
فأجابه الرجل وهو يتلمس طريقه الى اريكنه :
- لم أره منذ أمس .
فقال شافعي بقلق :
- لم أره منذ تركنا بعد الغداء .
رفع جواد حاجبيه الأشيبين ثم تساءل وهو يتربع على الأريكة ويضع الرباب الى جانبه :

- هل وقع بينكما شيء ؟
ولم يجبه شافعي ، وقام فجأة فغادر فغادر القهوة . وتعجب شلضم لقلق شافعي وقال ساخراً :
- هذه طراوة لم تعرفها حارتنا منذ أقام ادريس كونه في الخلاء ، كنت اتغيب في صغري عن الحارة أياماً فلا يسأل عني أحسد ، وعند

عودني يصيح بي أباي الله يرحمه : « ما الذي عاد بك يا ابن اللثيمة ؟
فعلق خنفس على كلامه من صدر القهوة قائلاً :

— أصله لم يكن على يقين من انك ابنه .

وضجت القهوة بالضحك ، وهنا كثيرون خنفس على جميل دعايته !
أما عم شافعي فضى الى بيته وسأل عبدة : هل عاد رفاة فاستحوذ
القلق على المرأة ؟ وقالت : انها كانت تظنه بالدكان كعادته . واشتد
قلقها حين أخبرها انه لم يذهب كذلك الى بيت جواد الشاعر ، وراحت
المرأة تتساءل في قلق :

— اذن اين ذهب ؟

وترامى اليها صوت ياسمينه وهي تزغق منادية على يياح ثين فنظرت
عبدة الى شافعي نظرة مريبة فهز الرجل رأسه برماً واطلق ضحكة جافة
مقتضبة ساخرة ولكن المرأة قالت :

— فتاة مثلها تحل العُقَد !

وذهب الرجل الى بيت ياسمينه مدفوعاً بالأس وحده . طرق الباب
فتفتحت ياسمينه بنفسها ، ولما عرفتة تراجع رأسها في دهش مقرون
بالظفر وقالت :

— أنت ! ياما تحت الساهي دواهي !

فغض الرجل بصره امام شغافية قيضها وقال بانكسار :

— رفاة عندك ؟

فازدادت دهشة وقالت :

— رفاة ! له ؟

فعلا الرجل الارتباك ، فأشارت الى الداخل وهي تقول :

— ابحث عنه بنفسك .

لكن الرجل استدار ليذهب فسأله ساخرة :

هل أدركه البارح اليوم ؟

وسمعتها تخاطب شخصاً في الداخل قائلة :

— في هذا الزمان الفتى يخشى عليه أكثر من الفتاة .
ووجد عم شافعي عبدة تنتظره في الدهليز ، فقالت له :
— سنذهب معاً الى سوق المقطم .

فصاح الرجل بغضب :

— الله يتعبه ، أهذا جزائي بعد يوم عمل شاق !

واستقلا عربة كارو الى سوق المقطم ، وسألا عنسه عند جيرانهما
الاقدمين ، وعند المعارف فلم يعثرا له على أثر . أجمل كان يتغيب
ساعات في العصارى او الاصائل في الخلوات او الجبل ، ولكن لا
يتصور احد ان يلبث حتى هذه الساعة من الليل في الخلاء . وعادا الى
الحارة كما ذهبا ولكن على حال من الجزع أشد . ولاكت الألسن اختفاءه
خاصة بعد ان مضت عليه أيام . صار دعابة في القهوة وبيت ياسمينه
وفي حي جبل . تندّر الجميع بنزع والديه . ولعل أم بخاطرهما وعم
جواد كانا الوحيدين اللذين شاركا والديه في حزنهما . وقال عم جواد :
« أين ذهب الفتى ؟ ليس هو من أولئك الشبان ، لو كان على شاكلتهم
ما جزعنا ! » وصاح بطيخة مرة . وهو سكران : « جدد تابه يسا
أولاد الخلال » كأنما ينادي على طفل تائه ، فضحكت الحارة وراح
الغلان يرددونها . ومرضت عبدة من الحزن . وعمل شافعي في دكانه
بعقل شارد وعينين محمرتين من الأرق . أمسا زكية زوجة ختنس فقد
انقطعت عن زيارة عبدة وتجاهلتها في الطريق . ويوماً كان شافعي مكباً
على نشر قطعة من الخشب اذ صاحبت به ياسمينه وهي عائدة من مشوار :
— عم شافعي .. انظر .

وجدها تشير الى نهاية الحارة عند الخلاء فغادر الدكان والمنشار في
يده ليرى ما تشير اليه فرأى ابنه رفاعة يتقدم نحو الربع في استحياء .
وترك الرجل المنشار امام الدكان وهرع نحو ابنه وهو يتفحصه بدهشة ،

ثم قبض على عضديه هائفاً :
 - رفاعه ! أين كنت ؟ ألا تدري ما يعني غيابك لنا ؟ لأملك
 المسكينة التي تكاد ان تموت جوعاً ؟
 ولم ينبس الشاب ، ووضح للأب هزاله فسأله :
 - هل كنت مريضاً ؟
 فأجاب في ارتباك :
 - كلا ، دعني أرى أُمي .
 واقتربت ياسمينة منها وسألت الشاب في ارتباك :
 - ولكن أين كنت ؟
 فلم ينظر نحوها . وتجمّع حوله الغلمان . فسار به ابوه الى البيت .
 وسرعان ما تبعها عم جواد وأم بخاطرهما . ولما رآته أمه وثبت من
 الفراش وضمته الى صدرها وهي تقول بصوت ضعيف :
 - ساعحك الله .. كيف هانت عليك أُمك ؟
 فتناول راحتها بين يديه وأجلسها على الفراش وجلس الى جانبها
 وهو يقول :
 - اني آسف ..
 فرفع ابوه وجهاً متجهماً نقيض الارتفاع الساري في اعماقه كالقمامة
 السوداء المظلمة لوجه القمر وقال بعتاب :
 - ليس الا اننا قصدنا اسعادك !
 فتساءلت عبدة بعينين مغرورتين :
 - توهمت اننا نجبرك على الزواج !
 فقال بحزن :
 - اني متعيب .
 فسأله اكثر من صوت :
 - أين كنت ؟

فتنهذ قائلاً :

— ضقت بحياتي فذهبت الى الخلاء ، شعرت برغبة في الوخسة والخلاء . ولم أكن أتركه الا لشراء الطعام .

فضرب الأب جبهته بيده وصاح :

— ما هكذا يفعل العقلاء !

واذا بأم بخاطرها تقول في اشفاق :

— دعوه ، اننا خيرة بهذه الاحوال ، ولا يصح ان يُفرض علي مثله شيء أباه .

فقالت عبدة وهي تشد على يده :

— كانت سعادته أملنا ، ولكن ما قدر كان ، كم ضمرت يا بني !

وتساءل عم شافعي في غيظ :

— دلوني على شيء كهذا حصل من قبل في حارثنا !

فقالت أم بخاطرها في لوم :

— ليس حاله بالغريب علي يا عم شافعي ، صدقني ، انه شاب

نادر المثال !

فغمغم عم شافعي في حزن :

— صرنا احدثه في الحارة .

فقالت أم بخاطرها غاضبة :

— ليس في الحارة كلها فتى مثله .

فقال عم شافعي :

— هذا موضع الأسى .

فصاحت أم بخاطرها :

— وحّد الله يا رجل ، أنت لا تدري ماذا تقول ولا تفهم ما يقال

أصبح للدكان منظر يوحى بالنشاط والنجاح . فعند طرف الطاولة وقف عم شافعي ينشر الخشب ، وعند طرفها الآخر قبض رفاة على القدوم وراح يدق المسامير ، أما أسفل الطاولة فبدأ اناء الغراء مغروساً في ركाम النشارة حتى منتصفه . واستندت الى الجدران ضلفات نوافذ ومصاريح أبواب ، يتوسطها صف عمودي من الصناديق الجديدة بلون الخشب الباهت المصقول لا ينقصها إلا الدهان . وامتلاً الجو برائحة خشبية وأصوات النشر والدق والحك وقرقرة الجوز يدخنها اربعة زبائن جلسوا عند مدخل الدكان يتحدثون . وقال حجازي مخاطباً عم شافعي :
 - سأجرب مهارتك في هذه الكنبه وان شاء الله سيكون العمل القادم جهاز البنت (ثم مخاطباً أصحابه) .. وأعود فأقول لكم إننا نعيش في ايام لو عاد اليها جبل الجحش .

فهبوا رءوسهم في أسى وهم يدخنون ، اما بوهوم الترابي فسأل عم شافعي باسماء :

- لماذا لا تريد ان تصنع لي تابوتاً ؟ أليس كل شيء بثمنه ؟

فكف عم شافعي يده عن المنشار لحظة وقال ضاحكاً :

- يفتح الله ، وجود التابوت في الدكان يهرب الزبائن .

فقال فرحات مؤمناً على قوله :

- صدقت ، قطع الموت وسيرته .

فعاد حجازي يقول :

- عيبكم أنكم تخافون الموت أكثر مما ينبغي : لذلك سيطر عليكم

خنفس ، وتسلطن بيومي ، وصادر إهاب أرزاقكم .

— وأنت ألا تخاف الموت مثلنا ؟

فبصق ثم قال :

— العيب علينا جميعاً ، كان جبل قوياً ، وبالقوة والعنف استخلص لنا حقنا الذي اضاعه الجبن .

وإذا برفاعة يتوقف عن الدق فيخرج المسامير من فيه ويقول :

— اراد جبيل استخلاص حقنا بالحسنى . ولم يعمد الى القوة الا دفاعاً عن نفسه .

فضحك حجازي استهزاء وقال متسائلاً :

— خبرني يا ابني هل تستطيع دق المسامير الا بالقوة ؟

فقال رفاة باهتمام جدي :

— ليس الانسان كالحشب يا معلم .

وحده أبوه بنظرة فعاد الى عمله . واستطرد حجازي قائلاً :

— الحق ان جبل كان فتوة من اشد الفتوات الذين عرفتهم حارتنا ،

وكم حث آل جبل على الفتوة .

فقال فرحات مصححاً :

— أراد منهم ان يكونوا فتوات على الحارة لا على آل جبل .

— وما هم اليوم الا فئران او أرانب .

وتساءل عم شافعي وهو يحفف أنفه بظهر يده :

— وأي الألوان تفضل يا عم حجازي ؟

— اختر لوناً لا يتوسخ بسرعة ، فهذا أضمن للنظافة .

وواصل حديثه للاصحاب قال :

— ويوم فقاً دعبس عين كعلها فقاً جبل عينه ، فبالجبروت اقام العدل ..

وتنهذ رفاة بصوت مسموع وقال :

— لا يعوزنا الجبروت ، كل ساعة من نهار او ليل نرى انساناً

يضرّبون ويجرّحون ويقتلون ، حتى النساء ينشبن الاظافر حتى تسيل

الدماء ، ولكن أين العدل ؟ الا ما اقبح هذا كله ؟ .
ووجع الجميع لحظة ثم قال حنورة ، وكان يتكلم لأول مرة :
- هذا المعلم الصغير يحترق حارثنا ! انه رقيق اكثر من اللازم وأنت
السبب يا معلم شافعي .
- أنا ؟ !

- نعم ، انه شاب مدلل .
والتفت حجازي نحو رفاعه وقال ضاحكاً :
- خير من هذا ان تعبد لنفسك عروساً !
وتعالى الضحك ، فقطب هم شافعي ، ونورد وجه رفاعه ، وعاد
حجازي يقول مؤكداً :

- القوة .. القوة ، بغيرها لا يسود العدل !
فقال رفاعه باصرار رغم نظرات ابيه اليه :
- الحق ان حارثنا في حاجة الى الرحمة .
فضحك برهوم الترابي قائلاً :
- أتريد أن تخرب بيتي ؟
وضجوا بالضحك . وأعقب ذلك نوبات سعال ، حتى قال حجازي .
وقد صارت عيناه في لون الغرا :
- قدماً ذهب جبل الى الافندي يسأله العدل والرحمة ، فارسل اليه
زقلط ورجاله ولولا التبايت - لا الرحمة - هلك جبل وآله .
وهتف عم شافعي علهراً :
- يا هوه ! للحيطان آذان ، لو سمعوكم ما وجدتم من بسمي عليكم .
فقال حنورة :

- صدق الرجل ، ما انتم الا حشاشون لا خير فيكم ، ولو مر
امامكم الآن خنفس ، لسجدتم بين يديه .
ثم وهو يلتفت نحو رفاعه :

لا تؤاخذنا يا بني ، فليس على الحشاش حرج ، ألم تجرب الحشيش يا رفاة ؟

فقال عم شافعي ضاحكاً :

— لا يميل الى مجالسه ، وان زاد على نفسين لهث او نام .
فقال فرحات :

— ما الطف هذا الشاب ، يظنه البعض كودية زار للملازمته لأم بخاطرها ويظنه آخرون شاعراً لتعلقه بالحكايات .
فقال حجازي ضاحكاً :

— ويكره مجالس الحشيش كما يكره الزواج !
ونادى برهوم صبي القهوة ليأخذ الجوز ، ثم قاموا مسلمين فانفض المجلس . وترك عم شافعي المنشار لينظر الى ابيه في عتاب ثم قال :
— لا تحشر نفسك في احاديث اولئك الناس .

وجاء غلمان ليلعبوا أمام الدكان فدار رفاة حول الطاولة حتى وقف أمام أبيه ، ثم تناول يده وتراجع به الى ركن الدكان بعيداً عن الأذان .
بدا متفعلاً قلقاً لكن تطابقت شفتاه في تصميم . وشع من عينيه نور عجيب حتى تساءلت عينا الرجل واذا برفاة يقول :
— لن أستطيع السكوت بعد اليوم .

فتضايق الأب . يا له من متعب هذا الابن العزيز . ينفق وقته الغالي في بيت أم بخاطرها . ويخلو الساعات الطوال الى نفسه عند صحرة هند .
واذا مكث في الدكان ساعة أثار المشاكل بمناقشاته .
— هل تجد تعباً ؟

فقال بهدوء غريب حل محل القلق :

— لا يجوز ان أخفي عليك ما في نفسي .

— ماذا عندك ؟

فاقرب منه اكثر وقال :

— أمس عقب خروجي من بيت الشاعر عند منتصف الليل شعرت
برغبة في الانطلاق فقصدت الحلاء ، مشيت في الظلام حتى تعبت ، ثم
اخترت مكاناً اسفل سور البيت الكبير المشرف على الحلاء فجلست مسنداً
ظهري الى السور .

فبدا الاهتمام في عيني الرجل ، وحثه بنظرة على متابعة الحديث فقال :
— سمعت صوتاً غريباً يتكلم ، كأنما كان يحدث نفسه في الظلام ،
فذهمني شعور مشرق بأنه صوت جدنا الجبلأوي .

فحملني الرجل في وجه ابنه وتمتم في ذهول :
— صوت الجبلأوي ؟ ما الذي حملك على هذا الظن ؟
فقال رفاعه بحرارة :

— ليس ظناً يا أبي ، سيجيئك الدليل ، وقد فت حبال سماعي
الصوت فاستدرت نحو البيت وتراجعت الى الوراء لأتمكن من رؤيته ولكني
لم أرَ إلا ظلاماً .
— الحمد لله !

— صبراً يا أبي ، سمعت الصوت وهو يقول : « أما جبل فقد قام
بمهمته وكان عند حسن الظن به ، ولكن الأمور ارتدت الى أقبح مما
كانت عليه » !

شعر شافعي بصدوره يحترق وتفصّد جبينه عرقاً ، وقال بصوت متهدج :
— ما اكثّر الذين جلسوا مجلسك تحت السور فلم يسمعوا شيئاً .
— لكني أنا سمعت يا أبي .

— لعله أخذ كان راقداً في الظلام !

فهز رأسه بعزم وقال :

— بل جاء الصوت من البيت !

— كيف عرفت هذا ؟

— هتفت قائلاً : « يا جدي ، جبل مات ، وخلفه آخرون ، فدلّ

الينا يدك .

فقال شافعي باضطراب :

— الله أسأل ألا يكون أحد سمعك ..

فقال رفاعه بعينين مضطبتين :

— جدي سمعني ، وجاءني صوته قائلاً : « ما أقبح ان يطالب شاب جده العجوز بالعمل ، والابن الحبيب من يعمل .. » فسأته : « وما حيلتي حبال اولئك الفتوات انا الضعيف ؟ » فأجابني : « الضعيف هو الغبي الذي لا يعرف سر قوته وانا لا أحب الأغبياء » .

فتساءل عم شافعي في فزع :

— أظن ان هذا الكلام دار بينك وبين الجبلادي ؟

— نعم ورب السماوات !

فند عن الرجل أنين ، وقال متوجعاً :

— يا للاوهام خلاقة المصائب !

— صدقني يا أبسي ، ليس فيما أقول شك .

فقال الرجل متحسراً :

— لا تقطع أمني في أن نجد فيه شكاً .

فقال رفاعه بوجه يتألق نشوة كالنغمة الحلوة :

— وأعرف الآن ما يراد مني .

فضرب الرجل جبينه بغيظ وصاح متسائلاً :

— وهل أيضاً يراد منك شيء ؟

— نعم ، اني ضعيف ولكني لست غيباً ، والابن الحبيب من يعمل !

فهتف شافعي وهو يشعر كأن المنشار ينشر صدره :

— سيكون عمك أسود ، وسوف تهلك وتجربنا معك الى الهلاك !

فقال رفاعه باسمياً :

— انهم لا يقتلون الا من يتطلع الى الوقف !

— وهل تتطلع الى شيء غير الوقف ؟

فقال رفاعة بصوت مليء بالثقة :

— كان أدهم ينشد الحياة الصافية الغناء ، كذلك جبل وهو لم يطالب بحقه في الوقف إلا سعيًا وراء الحياة الصافية الغناء ، لكن غلب علينا الظن بأن هذه الحياة لن تيسر لأحد الا اذا توزع الوقف على الجميع فنال كل حقه واستثمره حتى يغنيه عن الكد فتخلص له الحياة الصافية الغناء ، ولكن ما أتفه الوقف ان امكن بلوغ هذه الحياة بدونه ، وهو أمر ممكن لمن يشاء ، وبوسعنا ان نغني منذ الساعة !

فتنهدهم شافعي في شيء من الارتياح ، وتساءل :

— هل قال لك جذك ذلك ؟

— قال إنه لا يحب الغناء ، وقال إن الغبي هو الذي لا يعرف سر قوته ، واني آخِر من يدعو الى قتال في سبيل الوقف ، الوقف لا شيء يا أبسي ، وسعادة الحياة الغناء هي كل شيء ، ولا يحول بيننا وبين السعادة الا العقاريت الكامنة في أعماقنا ، ولم يكن عبثاً ان أشغف بطب العقاريت وان أحسنه ، لعلها إرادة رب السماوات هي التي دفعتني اليه . ارتاح شافعي بعد عذاب ، ولكن بعد ان استنفد العذاب قواه ، فانحط على النشارة ، ماداً ساقيه ، مسنداً ظهره الى ضلفة نافذة منتظرة دورها في الاصلاح ، ثم ساءل ابنه في شيء من السخرية :

— وكيف لم نبلغ الحياة الغناء وفينا أم بخاطرها من قبل ان تولد

أنت ؟

فقال رفاعة بالصوت المليء بالثقة :

— لأنها تنتظر حتى يجيء اليها المرضى الموسرون ولا تذهب بنفسها

الى المساكن .

فنظر عم شافعي في اركان دكانه وقال بارتياح :

— انظر الى اقبال الرزق علينا فماذا يجيء لنا الغد من تحت رأسك ؟

فقال رفاعه بابتهاج :
— كل خير يا أبني ، ان شفاء المرضى لن يقلق إلا العفاريت .
وتوهج ضياء في الدكان متبعثاً من مرآة صوان قرب الباب ، عاكساً
شعاع الشمس المائلة .

٥١

وانتقل القلق ليلاً الى بيت عم شافعي . ومع ان الحديث تناهى الى
عبدة في اطار من الطمأنينة ، ومع أنها لم تعلم سوى ان رفاعه سمع صوت
جده وهو يتكلم وانه قرر بعد ذلك ان يزور المساكين ليطرد عنهم
العفاريت ، الا ان القلق اجتاح نفسها ولبثت تقلب وجوه العواقب .
كان رفاعه في الخارج . وكان في أقصى الحارة — بعيداً عن حي جبل —
عرس تترامى منه أصوات طبل وزمر وزغاريد . واراوت المرأة ان
تواجه الحقيقة فقالت بحزن :

— رفاعه لا يكذب .

فقال شافعي بامتناع :

— ولكن قد تخدعه الأوهام : كلنا عرضة لذلك .

— وماذا ترى فيما سمع ؟

— كيف لي بأن أجزم !

— لا محال في الأمر ما دام جدنا حياً .

— الويل لنا لو عرف الخبر .

فقالت برجاء :

— فلنكنم الخبر ، ولنحمد الله على أنه ركز اهتمامه بالنفوس لا

بالوقف ، وما دام لا يؤذي أحداً فلن يؤذيه أحد .

فقال شافعي بفتور :

— ما اكثر الذين يؤذون في حارتنا دون ان يؤذوا أحدا !
وانجذفت أنغام العرس وراء ضجة انفجرت في الدهليز . وأطلا من
النافذة فرأيا الدهليز مزدحماً بالرجال ، وتبيننا على ضوء مصباح في يد
احدهم وجوه حجازي وبرهوم وفرحات وحفورة وآخرين ، وكان كل
لسان يتكلم او يصرخ فاختلطت الأصوات وعمت الضوضاء . وعلا صوت
هاتفاً : « شرف آل جبل في الميزان ، ولن نسمح لأحد بتلويثه » .
وهمت عبدة في أذن زوجها وهي ترتعد .

— سر ابنتنا انكشف !

فتراجع شافعي عن النافذة متأوهاً وهو يقول :

— لم يكذبني قلبي قط .

واندفع الرجل خارج بيته غير مبال بالخطر فتبعته زوجته على الأثر .
وشق الرجل في الزحام سبيلاً متسائلاً بصوت مرتفع :
— رفاة ! .. أين انت يا رفاة ؟

ولم يرَ الرجل ابنته في مجال ضوء المصباح ، ولم يسمع صوته ولكن
حجازي اقترب منه وسأله بصوت مرتفع ليسمعه رغم الضوضاء :
— هل تاه ابنك مرة أخرى ؟

وصاح به فرحات :

— تعال اسمع ما يقال وانظر كيف يعث العاثون بآل جبل على
آخر الزمان !

فهمت عبدة جزعاً :

— وحدوا الله ، والمسامح كريم .

فتمالت اصوات الغضب، يهتف بعضها : « هذه المرأة مجنونة ! » ويهتف
آخرون : « انها لا تعرف معنى الشرف ! » وامتلأ قلب شافعي رعباً
وسأل حجازي مستعظفاً :

— أين الولد ؟

فشق حجازي سبيله حتى الباب وصاح بأعلى صوته :

— يا رفاعه .. تعال يا ولد كلم عم شافعي .

فاختلط الأمر على عم شافعي الذي كان يظن ابنه مقبوضاً عليه في ركن الدهليز ، وإذا برفاعة يظهر في مجال الضوء فيجذب به أبوه من ذراعه ويتقهقر به الى موقف عبدة . وسرعان ما تراءى فانوس في يد شلغم يسير به بين يدي خنفس الذي تقبض وجهه حنقاً وتجههاً . وانجھت الانظار نحو الفتوة وساد الصمت . وتساءل خنفس بصوت غليظ :

— ماذا وراءكم ؟

فاجابه اكثر من صوت في آن :

— باسمينة لوئتنا !

فقال خنفس :

— فليتكلم الشاهد منكم !

فتقدم زيتونة — سائق عربية كارو — حتى وقف امام خنفس وقال :

— منذ قليل رأيتها خارجة من باب بيت بيومي الخلفي ، تبعتها الى

هنا ثم سألتها عما كانت تفعل في بيت الفتوة فتبين لي سكرها ، كانت رائحة الخمر تخرج من فيها فتملأ الدهليز ، أفلتت مني واغابت على نفسها الباب ، والآن سلوا أنفسكم عما يمكن ان تفعله امرأة سكرانة في بيت فتوة .

استرخت اعصاب شافعي وعبدة من ناحية ، وتوترت أعصاب خنفس من ناحية أخرى . أدرك الرجل ان فتورته تتعرض لامتحان قاس . فلو تهاون في معاقبة باسمينة سيفقد كرامته امام آل جبل ، ولو ترك الغاضبين ليعتدوا عليها فسيُدفع بنفسه الى موقف التحدي امام بيومي فتوة الحارة كلها . ما العمل ؟ وكان رجال جبل يتوافدون من الربوع ، ويحتشدون في الحوش ، وفي الحارة امام ربيع النصر فازداد مركز خنفس

حرجاً . وتتابعَت الأصوات في غضب :

— اطردها من حي جبل .

— يجب ان تجلد قبل طردها .

— اقتلوا قتلاً .

وترامت صرخة ياسمينة التي كانت تنصت في الظلام وراء النافذة .

واحدقت الأعين بخنفس لكن رفاعه سمع وهو يسأل أباه :

— أليس الأولى بهم يا أبي أن يصبوا غضبهم على بيومي المعتدي؟

وغضب كثيرون من بينهم زيتونة الذي أجابه قائلاً :

— هي التي ذهبت الى بيته بنفسها .

وصاح به آخر :

— وإذا لم يكن عندك كرامة فن الخير ان تسكت .

وزجره ابوه بنظرة لكن رفاعه قال باصرار :

— لم يفعل بيومي الا مثلاً تفعلون .

فصرخ فيه زيتونة بجنون :

— هي من آل جبل فليست للآخرين .

— هذا الولد سفيه وبلا كرامة .

فلكزه عم شافعي كي يسكت على حين صاح برهوم :

— الكلمة الآن للمعلم !

وغلى الغيظ في قلب خنفس حتى كاد ان يخنق . وصرخت ياسمينة

صرخات استغاثة . وانتشر الغضب فاتجهت الانظار نحو بيت الفتاة وتوثب

فيها المهجوم . وتتابعَت صرخات ياسمينة حتى تقطع قلب رفاعه ولم يعد

في وسعه الاحتمال ، فأفلت من يد أبيه وشق طريقه الى بيت ياسمينة

وهتف برجاء :

— رحمة بضعفها وذعرها .

فصاح به زيتونة :

انت مرة !

وناداه شافعي بحرارة لكنه لم يباله وأجاب زيتونة :

- الله يسأحك (ثم للجميع) ارحموا افعلوا بي ما تشاءون ، ألا تحرك الاستغاثات قلوبكم ؟ !

فعاد زيتونة بصبح :

- لا تلتفتوا لهذا الرقيق (ثم مخاطباً خنفس) الكلمة كامتك يا معلم !

فتساءل رفاعه :

- هل يرضيكم ان اتزوج منها ؟

فاختلط صراخ الغضب بصيحات الاستهزاء ، وقال زيتونة :

- لا يهتنا الا ان تنال جزاءها .

فاستقتل رفاعه قائلاً :

- سيكون العقاب من شأني أنا .

- بل هو من شأن الجميع .

ووجد خنفس في اقتراح رفاعه منقذاً له من ورطته . لم يكن في قلبه مقتنعاً به ولكن لم يكن عنده خير منه . وغالى في تجهمه مدارباً ضعفه ، وقال :

- الولد ارتبط امامنا بزواجها فله ما يطلب .

زاغ بصر زيتونة وأعماه الغضب فصاح :

- ضيع الجبن الشرف !

وإذا بقبضة خنفس تحطم أرنبه أنفه ، فتراجع مولولاً والدم يسيل من منخرية بغزارة . وأدرك الجميع ان خنفس سيغطي على موقفه الضعيف بارهاب من يخالفه . وقلب عينيه في الوجوه التي كشف ضوء الفانوس عن خوفها فلم تند من احد منهم حركة عطف على محطم الأنف . بل وبخ فرحات زيتونة قائلاً : « عيبك في لسانك » . وقال برهوم لخنفس

« لولاك ما اهتدينا الى حل ! » . وقال له حنورة : « زعلك بالدنيا يا معلم » . وأخذوا في التفرق فلم يبق في النهاية إلا خنفس وشلضم وشافعي وعبدة ورفاعة . ومضى عم شافعي الى خنفس ليحييه فمد له يده ولكن الآخر استشاط غضباً وضرب يده بظاهر كفه فتأوه الرجل مقهقراً . وهرع اليه ابنه وزوجته على حين غادر خنفس الدهليز وهو يسب الرجال والنساء وآل جبل بل وجبل نفسه . ونسي عم شافعي في ألمه الورطة التي عثر فيها ابنه . ونقع الرجل يده في ماء ساخن وراحت عبدة تدلكها وهي تقول :

— ترى هل اوغرت زكية صدر زوجها علينا ؟!

فقال عم شافعي متوجعاً :

— نسي الجبان ان ابننا الأحق هو الذي انقلده من نبوت بيومي ..

٥٢

كان رفاعة معقده آمال والديه فشده ما خابت الآمال . بزواجه من ياسمينه سينتهي الشاب الى لا شيء ، أما الأسرة فصارت مضغة للأفواه ولما يتم الزواج . وبكت عبدة خذية حتى أضر بها البكاء . ونجهم وجه شافعي اذ تجهمته الدنيا . لكنها حيال الشاب انطويا على نفسيهما ونجبا المغاضبة . ولعل ياسمينه هونت من الخطب بسلوكلها عقب المظاهرة اذ هرعت الى بيت عم شافعي وجثت امام الرجل وزوجه باكية وسكنت على قدميها بعض ما فاض به قلبها من الامتنان ، ثم أعلنت في حرارة وجد توبتها . ولم يكن من الممكن العدول عن الزواج بعد أن ارتبط به الشاب جهساراً امام آل جبل : فلم عم شافعي وزوجه بالأمر ووطننا النفس على تقبله . وتنازع قلبي الوالدين رغبتان ، واحدة تود ان ترعى

التقاليد في الاحتفال بعرس رفاعه وموكب زفته ، والأخرى ترى
الاقتصار على حفل بيتي حتى لا يتعرض الموكب بسخرية آل جبل الذين
باتوا يعرضون بالزواج في كل ناد . وقالت عبدة في حسارة معربة عن
عواطفها المكبوتة :

— طالما منيت نفسي بروية زفة رفاعه ، ابني الوحيد ، وهي نجوب
الأحياء !

فقال عم شافعي بامتعاض :

— لن يرضى بالاشتراك فيها أحد من آل جبل .

فقطبت عبدة قائلة :

— العودة الى سوق المقطم خير من البقاء بين اناس لا يحبوننا !

فقال رفاعه وهو يمد ساقيه تحت النافذة المفتوحة متشمساً :

— لن نغادر الحارة يا أمي .

فصاح شافعي بحدة :

— ليتنا لم نعد ! (ثم مخاطباً ابنه) .. الم تكن حزيناً يوم عدنا ؟

فابتسم رفاعه قائلاً :

— اليوم غير الأمس ، اذا ذهبنا فنذا الذي يخلص آل جبل من

العفاريت ؟

فقال شافعي محنداً :

— فلتركبهم العفاريت الى الأبد !

ثم بعد تردد :

— انت نفسك ستجيء الى بيتنا بـ ..

وقاطعه رفاعه :

— لن اجيء الى بيتنا بأحد ، سأذهب انا الى المسكن الآخر .

فهتفت الأم :

— لا يعني أبوك ذلك !

— لكنني أعنيه يا أمي ، ليس البيت الجديد بالبعيد ، وفي وسعنا ان نتصافح كل صباح من النافذة !

ورغم أحزان عم شافعي قرر الاحتفال بيوم الزفاف ولو في أضيق الحدود . أقام الزينات بالدهليز وفوق بابي المسكين ، وجاء بمغن وطباخ . ودعا جميع المعارف والأصدقاء ، ولكن لم يلب الدعوة الا عم جواد وأم بخاطرهما وعم حجازي واسرته وبعض الفقراء الذين حرصوا على الطعام . وكان رفاة أول فتي يتزوج بلا زفة . وانتقلت الاسرة عبر الدهليز الى بيت العروس . وغنى المطرب بفتور لقلة المدعوين . وفي اثناء تناول الطعام اثنى جواد الشاعر على شهامة رفاة وخلقه وقال انه فتي زكي حكيم صافي السريرة ولكنه في حارة لا تقيم لغير البلطجة والنبايت وزناً . واذا بغلمان يقفون امام الربع ويغنون معاً :

يا رفاة يا وش القملة مين قلّك تعمل دي العمله

ويختمون بالتهليل والعريضة . ونظر رفاة في الأرض على حين اصفر وجه شافعي . وغضب عم حجازي وقال :

— الكلاب اولاد الكلاب !

ولكن عم جواد قال :

— ما اكثر القاذورات في حارتنا ولكن الطيب لا ينسى فيها ابداً ، كم من فتوة استكبر فيها ؟ لكنها لا تذكر بالجميل الا أدهم وجبل . ثم حث المطرب على الغناء ليغطي غناه على الأصوات المربدة . ومضى الحفل في مغالبة للوجوم حتى انصرف الجميع . ولم يبق في البيت الا رفاة وباسمينه . بدت الفتاة في ثوب العرس آية في الجمال ، والى جانبها جلس رفاة في جلباب حريري مهفّف ، وعلى الرأس لاسه مزركشة ، وفي القدمين مركوب فاقع الاصفرار . جلسا على كنبه ، يقابلها في الناحية الأخرى الفراش المورد . وقد لاحت في مرآة الصوان

صورة الطست والابريق تحت الفراش . والظاهر انها كانت تتوقع من جانبه هجوماً ، أو في الأقل تمهيداً للهجوم المنتظر ، ولكنه لبث يردد البصر بين الفانوس المدلى من السقف والحصيرة الملونة . ولما طال الانتظار ارادت أن تبدد كثافة الصمت المخيم فقالت برقة :

— لن أنسى فضلك ، اني مدينة لك بحياتي .
فنظر نحوها في مودة وقال بصوت من لا يود الرجوع الى هذا الحديث :
— كلنا مدينون بحياتنا لغيرنا .

ما أطيبه ! ليلة الحادث أبى أن يبيع لها يديه تقبلها . وهو الآن لا يود تذكيره بالجميل الذي صنع . ليس كمثل طبيئته الا صبره . لكن فم يفكر يا ترى ؟ هل ساءه أن تدفعه طبيئته الى الزواج من مثلها ؟
— لست شريرة بالدرجة التي يظنها الناس ، أما هم فقد أحبوني واحتقروني لشيء واحد .

فقال مواسياً :

— أعرف ذلك ، ما اكثرت الأخطاء بحارتنا .

فقالت بحق :

— يفاخرون دائماً بأنهم من صلب أدهم ، وفي نفس الوقت يباهون بالكباثر ..

فقال في يقين :

— ما دام التخليص من العفاريث ميسوراً فما أقربنا من السعادة .
ولم تدرك مرماه ولكنها استشعرت فجأة مدى السخرية التي تحيط بها في مجلسها فقالت ضاحكة :

— ما أعجبه من حديث في ليلة الزفاف !

ورفعت رأسها في شيء من الكبرياء فبدا أنها تنامت حال الامتنان ، وأزاحت عن منكبيها الوشاح ، ونظرت نحوه نظرة مفعمة بالدلال ، فقال برجاء :

- ستكونين أول من يسعد حارتنا .
 فقالت باسمينة :
 - حقاً ؟ ! عندي شراب !
 - شربت قليلاً مع العشاء ، وفيه الكفاية .
 فتفكرت قليلاً في حيرة ثم قالت :
 - عندي حشيش طيب !
 - جرّبته فوجدتني لا أطيقه .
 فقالت في ارتياح :
 - أبوك حشاش قارح ، رأيته مرة خارجاً من غرزة شلضم وهو لا
 يميز بين الليل والنهار !
 فابتسم دون أن ينبس ، فردّت عنه طرفها في انكسار ، وتميزت
 غيظاً . وقامت ففضت حتى الباب ثم استدارت عائدة حتى وقفت تحت
 الفانوس . وشف ثوبها الرقيق عن جسدها البارح . وجعلت تنظر في
 عينيه المادنتين حتى داخلها اليأس . وتساءلت :
 - لماذا انقلدني ؟
 - لا أطيق ان يتعذب إنسان .
 فغلبها الغيظ ، وقالت في حدة :
 - من أجل هذا تزوجتني ، من أجل هذا وحده !
 فقال برجاء :
 - لا تعودني الى أيام الغضب !
 فعضت شفتها فيما يشبه الندم وقالت بصوت منخفض :
 - ظننتك احببتني .
 فقال في صدق وبساطة :
 - اني أحبك يا باسمينة .
 فلاح التعجب في عينها وغمغمت :
 - حقاً ؟ !

- نعم ، ما من مخلوق في حارتنا إلا وأحبه !
 فتهنئت في خبة ، ورمقته برية قاتلة :
 — فهمتك ؛ ستبقى الى جانبي شهراً ثم تطلقني
 فانسعت عيناه وتمتم :
 — لا تعودى الى الافكار الماضية !
 — حيرتني ! ماذا عندك لي ؟
 — السعادة الحقيقية .
 فقالت بامتراض :
 — عرفتُها احياناً من قبل أن أراك !
 — لا سعادة بلا كرامة !
 فقالت وهي تضحك على رغبتها :
 — ولكننا لا نسعد بالكرامة وحدها .
 فقال بصوت حزين :
 — لم يعرف أحد من حيننا السعادة الحقيقية .
 اتجهت بخطوات ثقيلة نحو الفراش ، وجلست على حافته في فتور .
 ودنا اليها بحنان وقال :
 — انك كجميع أهل حيننا لا تفكرين الا في الوقف الضائع !
 فلاح في وجهها السخط وقالت :
 — ربنا يقدرني على حل ألغازك .
 — ستحل نفسها بنفسها عندما تتخلصين من عفريتك .
 فهتفت بحدة :
 — اني راضية عن نفسي كما هي .
 فقال رفاعاً بأسمى :
 — هكذا يقول خنفس والآخرون !
 ونفخت في ضيق وتساءلت :

- هل نتكلم على هذا النحو حتى الصباح ؟
 - نامي ، أسعد الله أحلامك !
 وتزحزحت الى الوراء ثم استلقت على ظهرها ، ورددت عينيها بين
 الفراغ جنبها وبين عينيها ، فقال :
 - خذني راحتك ، سأنام أنا على الكنبه .
 وانتابتها نوبة ضحك ، لكنها لم تستسلم لها طويلاً ، وقالت ساخرة :
 - أخاف ان تزورنا امك غداً لتحلرك من الافراط !
 ونظرت نحوه لتتشفى برؤية الخجل في وجهه ولكنه طالعها بعينين
 هادئتين صافيتين ، وقال :
 - أود أن أخلصك من عفريتك !
 فصاحت غاضبة :
 - دع اعمال النساء للنساء .
 وأدارت وجهها للحائط . وكان صدرها يحترق غيظاً وقلقاً . وقام
 رفاعة الى الفانوس وأخفض ذبالته ثم نفخه فانطلقاً وساد الظلام .

٥٣

وشهدت الأيام التالية للزواج حركة دائبة في حياة رفاعة . انقطع
 عن الدكان أو كاد ، ولولا حب أبيه وعطفه لما وجدما يمسك به حياته .
 ومضى يدعو من يصادفه من آل جبل الى ان يثق به كي يخلصه من
 عفريته فيحقق بذلك سعادة صافية لم يحلم بها من قبل . وتهامس آل
 جبل بان رفاعة ابن شافعي قد خف عقله وامسى من زمرة المجذوبين ،
 وعلل البعض ذلك بما عرف عنه من غرابة أطوار ، كما عله آخرون
 بزواجه من امرأة مثل ياسمينه ، ودارت الاحاديث عن ذلك في القهوة

والبيوت وحول عربات اليد وفي الغرز . وشد ما دهشت أم بخاطرها حين
مال رفاعه على أذنهما وقال برقته المعهودة :

— هلا سمحت لي بأن أظهرك ؟

فضربت المرأة صدرها بيدها وقالت :

— من أدراك بأن علي عفريتاً شريراً ؟ ! أهذا هو رأيك عن المرأة
التي أحبتك كابنها ؟ !
فقال جاداً :

— أنا لا أعرض خدامتي إلا على الذين أحبهم وأحترمهم ، وأنت
مصدر خير وبركة ولكنك لا تخلين من طمع يملك على الاتجار
بالمرضى ، فلو تخلصت من سيدك لوهبت الخير بلا ثمن !
ولم تمالك المرأة من الضحك وهي تقول :

— أتود خراب بيتي ! الله يسامحك يا رفاعه .

وتناقل الناس حديث أم بخاطرها ضاحكين ، حتى عم شافعي ضحك
ضحكة بلا مسرة ولكن رفاعه قال له :

— أنت نفسك يا أبي في حاجة إلي ، ومن البر أن أبدأ بك .

فهز الرجل رأسه في كمد ، وراح يدق المسامير بين يديه بقوة وشت
بانفعاله ، ثم قال :

— ربنا يصبرني .

وحاول الشاب اقناعه فتساءل الرجل مثلاً :

— أما كفالك أن جعلتنا أحدى الحبي ؟ !

وانزوى رفاعه في ركن الدكان مكتئباً فرمقه الرجل برية وسأله :

— أحقاً دعوت زوجك إلى ما تدعوننا إليه ؟

فقال بأسف :

— وهي مثلكم لا ترغب في السعادة .

ومضى رفاعه الى غرزة شلضم في الحرابه وراء القهوة فوجد حول

المحجرة شلضم وحجازي وبرهوم وفرحات وحنورة وزيتونة . تطلعوا اليه بغرابة وقال شلضم :

- أهلاً بابن عم شافعي ، ترى هل أقنعك الزواج بفائدة الغرز ؟
فوضع رفاعه على الطبلية لفة كنانة وقال وهو يتخذ مجلسه :
- جئكم بهذه نحية للمجلس .

فقال شلضم وهو يدبر الجوزة :
- مرحباً بالكرم .

لكن برهوم ضحك فجأة وقال بلا هوادة :
- وسوف يمرض علينا بعد ذلك أن يقيم لنا حفلة زار ليطهرنا من العفاريت !

وهتف زيتونة حائقاً بصوته الأنحف وهو يلتهمه بنظرة حاقدة :
- على زوجتك عفريت اسمه بيومي فخلّصها منه إن استطعت .
وهبت الرجال ووضع في وجوههم الحرج فقال زيتونة وهو يشير الى انفه المحطم :
- بسببه فقدت أنفي .

وبدا أن رفاعه لم يفضب ، فنظر فرحات نحوه بأسى وقال :
- أبوك رجل طيب ونجار ماهر ، ولكنك بسلوكك هذا تجر عليه المتاعب والسخرية ، لم يكد الرجل يفيق من زواجك حتى هجرت دكانه لتخلص الناس من العفاريت ! شفاك الله يا بني .
- لست مريضاً ولكني أود لكم السعادة .

فشد زيتونة نفسها طويلاً وهو يرمقه بقموسة ثم نفث الدخان متسائلاً :
- ومن أخبرك بأننا غير سعداء ؟ !
فقال الشاب :

- أراد جدنا لنا غير ما نحن عليه .
فقال فرحات ضاحكاً :

— دع جدك في حاله ، من أدراك انه لم ينسنا !
وحده زيتونة بنظرة حائقة حاقدة ولكن حجازي لكزه قائلاً في
تحذير :

— ينبغي ان تحترم المجلس فلا تفكر في الاعتداء !
وأراد الرجل ان يغير الجو فهبز رأسه وأشار الى أصحابه اشارة خاصة
فراحوا يغنون :

مركب حبيبي في الميه جايه
راخية شعورها على الميه

وغادر المكان وبعضهم ينظر نحوه في رثاء . وعاد الى بيته بفؤاد
كسير فاستقبلته ياسمينه بابتسامة هادئة . وكانت تلومه أول الأمر على
سلوكه الذي جعل منه — ومنها بالتالي — نادرة . لكنها كفت عن لومه
يائسة . وصبرت على تلك الحياة التي لم تدر على أي وجه ستنتهي ، بل
وعاملته بلطف ورقة . ودق الباب ، وإذا بالقادم خنفس فتوة آل جبل.
دخل الرجل دون استئذان فقام له رفاعة مرحباً فقبض الفتوة على منكبه
بيد شديدة كأنها فكاً كلب غاضب . وسأله دون مقدمات :

— ماذا قلت عن الوقف في غرزة شلضم ؟
ارتاعت ياسمينه حتى هرب دمها لكن رفاعة قال بهدوء رغم انه بدا
كمصفور بين غالب نسر :

— قلت إن جدنا يود لنا السعادة !

فهزه هزة عنيفة وسأله :

— من أدراك بذلك ؟

— ورد ذلك ضمن أقواله للجبل .

فازدادت يده شدة على منكبه وقال :

— انه كلم جبل عن الوقف .

فقال رفاعة وقد انهكه تحمل الألم :

— لا يعنيني الوقف في شيء ، السعادة التي لم استطع ان أحققها
بعد لأحد شيء غير الوقف ، وغير الخمر ، وغير الحشيش ، قلت
ذلك في كل مكان بحي جبل ، وسمعتي الجميع وأنا أقوله .
فهزه مرة أخرى وقال :

— كان أبوك عاصياً ثم تاب ، إحذر ان تعيد سيرته والا هرسنك
كما تهرس البقة ..

ودفعه فهوى على ظهره فوق الكنبه ، ثم ذهب . وهرعت ياسمينه
اليه لتواسيه وتلك منكبه الذي مال عليه رأسه من الوجع . وبدأ في شبه
غيوبه ، وغمغم كأنما يحدث نفسه :
— انه صوت جدي الذي سمعته :

ونظرت في وجهه باشفاق وذعر . وتساءلت هل ضاع عقله حقاً ؟
ولم تعد عليه ما قال وساورها قلق لم تشعر به من قبل . ويوما غادر
الربيع فاعترضت سبيله امرأة من غير آل جبل ، وقالت له باستعطاف :
— صباح الخير يا معلم رفاعه .

ودهش لرنة الاحترام في صوتها وللقب الذي قرنته باسمه فسألها :

— ماذا تريدین ؟

فقالت بضراعة :

— لي ابن ممسوس أرجو ان تخلصه !

وكان كآل جبل جميعاً يحتقر أهل الحارة فاستنكف ان يضع نفسه
في خدمة المرأة فيضاعف من ازدراء آل له ، فقال لها :

— الا توجد كودية في الحارة ؟

فقالت المرأة بصوت باك :

— بلى ولكنني امرأة فقيرة .

ورق لها قلبه كما أسره لجوؤها اليه هو الذي لم يلق من آل الا الهزاء
والاحتقار . ونظر اليها في تصميم وهو يقول :

— اني طوع أمرك .

كانت ياسمينة تطل من النافذة على الحارة متسلية بالمنظر الجديد .
وكان في أسفل الربيع غلمان يلعبون ، وبائعة دوم تنادي ، على حين
أمسك بطيخة بتلابيب رجل وراح يضرب وجهه بكفه والآخر يستعطفه
دون جدوى . وسألها رفاة وهو جالس على الكنبه يقص أظافر قدميه :

— هل يعجبك بيتنا الجديد ؟

فالتفت نحوه قائلة :

— هنا تحتنا الحارة ، أما هنالك فلم نكن نرى الا الدهليز المعتم .

فقال رفاة بأسى :

— ليت الدهليز بقي لنا ، إنه دهليز مبارك ، اذ فيه تقرر النصر
لجبل على اعدائه ، ولكن لم يكن في الامكان مواصلة الاقامة بين اناس
يستهزئون بنا في كل خطوة ، أما هنا فالفقراء طيبون ، والطيب هو
السيد لا آل جبل .

فقالت ياسمينة باستهانة :

— وأنا كرهتهم منذ عزموا على طردي .

فسألها باسماء :

— لماذا إذن تقولين للجيران إنك من آل جبل !

فضحكت ضحكة كشفت عن اسنانها اللؤلؤية وقالت في مباهاة :

— ليعلموا اني فوقهم جميعاً .

فوضع المقص على الكنبه وطرح ساقبه على الحصيرة وهو يقول :

— ستكونين اجمل وافضل عندما تمهرين الغرور ، ليس آل جبل

بخير حارتنا ، خير الناس أطيبهم ، وكنت محظناً مثلك فخصصت آل

جبل باهتامي ، ولكن السعادة لا يستحقها الا من ينشدها غلصاً ،
انظري الى الطيبين كيف يقبلون عليّ وكيف يبرأون من العفاريت !
فقال باحتجاج :

— لكن كل أحد هنا يعمل بأجر إلا أنت !
— لولاي ما وجد الفقراء من يشفيهم ، انهم يقدرّون الشفاء لكنهم
لا يملكون ثمنه ، وانا ما عرفت الأصدقاء حتّى عرفتهم .
وامسكت عن الجدل بوجه ممتعض فقال رفاعه :
— آه لو تدعنين لي كما يدعنون ! اذن تلصصتك مما يعكر صفو
الحياة .

فتساءلت غاضبة :

— أنجدني مزعجة لهذا الحد ؟
— من الناس من يعشق عفريته وهو لا يدري .
فهتفت بحدة :

— ما أبغض هذا الحديث إليّ !
فقال باسمّاً :

— انك من آل جبل ، وكلهم أبى ان يسلم لدواني ، حتّى
أبى نفسه !

وعندما دق الباب أدركا ان زبوناً جديداً قد قدم فنهياً رفاعه
لاستقباله .

والحق ان رفاعه لم يلق من عمره اسعد من هذه الأيام . كان يدعى
في الحي الجديد بالمعلم رفاعه ، وكانوا يدعونه بها في اخلاص ومحبة .
وعرف بأنه يخلص من العفاريت ويهب الصحة والسعادة لوجه الله وحده .
وهذا سلوك نقي لم يعرف عن أحد قبله ، فلذلك أحبه الفقراء كما لم
يجبوا احداً قط . وطبيعي ان بطيخة فتوة الحي الجديد لم يحبه ، لسلوكه
الطيب من ناحيته ولأنه لم يكن من القادرين على اداء أيسة اتاوة من

فاحية أخرى ، ولكنه في الوقت نفسه لم يجد مسوغاً للاعتداء عليه . أما الذين برثوا على يديه فكأن لكل منهم قصة يردها . فأم داود كانت اذا ركبها النوبة العصبية عضت وليدها ، وهي اليوم مثال للهدوء والاتزان . وسنارة الذي لم يكن له من هواية إلا الشجار والنقار أصبح وديعاً حليماً كأنه تحية سلام . وطلبة النشال تاب توبة صادقة واشتغل صبي مبيض نحاس . وعويس تزوج بعد الذي كان . واصطفى رفاعه من مرضاه أربعة وهم زكي وحسين وعلي وكريم ، اصطفاهم لصداقته فصاروا إخوة . لم يعرف أحد منهم الصداقة ولا الحب قبل ان يعرفه . كان زكي برجياً ، وكان حسين مدمن أفيون لا يفيق ، وعلي يتدرب على الفتوة ، وكريم قواداً ، فانقلبوا رجالاً ذوي قلوب كبيرة . وكانوا يجتمعون عند صخرة هند حيث الحلاء والهواء النقي ، فيتبادلون أحاديث المودة والصفاء ، ويتطلعون إلى طبييهم بأعين تفيض بالحب والاخلاص ، ويحملون جميعاً بسعادة ستنظل الحارة بأجنحتها البيضاء . ويوماً تساءل رفاعه وهم بمجلسهم ينظرون الى حمرة الشفق في هدوء المغيب :

— لماذا نحن سعداء ؟

فأجاب حسين بنحاس :

— أنتَ أنتَ سر سعادتنا .

فابتسم ابتسامة شكر وقال :

— بل لأننا تخلصنا من العفاريت فتطهرنا من الحقد والطمع والكراهية

وسائر الشرور التي تفتك بأهل حارتنا .

فقال علي مؤمناً على قوله :

— سعداء بالرغم من أننا فقراء ضعفاء لا حظ لنا في الوقف

او الفتوة .

فهز رفاعه رأسه اسفاً وقال :

— كم يتعذب الناس من أجل الوقف الضائع والقوة العيباء فالتعوا

معي الوقف والفتونة .

فاستبقوا الى لعنهما ، وتناول علي طوبة فرماها بأقصى قوته صوب الجبل . وعاد رفاة يقول :

— ومذ قال الشعراء إن الجبل لاوي حث جبل على أن يجعل من ربوع آل جبل بيوتاً تضارع البيت الكبير في جلاله وجماله طمع الناس الى قوة الجبل لاوي وجاهه ، وتناسوا مزاياه الأخريات ، لذلك لم يستطع جبل ان يغير النفوس بنبيله حقه في الوقف ، ولما رحل عن الدنيا انقلب الاقوياء مغتصبين والضعفاء حاقدين وأطبق الشقاء على الجميع ، أما أنا فأفتح أبواب السعادة بلا وقف ولا قوة ولا جاه .

وهوى كريم بوجهه إليه فقبله ، ففضى يقول :

— وغداً عندما يلمس الأقوياء سعادة الضعفاء سيأدركون ان قوتهم وجاههم واموالهم المقتصبة لا شيء .

وصدرت عن الاصدقاء كلمات الثناء والحب . وحل الهواء غناء راع في أقصى الخلاء .

وتجلى في السماء نجم واحد . ونظر رفاة في وجوه الأصحاب وقال :
— ولكني لا أكفي وحدي لعلاج أهل حارتنا ، آن لكم ان تعملوا بأنفسكم ، وان تتعلموا الأسرار لتخلصوا المرضى من المغاريت .

فبدت الغبطة في الوجوه وهتف زكى :

— ذلك أعز أمانينا .

فابتسم اليهم قائلاً :

— ستكونون مفاتيح السعادة في حارتنا .

ولما عادوا الى حيثهم وجدوه يضيء بأنوار عرس في أحد الربوع . ورأى كثيرون رفاة فأقبلوا عليه مصافحين . وتغيظ بطيخة فقسام من مجلسه بالقهوة وهو يسب ويلعن ، ويصفع هذا وذاك ، ثم تحول الى رفاة متسانلاً في قحة :

- ماذا ترى في نفسك يا ولد ؟

فقال رفاعه برقة :

- صديق المساكين يا معلم .

فصاح الرجل :

- اذن امشِ كما يمشي المساكين لا كعريس الزفة ، أنسيت انك

طريد حيّ وزوج ياسمينة وكودية زار ؟!

وبصق في تحرش . وتباعد الناس . وساد الوجوم . لكن زغاريسد

الفرح غطت على كل شيء .

٥٥

وقف بيومي فتوة الحارة وراء باب حديقته الخلفي الذي يفتح على الخلاء . كان الليل في أوله وكان الرجل ينتظر وهو يتصنت . وعندما طرق اصبع الباب بخفة فتح الباب فتسللت الى داخل الحديقة امرأة كأنها بملاءتها ونقابها قطعة من الليل . تناول يديها وسار بها في ممشي الحديقة متجنباً الاقتراب من البيت حتى بلغ المنظرة فدفع الباب ودخل ، وهي في أثره . وأشعل شمعة فأقامها على حافة نافذة ، فبدت المنظرة في شبه مغيب ، والكنبات مصطفة باضلعها ، وفي الوسط صينية كبيرة محملة بالجوزة ولوازمها في دائرة من الشلت . ونزعت المرأة عنها ملاءتها والنقاب ، فضمها بيومي اليه بقوة نفذت الى عظامها حتى رمقته بمنظرة استرحام . وتخلصت منه برشاقة فضحك ضحكة خافتة وجلس على شلته . وراح يعبث بأصبعه في رماد المجرمة حتى تكشف عن جمر يومض . وجلست الى جانبه وقبلت أذنه ثم اشارت الى المجرمة وهي تقول :

- كذبت أنسى رايحه .
- فراح بمطر خدها وعنقها بالقبل ثم قال وهو يرمي قطعة في حجرها :
- هذا الصنف لا يدخنه في حارتنا إلا الناظر والعبد لله !
- وترامى من الحارة صوت معركة تخدم ، سبّ وارنظام عصي ،
وتحطم زجاج ، ووقع أقدام جارية ، وصوات امرأة ، ثم نباح كلب ..
ولاح تساؤل منزعج في عيني المرأة ولكن الرجل راح يقطع الصنف في
غير مبالاة ، فقالت المرأة :
- كم يشق عليّ المجيء ! فلكي آمن العيون اسبر من الحارة الى
الجمالية ، ومن الجمالية الى الدراسة ، ومن الدراسة الى الخلاء حتى
بابك الخلفي .
- فقال نحوها دون ان تكف أصابعه عن العمل وتشم ابطها في
تلذذ وقال :
- لن أبالي ان ازورك في بيتك .
- فابتسمت قائلة :
- لو فعلت ما تعرض لك احد من الجبناء ، حتى بطيخة سيفرش
لك الرمل ، ثم يصبون غضبهم عليّ وحدي .
- وعبثت بشاربه الغليظ وقالت في دعابة :
- لكنك تسالت الى المنطرة في بيتك خوفاً من زوجتك .
- فترك القطعة وطوقها بذراعه فضمها اليه بعنف حتى أنت ،
ثم همست :
- اللهم احفظنا من عشق الفتيات .
- فأطلقها وهو يرفع رأسه ويبرز صدره كالديك الرومي وقال :
- لا يوجد الا فتوة واحد ، اما الآخرون فصبيان .
- فلاعبت شعر صدره المحور عنه طوق جلبابه وقالت :
- فتوة على الناس لا عليّ أنا .

فقرصها في صدرها بخفة وقال :

— أنت تاج رأس الفتوة .

ومد يده الى ما وراء الصينية فتناول ابريقاً وهو يقول :

— بوظة عجيبة !

فقالت آسفة :

— لها رائحة قوية قد يشمها زوجي العزيز !

فتجرع من الابريق حتى روي ، ومضى يربص الحجر وهو يقول مقطباً :

— يا له من زوج ! لمحته مرات وهو يهيم على وجهه كالمجنون ،
أول كودية زار من جنس الرجال في هذه الحارة العجيبة !
فتابعته وهو يدخن وقالت :

— اني مدينة له بحياتي ، لذلك أتصبر على معاشرته ، ولا ضرر
منه اذ ليس أيسر من خداعه .

وقدم اليها الجوزة فالتقمت فوهتها بشوق وشدت انفاساً بشراهة ثم
زفرت الدخان مغمضة العينين ثملة الخواس . وراح بسدوره يدخن ،
فيأخذ انفاساً منقطعة وبين كل نفس وآخر يتكلم قائلاً :

— تركزينه ... يعبث ... بك ... عبث ... الاطفال ..

فهزت منكبيها هازئة وقالت :

— لا عمل لزوجي في هذه الدنيا الا تخليص الفقراء من العفاريث ..

— وانت ألا تخلصينه من شيء ؟

— مظلومة وحياتك ! نظرة واحدة الى وجهه تنفي عن الكلام .

— ولا مرة كل شهر !

— ولا كل سنة ، انه مشغول عن زوجته بعفاريث الناس !

— فتركبه العفاريث ! وأي فائدة يجنيها من وراء ذلك ؟

فهزت رأسها في حيرة وقالت :

— لا يجني شيئاً ، ولولا ابوه لهلكنا جوعاً ، وهو يعتقد بأنه مكلف
باسعاد الفقراء وتطهيرهم .

— ومن الذي كلفه ؟

— يقول إن هذا ما يريده الواقف لأبنائه .

وتجلى الاهتمام في عيني بيومي الضيقتين فوضع الجوزة في الكوز وسألها :

— أقال إن الواقف يريد ذلك ؟

— نعم ..

— ومن أدراه بما يريد الواقف ؟

وشعرت المرأة بضيق وانزعاج ، وخافت أن يفسد الجو ، أو أن
تحدث أمور خطيرة ، فقالت :

— هكذا يؤول أقواله التي يتغنى بها الشعراء .

ومضى يرص حجراً جديداً وهو يقول :

— حارة بنت كلب ، وحيّ جبل أنجبها ، فيهم ظهر أكبر دجال ،
وينشرون الاخبار الغريبة عن الوقف والشروط العشرة ، كأن الواقف
جدهم وحدهم ، وبالألمس جاء دجالهم جبل بكذبة سرق بها الوقف ،
واليوم يؤول هذا المعنوه كلاماً لا يقبل التأويل ، وسيزعم انه سمعه من
الجبلاوي نفسه .

فقالت بقلق :

— انه لا ينشد سوى تخليص الفقراء من العفاريث .

فشخر الفتوة هازئاً ثم تساءل :

— ومن يدرينا فلعل في الوقف عفريتاً !

ثم بصوت ارتفع للدرجة لا تتفق وسرية الاجتماع :

— الواقف ميت أو في حكم ذلك يا اولاد الكلب .

وانزعجت ياسمينة . خافت أن تغفل الفرصة المتاحة وان يتعكر الجو ،
مدت يدها الى الفستان لتتزرعه رويداً . وانبسطت اسارير الرجل بعد

نجهم ورنأ اليها بعينين متوثبتين .

٥٦

بدا الناظر في عباته ضئيلاً . وكان الاهتمام بارزاً في وجهه الأبيض المستدير بروز الذبول الذي اعتور جفنيه والشيخوخة المبكرة الواضحة في نظرة عينيه وفي التجاعيد المرسومة تحتها من اثر التهاك في الشهوات . أما وجه بيومي الممتلئ فلم يش بالارتياح الباطني الذي سرى فيه نتيجة لقلق سيده ، ذلك القلق الذي يدل على خطورة الأنباء التي نقلها اليه ، فيدل بالتسالي على خطورة الدور الذي يؤديه للناظر وللوقف . وكان يقول للناظر :

— على رغي أزعجك بهذه الأخبار ، ولكن لم يكن في وسعي أن أنصرف دون الرجوع اليك في أمر يتعلق بالوقف ، ومن ناحية أخرى فهذا المشاغب المعنوه من آل جبل ، وعلينا عهد بالأ يتعدى أحد منا على أحد منهم الا بعد اذنك .

وتساءل الناظر ايهاب بوجه مكفهر :

— وهل زعم حقاً انه اتصل بالواقف ؟

— تأكد لدي ذلك من اكثر من مصدر ، ان مرضاه يؤمنون بذلك

ولو أنهم يتكتمون الأمر بحرص شديد .

— لعله مجنون ، كما كان جبل دجالاً ، ولكن هذه الحارة القذرة

تحب المجانين والدجالين . ماذا يريد آل جبل بعدما نهوا الوقف بلا حق ؟ لماذا لا يتصل الواقف بأحد غيرهم ؟ لماذا لا يتصل بي وأنا اقرب الناس اليه ؟ انه قعيد حجrote ، ولا يفتح باب بيته الا عندما تحمل اليه حوائجه ، لا يراه أحد ولا يرى هو الا جاريته ، ولكن ما

أيسر ان يقابله آل جبل او ان يسمعه .

فقال بيومي بحق :

— لن يرتاح لهم بال حتى يستولوا على الوقف كله .
فاصفر وجه الناظر غضباً ، وتوئب لاصدار الأوامر ، ولكنه
تراجع متسائلاً :

— أقال عن الوقف شيئاً أم قصر نشاطه على اخراج الغاريت ؟

فقال بيومي بحق :

— مثل جبل كان نشاطه قاصراً على اخراج الثعابين .

ثم في تهكم :

— ما للواقف والغاريت ؟

فوقف ايهاب وهو يقول بحدة :

— لا اريد ان تصيبي اللعنة التي أصابت الأفندي .

ودعا بيومي جابر وحندوسة وخالد وبطيخة الى غرضته وقال لهم ان
عليهم ان يجدوا علاجاً لجنون رفاعة ابن شافعي النجار . وتساءل بطيخة
في انزعاج :

— أمن اجل هذا دعوتنا يا معلم ؟

فهز بيومي رأسه بالاجاب ففصر بطيخة كفاً على كف وهتف :

— يا هوه ! فتوات الحارة تجتمع من اجل مخلوق لا هو ذكر ولا

هو انثى !

فرماه بيومي بنظرة ازدراء وقال :

— مارس نشاطه تحت سمعك وبصرك فلم تدرك له خطراً ، وطبعاً لم

تسمع عن مزاعمه عن الاتصال بالواقف .

وتبادلوا نظرات نارية من خلال الدخان المنتشر وقال بطيخة بذهول :

— ابن الهرمة ! ما للواقف والغاريت ! هل كان جدنا كودية زار ؟

وشرعوا في الضحك ولكن سرعان ما عدلوا عنه لتجهم بيسومي

الذي قال :

— انت شمام يا بطيخة ، الفتوة يسكر وبحشش ولكن لايليق به الشم !
فقال بطيخة مدافعاً عن نفسه :

— يا معلم انا في زفة عنتر كنت المهدف لنبايت عشرين رجلاً فغطى
الدم وجهي وعنتي ولكن نبوتي لم يسقط من يدي .
وهنا قال حندوسة في رجاء :

— فلندع له الأمر يعالجه بما يرى ، والا فقد هيبته ، وليته يجد
طريقة غير الاعتداء على المعتوه ، فان الاعتداء على مثله مهيئ للفتوة !
ونامت الحارة ولا احد يدري بما بيت في غرزة بيومي . وفي صباح
اليوم التالي غادر رفاعة الربيع فرأى بطيخة في طريقه فحياه قائلاً :
— صباح الخير يا معلم بطيخة .

فرماه الرجل بنظرة مقت وصاح :

— صباح القطران يا ابن القديمة ، عد الى بيتك ولا تخرج منه والا
كسرت رأسك .

فتساءل رفاعة في دهش :

— ماذا أغضب فتوتنا ؟

فصاح مزجراً :

— أنت تكلم الآن بطيخة لا الواقف فاذهب بلا تردد .

وهم رفاعة بالكلام فلطمه الفتوة لطمه دفعته الى جدار الربيع مترنخاً .
ورأت امرأة الموقعة فصوتت حتى ملأ صوتها الحارة ، وتبعها نسوة
اخرى . وارتفعت اصوات استغاثة من اجل رفاعة . وفي لمح البصر
جرى نحو الكان كثيرون ، من بينهم زكي وعلي وحسين وكريم ، ثم
جاء عم شافعي ، كما جاء جواد الشاعر متلمساً طريقه بعصاه ، وما
ليث ان ازدحم الموقع بمحبي رفاعة من الرجال والنساء . ودهش بطيخة
الذي لم يتوقع شيئاً مما حدث ، ورفع يده وهوى بها على وجه رفاعة

فتلقاها هذا دون دفاع ولكن الواقفين تصابحوا في انزعاج ، واعتراهم
انفعال شديد ، فتوسل البعض الى بطيخة ان يتركه ، وعدد آخرون
حسنات رفاعه ومزاياه ، وتساءل كثيرون عن اسباب الاعتداء ، وتعالى
احتجاجات ، فاستشاط بطيخة غضباً وصاح :

— أنسيتم من اكون ؟

والحق ان حب المتجمعين لرفاعة الذي دفعهم بغير وعي الى التجمع
هو الذي شجعهم على الرد على انداز بطيخة ، فقال احد الواقفين في
الصف الأول :

— فتوتنا وتاج رأسنا ، وما جئنا الا لنسألك العفو عن الرجل الطيب.

وصاح رجل من وسط المظاهرة متشجعاً بالزحام وبمكانه فيه :

— فتوتنا على العين والراس ، ولكن ماذا فعل رفاعه ؟

وصاح ثالث في آخر المظاهرة مطمئناً الى تواريه عن متناول
عين الفتوة :

— رفاعه بريء والويل لمن يمدّ له يداً بسوء !

وثار غضب بطيخة فرفع نبوته فوق رأسه وهو يصيح :

— يا نسوان ، ساجعلكم عبرة .

واذا بصوات النساء يرتفع من الأركان حتى انقلب الحبي مائماً ،
وقدفت الأفواه الغاضبة بالانذارات الدموية ، وأخذ الطوب يتساقط امام
بطيخة ليمنعه من التقدم . ووجد الرجل نفسه في مركز حرج لم يقع له
ولا في الكابوس . كان الموت أهون عليه من الاستجداد بأحد من الفتوات ،
وكان الهجوم يهدد بالقضاء عليه تحت وابل الطوب ، وكان في السكوت
الاجهاز على فتوته . وتطايير الشرر من عينيه ، واستمر تساقط الطوب ،
وتمادى القوم في تحديهم ، ولم يكن حدث شيء كهذا لأحد من الفتوات
من قبل .

واندفع رفاعه فجأة حتى وقف أمام بطيخة ، ولوح للناس بيده

حتى ساد السكوت ، وهتف بصوت قوي :
— لم يخطيء فتوتنا وأنا الملوم !
لأحت نظرات الإنكار في الوجوه ولكن أحداً لم ينبس بكلمة
فقال رفاعه :
— تفرقوا قبل ان تعرضوا لغضبه .

وفهم اناس انه يريد ان ينقذ كرامة الفتوة حلاً للأزمة فتفرقوا ،
وتبعهم آخرون وهم في حيرة من الأمر ، ثم سارع الباقون بالتفرق
خشية ان ينفرد بطيخة بأحد منهم ، فأقفر الحي ..

٥٧

اشتد التوتر بالحارة بعد تلك الواقعة . وكان أخوف ما يخاف الناظر
ان تعتقد الحارة بأن في تضامنها قوة تكفل الصمود امام الفتوات . لذلك
وجب — في نظره — القضاء على رفاعه ومن تحدّثهم انفسهم بالوقوف
الى جانبه على ان يتم ذلك بالاتفاق مع خنفس فتوة آل جبل تجنباً لنشوب
عراك شامل في الحارة . وقال الناظر ليومي : « ليس رفاعه بالدرجة التي
تظنها من الضعف ، فوراؤه محبوبون استطاعوا انقاذه رغم انف الفتوة ،
فإذا يكون من أمره لو تعلّقت به الحارة كما تعلق به حيت ؟ هنالك
سيدع العساريت جانباً ويجاهر بأن الوقف غايته ! » . وصب بيومي
غضبه على بطيخة ، فهزه من منكبيه بعنف وقال له : « تركنا الأمر
لك وحدك فإذا فعلت يا شين الفتوات ! » . وعض بطيخة على ذواجده
بحنق وقال : « سأريحكم منه ولو بقتله » فصاح به بيومي : « خير
ما تفعل ان تختفي من الحارة الى الأبد » . وأرسل الى خنفس من يدعوه
الى مقابله . ولكن عم شافعي اعترض سبيل خنفس وهو في حال من

الفرع لم تسبق له من قبل . وكان قد حاول اقناع ابنه بالعودة الى الدكان والاقلاع عن العمل الذي يجرح عليه المتاعب ولكنه فشل في مسعاها وعاد خائباً . ولما علم باستدعاء خنفس الى مقابلة بيومي اعترض سبيله وقال له : « يا معلم خنفس ، أنت فتوتنا وحامينا ، وانهم يطلبونك لتتخلّى عن رفاة فلا تتخلّى عنه ، تعهد لهم بما يشاءون ولكن لا تتخلّى عنه ، مرني فأهجر الحسارة مصطحباً إياه ولو بالقوة ولكن لا تتخلّى عنه ! » فقال خنفس في حذر واحتياط : « اني اعلم الناس بما يجب علي وبما تقتضيه مصالح آل جبل » . والحق ان خنفس توجس خيفة من ناحية رفاة منذ علم بوقعة بطيخة ، وقال لنفسه إنه هو الذي ينبغي له ان يحذر لا الناظر ولا بيومي .

ومضى الى بيت بيومي فاجتمع به في المنظرة . وصارحه الفتوة بانه دعاه بصفته فتوة آل جبل ليتفقا على رأي في مشكلة رفاة . قال :
— لا تستهن بشأنه فان الاحداث تقطع بخطورة اثره .
ووافق خنفس على ذلك ولكنه قال برجاء :
— أرجو ألا يعتدى عليه أمامي .
فقال بيومي :

— نحن رجال يا معلم ، ومصالحنا واحدة ، ولا نعتدي على أحد في بيتوتنا ، وسيجيء هذا الولد الآن لأستجوبه على مسمع منك .
وجاء رفاة بوجهه المشرق فحيا الرجلين ، وجلس حيث اشار له بيومي ان يجلس على شلته أمامها . وتفرس بيومي في وجهه الجميل المطمئن وهو يعجب كيف امسى هذا الطفل الوديع مصدراً للقلاقل المفزعة . وسأله بصوت غليظ :

— لماذا هجرت حيك وأهلك ؟

فقال ببساطة :

— لم يستجب لي منهم أحد !

- ماذا كنت تريد منهم ؟
- أن أخلصهم من العقاريت التي تفسد عليهم سعادتهم !
- فرشى صوت بيومي بغیظه وهو یسأله :
- وهل أنت مسئول عن سعادة الناس ؟
- فقال رفاعة بصراحة وبراءة
- نعم ما دمت قادراً على تحقیقها .
- فتجههم وجه بیومي وهو یقول :
- سمعوك وأنت تحتقر الجاه والقوة ؟
- لكي ابرهن لهم على ان السعادة لیست فیما یترهون ولكن فیما أفعل .
- فتساءل خنفس غاضباً :
- أليس فی ذلك تحقیر لأصحاب القوة والجاه ؟
- فقال دون ان یضطرب لغضب الرجل :
- كلا یا معلم ولكن فیہ تنبیہ بأن السعادة غیر ما یملكون من قوة وجاه .
- وتفحصه بیومي بنظرة نافذة وهو یسأله :
- وسمعوك أيضاً وأنت تؤكد ان ذلك ما یریده لهم الواقف .
- فتجلی الاهتمام فی العینین الصافیتین وقال :
- هم یقولون ذلك ا
- وماذا نقول أنت ؟
- فقال بعد تردد لأول مرة :
- على قدر فهمي أنکلم .
- فقال خنفس متهمكماً :
- المصائب تجيء من العقل الزنخ .
- وقال بیومي وهو یضیق عینه :
- لكنهم یقولون إنك تعید علیهم ما سمعته من الجبلاوي نفسه !
- فبدت الحيرة فی عینه ، وتردد للمرة الثانية ، ثم قال :

— هكذا فهمت اقواله لأدهم ولجل !

فصاح خنفس غاضباً :

— اقواله لجل لا تحتل التأويل .

واشتد الخنق بيومي ، وقال لنفسه : « كلكم كذابون ، وجبل أول كذاب فيكم يا لصوص » وقال :

— أنت تقول إنك سمعت الجبلاوي ، وتقول هذا ما يريده الجبلاوي ، وليس لأحد ان يتكلم باسم الجبلاوي الا ناظر وقفه ووريثه ، ولو أراد الجبلاوي أن يقول شيئاً لقاله له ، هو الأمين على وقفه ومنفذ شروطه العشرة ، يا معتوه كيف تحقر القوة والجاه والثراء باسم الجبلاوي وهي مزاياه وصفاته ؟ !

فتمت الاسارير الصافية عن ألم وقال :

— اني اخاطب أهل حارتنا لا الجبلاوي ، هم الذين تركبهم العفارية ، وهم الذين تعذبهم المطالب .

فصاح به بيومي :

— ما أنت الا عاجز عن القوة والجاه : فلذلك تلعنهما ، وترفع مكانتك الحقيمة في نظر الأغبياء من أهل حارتنا فوق مكانة السادة ، وعندما تجدهم طوع يدك تنهب بهم القوة والجاه !

فاتسعت عيننا رفاعة دهشة وتساءل :

— لا غاية لي الا سعادة أهل حارتنا .

فصاح بيومي :

— يا ابن الماكرة ، انت توهم الناس بانهم مرضى ، باننا جميعاً مرضى ، فلا صحيح غيرك في هذه الحارة !

— لماذا تكرهون السعادة وهي بين ايديكم ؟

— يا ابن الماكرة ! ملعونة السعادة التي تجيء من مثلك !

فتساءل رفاعة متنهداً :

— لماذا يكرهني أناس وأنا ما كرهت أحداً قط ؟ !

فصرخ فيه بيومي :

— لا نخدعنا بما نخدع به الأغبياء ، وأقلع عن خداعك ، وافهم
أن أمري لا يخالف ، واحمد الله على أنك في بيتي والا ما خرجت سالماً .

وقف رفاعه يائساً ، فحيأهما وانصرف . وقال خنفس :

— دعه لي .

لكن بيومي قال :

— للمعتوه محبون كثيرون ، ونحن لا نريد مذبة .

٥٨

خرج رفاعه من بيت بيومي قاصداً بيته . كانت السماء متلعة بأردية
الحريف وفي الجو نسيم معتدل . وازدحم الحارة حول مقاطف الليمون
كأنما تحتفل بموسم التخليل ، وترامت الأحاديث والضحكات ، على حين
اشتبك غلمان في معركة يتقاذفون بالتراب . وتلقى رفاعه تحيات الكثيرين
وأصابه رشاش تراب فضى الى بيته وهو ينفذه عن كتفه ولاسته .
ووجد زكي وعلي وحسين وكريم في انتظاره فتعانقوا كما يتعانقون عند
كل لقاء ، ثم قص عليهم — وعلى زوجته التي انضمت الى المجلس —
ما دار بينه وبين بيومي وخنفس . تابعوه باهتمام وقلق ، فلما فرغ من
قصته تجهمت الوجوه . وساءلت باسمينة نفسها ترى عم يتمخص هذا
الموقف الدقيق ؟ وأليس هناك حل يقي الرجل الطيب من الهلاك دون
أن يهدد سعادتها ؟ وبدا التساؤل في الأعين جميعاً ، أما رفاعه فأسند
رأسه الى الحائط في شيء من الاعياء . وقالت باسمينة :

— لا يجوز الاستهانة بأمر بيومي .

وكان علي أحدهم طبعاً فقال :
 - لرفاعه أصدقاء هزموا بطيخة فاخنفى من الحارة .
 فقالت ياسمينه مقطبة :
 - بطيخة لا بيومي ! اذا تحديتم بيومي فقل عليكم السلام !
 فالتفت حسين الى رفاعه قائلاً :
 - فلنستمع أولاً الى المعلم !
 فقال رفاعه وهو شبه مغضض العينين :
 - لا تفكروا في العراك فإن الذي يشقى لاسعاد الناس لا يهون عليه
 سفك دمائهم .
 ونهل وجه ياسمينه . كانت تكره فكرة الترميل خشية ان تحرق بها
 الأعين فلا تجد منفذاً الى رجلها الرهيب ، وقالت :
 - خير ما تفعل ان ترحم نفسك من ذلك العناء .
 فقال زكي محتجاً :
 - لن نترك هذا العمل ولكن نترك الحارة .
 فخفق قلب ياسمينه جزعاً لتخيل البعد عن حارة رجلها وقالت بحدة
 - لن نعيش غرباء ضائعين بعيداً عن حارتنا .
 وتركزت الأعين في وجه رفاعه فاعتدل رأسه رويداً وقال :
 - لا أحب أن أهجر حارتنا .
 وهنا دق الباب دقات متتابعة في لفقة فذهبت ياسمينه تفتحه ، وسمع
 الجالسون صوتي عم شافعي وعبيدة وهما يسألان عن ابنهما . وقام رفاعه
 فلتقى والديه بالعناق . وجلسوا وشافعي وزوجته يلهثان ، ووجهاهما
 ينطقان بما يحملان من انباء مزعجة . وسرعان ما قال الأب :
 - يا بني ، تخلى عنك خنفس ، فحياتك في خطر ، واخبرني اصحابي
 بأن اعوان الفتوات يحومون حول بيتك .
 وجفقت عبيدة عينين مراوين وقالت :

— ليتنا ما عدنا الى هذه الحارة التي تباع فيها الأرواح بلا ثمن
فقال علي متحمساً :

— لا تخافي يا سيدتي ، فحينئذ كله أصدقاء يحبونا .
وقال رفاعه متأوهاً :

— ماذا فعلنا مما نستحق عليه العقاب ؟ !

فهتف عم شافعي جزعاً :

— أنت من حي جبل المكروه لديهم ، وكم توجس قلبي خيفة مسد
جاء ذكر الواقف على لسانك !

فقال رفاعه متعجباً :

— بالأمس حاربوا جبل لمطالبته بالوقف واليوم يحاربوني لاحتقاري
الوقف !

فلوح شافعي بيده جزعاً وقال :

— قل فيهم ما تشاء فلن يغير هذا منهم شيئاً ، ولكن اعلم انك
هالك ان غادرت بيتك ، ولست آمن عليك ان بقيت فيه .

تسرب الخوف الى قلب كريم أول ما تسرب لكنه داراه بارادة قوية
وقال مخاطباً رفاعه :

— أنهم يتربصون لك في الخارج ، وإذا لبثت هنا فسيجيئون اليك ،
هؤلاء هم فتوات حارتنا كما عرفناهم ، فلنهرب الى بيتي من فوق
الأسطح وهناك نفكر فيما ينبغي عمله .

فصاح شافعي :

— ومن هناك تهربون من الحارة ليلاً .

فتأوه رفاعه متسائلاً :

— وأترك بنائي يتهدم ؟

فتوسلت اليه أمه باكبة :

— افعل ما يشير به عليك وارحم أمك !

فقال الأب محتداً :

— واستأنف عملك فيما وراء الحلاء اذا شئت .

وقام كريم في اهتمام وقال :

— فلتتدبر أمرنا ، سيبقى المعلم شافعي وحرمة قليلاً ثم يذهبان الى ربيع النصر كأنهما راجعان بعد زيارة عادية ، وتخرج ست ياسمينية الى الجمالية كأنما لتتسوق ، وعند عودتها تتسلل الى مسكني وهذا أيسرها من الهرب عبر الأسطح .

ارتاح شافعي الى الخطوة فقال كريم :

— لا ينبغي ان نضيع دقيقة سدى ، سأذهب لاستكشاف الأسطح .

وغادر الحجرة . وقام شافعي آخذاً رفاة في يده . وأمرت عبدة

ياسمينية بأن تجمع الثياب في بقعة .

وأخذت ياسمينية في جمع الثياب القليلة بصدر مخنتق وقلب مكلوم ،

وثورة من الحق في باطنها تتجمع . وأقبلت عبدة على ابنها تقبله وترقيه

بأعين باكية . ومضى رفاة يفكر في حاله بقلب حزين ، كم أحب الناس

بكل قلبه وكم شقي لاسعادهم . وكيف يعاني من بغضائهم وهل يسلم

الجبلاوي بالفشل ؟ ! ورجع كريم وهو يقول لرفاعة وصحبه :

— اتبعوني .

وقالت عبدة وهي تفحم في البكاء :

— سنلحق بك ولو بعد حين .

وقال له شافعي وهو يضغط على مخارج الدمع :

— فلتصحبك السلامة . يا رفاة .

عانت رفاة والديه ثم التفت الى ياسمينية قائلاً :

— احبكي الملاة والبرقع كيلا يعرفك أحد .

ثم وهو يميل الى اذنها :

— لا أطيعك أن تمتد لك يد بسوء .

غادرت ياسمينة الربع ملتفة في السواد وكلمات عبدة تتردد في أذنيها حين قالت لها وهي تودعها : « مع السلامة يا بنتي ، رينا يحفظك ويصونك ، رفاة عهدتك ، سادعو لكما في النهار والليل » . كانت طلائع الليل تزحف ، وفوانيس المقاهي تشتعل ، والغلمان يلعبون حول الأنوار المنبثة من مصابيح عربات اليد ، على حين احتدم عراك القطط والكلاب - كشأنه في ذلك الوقت من اليوم - حول اكوام الزبالة . مضت ياسمينة نحو الجمالية وليس في قلبها العاشق مكان للرحمة . لم يساورها التردد ولكن ملأها الخوف فخیل اليها أن أعيناً كثيرة ترقبها . ولم تشعر بشيء من الاطمئنان حتى عرجت من الدراسة الى الخلاء ، لكنها لم تجد الاطمئنان الحقيقي الا في المنظرة بين يدي بيومي . ولما نزع النقاب عن وجهها تفحصها باهتمام وتساءل :

- خائفة ؟

فأجابت وهي تنهث :

- نعم .

- كلا ، الجبن ليس من صفاتك ، تخبريني ماذا وراءك ؟

قالت بصوت لا يكاد يسمع :

- هربوا من فوق الأسطح الى بيت كريم ، وسيغادرون الحارة عند الفجر .

فغمغم بيومي ساخراً :

- عند الفجر يا أولاد الهرمة !

- أقنعوه بالذهاب فلماذا لا تدعه يذهب ؟

فابتسم ساخراً وقال :
— قديماً ذهب جبل ثم عاد ، هذه الحشرات لا تستحق الحياة .
فقالت وهي شاردة اللب :
— انه ينكر الحياة ولكنه لا يستحق الموت .
فتقلص فوه اشمئزازاً وقال :
— في الحارة كفايتها من المجانين .
فنظرت اليه في استعطاف ثم غضت بصرها وهست وكأننا نحدث
نفسها :

— انقذني يوماً من الهلاك .
فضحك في سخرية غليظة وقال :
— وما أنت تسلمينه للهلاك ، واحدة بواحدة والبادي أظلم !
فشعرت بقلق موجع كالمرض ، ورمقته بعتاب وهي تقول :
— فعلت ما فعلت لأنك أغلى من حياتي .
فربت خدها برقة وقاله :
— سيخلو لنا الجو ، وإذا ضايقتك الظروف فلك في هذا البيت مكان .
فارتفعت روحها من هبوطها درجات وقالت :
— لو عرضوا علي بيت الواقف من دونك ما قبلته .
— أنت بنت مخلص .

وشكتها « مخلص » فعاودها القلق الذي هو كالمرض . وتساءلت
تري هل يسخر منها الرجل ؟ ولم يكن ثمة وقت لمزيد من الكلام فقامت
وقام ليوذعها ، حتى تسلت من الباب الخلفي . ووجدت زوجها وأصحابه
في انتظارها ، فجلست الى جانب زوجها وهي تقول لرفاعه :
— بيتنا مراقب ، ومن الحكمة ان امك تركت المصباح مشتعلًا وراء
للنافذة ، وسيكون الهرب ميسوراً عند الفجر .
فقال لها زكي وهو يلتقط رفاعه في حزن :

— لكنه حزين ، أليس المرضى في كل مكان وأليسوا هم في حاجة
كذلك الى الشفاء ؟
فقال رفاعه :

— تشتد الحاجة الى الدواء حيث يستفحل المرض .
ونظرت باسمينة نحوه في رثاء . وقالت لنفسها ان من الظلم قتله .
وتمنت لو كان فيه جانب واحد يستحق العقاب . وذكرت انه الوحيد
في هذه الدنيا الذي احسن اليها وان جزاءه على ذلك سيكون القتل .
ولعنت في سرها هذه الأفكار وقالت ليفعل الخير من يجد في حياته
الخير . ولما رآته يبادلها النظر قالت كالمشفقة :
— حياتك أغلى من حارتنا اللعينة .
فقال رفاعه باسماء :

— هذا ما يقوله لسانك غير اني اقرأ الحزن في عينيك !
وارتعدت . وقالت لنفسها يا وبلي لو كانت قدرته على قراءة العين
كقدرته على اخراج العقاريت . وقالت له :
— ليس ما بي حزن ولكنه الخوف عليك !
وقام كريم وهو يقول :
— سأعد العشاء .

ورجع حاملاً الطبلية فدعاهم الى الجلوس فجلسوا حولها . وكان
العشاء مكوناً من الخبز والخبز والمش والخيار والفجل ، وثمة ابريق من
البوظة . وملأ كريم الاكواب وهو يقول :
— ليلتنا تحتاج الى التدفئة والتشجيع .
وشربوا ، ثم قال رفاعه باسماء :
— الخمر توقظ العقاريت ولكنها تنعش من تخلّص من غفريته .
ونظر نحو باسمينة الى جانبه فادركت مغزى نظراته وقالت :
— ستخلصني من غفرتي غداً ان مدّ الله في العمر .

فتهلل وجه رفاة سروراً وتبادل الأصدقاء التهاني . ومضوا يتناولون
العشاء . قطعت الأربعة . وتلاقت الأيدي فوق الأطباق ، وبدأوا وكأنهم
تناسوا الموت المحيط بهم ، وإذا برفاة يقول :
- اراد صاحب الوقف لابنائه ان يكونوا مثله ، ولكنهم ابوا الا
ان يكونوا مثل العفاريت ، انهم اغبياء : وهو لا يحب الغباء كما
قال لي .

فهز كريم رأسه أسفاً ، وبلغ لفته ثم قال :
- لو كان على شيء من قوته الأولى لسارت الأمور كما يشاء .
فقال علي حانقاً :
- لو .. لو .. لو ، ماذا أفدنا من لو ! علينا ان نعمل .
فقال رفاة بقوة :

- ما قصرنا قط ، حاربنا العفاريت دون هوادة ، وكلما ترك عفريت
غراعاً ملأه الحب ، وليس وراء ذلك من غاية
فقال زكي متحسراً :
- ولو تركونا نعمل للمأنا الحارة صحة وجباً وسلاماً .
فقل علي معترضاً :
- اني أعجب كيف نفكر في الحرب على كثرة ما لنا من اصدقاء !
فقال رفاة باسمياً :

- ان عَرِّق عفريتك ما زال لاصقاً بجوفك ، فلا تنس ان غابتنا
الشفاء لا القتل ، ونحير الانسان ان يُقتل من ان يُقتل .
والتفت رفاة الى يasmine فجأة وقال :
- انك لا تأكلين ولا تصغين !

فتقلص قلبها خوفاً ، بيد أنها تغلبت على انفعالها وقالت :
- اني اعجب لكم كيف تتحدثون في مرح كأنكم في عرس !
- ستألفين البهجة عندما تتخلصين من عفريتك غداً .

ثم نظر الى اخوانه وقال :
- بعضكم ينجح من المسألة ، فنحن ابناء حارة لا نحترم الا الفتونة ،
ولكن الفتونة ليست قاصرة على الأرباب ، فصارعة العفاريث اشق
عشرات المرات من الاعتداء على الضعفاء أو منازلة الفتوات .
فهز علي رأسه أسفاً وقال :

- وكان جزاء الاحسان هذا الموقف التعيس الذي وجدنا انفسنا فيه ؟
فقال رفاعه بيقين :

- لن تنتهي المعركة كما يتوهمون ، ولنا ضعفاء كما يتصورون !
انما نقلنا المعركة من ميدان الى ميدان ، وميداننا يتطلب شجاعة اسمى
وقوة اشد .

وواصلوا العشاء وهم يفكرون فيما سمعوا . وبدا لأعينهم هادئاً مطمئناً
قوياً بقدر ما بدا جميلاً وديعاً . وفي فترة الصمت تجلى صوت شاعر
الحي وهو يحكي قائلاً : « ومرة جلس أدهم في حارة الوطاويط عند
الظهور ليستريح فنفس . واستيقظ على حركة فرأى غلاماً يسرقون عربته
فنهض مهدداً . وراه غلام فنبه اقرانه بصفير ودفع العربية ليشغله بها
عن مطاردتهم فاندلق الخيار على الأرض على حين تفرق الغلمان مسرعين
كالجراد . وغضب ادهم غضباً شديداً حتى قذف فوه المهدب بسيل
من أقذع الشتائم ، ثم انكب على الأرض يجمع الخيار الذي لوث بالطين .
وتضاعف غضبه دون ان يجرد له متنفساً فراح يقول بتأثر وانفعال :
« لماذا كان غضبك كالنار تحرق بلا رحمة ؟ لماذا كانت كبرياؤك احب
اليك من لحمك ودمك ؟ وكيف ندم بالحياة الرغيدة وأنت تعلم أننا
نداس بالأقدام كالحشرات ؟ والعفو والتلين والتسامح ما شأنها في بيتك
الكبير ايها الجبار ! » وقبض على يد العربية وهم بدفعها بعيداً عن الحارة
اللينة واذا بصوت يقول متهمكاً :
- بكم الخيار يا عم ؟

رأى ادريس واقفاً ينتسم ابتسامة ساخرة .. : واذا بصوت امرأة
يرتفع مغطياً على صوت الشاعر وهي تصرخ « ولد تائه يا اولاد الحلال ! »

٦٠

مضى الوقت والاخوان في سمر وباسمينة في عذاب . أراد حسين أن
يلقي على الحارة ، نظرة ولكن كريم اعترضه ان يلمحه احد فيشك في
الأمر . وتساءل زكي ترى هل هاجموا بيت رفاة فقال رفاة أنهم
لا يسمعون الا نواح الرباب وتهليل الغلمان . كانت الحارة تحيا حياتها
فليس ثمة ما يشي بسر جريمة تدبر . ودارت بباسمينة دوامة الفكر حتى
خافت ان تفضحها عينها . وتمنت ان ينتهي عذابها على أي وجه وبأي
ثمن ، وتمنت ان تملأ جوفها بالحر حتى تذهل عما حولها . وقالت لنفسها
انها ليست أول امرأة في حياة بيومي ولن تكون اخرهن ، وانه حول
اكوام الزبالة تكثر الكلاب الضالة ، ولكن فليته هذا العذاب بأي ثمن .
وبتقدم الوقت أخذ الصمت يبتلع الضوضاء رويداً رويداً ، فسكتت أصوات
الأطفال ونداءات الباعة ، ولم يبق الا نواح الرباب . ودمتها كراهية
مفاجئة لهؤلاء الرجال ، لا لشيء الا لأنهم على نحو ما يعذبونها .
وتساءل كريم :

— هل أعد المجرة ؟

فقال رفاة بحزم :

— نحن في حاجة الى وعينا !

— ظننت ان به نستعين على تحمل الوقت .

— أنت خائف اكثر مما ينبغي .

فنفى التهمة عن نفسه قائلاً :

— يبدو الا داعي هناك للخوف !
أجل لم يقع حادث ولم يُهاجم بيت رفاعه . وسكنت الانعام وذهب
الشعراء . وترامت اصوات الأبواب وهي تغلق ، وأحاديث العائدين الى
البيوت ، وضحكات وسعلات ، ثم ساد الصمت . واستمر الانتظار
والترقب حتى صاح اول ديك . وقام زكي الى النافذة ينظر الى الطريق
ثم التفت اليهم قائلاً :

— صمت وخلاء ، الحارة كما كانت يوم طرد اليها ادريس .
فقال كريم :

— آن لنا ان نذهب .

وركب الجوزع ياسمينه فتساءلت في نفسها ماذا يكون من أمرها لو
تأخر بيومي عن مواعده او لو عدل عنه ؟ وقام الرجال وكل يحمل
بقعة . وقال حسين :

— الوداع يا حارتنا الجهنمية !

سار في المقدمة . ودفع برقة رفاعه ياسمينه امامه وتبعها واضعاً يده
على منكبها كأنما يخشى ان يفقدها في الظلام ، ثم جاء كريم فحسين
ثم زكي . تسللوا من باب الشقة واحداً في اثر آخر ، ورقوا في السلم
متهدين بالدرايزين في الظلمة الخالكة . وبدا السطح أرق ظلمة رغم انه
لم يبد في السماء نجم واحد . وانضحت سحابة بنور القمر المتوارى خلفها
فسجلت لوحتها ركض السحب . وقال علي :

— اسوار الاسطح شبه متلاصقة وسنساعد الست ان لزم الأمر .

تتابعوا داخلين . ولما دخل زكي — وهو آخرهم — احس حركة
وراءه فالتفت نحو باب السطح فرأى اربعة اشباح ، فتساءل مذعوراً :

— من هناك ؟

تسمر الجميع والتفتوا . وجاء صوت بيومي وهو يقول :

— قفوا يا اولاد الزنا .

وانتشر عن يمينه وعن يساره جابر وخالد وحنودة . رندت عن
ياسمينه آه . وأفلتت من يد رفاعه ثم جرت نحو باب السطح فلم يعترضها
أحد من الفتوات ، حتى قال علي مخاطباً رفاعه في ذهول :
- خانتك المرأة .

وفي لحظة أحاطوا بهم . وراح بيومي يتفحصهم عن قرب واحداً
بعد آخر متسائلاً :

- أين كودية الزار ؟

حتى تبينه فقبض على منكبه بيد من حديد وهو يسأله متهمكماً :

- اين انت ذاهب يا نديم العفاريت ؟

فقال رفاعه في وجوم :

- ضايقتكم وجودنا فأثرنا الرحيل .

فأطلق ضحكة قصيرة ساخرة ثم التفت الى كريم وقال :

- وأنت هل أجدى اخفاؤك لهم في بيتك ؟

فازدرد كريم ريقه الجاف وقال وفرائضه ترتعد :

- لم أكن أعلم بشيء مما بينك وبينهم !

فلطمه بيده الأخرى على وجهه فسقط على الأرض ، ولكن سرعان
ما وثب قائماً وركض في رعب نحو سطح الريع الملاصق . وفجأة جرى
وراءه حسين وزكي . وانقض حنودة على علي فركله في بطنه فتهوى
على الأرض وهو يثن من أعماقه . وفي ذات الوقت هم جابر وخالد
باللحاق بالهاربين ولكن بيومي قال باستهانة :

- لا خوف من هؤلاء فلن بنس أحدهم بكلمة وإلا هلك .

وقال رفاعه وقد انحنى رأسه نحو قبضة بيومي لشدة ضغطها :

- لم يفعلوا شيئاً يستحق العقاب .

فهوى بيومي بكفه على وجهه وهو يقول متهمكماً :

- خبرني ألم يسمعوا الجبلأوي كما سمعته ؟

ثم دفعه أمامه وهو يقول :

— سر أمامي ولا تفتح فاك .

سائر مستسلماً للمقادير . هبط السلم المظلم محاذراً ووقع الاقدام الثقيلة يتبعه . وغشيه الظلام والحيرة والشر الذي يتهده فلم يكذب يفكر فيمن هرب ولا فيمن خان . وران عليه حزن شامل عميق فغطى حتى على مخاوفه . وخيل اليه ان ذلك الظلام سيمس صفة الدنيا الملازمة . وانتهوا الى الحارة فقطعوا الحي الذي لم يبق فيه مريض بفضله . وتقدمهم حندوسة نحو حي جبل فروا تحت ريع النصر المفلق حتى خيل اليه انه يسمع تردد أنفاس والديه . وساءل نفسه لحظة عنها فخيّل اليه انه يسمع نجيب عبدة في الليل الصامت ولكن سرعان ما استرده الظلام والحيرة والشر الذي يتهده . وبدا حي جبل هياكل اشباح عمالقة غارقة في الظلام ، ما أشد الظلام وما أعمق النوم ، أما وقع أقدام الجلادين في الظلمة الحالكة وأطيط نعالهم فكأنه ضحكات شياطين تعبت في الليل . ومضى حندوسة نحو الخلاء بجذء سور البيت الكبير فرفع رفاعه عينيه الى البيت لكنه رآه مظلماً كالسواء . ولاح شبح في نهاية السور فتساءل حندوسة :

— المعلم خنفس ؟

فأجابه الرجل :

— نعم .

وانضم الى الرجال دون كلام . وظلت عينا رفاعه مرفوعتين نحو البيت . ترى هل يدري جده بحاله ؟ إن كلمة منه تستطيع ان تنقذه من محالب هؤلاء الجبارين وترد عنه كيدهم . إنه قادر على ان يسمعهم صوته كما أسمعهم اياه في هذا المكان . جبل وجد نفسه في مأزق مثل أنزقه ثم نجا وانتصر . لكنه جاوز السور دون ان يسمع شيئاً سوى وقع اقدام الجبارين وتردد أنفاسهم . وأوغلوا في الخلاء فتقلت خطواتهم فوق الرمال . وشعر رفاعه بالغربة في الخلاء وذكر ان المرأة خائنه وأن الاصحاب لا ذوا بالقرار . أراد ان يلتفت الى الورا صوب البيت ولكن

يد بيومي دفعته في ظهره بغتة فسقط على وجهه . ورفع بيومي
نبوته وهتف :

— معلم خنفس ؟

فرفع الرجل نبوته قائلاً :

— معك إلى النهاية يا معلم .

وتساءل رفاعه في يأس :

— لماذا تبغون قتلي ؟

فهوى بيومي بنبوته على رأسه بشدة فصرخ رفاعه صرخة عالية
وهتف من أعماقه : « يا جبلاوي ! » .

وفي اللحظة التالية كان نبوت خنفس يصيب عنقه ، واستبقت
النبات .

وساد صمت لم تسمع خلاله إلا حشرجة .

وأخذت الأيدي تحفر الأرض بقوة في الظلام .

٦١

غادر القتلة المكان متجهين نحو الحارة فسرعان ما ذابوا في الظلام .

وإذا بأربعة أشباح تنهض قائمة من موضع غير بعيد من موقع الجريمة .

وندت عنهم تنهديات واصوات بكاء مكتوم حتى صاح أحدهم :

— يا جنباء ، أمسكتم بي وكنتم انقاسي فقتل دون دفاع .

فقال له آخر :

— لو أطعناك لهلكنا جميعاً دون ان ننقله .

فعاد علي يقول غاضباً :

— يا جنباء ! ما أنتم إلا جنباء .

فقال كريم بصوت بالك :
- لا تضيعوا الوقت في الكلام ، أماننا عمل شاق يجب ان نُنجزه
قبل الصباح .

ورفع حسين رأسه إلى السماء يقلب فيها عينيه الدامعتين وتتم بحزع :
- الفجر قريب فلنسرع .

فهتف زكي متأوهاً :
- يا له من وقت قصير كالحلم لكننا فقدنا فيه أعز من عرفنا
في الحياة !

واتجه علي نحو موقع الجريمة وهو يصر على أسنانه مغمغماً :
- يا جناء .

ففضوا خلفه ، ثم جلسوا جميعاً على ركبهم في هيئة نصف دائرة
وراحوا يتحسسون الأرض مفتشين .

وبغثة صرخ كريم كالملدوغ :

- هنا !

وتشمم يده وهو يقول :

- ان هذا هو دمه !

وفي ذات الوقت صاح زكي :

- وهذا الموضع الهش مدفنه .

وتجمعوا حوله وأخذوا يزيلون الرمال براحتهم . لم يكن في الأرض
من هو أتعس منهم ، لضياح العزيز ، ولموقف العجز الذي وقفوه عند
مصرعه . وعبرت كريم لحظة جنون فقال في بلاهة :

- لعلنا نَجده حياً !

فقال علي بازدرأ ويدا لا تكفان عن العمل :

- اسمعوا أوهام الجناء !

وامتلأت نخياشيمهم برائحة التراب والدم . وترامى من ناحية الجبل

عواء . وهتف علي باشفاق :

— تمهلوا ، فهذا جسده .

فانخلعت قلوبهم ، ورقت أيديهم ، وتلمسوا أطراف ثوبه بجزع ، ثم ارتفعت اصواتهم بالبكاء ، وتعاونوا على استخلاص الجثة من الرمال وقاموا بها في رفق ، وكان صياح الديكة يترامى من الحارات والأزقة . وحث البعض على الأسراع ولكن لفتهم علي الى وجوب ردم الحفرة ، فخلع كريم جلبابه وفرشه على الأرض فطرحوا الجثة عليه ، -وتعاونوا مرة أخرى على ردم الحفرة . وخلع حسين جلبابه فغطى به الجثة ثم حملوها ، وساروا نحو باب النصر . وأخذ الظلام يخف فوق الجبل ويشف عن السحاب ، وتساقط الندى فوق الجباه والدموع . وكان حسين يدهم على طريق مقبرته حتى بلغوها . وانهمكوا في فتح القبر صامتين ، والضياء ينتشر رويداً ، حتى تراءى للأعين الجثمان المسجى ، وايديهم الملطخة بالدم ، وأعينهم المحمرة من البكاء . وحلوا الجثة وهبطوا بها الى جوف القبر . وقفوا حولها خاشعين وهم يضغطون جفونهم ليزيلوا الدموع التي تحول دون رؤيتها . وهمس كريم والعبرات تنحرفه :

— كانت حياتك حلماً قصيراً ، لكنها ملأت قلوبنا بالحب والنقاء . وما كنا نتصور ان تغادرنا بهذه السرعة فضلاً عن ان تقتل بيد أحد من الناس ، أحد من أبناء حارتنا الجاحدة التي داوينها وأحببتها ، حارتنا التي أبت إلا ان تقتل الحب والرحمة والشفاء ممثلة في شخصك فقضت على نفسها باللعنة حتى آخر الزمن .

وتساءل زكي منتحباً :

— لماذا يذهب الطيبون ؟ لماذا يبقى المجرمون ؟

وتأوه حسين قائلاً :

— لولا حبك الباقي في قلوبنا لمقتنا الناس الى الأبد !

عند ذاك قال علي :
- لن يرتاح لنا بال حتى نكفر عن جبننا .
وعندما غادروا المقبرة متجهين نحو الخلاء كان النور يصبغ الآفاق
بمثل ذوب الورد الأحمر .

٦٢

لم يعد أحد من الصحاب الأربعة يظهر في حارة الجبلوي . وظن
ذووهم أنهم غادروا الحارة خفية وراء رفاة انقاء لتحرش الفتوات .
وعاش الرفاق في أطراف الخلاء في حال نفسية متوترة ، يصارعون
بكل قواهم ودلاء الألم وحز الندم . كان فراق رفاة أشد من الذبح
على قلوبهم ، وكان تخليهم عنه معذباً قاتلاً ، لم يبق لهم من أمل في
الحياة إلا ان يتحدوا موته بأحياء رسالته ، وان يتزلوا العقاب بقائليه
كما صمم علي . أجل لم يكن في وسعهم العودة الى الحارة ولكن كان
في مأمولهم ان يتأبلوا من يشاءون خارجها . وذات صباح استيقظ ربع
النصر على صوت، عبدة فهرع الجيران إليها يستطلعون الخبر فصاحت
بصوت مبحوح :

- قتل ابني رفاة .

ووجم الجيران وتطلعوا الى عم شافعي الذي كان يحفف عينيه
فقال الرجل :

سقط قتله الفتوات في الخلاء .

وعادت عبدة تتوح هاتفة :

- ابني الذي لم يؤذ أحداً في دنياه .

فتساءل البعض :

— وهل علم بذلك فتوتنا خنفس ؟
فقال شافعي غاضباً :
— كان خنفس ضمن القاتلين .
وقالت عبدة باكية :
— وخائنه ياسمينة فدلّت بيومي عليه !
فلاح الاستنكار في الوجوه وقال صوت :
— لذلك فهبي تقيم في بيته بعد ان هجرته زوجته .
وانتشر الخبر في حي جبل فجاء خنفس الى بيت شافعي وصاح به :
— اجننت يا رجل ؟ ماذا قلت عني ؟
فوقف شافعي أمامه دون مبالة وقال بشدة :
— انك اشتركت في قتله وأنت فتوته وحاميه !
فتظاهر خنفس بالغضب وصاح :
— أنت مجنون يا شافعي ، لا تدري عما تقول شيئاً ، ولن أبقي
حتى لا أضطر إلى تأديبك .

وغادر الربيع وهو يرغي . ويزبد . وانتقل الخبر إلى حي رفاعة الذي
أقام فيه عقب مغادرته لحي جبل فذهل الناس له ، وارتفعت الأصوات
بالسخط والبكاء ، ولكن الفتوات خرجوا إلى الحارة يقطعونها ذهاباً
واباباً ، النبائيت في أيديهم والشر يتقد في نظراتهم . ثم سرى نبأ يقول :
إن الرمال غربي صحرة هند وجدت ملطخة بدم رفاعة . وذهب عم
شافعي وخاصة أصحابه للبحث عن الجثة هناك ، ففتشوا وحفروا
ولكنهم لم يعثروا على شيء . ولغظ الناس بالخبر وتبلبت الأفكار وتوقع
كثيرون إن تحدث في الحارة أمور . وراح الناس في حي رفاعة يتساءلون
ماذا فعل رفاعة حتى يقضى عليه بالقتل ؟ وقال آل جبل : رفاعة قتل
وباسمينة مقيمة في بيت بيومي . وتسلسل الفتوات بليل إلى المكان الذي
قتل فيه رفاعة ، وحفروا مدفنه على ضوء مشعل ، ولكنهم لم يعثروا

- للجثة على أثر . ونساءل بيومي :
- هل أخذها شافعي ؟
- ولكن خنفس أجابه :
- كلا ، لم يعثر على شيء كما أخبرني العيون .
- فضرب بيومي الأرض بقدمه وصاح :
- إنهم أصحابه ، لقد أخطأنا بتركهم يفلتون ، وها هم يحاربوننا من وراء وراء .
- وعند عودتهم مال خنفس على اذن بيومي وهمس قائلاً :
- ان احتفاظ المعلم بياسمينه لما يسبب لنا المتاعب .
- فقال بيومي ساخطاً :
- بل اعترف انك فتوة ضعيف في حيك !
- وودعه خنفس ساخطاً . واشتد التوتر بحجى جبل ورفاعة ، وتكرر اعتداء الفتوات على الساخطين . وساد الارهاب في الحارة حتى كره أهلها الخروج إليها إلا للضرورة . وفي ليلة من الليالي - وكان بيومي في قهوة شلضم - تسلل اهل زوجته الى بيته بقصد الاعتداء على ياسمينه ، فشعرت بهم ، وفرت بجلبابها الى الحلاء وهم يطاردونها . وظلت تعدو في الظلام كالمجنونة ، حتى بعد ان كف المطاردون عن مطاردتها . وظلت تعدو حتى أوشكت أنفاسها ان تنقطع فاضطرت الى التوقف وهي تلهث بعنف وقد طرحت رأسها الى الوراء وأغمضت عينيها . ولبثت كذلك حتى استردت أنفاسها . ونظرت وراءها فلم تر شيئاً ولكنها جفلت من فكرة العودة الى الحارة ليلاً . ونظرت أمامها فرأت عن بعد نوراً ضئيلاً لعله ينبعث من كوخ فسارت نحوه آملة ان تجد عنده مأوى يؤويها حتى الصباح . وطال بها المسير قبل ان تبلغه . وكان كما ظنت كوخاً فاقتربت من بابه وهي تنادي أهله . وبغتة وجسدت نفسها امام أصدقاء زوجها الحميمين : علي وزكي وحسين وكريم .

تسمرت ياسمينة بالأرض وهي تقلّب في وجوههم بصرّاً زائناً .
تراءوا لها كجدار يعترض مُطارداً في كابوس . كانوا يحذقون فيها
باشمئزاز ، وبدأ الاشمئزاز في عيني علي في اطار حديدي من القسوة .
وهتفت بلا وعي :

— اني بريئة ، وزب السماوات بريئة ، ذهبت معكم حتى هاجسونا
فهربت كما هربتم !

وكلحت الوجوه . وتساءل علي حائفاً :

— ومن ادراك باننا هربنا ؟

فقال بصوت متهدج :

— لولا الهرب ما بقيتم على قيد الحياة ؛ لكني بريئة ، وما فعلت
شيئاً إلا اني هربت !

فقال علي وهو يعض اسنانه :

— هربت الى سيدك بيومي .

— ابدأ ، دعوني اذهب .. أنا بريئة .

فصاح بها علي :

— متذهبين الى جوف الأرض !

فهتّت بالهرب لكنه وثب عليها فقبض على منكبيها بشدة فصرخت :

— أعتقني إكراماً له فانه لم يكن يحب القتل ولا القاتلين !

فقبض على عنقها بيديه ، حتى قال كريم جزعاً :

— انتظر حتى تفكر في الأمر .

فصّاح به :

- اصمتوا يا جبّناء !

وشد على عنقها بكل ما يعتلج في صدره من حنق وحقد وألم وندم . حاولت التخلص من قبضته عبثاً ، قبضت على ساعديه ، ركّلته ، هزت رأسها ، كان كل مجهود عبثاً ضائعاً فخارت قواها ، وجحظت عينها ، ثم نفث انفها دماً ، وارتيج جسدها بعنف ، وسكنت الى الأبد ، وتركها فسقطت جثة تحت قدميه .

وفي صباح اليوم التالي وجدت جثة يasmine ملقاة امام بيت بيومي . وانتشر الخبر كغبار الخماسين فجرى الناس نساء ورجالا نحو بيت الفتوة . وارتفعت الضوضاء ، واختلطت التعليقات ، ودارى الجميع مشاعرهم الحقيقية . وفتح باب بيت بيومي ، واندفع منه الرجل كالثور الهائج ، وراح يضرب بنوته كل من يصادفه فركض الجميع في فرع ، ولاذوا بالدور والمقاهي ، ووقف الرجل في الحارة الخالصة يسب ويلعن ويهدد ويتوعد ، ويضرب الهواء والجدران وأديم الأرض .

وفي اليوم نفسه هجر عم شافعي وزوجته الحارة ، وبدا ان اي اثر لرفاعة قد اختفى .

ولكن ثمة اشياء كانت تذكر به على الدوام ، كبيت عم شافعي بربع النصر ودكان النجارة ومسكن رفاعة في الحي الذي أطلقوا عليه دار الشفاء ، ومصرعه غربي صخرة هند ، وفوق كل أولئك اصحابه المخلصون الذين واصلوا اتصالاتهم بمحببيه ، ولقنوههم اسرار علمه بتخليص الأنفس من العفاريث ليزاولوها في مداواة المرضى ، اقتنعوا انهم بذلك يعيدون رفاعة الى الحياة . اما علي فلم يكن لبهداً له بال حتى يقضي على المجرمين . وقد قال له حسين معانِباً :

- انك لست من رفاعة في شيء !

فقال علي بقوة :

— اني أعرف رفاعه اكثر مما تعرفونه ، قضى حياته القصيرة في قتال
عنيف مع العفاريت .

فقال كريم :

— انك تريد العودة الى الفتوة وما كان أبغضها إليه .

فهتف علي بحماس :

— كان فتوة ولا كل الفتوات ولكن خدعتكم رفته .

وتوثب كل فريق للعمل على رأيه بايمان صادق . وتناقلت الحارة قصة
رفاعة على حقيقتها التي كان يجهلها الاكثرون ، وتناول أيضاً ان جثته
ظلت ملقاة في الخلاء حتى حملها الجبلابي بنفسه فواراها التراب في حديقته
الغناء . وكادت الأحداث الخطيرة تتلاشى عنه ذلك ، لولا ان اختفى
الفتوة خندوسه اختفاء مريباً . وإذا بجثته تكتشف ذات صباح ملقاة
مشوهة أمام بيت الناظر لإهاب . وتزلزل بيت الناظر كما تزلزل بيت بيومي .
ومرت بالحارة فترة رهيبة من الرعب . انصب الاعتداء كالطر على كل
من له صلة أو شبهة صلة برفاعة أو بأحد من رجاله . انهالت النبايات
على الرؤوس ، وهرست الأقدام البطون ، وحضرت الكلمات الصدور ،
والهبت الأيدي الأفقية ، حتى حبس نفسه في الدور من حبس ، وهجر
الحارة من هجر ، وقتل في الخلاء من استهان بالخطر ، ففتمت الحارة
بالصوات والعويل ، وغشيتها السواد والظلام ، وفاحت منها رائحة
الدم . ومن عجب ان ذلك كله لم يقض على عمل العاملين ، فقد قتل
الفتوة خالد وهو خارج من بيت بيومي قبيل الفجر . واشتد غضب
الارهاب حتى بلغ الجنون . لكن حارتنا استيقظت في المزيغ الاخير من
الليل على حريق هائل التهم ست الفتوة جابر وأهلك أسرته . وصاح
بيومي :

— ان مجانين رفاعه منتشرون كالبق ، والله ليقتلن ولو في بيوتهم !

ذاع في الحارة ان البيوت ستهاجم بليل فركب الفرع الناس حتى

جُنُوا . وخرجوا من الربوع في ثورة هوجاء يحملون العصي والمقاعد وأغطية الحلل والسكاكين والقبايب والطوب . وصمم بيومي على ان يضرب قبل أن يستفحل الأمر فرفع نبوته وخرج من بيته في هالة من الأعوان . وظهر علي لأول مرة ومعهم رجال اشداء على رأس الثائرين . وما ان رأى بيومي قادماً حتى أمر بقذف الطوب فأرسل الهائجون اسراب الطوب كالجراد فانصب على بيومي ورجاله وتفجرت الدماء . وهجم بيومي بجنون ، وهو يصرخ كالوحش ولكن حجراً اصاب أعلى رأسه فتوقف رغم الغضب ورغم القوة وباعم الفتوة ، ثم ترنح وسقط مقتعاً بدمه . وسرعان ما فـ الأعوان ، واكتسحت امواج الغاضبين بيت الفتوة حتى ترامت أصوات الكسر والتحطيم الى مئوى الناظر في بيته . واستطار الشر ، وانقض العقاب على من بقي من الفتوات وأعوانهم ، وخربت بيوتهم ، واستفحل الخطر ، وأوشك ان يفلت الزمام . عند ذاك أرسل الناظر في طلب علي فذهب علي لمقابلته . وكف رجال علي عن الانتقام والتخريب انتظاراً لما تسفر عنه المواجهة فهدأت الأحوال وسكنت الخواطر .

وتمخضت المواجهة عن عهد جديد في الحارة . فقد اعترف بالرفاعيين كحي جديد مثل حي جبل فيما له من حقوق وامتيازات ، ونصب علي ناظراً على وقفهم ، وبمعنى فتوة لهم ، يتسلم نصيبهم في الوقف ويوزعه عليهم على أساس المساواة الشاملة . وعاد الى الحي الجديد جميع المهاجرين الذين فروا من الحارة في فترات الارهاب ، وعلى رأسهم عم شافعي وزوجته وزكي وحسين وكريم . وحظي رفاة في موته بما لم يكن ليحلم به في حياته من التكريم والاحلال والحب حتى سار قصة باهرة يرددها كل لسان ، وتتغنى بها الرباب ، وبخاصة رفع الجبلابي لجثته ودفنها في حديقته الغناء . وقد أجمع الرفاعيون على ذلك ، كما أجمعوا على الولاء والتقدير لوالديه . لكنهم اختلفوا فيما عدا ذلك فأصر كريم وحسين وزكي على ان رسالة رفاة يجب ان تقتصر على مداواة المرضى واحتفار الحاه

والقوة ، فساروا ومن تبعهم في الحياة مساره ، وغالى منهم قوم فتجنبوا الزواج حباً في محاكاته واستعادة لسيرته ، أما علي فتمسك بكافة حقوقه في الوقف وتزوج ودعا الى تجديد حي رفاة . لم يكره الوقف لذاته ولكن ليرهن على ان السعادة الحقّة متاحة بدونه ، وليقضي على الشرور التي يستثيرها الطمع ، فاذا وزّع الربيع بالعدل ، ووجه للبناء والخير ، فهو الخير كل الخير .

وعلى أي حال استبشر الناس خيراً ، واستقبلوا الحياة بوجوه مشرقة ، وقالوا بثقة واطمئنان ان اليوم خير من الأمس ، وإن الغد خير من اليوم . فلماذا كانت آفة حارتنا النسيان ؟ !

قاسم

لم يكـد يتغير شيء في الحارة . الأندام ما زالت عارية تطيع آثارها
 غليظة على التراب . والذباب ما زال يلهو بين الزبالة والأعين . والوجوه
 ما زالت ذابلة مهزولة ، والثياب مرقعة ، والشتائم تتبادل كالتحيات ، والنفاق
 يصم الأذان . والبيت الكبير ما زال قابلاً وراء أسواره غارقاً في الصمت
 والذكريات ، وإلى اليمين بيت الناظر ، وإلى اليسار بيت الفتوة ، ثم
 يجيء حي جبل ، ويليه حي رفاعه في وسط الحارة ، أما بقية الحارة
 وهي الناحية المنحدرة إلى الجمالية فكانت مقام من لا صفة لهم ولا
 نسب ، أو الجرابيع كما كانوا يدعونهم ، وهم أنعس أهل
 الحارة وأضيعهم . وفي هذا العهد ولي النظارة السيد رفعت ، وكان
 كسابقه من النظار . وكان فتوتها لهيطة وهو رجل قصير دقيق لا يوحى
 مظهره بالقوة لكنه ينقلب عند المعركة لساناً من نار في سرعته وحدته
 وتدميره ، وقد نال الفتوة بعد سلسلة من المعارك سالت لها الدماء في
 جميع الأحياء . أما فتوة جبل فكان يدعى جلطة ، وما زال حيه معتداً
 بنفسه مباهاً بقرابته للواقف وبأنه خير حي ، وأن رجلهم جبل كان
 أول وآخر من كلمه الجبلأوي وفضله ، ولذلك قل أن أحبهم أحد .
 وكان حجاج فتوة آل رفاعه ، لكنه لم يمتد مثال علي في نظارته وإنما
 سار على درب خنفس وجلطة وغيرهما من المفتصبين . كان يستأثر

بالريع ويضرب المتذمرين ويحث آله على اتباع سنة رفاة في احتقار
 الحاه والثراء ! وحتى الجرابيع كان لهم فتوتهم ، ويدعى سوارس ،
 لكنه لم يكن طبعاً بناظر وقف . على هذا النحو استقرت الأوضاع ،
 وأكد حملة النبايت وشغراء الرباب انه نظام عادل ، جرت به شروط
 الواقف العشرة وسهر على تنفيذه ورعايته الناظر والفتوات . وفي حي
 الجرابيع عرف عم زكريا بياع البطاطة بالطيبة ، وامتاز بين الناس بعرايته
 البعيدة للمعلم سوارس فتوة الحي . كان يطوف بأحياء الحارة سائفاً عربته
 منادياً على البطاطة ، وفي وسط العربية تقوم الفرن نافثة دخاناً معتباً
 برائحة شهية ، تجذب غلمان رفاة وجبل ، كما تجذب الغلمان بالجمالية
 والعطوف والدراسة وكفر الزغاري وبيت القاضي . وكانت قد مضت
 فترة غير قصيرة من حياة عم زكريا الزوجية دون أن يرزق بمولود ،
 ولكن آنس وحشته في تلك الفترة صغير يتيم هو قاسم - ابن شقيق
 زكريا - عقب وفاة والديه . ولم يجد الرجل في الصغير عبئاً يؤوده ،
 إذ أن الحياة وخاصة في هذا الحي من الحارة لم تكن تملأ كثيراً عن
 حياة الكلاب والقطط والذباب التي تعثر على رزقها في النفايات واکوام
 الزبالة . وأحب زكريا قاسم كما كان يحب أباه من قبل ، ولما حملت
 زوجته عقب انضمام الصغير للأسرة تفاعل به خيراً وازداد عليه عطفاً ،
 ولم يقل عطفه عندما رزق بابنه حسن . ونشأ قاسم شبه وحيد ، إذ كان
 اليوم يمضي وعمه بعيد عن الحارة وزوجة عمه مشغولة بدارها ووليدها ،
 ثم اتسع عالمه بنموه فأخذ يلعب في حوش الريع أو في الحارة ، وصادق
 أقرانه في حيه وحي رفاة وجبل ، وذهب الى الخلاء فلعب حول
 صخرة هند ، وشرق في الصحراء وغرب ، وركب في الجبل . وكان
 يتطلع مع الصغار الى البيت الكبير مفاخر بجدته ومقام جده ، ولكنه لم
 يكن يجد ما يقوله إذا تكلم البعض عن جبل والبعض الآخر عن رفاة ،
 كما لم يكن يجد ما يفعله إذا انقلب الكلام تشاماً ونماسكاً وعراكاً . وكـ

نظر الى بيت الناظر بدهش واعجاب ، وكم رمق الثمار فوق الأشجار
برغبة واشتهاء . ويوماً رأى البواب ناعساً فتسلل الى الحديقة بخفة ، دون
ان يرى احداً او يراه احد ، وراح يقطع الماشي في بهجة وسرور ،
ويلتقط ثمار الجواقة من فوق الحشائش ويأكلها بلذة ، حتى وجد نفسه
أمام الفسقية ، وعلقت عيناه بعمود الماء المتصاعد من النافورة . استنخفه
الفرح فخلع جلبابه ونزل الى الماء ومضى يخوض فيه ويضرب سطحه
بيديه وبذلك به جسده وقد ذهل عما حوله . وما يدري الا وصوت
حاد يصيح بغضب : « يا عثمان يا ابن الكلب ، تعال يا أعمر يا ابن
الأعمى » التفت رأسه نحو مصدر الصوت فرأى على السلاسل رجلاً
متافعاً بعباءة حمراء ، يشير نحوه بأصبعه المرتجف ، والغضب يشتعل في
وجهه ، فاندفع نحو حافة الفسقية وصعد الى ارض الحديقة مرتكزاً على
مرفقيه ، وعند ذاك لمح البواب قادماً مهرولاً ، فجري نحو عريشة إلياسمين
اللاصقة للسور ، ناسياً جلبابه حيث خلعه ، وركض نحو الباب ، فرق
الى الحارة . عدا بكل قواه ، ورآه اطفال فتبعوه مهللين ، فنبحت
كلاب ، ثم خرج عثمان البواب الى الحارة وراح يجري وراءه حتى
ادركه في منتصف حية ، فقبض على ذراعه وتوقف وهو يلهث ، وعلا
صراخ قاسم حتى ملأ الحي . وسرعان ما جاءت زوجة عمه حاملة وليدها ،
وخرج المعلم سوارس من القهوة . دهشت زوجته عمه لمنظره ، وامسكت
بيده وهي تقول للبواب :

- وحد الله يا عم عثمان ، أرعبت الولد ، ماذا فعل وأين جلبابه ؟
فصاح البواب في تكبر :
- رآه حضرة الناظر وهو يستحم في الفسقية ، هذا العفريت يجب
جلده ، دخل الملعون وانا نائم : لماذا لا تريحونا من غفارتكم !
فقال المرأة برجاء :
- السماح يا عم عثمان ، الولد يتيم ، وحقك عليّ .

واستنقذته من يده قائلة :
— سأضربه عنك ولكن وحياء شيبك الا ما اعدت له جلبابه الوحيد
فلوح البواب بيده متسخطاً وولاهما ظهره راجعاً وهو يقول :
— بسبب هذه الحشرة لعنت وسببت ، أولاد عفاريت وحارة
بنت كلب !
وعادت المرأة الى الربع ، متوركة حسن ، جارة قاسم من يده وهو
يشهق باكياً .

٦٥

وقال عم زكريا لقاسم وهو يرمقه باعجاب :
— لم تعد طفلاً يا قاسم ، فأنت تقارب العاشرة وآن لك ان تعمل !
فالتمعت عينا قاسم السوداء وان ابتهاجاً وقال :
— طالما رجوتك ان تأخذني معك يا عمي .
فضحك الرجل قائلاً :
— كان غرضك اللعب لا العمل ، اما اليوم فأنت ولد عاقل وتستطيع
ان تعاونني .
فهرع الغلام الى العربة محاولاً دفعها لكن عم زكريا منعه ، وقالت
زوجة عمه :
— حاسب ان تتزلق البطاطة فتموت جوعاً .
وقبض زكريا على يدي السربة وهو يقول له :
— سر امام العربة وناد : « بطاطة العمدة .. بطاطة القرن » وخذ
بالك من كل ما اقول أو أعمل ، وستصعد بالبطاطة الى الزبائن بالادوار
العليا ، وعلى العموم فتح عينك .

فقال قاسم وهو ينظر الى العربية بحسرة :
- لكني قادر على دفعها :

وساق الرجل العربية وهو يقول :

- أفعل كما أمرتك ولا تكن عنيداً ، كان ابوك ألطف الناس .
انحدرت العربية نحو الجمالية وقاسم يصيح بصوت رفيع كالصغير :
« بطاقة العمدة ، بطاقة القرن » : لم يكن كمثل فرحه شيء وهو
ينطلق الى الأحياء الغربية ويعمل كالرجال . ولما بلغت العربية حارة
الوطاويط نظر قاسم فيما حوله وقال لعمه :

- هنا اعترض ادريس سبيل ادهم !

فهز زكريا رأسه بلا اكتراث فعاد الغلام يقول ضاحكاً :
- كان ادهم يسوق عربته مثلك يا عمي .

ومضت العربية في تجوالها اليومي ، من الحسين الى بيت القاضي ،
ومن بيت القاضي الى الدراسة ، وقاسم يتطلع بدهش الى العابرين والدكاكين
والجوامع حتى انتهت الى ميدان صغير قال العم انه سوق المقطم ، فتأمله
الغلام باعجاب وقال :

- أهذا سوق المقطم حقاً ؟ الى هنا هرب جبل ، وهنا ولد رفاعة

فقال زكريا بلا حماس :

- نعم ، لا لنا في هذا ولا ذاك !

فقال قاسم :

- لكننا جميعاً اولاد الجبلاوي فلماذا لا نكون مثلهم ؟

فضحك الرجل وقال ساخراً :

- على الأقل جميعنا في الفقر سواء !

ووجه الرجل عربته نحو اطراف السوق المشرقة على الخلاء ، وبخاصة
نحو كوخ من الصفائح على هيئة دكان لبيع المسابح والبخور والأحذية ،
جلس امامه على فروة عجوز ذو لحية بيضاء .

- أوقف زكريا العربية امام الكوخ وصافح العجوز بحرارة ، فقال الرجل :
- عندي اليوم كفايتي من البطاطة .
- فجلس زكريا الى جانبه وهو يقول :
- مجالستك خير عندي من الربح .
- ونظر العجوز نحو الغلام مستظلاً فصاح به زكريا :
- تعال يا قاسم وقبل يد المعلم يحيى .
- فاقترب الغلام من العجوز وتناول يده المعروقة فلتيمها في أدب .
- وراح يحيى يداعب قصة قاسم ويتأمل وجهه الوسيم ثم تساءل :
- من الغلام يا زكريا ؟
- فقال زكريا وهو يمد ساقيه في الشمس :
- ابن المرحوم أخى .
- فأجلسه الى جانبه على الفروة وهو يسأله :
- هل تذكر أباك يا بني ؟
- فهز قاسم رأسه قائلاً :
- كلا يا عمي .
- كان أبوك صديقاً لي ، وكان لطيفاً .
- ورفع قاسم عينيه الى البضائع يتأمل الوانها فد يحيى يده الى رف
- قريب وتناول حجاباً ، ثم علقه بعنق الغلام وهو يقول :
- احتفظ به فيحفظك من كل سوء .
- واذا بعم زكريا يقول لقاسم :
- المعلم يحيى كان من حارتنا ، ومن حي رفاعة .
- فنظر قاسم الى يحيى وتساءل :
- لماذا تركت حارتنا يا عمي ؟
- فأجاب زكريا قائلاً :
- غضب عليه فتوة رفاعة منذ عهد بعيد فأثر الهجرة .

- فقال قاسم بدهش :
- فعلت كما فعل عم شافعي والد رفاعه .
- فضحك يحيى عن فم فارغ طويلاً ثم قال :
- أعرفت ذلك يا غلام ؟ ما أعرف أولاد حارتنا بالحكايات فسا بالهم لا يعتبرون !
- وجاء صبي قهوة حاملاً صينية شاي فوضعها امام يحيى ثم رجع واخرج يحيى من صدره لفافة صغيرة وجعل يفتحها قائلاً برضى :
- لذي شيء ثمين ، مفعوله أكيد حتى الصباح .
- فقال زكريا باهتمام :
- دعنا نجربه .
- فقال يحيى ضاحكاً :
- ما سمعتك تقول لا قط .
- كيف أرفض النعمة يا عمي !
- وتقاسما القطعة ، وراحا يلوكانها ، وقاسم يتابعها بشغف حتى أضحك عمه . وأخذ العجوز يحسو الشاي ، ويسأل قاسم :
- هل تحلم بالفتونة كأهل حارتنا ؟
- فقال قاسم مبتسماً :
- نعم .
- فقهره زكريا وقال كالمعتذر :
- اعذره يا معلم يحيى فأنت تعلم أنه في حارتنا اما أن يكون الرجل فتوة وأما أن يُعدّ قفاه للصنع .
- فقال يحيى متأوهاً :
- ليرحمك الله يا رفاعه ، كيف نبت في حارتنا الجهنية !
- لذلك كانت نهايته كما تعلم .

- فقال يحيى مقطباً :
- رفاعة لم يمت يوم مصرعه ولكنه مات يوم انقلب خليفته فتوة ؟
- فسأله قاسم باهتمام :
- أين دفن يا عمي ؟ أهله يقولون إن جدنا دفنه في حديقته ، ويقول آل جبل إن جثته ضاعت في الحلاء .
- فصاح يحيى غاضباً :
- الملاحين الأشقياء ، ما زالوا يحقدون عليه حتى اليوم !
- ثم مستدركاً في تساؤل :
- خبرني يا قاسم هل تحب رفاعة ؟
- فنظر الغلام نحو عمه في حذر ولكنه قال ببساطة :
- نعم يا عمي ، أحبه كثيراً .
- أيها أحب اليك أن تكون مثله أم أن تكون فتوة ؟
- فرفع اليه عينين تمترج فيهما الحيرة والابتسام وتحركت شفتاه للكلام ولكنه لم ينبس ، فقال زكريا مقهقهاً :
- فليقع مثلي ببيع البطاطة !
- وساد الصمت بينهم على حين قامت ضجة في السوق حول حمار طرح أرضاً فقال بالكارو المربوطة به ، واخذت الراكبات يثبن منها ، أما السائق فقد أنهال على الحمار ضرباً . ونهض زكريا وهو يقول :
- اماننا مشوار طويل ، سلام عليكم يا معلم .
- فقال يحيى :
- احضر الغلام معك جنباً جنت .
- وصافح قاسم وهو يداعب قُصته قائلاً :
- ما أظرفك !

لم يكن في الخلاء من مكان يستظل به من وقدة الشمس الغاضبة الا
صخرة هند . هنالك اقتعد قاسم الأرض ولا أنيس له الا الغنم . بدا
في جلباب أزرق نظيف - نظيف بالقدر المتاح لراعٍ - منلفح الرأس
بلاسة غليظة وقاية من الشمس ، ومنعلاً مركوباً قديماً بالياً تهكت
اطرافه . وكان يخلو الى نفسه حيناً ويراقب النعاج والحرفان والمعر
والجداء حيناً آخر ، وعصاه مطروحة الى جانبه . ولاح المقطم من مجلسه
القريب عالياً ضخماً متجهماً ، كأنه المخلوق الوحيد تحت القبة الصافية
الذي يتحدى غضبه الشمس في عناء واصرار ، كما ترامى الخلاء حتى
الآفاق مشمولاً بصمت ثقيل وهواء ساخن . وكان اذا أضتته أفكاره
وأحلامه ونوازع شبابه الفائر مروح الطرف في الغنم ملاحظاً لهما وعيها ،
وتخاضعها وتواددها ، ونشاطها وكسلها ، وخاصة البهيم والحملان منها
التي تستدر عطفه ومحبه . وكانت تعجبه أعينها الكحلالات وتبرز فؤاده
بنظراتها كأنما تخاطبه ، وكان بدوره يخاطبها فيقارن بين ما تلقى في رعايته
من عطف وما يلقي اولاد حارته تحت غطسة الفتوات من هوان . ولم
تهمه نظرة الاستعلاء التي يلقيها أهل الحارة على الرعاة ، اذ آمن من
باديء الأمر بأن الراعي خير من البلطجي والبرجي والمتسول ، وفضلاً
عن ذلك فقد أحب الخلاء والهواء النقي وآنس الى المقطم وصخرة هند
وقبة السماء ذات الأطوار العجيبة ، إلا أن الرعي كان يقوده دائماً إلى
لمعلم يحبي ! وتساءل المعلم يحبي أول ما رآه راعياً :

— من بائع بطاطة الى راعي غنم ؟ !

فقال قاسم دون حرج :

— ولم لا يا معلم ! انه عمل يحسدني عليه مئآت من النساء في حيننا !
— ولماذا تركك عمك ؟

— ابن عمي حسن كبير وهو أحق بمرافقة عمي في تجواله ، ورعي الغنم خير من التسول !

ولم يكن يمر يوم دون أن يزور معلمه . كان يحبه ويسعد بأحاديثه .
ووجد فيه رجلاً محيطاً بأخبار حارته ، حاضرها وماضيها ، ويعرف ما
يتغنى به شعراء الرباب وأكثر ، ويعرف أيضاً ما يتجاهلونه أحياناً .
وكان يقول ليحيى : « اني أرعى أغناماً من كل حي ، عندي غنم
لجلب واخرى لرفاعة وثالثة للموسرين من حيننا ، ومن عجب أنها ترعى
جميعاً في اخاء لا ينعم بمثلها أصحابها القساة من أولاد حارتنا ! » . وقال
له ايضاً : « كان همام راعياً ، ومن الذين يحتقرون الرعاة ! انهم
متسولون وعاطلون وتساء ، وهم في الوقت نفسه يحترمون الفتوات ،
وما الفتوات إلا لصوض فجرة وسفاكو دماء ! ساعحكم الله يا أولاد
حارتنا ! » . ومرة قال له في دعاية :

— اني فقير قانع ، لم تمتد يدي بالأذى لإنسان ، حتى غنمي لا تلقى
مني إلا المودة ، أفلا ترى أنني مثل رفاعة ؟
فرمقه الرجل باستنكار وقال :

— رفاعة ! أنت مثل رفاعة ! رفاعة قضى عمره في تخليص اخوانه
من العفاريت كي تخلص لهم السعادة !
ثم ضحك العجوز واستدرك قائلاً :

— وانت شاب مولع بالنساء ، ترصد عند المغيب فتيات الخلاء !
فابتسم قاسم متسائلاً :

— وهل في ذلك من عيب يا معلمي ؟

— أنت وشأنك ، ولكن لا تقل إنك مثل رفاعة !
فتأمل قوله ملياً ، ثم قال :

— وجبل ألم يكن كرفاعة من أبناء حارتنا الطيبين ؟ كان كذلك
يا معلمي ، وقد أحب وتزوج واستخلص حق آله في الوقف ووزعه
بالعدل .

فقال يحيى بحدة :

— لكنه جعل من الوقف غايته !

فتفكر الشاب قليلاً ثم قال بصراحة :

— بل حسن المعاشرة والعدل والنظام ايضاً كانت غايته .

فتساءل يحيى في استياء :

— اذن فأتت تفضل جبل على رفاعة ؟

فامتلات العينان السوداوان بالحيرة ، وتردد طويلاً ، ثم قال :

— كلاهما كان رجلاً طيباً ، وما أقل الطيبين في حارتنا ، ادهم
وهمام وجبل ورفاعة ، أولئك هم كل حظنا من الطيبة ، أما الفتوات
فما اكثرهم !

فقال يحيى في أسى :

— وادهم مات كمدأ ، وهمام قتل ، ورفاعة قتل !

أولئك هم الطيبون حقاً من أهل الحارة . سيرة عطرة ونهاية مؤسفة .
ككذا كان ينجي نفسه وهو جالس في ظل الصخرة الكبيرة . وانبعث
من صدره رغبة حارة في أن يكون مثلهم . أما الفتوات فما أقبح فعلهم .
وداخله حزن غامض وساوره قلق . وقال لنفسه ليهدده خطره : كم
شهدت هذه الصخرة من أحداث وأناس ، كغرام قدري وهنسد ،
ومقتل همام ، ولقاء جبل والجبلاوي ، وحديث رفاعة وجدته ، ولكن
أين الأحداث وأين الأناس ؟ إن الذكرى الطيبة تبتى وهي أثمن من
قطعان المعز والضأن ! وشهدت ايضاً جدنا العظيم وهو يحوب هذه
الآفاق وحده ، يمتلك ما يشاء ويُرهب الأشقياء . ترى كيف حاله في
عزته ؟

وعند الأصيل نهض ثم تخطى مثائباً . وتناول عصاه وهو يصفر صغيراً منغماً ، ثم لوح بعصاه ونق بالغنم فحضت تتجمع وتتحرك قافلتها نحو العمران . وبدأ يشعر بالجوع ولم يكن تناول في نهاره الا سردينه ورغيفاً ، ولكن عشاء طيباً ينتظره في بيت عمه . وحث السير حتى بدا له اول ما بدا من بعيد البيت الكبير بأسواره العالية ونوافذه المغلقة ورءوس أشجاره . ترى ما شكل الحديقة التي يتغنى بها الشعراء والتي مات أدهم حسرة عليها ؟ ولدى اقترابه من الحارة ترامت الى مسامعه الضوضاء . ومضى بجذء السور الكبير الى الداخل والمغيب يضفي على الجو سمرة . وشق طريقه بين جماعات من الغلمان يلعبون ويتقاذفون بالطين ، وملأت أذنيه نداءات الباعة وأحاديث النساء وسخريات الساخرين وشنائهم ، واستغاثات المجدوبين وجرس عربة الناظر ، على حين افعم أنفه برائحة المعسل النافذة ، والزبالة العطنة ، والتقلية المثيرة . وعرج الى الربوع بحمي جبل يعيد اليها أغنامها ، كذلك فعل بحمي رفاعه ، فلم يبقَ لديه الا نعجة واحدة ، تملكها ست قمر ، السيدة الوحيدة التي تملك مالا في حي الجرايع . وكانت تقيم في بيت مكوّن من دور واحد ذي حوش متوسط تنوسطه نخلة وفي ركنه الأقصى شجرة جوافسة . ودخل الحوش سائفاً أمامه « نعمة » فصادف في طريقه الجارية سكبنة بشعرها المفلفل الذي وخطه المشيب ، فحيّاها فردت تحبته بابتسامة وسألته بصوت نحاسي :

— كيف حال نعمة ؟

فأجرب لها عن اعجابه بالنعجة ، وتركها لها ، ومضى في سبيله ، واذا بصاحبة البيت والنعجة تدخل الحوش عائدة من الحارة . بدت امامه في ملأه لف حوت جسمها المليء ، وطالعه من برقعها عيان

سوداوان ينديان بالحنان . تنحى جانباً وهو يغض بصره فقالت له
برقة مهذبة :

— مساء الخير .

— مساء الخير يا ستي .

وتهملت المرأة في سيرها وهي تنفحص نعمة ، ثم نظرت نحوه ،
وقالت :

— نعمة تسمن يوماً بعد يوم والفضل لك !

فقال متأثراً من نظرتها الحنونة قبل كلماتها الطيبة :

— الفضل للمولى ولرعابتك .

والفتت ست قر نحو سكينه وقالت :

— احضري له عشاء !

فرفع يديه بالشكر الى رأسه وقال :

— خيرك سابق يا ستي .

وفاز بنظرة أخرى وهو يحییها مودعا ثم ذهب . ذهب شديد التأثر برقتها
وعطفها ، كحالها كلما اسعده الحظ بلقائهما . وذلك عطف لم يعرف
مثله الا فيما يسمع أحياناً عن عطف الأمهات الذي لم يجربه . ولو امتد
العمر بأمه لكانت اليوم في مثل عمر هذه السيدة الأربعينية . وكما بدا هذا
العطف عجيباً في حارته التي تتباهى بالقوة والعنف . وليس اعجب منه
الاجالها المحتشم وما ينفحه في روحه من بهجة غامرة . ليست كذلك
مغامرات الخلاء المحرقة ، بجوعها الملتهب الأعمى وشبعها الخامد المكتئب .
وهرول نحو دار عمه ملقياً عضاه على كتفه ، لا يكاد يرى ما بين
يديه من شدة انفعاله . وجد أسرة عمه مجمعة في الشرفة المطلة على
حوش الربيع تنتظره . جلس مع ثلاثتهم حول اللبيلة وقد اعد عليها
عشاء من طعمية وكراث وبطيخ . وكان حسن في السادسة عشرة من
عمره ، طويل القامة متين البناء حتى حلم عمه زكريا بأن يراه يوماً فتوة

الجرايع . ولما انتهى العشاء رفعت المرأة الطبلية وغادر عم زكريا الربع ،
ولبث الصديقان في الشرفة حتى ترامى اليهما صوت من الخوش بنادي :
- يا قاسم .

فقام الشابان وقاسم يجيبه :

- نحن قادمان يا صادق .

وتلقاهما صادق ببشر متألق ، وكان مقارباً لقاسم في سنه وطولنه
ولكنه انحل منه عوداً . وكان يعمل مساعداً لمبيض النحاس في اول
دكان بحبي الجرايع فيما يلي الجالية . مضى الاصدقاء الى قهوة دنجل ،
وطالعههم لدى دخولهم الشاعر طازة متربعا على اريكته في الصدر ، على
حين جلس سوارس على كئيب من مجلس دنجل عند المدخل ، فانجبهوا
نحو الفتوة وصافحوه في خضوع رغم ما يعتز به قاسم وحسن من
قربته . واتخذوا مجلسهم على أريكة واحدة وسرعان ما جاء لهم
صبيّ القهوة بطلباتهم المألوفة ، وكان قاسم مغرماً بالجوزة والشاي
المنعم . واذا بسوارس يتفحص قاسم بنظرة ازدراء وتساءل
بغلظة :

- مالك يا ولد متأقماً كالبيت ؟

فتورد وجه قاسم حياء وقال في نبرة المعتذر :

- ليس في النظافة ما يعيب يا معلم !

فقطب في استياء وقال :

- لكنها في مثل سنك قلة أدب !

وساد الصمت في القهوة كأن روادها وادواتها وجدرانها تنصت
لكلمات الفتوة . ولحظ صادق صاحبه بعطف لما يعلم عن رقة مشاعره .
اما حسن فأخفى وجهه في قلدح الزنجبيل حتى لا يكتشف فيه الفتوة
الغضب . وتناول طازة الرباب ، فانبعثت من اوتارها الانغام ، وتناوبت
التحيات لرفعت الناظر وهيطة الفتوة وسوارس سيد الحي ، ومضى الشاعر

يقول :

« وخيل الى أدهم انه يسمع وقع اقدام . اقدام بطيئة وثقيلة استنارت
ذكريات غامضة كرائحة زكية مؤثرة تستعصى على الادراك والتحديد .
حول وجهه نحو مدخل الكوخ فرأى الباب يفتح ، ثم رآه يمتلىء بشيء
كجسم هائل . حلق في دهش ، وأحدّ بصره في أمل يكتنفه يأس ،
وندّت عنه آهة عميقة ، وغغم منسائلاً :

— أبي ؟

وخيل اليه انه يسمع الصوت القديم وهو يقول :

— مساء الخير يا أدهم .

فاغرورقت عيناه ، وهمّ بالقيام فلم يستطع ووجد غبطة وبهجة لم
يجدهما منذ أكثر من عشرين عاماً .

٦٧

قالت سكيّنة الجارية :

— انتظر يا قاسم ، عندي شيء لك .

فوقف قاسم حيث ربط النعجة بمذع النخلة ، وقف ينتظر الجارية
التي ذهبت الى الداخل ، وكان قلبه يخفق ، وحدثته نفسه بأن الخير الذي
وعده به صوت الجارية انما يجيء من خير أنبل في قلب صاحبة الدار .
ووجد تشوّفاً عميقاً الى ان يرى نظرتها او يسمع صوتها ليبرد بالبهجة
جسده الذي احترق في الحلاء طيلة النهار . وعادت سكيّنة بالهاقة فأعطته
اياها وهي تقول :

— فطيرة بالهنا والشفا !

فتلقاها بيديه قائلاً :

— اشكري عني السيدة الكريمة .
فجاءه صوتها من وراء النافذة وهي تقول برقة :
— الشكر للمولى يا ابن الطيبين .

فرفع بالشكر يده دون بصره ومضى . وردد قولها : « يا ابن الطيبين »
في سعادة مخمرة . لم يسمع راعي الغنم قولاً كهذا من قبل . ومن
قائلته ؟ السيدة المحترمة في حيّه البائس ! والقى نظرة وردية على الحارة
المسربة بالمغيب ، وقال لنفسه : « رغم تعاسة حارتنا فهي لا تخلو من
اشياء تستطيع اذا شاءت ان تبعث السعادة في القلوب المتعبة » ! وانتبه
من حلمه منزعجاً على صوت يصرخ « نقودي .. نقودي سرفت » !
رأى رجلاً معتماً يهرول في جلباب ابيض فضفاض نحو داخل الحارة
قادماً من أول حيّهم . وتحولت الحارة نحو الرجل الصارخ ، فجرى نحوه
الصغار ، واشترأت أعناق الباعة والجالسين بالأبواب ، واطلت الرؤوس
من النوافذ ، وارتفعت أوجه من تحت الأرض خلال كوات البدرومات
وخرج رواد المقاهي ، وأحيط بالرجل من كل ناحية . ورأى قاسم
رجلاً قريباً منه ، يحك ظهره بعود خشبي من طوق جلبابه ، ويتابع
المنظر بعينين كليلتين ، فسأله عن الرجل قائلاً :

— من الرجل ؟

فأجاب ويده لا تمسك عن الحك :

— نجاد كان يعمل في بيت الناظر !

واتجه نحو الرجل سوارس فتوة الجرايع وحجاج فتوة رفاة وجلطة
فتوة جبل ، وسرعان ما امروا الناس بالابتعاد فتراجعوا خطوات بلا
تردد . وقالت امرأة من نافذة ربيع في حي رفاة :

— عين أصابت الرجل !

فقالت امرأة اخرى من نافذة بأول ربوع جبل :

— صدقت ، ما من احد الا وحسده على ربحه المنتظر من تنجيد

برش الناظر ، اللهم اكفنا شر العين .
 فقالت امرأة ثالثة واقفة امام باب بيت وهي تغطي رأس غلام :
 - وكان يا عيني بضحك وهو خارج من بيت الناظر ، لم يكن
 يدري انه سيصرخ ويبكي ، قطعت الفلوس وقرفها !
 وكان الرجل يصيح بأعلى صوته :
 - سرق كل ما كان معي من نقود ، اجرة عمل اسبوع ، واخرى
 كانت في جيبى ، نقود البيت والدكان والاولاد ، عشرون جنبها
 وقروش ، الله يخرب بيت اولاد الحرام !
 وقال جلطة فتوة جبل :
 - "هس ، الكل يسكت ، اسكتوا يا غم ، سمعة الحسارة في
 الميزان ، وأي عيب في النهاية سيلبس الفتوات !
 فقال حجاج فتوة رفاعة :
 - وربك لن يقع عيب ، ولكن من ادرانا انه فقد نقوده في
 حارتنا ؟
 فهتف النجاد بصوت مبحوح :
 - عليّ الطلاق ما سرقنا الا في حارتكم ، تسلمتها من بواب
 حضرة الناظر ، وتحسست صدري في آخر الحارة فلم أجد لها أثراً .
 وارتفعت الاصوات فصاح حجاج :
 - اسكتوا يا مواشي ! واسمع يا رجل ، اين عرفت ان نقودك
 ضاعت ؟
 فأشار الرجل الى آخر حي الجرابيع وقال :
 - امام دكان مبيض النحاس ، لكني والحق يقال لم يقترب مني
 احد هناك .
 فقال سوارس :
 - اذن سرق قبل ان يدخل حيّنا !

- فقال حجاج فتوة رفاعه :
- كنت في القهوة حين مروره فلم ار احدا في حيننا يقترب منه .
فصاح جلطة بنحني :
- ليس في آل جبل لص ، انهم اسياذ هذه الحارة !
فأجابه حجاج غاضباً :
- حاسب يا معلم جلطة ، عيب قولك اسياذ الحارة !
— لا ينكر ذلك الا مكابر !
- فصاح حجاج بصوت كالرعد :
- لا توقظ عفاريتي ! ملعون دين قلة الذوق .
فصاح جلطة بنفس القوة :
- ألف لعنة ، ألف لعنة على قلة الذوق التي لا توجد في حيننا !
وهنا قال النجاد بصوت باك :
- يا رجال ! نقودي فقدت في حارتكم ، كلكم اسياذ على العين
والراس ، لكن اين نقودي ، يا خراب بيتك يا فتجري !
فقال حجاج يتحدى :
- عليكم بالتفتيش ، فلنفتش كل جيب ، كل رجل ، كل مرة ،
كل ولد ، كل ركن .
فقال جلطة بازدياء :
- فتشوا ، وستسود وجوه غير وجوهنا !
فقال حجاج :
- خرج الرجل من بيت الناظر فر أول ما مر بحي جبل فلنبتسداً
بالتفتيش في حي جبل !
فشخر جلطة وقال :
- لن يكون هذا وجلطة حي ، يا حجاج اذكر من تكون أنت
ومن اكون انا .

- يا جلطة ، ان ندوب الطعنات في جسدي اكثر من شعره !
 — أما انا فلا مكان للشعر في جسدي !
 — اللهم ابعذك يا شيطان !
 — اليّ يا شياطين الأرض جميعاً !
 وعاد فتجري يصيح :
 — يا هوه ، تقودي ، الا يسيئكم ان يقال اني سرت في حارتكم ؟
 وغضبت امرأة فصاحت به :
 — غر يا وجه البومة ، سنهلك الحارة بسبك !
 واذا بصوت يتساءل :
 — ولماذا لا تكون النكسود قد سرقت في حيّ الجرابيع واكثرهم
 لصوص وشحاذون ؟
 فصاح سوارس :
 — لصوصنا لا يسرقون في حارتنا !
 — ومن ادرانا بذلك ؟
 فقال سوارس بعينين محمرتين من الغضب :
 — لا حاجة بنا الى مزيد من قلة الأدب ، سيكشف التفتيش عن
 اللص ، والا فقولوا على حارتنا السلام !
 ونادى اكثر من صوت :
 — ابدأوا بحيّ الجرابيع !
 فصاح سوارس :
 — اي خروج عن الترتيب الطبيعي للتفتيش سيلقى نبوتي في وجهه .
 ورفع سوارس نبوته فانهز الى رجاله ، وفعل حجاج مثله ، وتراجع
 جلطة الى حيّته وفعل مثلها ، فلاذ النجاد بباب الربع وهو يبكي ، وكان
 الليل على وشك الهبوط . وتوقع الجميع ان تبدأ معركة دامية . واذا
 بقاسم يندفع الى راسط الحارة ، ويصيح بأعلى صوته :

— انظروا ، لن يكشف الدم عن النقود المفقودة ، وسيقال في
الجمالية والدراسة والعطوف ان داخل حارة الجبلوي مسروق ولو احتسب
بناظرها وفتواتها !

فتساءل احد رجال جبل :

— ماذا يريد راعي الغنم ؟

فقال قاسم بسباحة :

— عندي حيلة ترد بها النقود الى صاحبها دون عراك !

فجرى النجاد نحوه هاتفاً : « انا في عرض دينك » . فقال قاسم
مخاطب الجميع :

— سترد النقود الى صاحبها دون ان يفتضح أمر السارق .

وساد الصمت ، وتركزت الأعين في قاسم باهتمام شديد ، فعاد يقول :

— فلنتنظر حتى يستحكم الظلام وهو قريب ، لن تضاع شبعة واحدة
في الحارة ، ثم نسير جميعاً من اول الحارة الى آخرها كيلا تنحصر
الشبهة في حيّ دون آخر ، وفي اثناء ذلك سيجد حائز النقود فرصة
للتخلص منها في الظلام من غير ان يفتضح امره ، فنعثر على النقود
وتنجو الحارة من شر العراك .

وشدّ النجاد على ذراع قاسم في ضراعة يائس وهتف : « نعم الحل ،

اقبلوه جبراً لحاطري » . وصاح صوته : « حل معقول يا جدعان ! »

وصاح آخر : « هذه فرصة للسارق كي ينجو وينجّي الحارة » .

وزغردت امرأة طويلاً . ونقل الناس اعينهم بين الفتوات الثلاثة وهم

بين الرجاء والخوف . وأبى أي فتوة ان يكون البادىء باعلان القبول

علواً واستكباراً فلبث اهل الحارة يتساءلون هل يغلب العقل او تتلاطم

النبايت وتسيل الدماء . واذا بصوت يعرفه الجميع يصيح :

— هو !

فانجذبت الرؤوس نحو مصدره ، حيث وقف لهيطة فتوة الحارة غير

بعيد من بيته . وساد الصمت وقد تعلقت بما سيقول القلوب جميعاً .
وقال الرجل بازدراء :

— اقبلوا الحل يا غجر ، لولا غباوتكم ما كان منقذكم راعي غنم .
وسرت في القوم هممة ارتياح . وتعال زغاريد . فاشتد خفقان
قلب قاسم . ولحظ دار قر وهو موقن بأن عينيها السوداوين تراقبانه من
وراء احد الشباكين المطلين على الحارة ، فداخله زهو سعيد ، وشعر
بلذة فوز كبير لا عهد له به . وبدا الجميع وهم يترقبون الظلام ،
فينظرون الى السماء تارة وينظرون صوب الحلاء تارة اخرى . وتابعوا
هبوطه درجة فدرجة . ومضت المعالم تتوارى والوجوه تختفي والناس
ينقلبون اشباحاً . اما الممران حول البيت الكبير المفضيان الى الحلاء فقد
اغلقتها الظلمة . ودبت الحركة بين الأشباح فمشوا نحو البيت الكبير ثم
قطعوا الحارة مهرولين حتى الجمالية ، ثم تفرقوا كل الى حيه . عند
ذاك صاح لهيطة بصوته الأمر :

— نوروا !

وكان أول ما لاح من نور في دار قر بجي الجرايع ، ثم أضيئت
مصاييح عربات اليد ، ثم كلوبات المقاهي ، فعادت الحارة الى الوجود.
وراح قوم يتفحصون الأرض على ضوء كلوب ، حتى تعالى صوت
قائلاً :

— ها هي المحفظة !

وجرى فنجرى من فوره نحو الضوء فتناول المحفظة ، وعدّ نقوده ، ثم
هرول لا يلوي على شيء نحو الجمالية مخلفاً وراءه ضجة عالية من الضحكات
والزغاريد . ووجد قاسم نفسه محط أنظار ، ومركز استقبال للتهانسي
والمزاح ، ومحور تعليقات شتى تساقطت عليه كالورد . وعندما ذهب
قاسم وحسن وصادق الى قهوة الجرايع ذلك المساء استقبله سوارس

بابتسامة ترحيب وقال :
- جوزة على الحساب لقاسم .

٦٨

موّرد الوجه ، متألق النظرات ، صافي القسمات ، مبتهيج القلب .
دخل حوس قمر ليأخذ النعجة وهو يقول : « يا صاثر » . وراح يفك
رباط النعجة في بثر السلم ، واذا بصرير باب الحريم يسمع وهو يفتح وصوت
النسب تقول :

- صباح الخير .

فقال بفؤاده ولسانه :

- صبحك المولى بالسعادة يا سني .

- صنعت أمس خيراً كبيراً لحارتنا .

فقال وروحه ترقص طرباً :

- الله هو الهادي .

فقالت في نغم وشى باعجابها .

- علمتنا أن الحكمة أجل من الفتنة .

وعطفك أجل من الحكمة ، هكذا قال لنفسه ، ثم قال لها :

- ربنا يكرمك .

فتم صوتها على ابتسامة وهي تقول :

- رأيذاك ترعى أولاد الحارة كما ترعى الغنم ، صبحتك السلامة .

ذهب بنعمة ، وكلما مر بربع انضم الى قافلته ماعز أو ماعزة أو
جلدي أو تيس . وكان يلقي بالترحاب ، حتى الفتوات ردوا على تحياته
وكانوا يتجاهلونهما . واخترق الممر الملاصق لسور البيت الكبير وراء

طابور طويل من الأغنام في طريقه الى الخلاء . واستقبل شمساً لافحة تتربع
فوق الجبل ، وجواً يزفر أنفاساً حارة في الصباح المشرق . وتراءى عند
سفح الجبل بعض الرعاة ، ومر رجل مهلهل الثياب ينفخ في ناي ،
وانطلقت في القبة الصافية حدآي مدومة . وفي كل نسمة استنشقت صفاء
نقياً ، ونخال الجبل الضخم يحوي كنوزاً من الآمال الواعدة . وسرّح
الطرف في الخلاء بارتياح عجيب حتى استخفه طرب جواد فراح يغني:
يا حلو يا زين يا صعيدي اسمك منجوش على أيدي

وجالت عيناه بين صخرة قدرى وهند وبين البقاع التي جرت بها
مصارع همام ورفاعة ، ولقاء الجبلأوي وجبل ! هنا الشمس والجبل
والرمال والمجد والحب والموت، وقلب يبرز فيه الحب لكنه يتساءل عن معنى
هذا كله ، ما مضى منه وما هو آت ، عن الحارة ذات الأنبياء
المنخاضة والفتوات المتناثرين ، عن الحكايات التي تروى في كل مقهى
على شكل .

وقبل الظهيرة ساق أغنامه نحو سوق المقطم ثم مضى الى كوخ المعلم
يحيى وجلس . وهتف به العجوز :

— ما هذا الذي يقال عما فعلت أمس بحارتنا ؟

ودارى قاسم حياته باحتساء الشاي فعاد المعلم يقول :

— كان الأفضل أن تركهم يتطاحنون حتى يهلكوا جميعاً .

فقال دون أن يرفع عينيه :

— ما تقول هذا الا بلسانك .

فقال يحيى محذراً :

— تجنب المعجبين خشية أن تستفز الفتوات .

— وهل يستفز الفتوات أمثالي ؟

فتنهده العجوز قائلاً :

— ومن كان يتصور أن يغدر غادر برفاعة ؟

فقال قاسم بدهشة :

— وما وجه التشابه بين رفاعة العظيم وبينني أنا ؟
وعندما هم بالعودة ودعه العجوز قائلاً :
— احتفظ دائماً بحجابي .

وعند العصر كان يجلس في الظل المحدود وراء صخرة هند ، وإذا به يسمع صوت سكينه وهي تنادي : « نعمة » فوثب قائماً ودار حول الصخرة فرأى الجارية واقفة عند رأس النعجة تداعب زلمتها . حياها بابتسامة فقالت بصوتها النحاسي :

— انا ذاهبة في مشوار في الدراسة فمررت من هنا اختصاراً للطريق .
فقال قاسم :

— لكنه طريق شديد الحرارة .

فقالت ضاحكة :

— لذلك سأستريح قليلاً في ظل الصخرة .

وجلسا متقاربين في الظل حيث ترك عصاه . وقالت سكينه :

— عندما شهدت صنيعك بالأمس آمنت بأن امك دعت لك من قلبها قبل وفاتها .

فتساءل مبتسماً :

— وأنت الا تدعين لي ؟

فقالت وهي تداري نظرة مأكرة :

— لمثلك يدعى ببنت الحلال !

فقال ضاحكاً :

— ومنذا الذي يرضى براعي غنم !

— الحظ يصنع العجائب ، وأنت اليوم بمنزلة الفتوات دون حاجة

الى سفك دماء !

- أقسم ان لسانك أحلى من الشهد !
- غرمته بنظرة من عينيها الذابلتين وقالت :
- هل أدلك على طريق عجب ؟
- فتولاه انفعال طارئ وهو يقول :
- نعم .
- فقال بصراحة زنجية :
- جرب بخنك واخطب سيدة حيناً !
- وبدا كل شيء غير نفسه . وتساءل :
- من تعين يا سكينه ؟
- لا نتجاهل ما أعني ، فليس في حيننا الا سيدة واحدة .
- ست قمر !
- دون غيرها !
- فقال بصوت متهدج :
- كان زوجها من الأكابر ، ولست الا راعي غنم !
- لكن الحظ اذا ضحكك ضحكك معه كل شيء حتى الفقر .
- وتساءل وكأنما يسأل نفسه :
- ألا يغضبها طلبي ؟
- قامت سكينه وهي تقول :
- لا يدري أحد متى ترضى النساء ومتى تغضب ، فتوكل على الله .
- ثم وهي تمضي :
- فتلك بعافية .
- رفع رأسه نحو السماء وأغمض عينيه كأنما دمه نعاس .

حلق عم زكريا في وجه قاسم بذهول ؛ ومثله فعلت زوجته ، ومثلها فعل حسين ، وهم يستريحون في الدهليز امام شقتهم عقب العشاء .
وقال العم :

— قل كلاماً غير هذا الكلام ، عرفتك مثال العقل والكرامة رغم فقرك ، رغم فقرنا ، فماذا انتاب عقلك ؟

وتجلى في عيني زوجة عمه نهم الاستطلاع فقال قاسم :

— لدي ما شجعتني فجارتها هي التي فتحت لي الباب !

— جارتها !

ندت الكلمة عن زوجة عمه وصرخت عيناها بطلب المزيد . اما العم فانطلقت من فيه ضحكة مقتضبة اكدت حيرته ، ثم قال في ارتياب :

— لعلك أسأت فهمها !

فقال قاسم بهدوء يغطي به على انفعاله :

— كلا يا عمي .

فهتفت زوجة عمه :

— فهمت ! اذا قالت الحارية فقد قالت السيدة !

وقال حسن مدفوعاً بنجبة لابن عمه الذي لا يخفى على أحد :

— وقاسم رجل ولا كل الرجال !

فهز عم زكريا رأسه وغمغم : « بطاقة العمدة .. بطاقة الفرن »
ثم قال :

— لكنك لا تملك ملياً .

فقلت زوجته :

— انه يرعى نعجتها فهي لا تجهل ذلك .. (ثم وهي تضحك)
انذر يا قاسم الا تذبح نعجة في حياتك اكراماً لنعمة !
وقال حسن في تفكير :

— عم عويس البقال هو عم ست قمر ، أغنى رجل في حيننا ،
سيكون نسينا ، كما كان سوارس قريبنا ، ما أجمل ذلك !
فقلت أمه :

— ست قمر على قرابة مع أمينة هانم حرم الناظر ، كان المرحوم
زوجها قريباً للهانم .

فقال قاسم بقلق :

— هذا مما يزيد الأمر عسراً !

واذا بعم زكريا يقول بحماس طارئ كأنما قدر ما يعود عليهم من
رفعة بالنسب المرتقب :

— تكلم كما تكلمت يوم واقعة النجاد ، انك شجاع حكيم ، وسنذهب
معاً الى السيدة لنفاتها في الأمر ثم نكلم عويس ، اذ اننا لو بدأنا
بعويس لارسلنا الى مستشفى المجاذيب !

وجرث الأمور كما رسم زكريا . لذلك جلس عم عويس في حجرة
الاستقبال بدار قمر ينتظر مجيئها وهو يبعث بشاربه الغزير مداراة لاضطراب
خاطرهِ . وجاءت قمر في ثوب محتشم مغطاة الرأس بمنديل بُني فصافحته
بأدب وجلست وفي عينيها نظرة جمعت بين الهدوء والتصميم . قال عويس :
— حيرتني يا بنتي ! بالأمس رفضت يد عم مرسي وكبل أعمالِي
بحجة انه غير كفء لك ، واليوم ترضين براعي غم !

فأجابت ووجهها يتورد حياء :

— عمي ، انه رجل فقير حقاً ولكن ليس من أحد في حيننا إلا وبشهد
له ولأهله بالطيبة !

فقال عم عويس مقطباً :

- نعم ولكن على نحو ما نشهد لخادم بالإمانة أو النظافة ، والكفاءة في الزواج شيء آخر .
فقالت قمر بأدب :

- دلتى يا عمي على رجل مهذب مثله في حارتنا ، دلتى ولو على رجل واحد لا يباهي بعمل من أعمال البلطجة أو الخسة أو الوحشية ؟
وكاد الرجل ان ينفجر غاضباً لولا تذكّره بأنه لا يخاطب ابنة أخيه فحسب ولكن المرأة التي تسهم في تجارته بمال غير قليل ، لذلك قال برجاء :

- قمر ، لو شئت زوجتك من أي فتوة في الحارة ، لهيطة نفسه يودك لو قبلت ان تقاسميه مع زوجاته .

- لا أحب هؤلاء الفتوات ! ولا هذا النوع من الرجال ، كان أبسي رجلاً طيباً مثلك ، وكم قاسى من عنتهم حتى اورثني كراحتهم ، اما قاسم فهو رجل مهذب ، لا ينقصه الا المال وعندي منه الكفاية .

فتنهده عويس ، ثم نظر اليها طويلاً ، ثم قال برجاء أخير :
- اني مبلغك رسالة أمينة هانم حرم حضرة الناظر ، قالت لي قل لقمر ان تعقل ، وانها مقدمة على غلطة ستجعل منا احدثوثة الحارة .
فقالت قمر بحدة :

- أنا لا تهمني أوامر الهانم ، ويبدو للأسف انها لا تعرف من هم الذين يجعلهم فعّالهم أحدثوثة في الحارة .

- يا بنت أخي انها تود لك الكرامة .

- يا عمي لا تصدق انها تهتم بنا أو حتى تذكّرنا ، ومنسذ وفاة المرحوم من عشرة أعوام لم أجر لها على خاطر .

فتردد الرجل ملياً في حرج ظاهر ثم قال في تأفف ظاهر :
- انها تقول أيضاً إنه ليس من العقل ان تتزوج امرأة من رجل

غير كفاء لها خاصة اذا كان لظرف ما يتردد على بيتها !
فانطلقت قر واقفة بوجه مصفر من الغضب وهتفت :
- قطع لسانها ، لقد ولدت ونشأت وتزوجت وترملت في هذه
الحارة ، الكل يعرفني ، وسيرتي كالعطر على كل لسان .
- طبعاً يا بنتي طبعاً ! ليس الا انها تشير الى ما قد يقال .
- عمي ، دعنا من الهانم فلا يجيء منها إلا وجع الدماغ ، اني
اخبرك وأنت عمي بأنني قبلت الزواج من قاسم ، وسيكون ذلك برضاك
وحضورك !

وصمت عويس متفكراً . لم يكن في الوسع منعها ، ولا من الهين
اغضابها للحد الذي تسحب عنده أموالها من تجارته . وراح ينظر بين
قدميه في ارتباك وحزن . وفتح فاه ليقول شيئاً ولكن لم تخرج منه غير
غمغمة مبهمة . ولبثت قر تنظر اليه في ثبات وصبر .

٧٠

وهب عم زكريا ابن أخيه بضعة جنيهاً - اقترض أكثرها -
ليصلح بها شأنه قبل الزواج . وقال العم :
- لو كنت قادراً لغطينتك بالمال يا قاسم ، كان أبوك أخاً كريماً ، ولا
أنسى فضله عليّ يوم زواجي .

وابتاع قاسم جلباباً ، وثياباً داخلية ، ولاسة مزركشة ومركوباً فاقع
الاصفرار ، وعصاً خيزران ، وحق نشوق . وذهب في أعقاب الفجر
الى الحمام ، فاستسلم للبخار ، وغاص في المغطس ، ثم مضى الى المدلك ،

ثم استحم ، ثم تبخر ، ثم تمدد في الخلوة يحسني الشاي ويحلم بالهناء .
أما قر فتكفلت بالفرح . أعدت سطح الدار لاستقبال المدعوات ،
ودعت عائلة معروفة واستأجرت امهر طاه في المنطقة . وأقيم في الحوش
سرادق للمدعوين والمطرب . وجاء أهل قاسم وأصحابه ورجال الحي
وعلى رأسهم المعلم سوارس . ودارت أقداح البوطة وعشرون جوزة
حتى غامت الكاويبات بالدخان وسطعت رائحة الحشيش المفتخر . وتجاوبت
الاركان بالزغاريد والتهليل والفهقة . وراح عم زكريا يقول في فخفخة
من دارت الخمر برأسه :

— نحن أسرة كريمة أصلها عريق !

فكتم عم عويس غيظه وهو يجلس بين سوارس وزكريا وقال باقتضاب :

— حسبكم قرايتكم للمعلم سوارس !

فصاح زكريا بقسوة :

— المعلم سوارس ألف مرة !

فحيّا التخت سوارس من فوره حتى جاء الرجل بابتسامة ولوح بيده .
وكان الفتوة فيما مضى يضجر من تمسّح زكريا بقرابته البعيدة منه ، ولكنه
أخذ يغير من مشاعره مذ علم بزواج قاسم من قر ، بل قرر فيما بينه
وبين نفسه الا يعتق قاسم من الاتاوة . وعاد زكريا يقول ،

— وقاسم شاب محبوب ، من في حارتنا لا يحبه ؟

وكأنما قرأ شيئاً من الاستياء في نظرة سوارس فأردف يقول :

— لولا حكمته يوم السرقة ما وجدت رعوس رفاة وجبل من يدفع

عنها نبوت فتوتنا سوارس !

وانبسطت أسارير سوارس وصدق عويس على قول زكريا قائلاً :

— صدقت ورب السماوات والأرض .

وغنى المطرب : زمان الوصل قرب بالتهاني .

وازداد قاسم اضطراباً ففطن صادق الى حاله كشأنه دائماً فقدم اليه

اليه قدحاً جديداً من الشراب وما زال به حتى أفرغه في جوفه حتى
الثمالة ، وكانت الجوزة ما تزال في يده . وأفرط حسن في الشراب حتى
تراقصت تهاوليل السرادق امام عينيه . ولاحظ عم عويس ذلك فخطب
عم زكريا قائلاً :

— حسن يشرب اكثر مما يليق بسنه .
فوقف زكريا والقدح بيده وقال لابنه وكأنما ينصحه :
— يا حسن لا تشرب هكذا .

وترجم « هكذا » بافراغ القدح في جوفه في ضجة من الضحك
والانبساط فتلوى الغيظ في باطن عويس حتى قال لنفسه : « لولا حماقة
ابنة أخي لكلفك ما شربت الليلة جميع ما تملك ! » .
وعند منتصف الليل دعي قاسم للزفة فقصد المدعوون قهوة دنجل ،
وعلى رأسهم سوارس سيد الزفة وحاميها . كان الحي خارج الدار مكتظاً
بالغلان والمتسولين والقطط التي تجمعت تلبية لرائحة المطبخ . وجلس قاسم
بين حسن وصادق فحياهم دنجل قائلاً لصبيه :
— يا ليلة الهنا ، جوزة دنجل يا ولد للجدةعان .

ثم ان كل موسر قدم جوزة على حسابه للجميع .
وجاء المنشدون يتقدمهم حاملو المزامير والطبول فوقف سوارس وقال
بصوت آمر :
— لنبدأ الزفة .

تقدم كعبورة الزفة ، في جلباب على اللحم ، يرقص حافياً ومركزاً
على قة رأسه نبوتاً . وخلفه سار المنشدون ، فسوارس ، ثم موكب
العريس بين صاحبيه ، وأحاط بالجميع حملة المشاعل . وراح المنشد يغني
بصوت ملبح :

الاولى آه من عيني دي

والتانية آه من ايدي دي

والتالته آه من رجلي دي

أصل اللي شبكتني مع المحبوب عيني دي

لما سلمت عليه سلمت بايدي دي

وادي اللي ودتي للمحبوب رجلي دي

وتعالت الآهات من الافواه المخمورة المخدرة والموكب يشق طريقه الى الجمالية فبيت القاضي فالحسين ثم الدراسة ، والليل ينطوي في غفلة من السعداء . وعادت الزفة كما ذهبت في بهجة وانشراح فكانت اول زفة في الحارة تمر بسلام ، فلا تبوت ارتفع ولا دم سال . وبلغ الطرب من زكريا منتهاه فتناول عصاه رواح يرقص . لعب بالعصا وتمايل في اجتيال ، وهز الرأس مرة والصدر اخرى كما هز الوسط . وصور بحركاته المرنة حياة القتال وهياة الوصال . ثم دار حول نفسه مؤذناً بحسن الختام بين التهليل والتصفيق .

عند ذاك انتقل قاسم الى الحريم . رأى قر جالسة عند ملتقى صفيين من المدعوات فاتجه نحوها يخوض امواجاً من الزغاريد . وتناول يدها فقامت ، ثم سارا معاً تتقدمهما راقصة كأنما تلقى عليها الدرس الأخير ، حتى احتوتهما حجرة العرس . وباغلاق باب الحجرة انفصلا انفصلاً كلياً عن العالم الخارجي الذي سارع اليه الصمت عدا تهامس خفيف او وقع أقدام . وفي لمحة عين مر قاسم بالفراش الوردي والاريكة الوثيرة والسجادة المنمنمة ، اشياء لم تقع له في خيال ، ثم استقر بصره على المرأة التي جلست تترع الزينة عن رأسها . بدت فخيمة مليئة بضوء مليحة ذات بهاء . كانت الجدران تنظر اليه متألثة بالضياء ، وكان يرى كل

شيء من خلال اضطراب وجيشان وهناء زاد عن حده . اقرب منها
بجلبابه الحريري وجسده ينفض حرارة ممزوجة بسطول حتى وقف
امامها ينظر من عل وهي غاضة البصر فيما يشبه الانتظار . وتناول وجهها
بين راحتيه ثم همّ بأن يقول شيئاً لكنه فيما بدا عدل . وانحنى حتى
اضطربت خصلات شعرها تحت انفاسه ، ثم لثم الجبين والحدبين .
وسرت الى انفه رائحة بخور تسربت من عقب الباب ، ونراى الى
سمعه صوت سكينه وهي تثلو رُقِيّةً مبهمه .

٧١

أيام وليال مرت في محبة ومودة وراحة بال ، فأعذب السعادة في
هذه الدنيا . لم يكن ليغادر الدار الا امتحياء ان يقال انه لا يغادر - منذ
تزوج - الدار . ارتوى قلبه من افانين المسرة حتى نمل ، وحظي بكل
ما تمناه من الحنو والمطف والرعاية . كان يهوى النظافة فرأى منظراً
مهندياً ، ووجد جواً معبقاً بالبخور ، وامرأة لا تطالعه الا آخذة زيتها ،
مشرقة الوجه ، بادية الود . وقالت له يوماً وهما جالسان جنباً الى جنب
في حجرة الجلوس :

- اراك كالحمل الوديع ، لا تطلب ولا تأمر ولا تترجر ، وجميع
ما في الدار ملك يديك !

'عجب خصلة من شعرها المصبوغ بالحناء وقال :

- بلغت حالاً لا يطاب عندها شيء !

فشدت على يده بقوة وقالت :

- حدثني قلبي من بادىء الأمر بأنك خير الرجال في حيننا لكنك

لأدبك تبدو احياناً كالغريب في دارك ، ألا تدري أن ذلك يؤلني ؟

- انك تخاطبين رجلاً نقله حظّه السعيد من الرمال المحرقة الى جنة هذا البيت السعيد .

فتظاهرت بالجد وإن غلبها الابتسام وقالت :

- لا تظن أنك ستلقى راحة في بيتي ، ستحل اليوم أو غداً محل عمي في ادارة املاكه ، فهل تستقل ذلك يا ترى ؟
فضحك قائلاً :

- انه للهو بالقياس الى رعي الغنم .

وتولى ادارة املاكها الموزعة بين حي الجرايع والجمالية . وكانت معاملة السكان الشرسين تتطلب لباقة لكلى مرونته عاجلت الأمور بخير ما يمكن أن تعالج به . ولم يكن العمل يشغل من وقته إلا أياماً كل شهر ، وفيما عدا ذلك وجد فراغاً لم يألفه من قبل . ولعل اكبر نصر احرزه في حياته الجديدة كان اكتسابه لثقة عويس عم زوجته . أولاه من بادىء الأمر احتراماً وعناية ، وتطوع لمعاونته في بعض أعماله ، حتى آنس الرجل اليه وبادله وداً بود واحتراماً باحترام . ولم يملك الرجل أن قال له يوماً في صراحة :

- حقاً ان بعض الظن اثم ! ألا تدري أنني كنت أظنك من برجيّة حارتنا ؟ وانك ستستغل عاطفة ابنة أخي لتبتز أموالها فتبعثرها في ملذاتك أو تتزوج بها امرأة اخرى ! ولكنك اثبتت انك رجل أمين حكيم ، وأنها أحسنت الاختيار .

وفي قهوة دنجل كان صادق يضحك في سرور ويقول له :

- قدم لنا جوزة على الحساب كما ينبغي للأعيان أمثالك !

وكان حسن يقول له :

- لماذا لا تذهب بنا الى الحانة ؟

لكنه اجابها جاداً :

- لا مال لي الا ما أستحقه نظير ادارة املاك زوجتي أو مقابل

خدمات أؤديها لعم عويس .
 فتعجب صادق ثم قال فاصحاً :
 - المرأة المحبة لعبة في يد الرجل !
 فقال قاسم غاضباً :
 - إلا إذا كان الرجل محباً مثلها !
 ثم وهو يحده بنظرة عتاب :
 - أنت يا صادق كأهل حارتنا لا يرون في الحب إلا وسيلة للاستغلال !
 فابتسم صادق في حياء وقال كالمعتذر :
 - هكذا يفكر الضعفاء ! لسنا في قوة حسن ، ولا حتى في مثل
 قوتك أنت ، فلا مطمع لي بحال في الفتونة ، وفي حارتنا إما أن تكون
 ضارباً ، وإما أن تكون مضروباً !
 فغير قاسم من حدة نبرته كأنما قبل عذره وقال :
 - يا لها من حارة عجيبة ، صدقت يا صادق ، ان حال حارتنا
 يبعث على الأسى !
 فقال حسن باسم :
 - آه لو كانت كما يشعر الناس نحوها في الخارج !
 فقال صادق مصدقاً لقوله :
 - يقولون حارة الجبلابي ! حارة الفتوات المتجذع !
 فلاحت الكآبة في وجه قاسم ، واختلس نظره الى مجلس سوارس في
 أول القهوة ليطمئن الى أنهم بمنجاة من سمعه ، وقال :
 - كأنهم لا يسمعون عن تعاستنا !
 - الناس يعبدون القوة حتى ضحاياها !
 فتفكر قاسم ملياً ثم قال :
 - العبرة بالقوة التي تصنع الخير ، كهوة جبل وقوة رفاعة ، لا
 بقوة البلطجية والمجرمين !

وكان الشاعر طازه يواصل حكايته قائلاً :
 - وهتف به أدهم :
 - احمل أخاك !
 فقال قدري بصوت كالأنين :
 - لا أستطيع .
 - انك استطعت ان تقتله .
 - لا أستطيع يا أبي .
 - لا تقل « أبي » قاتل أخيه لا أب له ، لا أم له ، ولا أخ له .
 - لا أستطيع .
 فشد قبضته عليه وقال :
 - على القاتل أن يحمل ضحيته .
 ثم تناول الشاعر الرباب وأخذ في الانشاد . وعند ذاك قال صادق
 مخاطباً قاسم :
 - اليوم أنت نحيا الحياة التي كان بها يحلم أدهم !
 فبان الاجتجاج في وجه قاسم وقال :
 - لكن يصادفني عند كل خطوة سبب من أسباب الكدر وتنقيص
 الصفو ، وأدهم لم يحلم بالفراغ والرزق الوفور الا باعتبارهما طريق
 السعادة الصافية .
 ولأذ ثلاثتهم بالصمت ملياً حتى قال حسن في براءة :
 - هذه السعادة الصافية لا يمكن أن توجد أبداً !
 فلاحث في عيني قاسم نظرة حاملة وقال :
 - إلا إذا توفرت أسبابها للجميع !
 وفكر في الأمر ، في انه يحظى بالمال والفراغ ، ولكن تعاسة الآخرين
 تفسد عليه سعادته . وها هو يؤدي الاتاة لسوارس صاغراً . لذلك يود
 أن يشغل بالعمل فراغه ، كأنما ليهرب من نفسه : أو يهرب من جوارحه

القاسية . ولعل ادهم لو نال ما تمنى وهو علي مثل حاله هذه لضاق
بالسعادة ذرعاً ، ولتأقت للعمل نفسه .

وفي تلك الأيام طرأت اعراض غريبة على قمر فقالت سكينه انها
اعراض الوحم . ولم تكذ تصدق قمر . كان أملها في الجبل حلماً من
الأحلام . لذلك استخفها الفرح . وامتلاً قلب قاسم بالغبطة حتى اذاع
الخبر في كل ركن له فيه حبيب فعلم به بيت عمه ودكان مبيض النحاس
وبقالة عم عويس وكوخ المعلم يحيى . وغالت قمر في العناية بنفسها حتى
قالت لقاسم بلهجة ذات معنى :

— ينبغي ان اتجنب أي مشقة .

فقال وهو يتسم ابتسامة المدرك لما تعني :

— على سكينه ان تحمل عنك اعباء البيت ، وعليّ ان اتجمل بالصبر !

فقبلته قائلة في جذل الأطفال :

— أود ان اقبل الأرض شكراً !

وانطلق الى الخلاء ليزور المعلم يحيى لكنه توقف عند صخرة هند ،
فضى الى ظلها وجلس . ورأى على مرمى البصر راعياً يرعى غنماً فامتلاً
قلبه بالعطف وتمنى لو يقول له : لا يسعد الانسان بالفتونة وحدها ،
بل لا يسعد الانسان بالفتونة اطلاقاً . لكن أليس الأجدر ان يقول ذلك
للفتوات من امثال لهيطة وسوارس ؟ ما اعطفه على اولاد حارته الذين
يحملون بالسعادة عبثاً ثم سرعان ما تلقي الأيام باحلامهم مع النفايات في
أكوام الزبالة . لماذا لا ينعم بالسعادة المتاحة ويغمض العين عما حوله ؟
لعل هذا التساؤل حير يوماً جبيل كما حير يوماً آخر رفاعة . كان في
وسعها ان ينعم بالراحة ويخلد الى السكينة والسلام ، فما سر هذا العذاب
الذي يطاردنا ؟ كان يتأمل وهو ينظر الى السماء فوق الجبل ، سماء
صافية فيما عدا قطع صغيرة من السحب متفرقة كأوراق الورد الأبيض .
وخفض رأسه فيما يشبه الاعياء فوق بصره على شيء يتحرك ، وضع

انها عقرب تسرع نحو حجر . ورفع عصاه بسرعة وهوى بها عليها -
فهرسها . وتفرس فيها ملياً بتفتزز ، ثم قام ليواصل رحلته .

٧٢

استقبل بيت قاسم حياة جديدة ، شارك في فرحتها فقراء الحي .
وسميت احسان كأمه التي لم يرها . وبمولدها ألف البيت ألواناً جديدة
من البكاء والقذارة والأرق ، ولكنه ازداد بها غبطة ورضى . لكن لماذا
يبدو الأب أحياناً شارد اللب والنظرة كأن هموماً تتناوبه ؟ شدّ ما ساورها
لذلك القلق حتى سأله مرة :

- أليست الصحة على ما يرام ؟

- بلى ..

- لكنك لست كعادتك !

فقال وهو يغمض البصر :

- المولى ادرى بحالي .

تساءلت بعد تردد :

- هل بدا لك منا ما تكره ؟

فقال بقوة :

- ليس احب اليّ منك ولا حتى العزيرة الصغيرة .

فتنهدت قائلة :

- لعلها عين !

فقال باسمّاً :

- لعلها !

ففرقته وبخترته وهي تدعو له من صميم قلبها . واستيقظت ذات ليلة على بكاء احسان فلم تجده الى جانبها . ظنت لأول وهلة انه لم يرجع بعد من سهرته في القهوة ، ولكن لما كفت الصغيرة عن البكاء تنبهت المرأة الى ان الحارة غارقة في صمت عميق لا يستحکم بها عادة الى بعد اغلاق المقاهي بفترة غير قصيرة ، فداخلها ارتياح ، فقامت الا النافذة وأطلت منها فرأت ظلاماً شاملاً يلف حارة مستغرقة في النوم . وعادت الى الصغيرة التي عاودت اليكاء فألقمتها ثديها ، وراحت تتسأل عما أخره الى هذا الوقت لأول مرة في حياتهما المشتركة . ونامت احسان فغادرت الفراش الى النافذة مرة اخرى ، ولما لم تسمع نائمة ، خرجت الى الصالة فابقظت سكينته . وجلست الجارية كالسقطلة ، ثم هبت واقفة في جزع ، فاخبرتها سيدتها بما دفعها الى الاثناس بها . وقررت الجارية حينئذ ان تذهب الى عم زكريا لتسأل عن سيدها . وساءلت فرفضها عما يبقيه في بيت عمه حتى هذا الوقت ، فجاء الجواب قاطعاً للأمل ، ولكنها مع ذلك لم تمنعها من الذهاب ، ربما جرياً وراء غير المنتظر ، او في الأقل استعانة بالعم على حيرتها . ولما ذهبت سكينته جعلت تتسأل مرة اخرى عما أخره . لذلك سبب بما طرأ على مزاجه من تغير ؟ أله علاقة بنزهاته في الخلاء التي يقوم بها في الأصائل والأماسي ؟

واستيقظ عم زكريا وحسن مترعجين على نداء سكينته . وقال حسن ان قاسم لم يشاركه سهرته الليلة . وسأل عم زكريا متى غادر ابن اخيه بيته فأجابت سكينته بأن ذلك كان قبيل العصر . وغادر ثلاثتهم الربع ، ومضى حسن الى الربع المجاور ثم عاد ومعه صادق الذي قال في نبرة قلق :

— الفجر يوشك ان يطلع ! ترى ابن ذهب ؟

فقال حسن :

— لعل النوم غلبه عند الصخرة .
وأمر عم زكريا الجارية ان تعود الى سيدتها لتخبرها في انهم ذاهبون
للبحث عنه في فطانة . ومضى ثلاثتهم صوب الخلاء . واستشعروا رطوبة
ليل الخريف فحبكوا اللامسات فوق رؤوسهم . وساروا على هدى هلال
آخر الشهر وقد تجلى في رقعة مرصعة بالنجوم انحسرت عنها سماء متشحة
بالسحب . وصاح حسن بصوت شق الفضاء كالشهاب : « قاسم ..
يا قاسم ! » فارتد اليه الصدى من جانب المقطم مكرراً النداء . وحثوا
السير حتى بلغوا صخرة هند ، فداروا حولها متفحصين المكان ولكنهم
لم يعثروا له على اثر . وتساءل عم زكريا بصوت غليظ :

— اين ذهب ؟ لا هو من اهل المجون ولا من ذوي العداوات !

فتنم حسن في حيرة :

— ولا من سب آخر يدعوه للهرب !

وتذكر صادق ان الخلاء لا يخلو من قطاع طرق فغاص قلبه في
صدره دون ان ينبس ، واذا بزكريا يتساءل في فتور :

— أبكون عند المعلم يحيى ؟

وهتف الشبان معاً فيما يشبه استغاثة يائس :

— المعلم يحيى !

لكن زكريا تساءل في نكد :

— وماذا دعاه للبقاء عنده ؟

ومضوا نحو اطراف الخلاء صامتين ، تتناوبهم الأفكار السود . وترامى
الى مسامعهم من بعيد صياح الديكة ، لكن الظلام لم يخف لتكاثف
السحب . وند عن صادق صوت كالبزفرة وهو يقول : « اين انت
يا قاسم ! » . وبدت الرحلة عقيباً لكنهم واصلوا السير حتى وقفوا
امام كوخ يحيى الفارق في النوم . وتقدم زكريا يدي الباب بقبضته حتى
جاءه صوت المعلم وهو يتساءل :

- من الباب ؟
- وفتح الباب فبدا شبحه متوكئاً على عصاه فقال زكريا بأسف :
- عدم المواخذة ، جئنا نسأل عن قاسم .
- فقال المعلم بهدوء :
- زيارة متوقعة !
- فأحيا قوله نفوسهم لأول وهلة ، لكن سرعان ما ارتد اليهم القلق
- فتساءل زكريا :
- عندك اخبار عنه ؟
- هو نائم في الداخل !
- بخير ؟
- ان شاء الله !
- ثم مردفاً في بساطة مقصودة :
- هو الآن بخير ، لكن بعض جيرانني كانوا قادمين من العطوف
- فعرّوا عليه عند صخرة هند وهو مغمى عليه ، فحملوه اليّ ، فرشّ
- على وجهه عطراً حتى أفاق ، لكنه بدا متعباً فتركته لينام ، وما لبث
- ان استغرق في النوم .
- فقال زكريا معاتباً :
- ليتك ابلغتنا الخبر !
- فقال بالهدوء نفسه :
- جاءوا به عند منتصف الليل فلم اجد من ارسله اليك !
- فقال صادق في قلق :
- انه مريض بلا شك .
- فقال المعجوز :
- سيصحو على احسن حال .
- فقال حسن :

- فلنوقظه لنطمئن عليه .
ولكن يحبي قال مجزم :
- بل علينا ان ننتظر حتى يستيقظ بنفسه .

٧٣

كان جالساً في الفراش ، مسند الظهر الى وسادة ، ساحباً الغطاء
عليه حتى أعلى الصدر ، تعكس عيناه نظرة متفكرة . وكانت قر مربعة
عند قدميه ، حاملة على صدرها احسان ، وهذه تحرك يديها الصغيرتين
دون توقف ، وتصدر اصواتاً رقيقة غريبة لا يدري احد عن سرها
شيئاً . وتصاعد من مبخرة في وسط الحجرة خيط بخور ، يتلوى ، ثم
ينكسر ، ثم ينتشر ، نافثاً عبثاً كأنما يروح بسر لطيف . ومد الرجل
يده الى خوان قرب الفراش فتناول قدح كراوية ، واحتسى منه قليلاً
قليلاً ثم أعاده وليس به الا ثمالة ، والمرأة تناغي الطفلة وتداعبها ،
ولكن نظراتها القلقة المسترقة الى زوجها دلت على ان مناعاتها ومداعباتها
ليست الا مداراة لمشاعرها . واخيراً سألته :

- كيف انت الآن ؟

فانجم رأسه بحركة عفوية نحو باب الحجرة المغلق ، ثم أعاده اليها ،
وقال بهدوء :

- ليس ما بي مرض !

فتجلت في عينيها نظرة حائرة وقالت :

- يسرني ان اسمع هذا ، ولكن خبرني بالله عما بك !

فبدا كالمتردد قليلاً ، ثم قال :

-- لا ادري ! كلا فليس هذا ما ينبغي ان يقال ، اني ادري كل

شيء ، ولكن ... الحق اني اخشى ان تكون ايام الراحة قد ولت .
وبكت احسان فجأة ، فألقمتها ثديها في عجلة ، ثم نظرت اليه
مستطلعة في قلق ، وتساءلت :

— لماذا ؟

تنهد ، وأشار الى صدره قائلاً :

— لدي هنا سر كبير ، اكبر من ان أحمله وحدي !

فازدادت المرأة قلقاً وقالت لهفة :

— خبرني عنه يا قاسم .

اعتدل في جلسته قليلاً ، وعكست عيناه جداً وتصميماً وقال :

— سأبوح به لأول مرة ، انت اول شخص يسمعه ، لكن ينبغي

ان تصدقني فما اقول الا الحق ، ليلة امس حدث شيء عجيب ،

هنالك تحت صخرة هند ، وأنا وحدي في الليل والحلاء .

وازدرد ريقه وهي تستحنه بنظرة حارة ، ثم قال :

— كنت جالساً اتابع سير الهلال الذي سرعان ما وارته السحب ،

وساد الظلام حتى فكرت في القيام واذا بصوت قريب يقول بغته :

« مساء الخير يا قاسم » فارتعدت من وقع المفاجأة التي لم يسبقها صوت

او حركة ورفعت رأسي فرأيت شبح رجل واقفاً على بعد خطوة من

مجلسي ، لم اتبين وجهه ولكنني ميزت لاسه البيضاء والعباءة التي يتلفع

بها ، وقلت له وأنا اداري غيظي : « مساء الخير ! من انت ؟ » فأجابني :

ولكن بم تظنينه اجاب ؟

فحركت قمر رأسها في جزع وقالت :

— تكلم فلم يعد لي صبر .

— قال لي : « أنا قنديل ! » فميجت لشأنه وقلت له : « لا تؤاخذني

فأنا ... » فقاطعني قائلاً : « انا قنديل خادم الجبلوي ! » .

وهتفت المرأة :

- ماذا قال الرجل ؟
- قال أنا قنديل خادم الجبلأوي .
- وكان الثدي قد افلت من ثغر احسان اثناء اضطراب الأم فتقلص وجهها ايذاناً بالبكاء ولكن المرأة اعادته اليها ، ثم قالت بوجه شاحب :
- قنديل خادم الواقف ! ؟ لا يدري احد عن خدم الواقف شيئاً ، حضرة الناظر هو الذي يتولى بنفسه اعداد لوازم البيت الكبير ، ثم يحملها خدمه الى البيت الكبير ليتسلمها بعض خدم الواقف في الحديقة .
- نعم ، هذ ما تعرفه حارتنا ، لكنه قال لي ذلك !
- وهل صدقته ؟
- وقفت من فوري ، تأدياً من ناحية واستعداداً للدفاع عن نفسي ان لزم الأمر من ناحية اخرى ، وقات له متسائلاً من ادراي انه صادق فيما يقول ، فقال لي بهدوء مطمئن : « اتبعني اذا شئت حتى تراني وأنا أدخل البيت الكبير » ، فاطمأن قلبي ، وقلت لنفسي فلأصدقه حتى تبين لي أمره ، ولم اخف عنه فرحي ببقياه ، وسألته عن جدنا ، كيف حاله ، وماذا يفعل .
- فقاطعه صوت قر قائلاً في ذهول :
- كل ذلك دار بينك وبينه ؟
- نعم ، بالله انصتي ، قال لي ان جدنا بخير ، ولم يزد على ذلك شيئاً ، فسألته هل يدري بما يجري في حارتنا ؟ فأجاب بأنه يعلم كل شيء ، وبأن المقيم في البيت الكبير يستطيع ان يطلع على كل صغيرة وكبيرة مما يقع في حارتنا ، وانه لذلك ارسله الي .
- اليك انت !
- فقطب قاسم فيما يشبه الاستياء وقال :
- هكذا قال ، وندني عني ما بفصح عن دهشتي ولكنه لم يسأل ، وقال : « لعله اختارك لحكمتك يوم السرقة ولأمانتك في بيتك ،

وهو يبلغك بأن جميع اولاد الحارة أحفاده على السواء ، وان الوقف ميراثهم على قدم المساواة ، وان الفئسوة شر يجب ان يذهب ، وان الحارة يجب ان تصير امتداداً للبيت الكبير . وساد الضمت ، وكأنما فقدت القدرة على النطق ، ولمحت عيناى المرفوعتان الى هامته السحب وهي تنحسر عن الهلال في رقة صافية ، فسألته بأدب : « ولماذا يبلغني ذلك ؟ » فأجاب : « لكي تحققه بنفسك ! » .
— أنت !

بذلك هتفت قر ، فقال قاسم بصوت متهدج :

— هكذا قال ، وهمت بأن استوضحه ، ولكنه حيّاني وذهب ، فتبعته حتى خيل اليّ اني رأيته يصعد الى أعلى السور المشرف على الخلاء على سلم خارق الطول او شيء شبيه بذلك ، فوقفت ذاهلاً ، ثم عدت الى مكاني السابق وفي نيتي ان اقصد المعلم بمحي ، لكنني غبت عن الوجود ، ولم اعد الى رشدي الا في كوخ المعلم .

وعاد الصمت يغشى الحجرة وقر لا تحول عن وجهه عينها الذاهلتن . وتسلسل النوم الى اجفان احسان وهي ترضع فال رأسها الى اسفل من فوق ساعد امها فأرقدها برفق على الفراش ، وعادت تنظر الى زوجها بعين قلقه ووجه شاحب . وارتفع من الحارة صوت سوارس الأجنش وهو يسب رجلاً ، وصراخ الرجل وتأوهاتة التي وشت بما ينهال عليه من ضرب او صفع ، ثم صوت سوارس مرة اخرى وهو يبتعد منذراً متوعداً ، وصوت الرجل وهو يرتفع في نبرة حنق ويأس هائفاً : « يا جبلاوي ! » . وساءل قاسم نفسه المرهقة بنظرات زوجته: ترى ماذا تظن بي ؟ وحادت المرأة نفسها : انه صادق ، لم يكذبني قط ، فلماذا يخنقني هذه الحكاية ؟ وهو امين لم يطمع في مالي مع ما في ذلك من أمان فكيف بطمع في مال الوقف على ما في ذلك من خطر ! وترى هل ولت ايام الراحة

حقاً . وقالت :

- انا اول ما افضيت اليه بسرك ؟

فأخني رأسه بالإنجاب ، فعادت تقول :

- قاسم ، حياتنا واحدة ، وأنا لا تهمني نفسي بقدر ما تهمني أنت ،
وسرك هذا شيء خطير ، وعواقبه لا تخفى عليك ، ولكن أعمل ذاكرتك
جيداً وخبرني أكان واقعاً ما رأيت أم لعله كان حلاً ؟

فقال بتصميم وفي شيء من الامتناع :

- كان واقعاً ملموساً ولم يكن حلاً !

- وجدوك مغمى عليك ؟!

- كان ذلك بعد اللقاء !

فقالت باشفاق :

- ربما اختلط الأمر عليك !

فتنهت في عذاب لم تدور به وقال :

- لم يختلط شيء عليّ ، كان اللقاء واضحاً كالنهار المشمس !
فترددت قليلاً ثم تساءلت :

- من يدرينا أنه حقاً خادم الواقف ورسوله اليك ؟ ولماذا لا يكون
مسطوراً من مساطيل حارتنا وما أكثرهم !
فقال في نبرة عناد :

- رأيتُه وهو يصعد الى سور البيت الكبير .

فتنهت قائلة :

- ليس في حارتنا سلم يمكن ان يصل الى نصف ارتفاع السور !

- لكني رأيتُه !

بدت كفار في مصيدة ، لكنها ابت ان تسلم ، وقالت :

— لست الا انني أخاف عليك ، وأنت تعلم ما أعني ، أخفاف عليك وعلى بيتنا وابتنا وسعادتنا ، واني اسأل نفسي لماذا قصدك أنت بالذات ؟ ولماذا لا يحقق ارادته بنفسه وهو صاحب الوقف وسيد الجميع ؟

فتساءل بدوره :

— ولماذا قصد جبل ورفاعة ؟

انسعت عينها ، وتقلص ركن فيها كالطفل الموشك على البكاء ، وغضت بصرها في جفول ، فقال :

— أنت لا تصدقيني وأنا لا أطلبك بتصديقي .

فأجهشت في البكاء ، واسترسلت فيه كأنما لتهرب من أفكارها ، قال قاسم نحوها ، ثم مد يده الى يدها فجذبها نحوه ، وسألها في رقة :
— لماذا تبكين ؟

فنظرت اليه خلال دموعها ، وقالت وهي تشفق شهقات متقطعة :

— لأنني أصدقك ، نعم أصدقك ، أخشى ان تكون أيام الراحة

قد ولت .

ثم في صوت تخافت مشفق :

— ماذا أنت فاعل ؟

٧٤

شحن جو الحجرة بالقلق والتوتر . بدا عم زكريا مفكراً مقطباً ، وراح عم عويس يعبث بشاربه ، وكأن حسن كان يحادث نفسه ، أما صادق فلم يحول ناظره عن وجه صديقه قاسم ، على حين انزوت

قمر في ركن حجرة الاستقبال وهي تدعو الله ان يهدي الجميع إلى السداد والرشاد . وكانت فتاجيل القهوة قد فرغت وأخذت ذهابتان تحومان حولها أفادت قمر سكينه لتأخذ الصينية فجاءت الجارية وحملتها ثم ذهبت وأغلقت الباب وراءها كما كان . وقال عويس وهو ينفخ :

— يا له من سر يهد الأعصاب هدأ !

وعوى كلب في الحارة كأنما أصيب بطوبىة او عصا ، وارتفع صوت بياع بنادي مترنماً بالبلح ، وامرأة عجوز هتفت في أسي : « يا رب خلصنا من عيشتنا » . والتفت زكريا الى عويس قائلاً :

— يا معلم عويس ، انك اكبرنا مقاماً وجاهاً ، فصارحنا برأيك ! فنقل الرجل عينيه بين زكريا وقاسم وقال :

— أقول الحق إن قاسم رجل ولا كل الرجال ، ولكن حديثه أدار رأسي !

فقال صادق بعد توثب طويل للكلام :

— انه رجل صادق ، أتحدى اي مخلوق ان يذكرنا بكذبة صدرت عنه ، فهو عندي مصدق ، واقسم لكم على ذلك بتربة أمي ! وقال حسن بحماس :

— وأنا كذلك . وسيجدني دائماً الى جانبه .

وابتسم قاسم لأول مرة في امتنان وهو يرمق جسم ابن عمه القوي باعجاب ، لكن زكريا القى على ابنه نظرة انتقاد وقال :

— ليس الأمر لعباً ، فكروا في حياتنا وسلامتنا .

فأمن عويس على قوله باحشاءة من رأسه وقال :

— صدقت ، لم يسمع أحد من قبل مثل ما سمعنا اليوم .

فقال قاسم :

— بل سمعوا مثله واكثر عن جبل ورفاعة !

فدهش عويس وحلجه بانكار متسائلاً :

— أنتظن انك مثل جبل ورفاعة ؟
وغض قاسم بصره مثلاً وقر تراقبه باشفاق ، ثم قالت :
— عمي ! من يدري كيف تقع هذه الأمور !
فعاد الرجل يعيث بشاربه ، وقال زكريا :
— وأي خير في ان يظن نفسه كجبل أو رفاعة ؟ قتل رفاعة شر
قتلة ، وكاد جبل ان يقتل لولا انضمام أهله اليه ، ومن لك انت يا
قاسم ؟ انسيت انهم يدعون حينئذ بحبي الجرابيع ، وان اكثره ما بين
متسول وتemis ؟

فقال صادق بقوة :
— لا تنسوا ان الجبلالوي اختاره من دون الجميع بما فيهم الفتوات ،
ولا أظنه يتخلى عنه عند الشدة !
فقال زكريا ممتعضاً :
— هكذا قيل عن رفاعة ني أيامه ، ولقد قتل رفاعة على بعد أذرع
من بيت الجبلالوي !
وقالت قر محذرة :
— لا ترفعوا أصواتكم :

واسترق عويس إلى قاسم النظر وهو يفكر . ما أعجب ما يسمع
وما يقال . هذا الراعي الذي جعلت منه ابنة أخي سيداً ! أقر له
بالصدق والأمانة ولكن هل يكفي هذا ليجعل منه جبل أو رفاعة ؟
وهل يحبيء الرجال الكبار بهذه البساطة ؟ وماذا يحدث لو صدقت
الاحلام ! وقال عويس :

— يبدو أن قاسم لا يتأثر بتحذيرائنا ، ترى ماذا يريد الفتى ؟ هل
عز عليه ان يبقى حينئذ وحده الذي لا نصيب له في الوقف ؟ أتريد
يا قاسم ان تكون فتوة وناظراً لحينئذ ؟
فبان الاحتداد في وجه قاسم وقال :

— لم يبلغني ذلك ، وإنما قال : إن جميع اولاد الحارة احفاده ،
وان الوقف لهم على قدم المساواة ، وان الفتونة شر !
برق الحماس في عيني صادق وحسن ، وذهل عويس ، اما زكريا
فتساءل :

— أتعرف ماذا يعني هذا ؟

فقال عويس بغضب :

— قل له !

— أن تتحدى قوة الناظر ونبايت لهيطة وجلطة وحجاج وسوارس !
فامتقع وجه قر ، اما قاسم فقال بهدوء كالخون :
— هو ذلك !

فندت عن عويس ضحكة انعكس صدأها استياء في وجوه قاسم
وصادق وحسن ، ولم يحفل زكريا بذلك ومضى يقول :
— سيقضى علينا جميعاً بالهلاك ، سنوطاً بالأقدام كالتمل ، ولن
يصدقك أحد ، انهم لم يصدقوا من قابل الواقف ولا من سمع صوته
وحاوره فكيف يصدقون من أرسل اليه خادماً من خدمه ؟
وقال عويس بنبرة جديدة :

— دعونا مما تقول الحكايات ، لم يشهد أحد لقاء الجبلاوي وجبل ،
ولا الجبلاوي ورفاعة ، تلك الاخبار تروى عادة ولكن لم يشهدا أحد ،
غير انها عادت بالخير على أصحابها ، فصار لحي جبل كيانه المحترم ،
كذلك حي رفاعة ، ومن حق حيننا ان يكون مثلها ، لم لا ؟ كلنا
من صلب ذلك الرجل المعتكف في بيته الكبير ، ولكن علينا ان نأخذ
الأمر بالحكمة والخذر ، فاهتم يا قاسم بحيك ، دعك من الاحفاد
والمساواة وما هو خير وما هو شر ، ومن اليسير ان نضم سوارس الينا
وهو قريبك ، ويمكن الاتفاق معه على ان يترك لنا نصيباً في الربيع .
وقطب قاسم غاضباً ، وقال :

— يا معلم عويس ، أنت في وادٍ ونحن في وادٍ ، أنسا لا أروم مساومة ولا نصيباً في الربيع ولكني عقدت العزم على تحقيق ارادة جدنا كما أبلغتها .

وتأوه زكريا قائلاً :

— يا ساتر يا رب !

لم يزل قاسم مقطباً . ذكر اشجانه وخلوانه وأحاديث معلمه يحيى . وكيف جاءه الفرج على يد خادم لم يعرفه من قبل . وكيف تلوح الخطوب في الأفق . وكيف ان زكريا لا يفكر إلا في السلامة وان عويس لا يفكر إلا في الربيع . وكيف ان الحياة لن تطيب الا بمواجهة الأفق المليء بالخطوب . وتنهّد قائلاً :

— عمي ، كان يجب ان ابدأ بمشاورتكم ولكني لن اطالبكم بشيء !
فشد صادق على يده قائلاً :

— اني معك .

وكوّر حسن قبضته قائلاً :

— وأنا معك ، في الخير والشر معك .

فقال زكريا في ضجر :

— لا تغتر بكلام العيسال ! عندما ترتفع النبائيت تمتليء الجحور بامثالكم ، وفي سبيل من تعرض نفسك للهلاك ؟ ليس في حارتنا الا حيوان او حشرة ، ولديك من الأسباب ما يضمن لك حياة رغيدة طيبة فاعقل وتمتّع بحياتك .

وساءل قاسم نفسه ماذا يقول الرجل ؟ كأنما يستمع لبعض هوائف نفسه . عندما تقول له ، ابنتك ، زوجتك ، بيتك ، نفسك . لكنك اخترت كما اخترت جبل ورفاعة فليكن جوابك كما كان جوابهما . قال :
— فكرت يا عمي طويلاً ثم اخترت سبيلي .

فضرب عويس كفاً بكف وقال :

— لا حول ولا قوة الا بالله !

وقال عويس محذراً :

— سيقنتلك الأقوياء ويهزأ بك الضعفاء !

وقلبت قر عينيهما بين عمها وبين عم زوجها في حيرة ، مشفقة من خذلان زوجها وفي الوقت نفسه خائفة عليه عواقب التهادي في رأيه .
وقالت مخاطبة عمها :

— عمي ، انت سيد الأعيان ، وبوسعك ان تؤيده بنفوذك !

فسألها عويس مستهجنأ :

— فيم تطمعين يا قر ؟ لك مال وابنة وزوج فإذا بعنيك 'وزع' الوقف على الجميع أم استأثر به الفتوات ؟ اننا نعد الطامح الى الفتوة مجنوناً فما بالك بمن يطمح الى نظارة الحارة جميعاً !

فهب قاسم واقفاً في تألم شديد وقال :

— لست طامحاً الى شيء من هذا ، انما أريد الخير الذي اراده جدنا .

فاسترضاه عويس بابتسامة متكلفة وقال :

— أين هو جدنا ؟ فليخرج الى الحارة ولو محمولاً على اعناق خدمه ثم فليحقق شروط وقفه كما يشاء ، أتحسب ان احداً في الحارة معها بلغت قوته يستطيع اذا تكلم الواقف ان يرفع نحوه عيناً او أصبعاً ؟

وقال زكريا مكملأ :

— وهل هو إذا وثب الفتوات لذبنا سيحرك ساكناً أو يكثر لما يصيبنا ؟

فقال قاسم في وجوم شديد :

— لن أطالب أحداً بتصديقي او بتأييدي .

فقام زكريا اليه ووضع يده على منكبه بعطف وقال :

— يا قاسم ، أصابتك عين ، انا اعلم بهذه الشرور ، طالما متحدوا

عن عقلك وسعيد حظك ، حتى أصابتك العين ، استعذ من الشيطان بالله ، واعلم انك اليوم من وجهاء خيـنـا ، وبوسعك اذا شئت ان تناجر ببعض مال زوجتك فتحظي بالثراء الوفير ، فأقلع عما في رأسك وارض بما وهبك الله من خير ونعمة .

فأطرق قاسم محزوناً ، ثم رفع رأسه الى عمه ، وقال بتصميم عجيب :

— لن أقلع عما في رأسي ولو ملكت الوقف كله وحدي .

٧٥

ماذا أنت فاعل . وحتم تفكر وتنتظر . وماذا تنتظر . وما دام القريب لم يصدقك فهذا الذي يصدقك . وما فائدة الحزن . وما جدوى الانفراد تحت صخرة هند ؟ النجوم لا تجيب ولا الظلام ولا يجيب القمر كأنك تأمل في لقاء الخادم مرة أخرى ولكن أي جديد عنده ترتقب ؟ وتجوس في الظلام حول البقعة التي قبل إن جلدك قابل فيها جبل . وتقف طويلاً وراء السور الكبير في الموضع الذي قبل إنه خاطب عنده رفاعة . لكن لا شخصه رأيت ولا صوته سمعت ولا خادمه رجع . ماذا أنت فاعل ؟ سيطاردك هذا السؤال كما تطارد الشمس في الحلاء راعي الغنم . وسيقتلحك دواماً من راحة البال ومن طيبات النعم . وجبل كان مثلك وحيداً لكنه انتصر . ورفاعة عرف سبيله ومضى فيه حتى قتل ثم انتصر . ماذا أنت فاعل ؟

وقالت له قمر معاتبة :

— شد ما تهمل طفلتك الجميلة ، نبكي فلا ترجعها ، وتلعب فلا تلاعبها .

فابتسم الى الوجه الصغير مستروحاً نسمة منه لسعير فكره ، وغغم :
— ما أطفها !
— حتى الساعة التي تجالسنا فيها تغيب عنا كأننا لم نعد من أهل
دنياك .

فاقترب منها على الكنبه التي نجمعها ولثم خدها ، ثم قبل وجهه
الطفلة في اكثر من موضع وقال :
— ألا ترين أنني بحاجة إلى عطفك ؟
— ولك قلبي كله بما فيه من عطف وحب ومودة ، ولكن ينبغي
ان ترحم نفسك .

وناولته الطفلة فاحتضنها وراح يهددها برفق وحنان مصغيماً الى
انغامها السماوية . وبقتة قال :
— اذا نصرني المولى فلن أحرم النساء من ريع الوقف .
فقالت قمر بدهشة :

— لكن الوقف للذكور دون الاناث .
فرنا الى العينين السوداوين في وجه الصغيرة وقال :
— قال جدي على لسان خادمه إن الوقف للجميع ، والنساء نصف
كيان حارتنا ، ومن عجب ان حارتنا لا تحترم النساء ، ولكنها
ستحترمن يوم تحترم معاني العدالة والرحمة .

وتجلى الحب والاشفاق في عيني قمر . وقالت لنفسها : انه يذكر
النصر ، فأين منا هذا النصر ؟ وكم ودت ان تنصحه بما فيه الأمن
والسلامة ولكن خائنها شجاعتها . وساءلت نفسها عما ينبغي لهم الغد .
ترى أليكون لها حظ شفيقة زوجة جبل أم تصاب بما أصيبت به عبدة
أم رفاة ! واقشعر بدنها فنظرت بعيداً حتى لا يقرأ في عينيها ما يريبه .
وعندما جاءه صادق وحسن ليذهبا جميعاً الى القهوة عرض عليها
ان يزورا المعلم يحيى ليقدمها اليه . ولما بلغوا كوخه وجدوه يدخن

الجوزة ورائحة الخشيش الثنائية تعبق الجو . وقدّم اليه صاحبيه ،
وجلسوا جميعاً في دهليز الكوخ والبدر من كوة بلوح كأنه السعادة .
وكان يحبي ينظر الى وجوه الثلاثة بعجب وكأنه يتساءل أهؤلاء حقاً
هم الذين سيقلبون الحارة رأساً على عقب ! ومضى يعبد على مسمع
قاسم ما سبق ان رده له ، قال :

— احذر ان يعلم أحد بسرّك قبل ان تستعد .
ودارت الجوزة دورة مليحة ، وكان ضوء القمر النافذ من الكوة
يتوج رأس قاسم وينطرح على الكتف من صادق ، على حين توهجت
جمرات الموقد في ظلّمة الدهليز . وتساءل قاسم :

— وكيف استعد ؟

فضحك العجوز قائلاً في دعابة :

— ليس من حق من اختاره الجبلّاي ان يستعن برأي عجوز مثلي !
وأخلى الصمت لقرقرة الجوزة حتى قطعه العجوز قائلاً :

— لديك عملك وعم زوجتك ، أما عملك فلا فائدة منه ولا ضرر ،
وأما الآخر فبوسلك ان تكسبه الى جانبك لو متبته بشيء !

— بماذا أمتيه ؟

— عده بنظارة الجرايع !
فقال صادق باخلاص :

— لن يميّز أحد بشيء من ريع الوقف ، هو ميراث الجميع على
قدم المساواة كما قال الجبلّاي .

فضحك يحبي قائلاً :

— ما أعجب جدنا ، كان قوّة في جبل ، ورحمة في رفاة ،
واليوم له شأن آخر !

فقال قاسم :

— انه صاحب الوقف ، ومن حقه ان يغير ويبدل في الشروط العشرة !

- لكن مهمتك شاقة يا بني ، انها تخص الحارة كلها لا حياً من الأحياء .

- هكذا أراد الواقف .

وسعل يحيى سعالاً متواصلاً تركه كالقتيل فتطوع حسن للخدمة الجوزة محله . ومد الرجل ساقيه وهو ينتهد بعمق . ثم تساءل :

- ترى أتعمد الى القوة كمجبل أم تؤثر الحب كرفاعة ؟

فجاست يد قاسم خلال لاسنه ، ثم قال :

- القوة عند الضرورة والحب في جميع الأحوال .

فهز يحيى رأسه ، وجعل يتشم ، ثم قال :

- لا عيب فيك إلا اهتمامك بالوقف ، وسوف يسوقك ذلك الى متاعب لا حصر لها .

- كيف يعيش الناس بغير الوقف ؟

فقال العجوز في مباهاة :

- كما عاش رفاعة .

فقال قاسم بمجد وأدب :

- عاش بمعونة أبيه ومحبيه ، وخلف أصدقاء لم يستطع أحدهم أن يحذو حذوه ، والحق ان حارتنا التعيسة في حاجة الى النظافة والكرامة .

- ألا يجيء ذلك إلا بالوقف ؟

- بلى يا معلم ، بالوقف وبالقضاء على الفتونة ، هناك تتحقق الكرامة

التي أهدها جبل الى حبه ، والحب الذي دعا اليه رفاعة ، بل والسعادة التي حلم بها أدهم .

فضحك يحيى متسائلاً :

- ماذا أبقى لمن يجيء بعدك ؟

فتفكر ملياً ، ثم قال :

- اذا نصرني المولى فلن تجد الحارة حاجة الى أحد بعدي .

ودارت الجوزة كملك في حلم ، وغنى المساء في القنينة . وتساءب
الانسجام . ثم تساءل :

— ماذا يبقى لأحدكم اذا وزع الربيع بالتساوي ؟
فقال صادق :

— انما نريد الوقف لنستغله وبذلك تصبح الحارة امتداداً للبيت الكبير !
— وماذا أعددت من عمل ؟

واختفى ضياء القمر وراء سحابة عابرة فساد الدهليز الظلام ، ولكن
لم تمض دقيقة حتى انهل الضياء . ونظر يحيى الى جسم حسن المنقول
وتساءل :

— هل يستطيع ابن عمك ان يهزم الفتوات ؟
وإذا بقاسم يقول :

— اني أفكر جاداً في مشاورة محام شرعي !
فصاح يحيى :

— أي محام يقبل ان يتحدى الناظر رفعت وفتواته ؟
واختلط ذهول الكيف بوجوم الفكر . ورجع الأصدقاء الثلاثة فيما
يشبه القنوط . وعانى قاسم في خلواته من العذاب ، وركبه الهم والكدر
حتى قالت له قمر ذات يوم :

— ما ينبغي ان نهتم بسعادة الناس إلى حد إشقاء انفسنا !
فقال بحدة :

— ينبغي ان اكون عند حسن الظن الذي وضع في .
ماذا أنت فاعل . لماذا لا تتزحزح عن حافة الهاوية . هاوية اليأس
الملينة بالصمت والركود . مقبرة الأحلام المغطاة بالرماد . ذئب الذكريات
الجميلة والانغام المطربة . طارحة الغد في كفن الأمس .
لكنه دعا يوماً صادق وحسن اليه وقال لها :
— آن لنا أن نبدأ !

فتنهّل وجهاهما وقال حسن :

— هات ما عندك .

فقال بصوت دبت فيه الحياة :

— انتهيت من تفكيري الى قرار ، وهو ان ننشيء نادياً للرياضة

البدنية !

وعقدت الدهشة لسانيهما فابتسم وهو يقول :

— سنجعله في حوش بيتي ، والرياضة هواية منتشرة في اكثر الأحياء .

— وما علاقة ذلك بعملنا ؟

وتساءل صادق بدوره :

— نادٍ لرفع الاثقال مثلاً ! ما علاقة ذلك بالوقف ؟ !

فقال قاسم وعيناه تبرقان :

— سيجيء الينا الشبان ، حباً في القوة واللعب ، وسيقع الاختيار

على من هم أهل للثقة والاستعداد .

فانسعت الاعين ، وهتف حسن :

— سنكون عصبة وأي عصبة !

— نعم ، وسيجيء الينا شبان من جبل وآخرون من رفاة .

وشملتهم فرحة غناء ، وبدا قاسم في مشيته وكأنه يرقص .

٧٦

جلس قاسم لصق النافذة بحيث يشاهد الحارة في يوم العيد . وما

أبهج العيد في حارتنا .

لقد رش السقاءون الأرض بالقرب . وزينت أعناق الحمير وأذيالها

بالورود الاصطناعية . ورقص الفراغ بالألوان الفاقعة يرتديها الصغار

وتنطلق بها البالونات . وركزت في عربات اليد الأعلام الصغيرة . واختلط الصياح والحتاف والتهليل بأصوات الزماير . وتمايلت العربات الكارو بالراقصات والراقصين . وأغلقت الدكاكين واكتظت المقاهي والحانات والغرز . وعند كل ركن بزغت البشاشة وقال قائل : « كل عام وانتم بخير » . وجلس قاسم في ثوب جديد واحسان واقفة في حجره متأبطة راحتيه ، تجوس بيديها الصغيرتين في قسياته او تنشب اطافرها في خديبه . وارتفع صوت تحت النافذة يعني :

أصل اللي شبكتني مع المحبوب عيني دية

فذكر لتوه زفته السعيدة حتى رق قلبه . وهو رجل يحب الغناء والطرب . وكم تمنى أدهم أن يتفرغ الغناء في الحديقة الغناء . وماذا يعني الرجل في العيد ؟ أصل اللي شبكتني مع المحبوب عيني دية ؟ صدق الرجل . فنذ ارتفعت عيناه في الظلام الى قنديل سلب قلبه وعقله وارادته . وما هو حوش بيته يستحيل نادياً لتقوية الأبدان وتطهير الأرواح . وهو مثلهم يرفع الأنقال ويتعلم التحطيب . وصادق امتلاأت عضلات ذراعيه كما امتلاأت من قبل - بفضل عمله في تبيض النحاس - عضلات ساقيه . أما حسن فيا له من مارد عملاق . والآخرون ما أبهر حماسهم . وكان صادق حكيماً يوم نصحه بدعوة المتعطلين والمتسولين الى ناديه وسرعان ما تحمسوا لألعابه كما تحمسوا لأقواله . أجل انهم قلة ولكنهم لطموحهم اذا وزنوا بأضعاف أضعافهم رجحوا بهم . وهتفت احسان : « آد .. آد .. » فقبلها كثيراً ، وكان طرف جلبابه الجديد مبتلاً تحنهما . وترامى اليه من المطبخ دق الهاون وصوتا قمر وسكينة ونواء القطعة . ومرت عربة كارو تحت الشباك وهي تنشد مصفقة :

الفاتحة للعسكري قلع الطربوش وعمل ولى

وابتسم قاسم فتذكرا ليلة غنّى المعلم بحبي هذه الانشودة وهو في تمام السطول . آه لو تستقيم الأمور فلا يبقى لك الا الغناء يا حارتنا ! غداً يمتلئ النادي بالأعوان الأقوياء والصادقين . غداً أتحدى بهم الناظر والفتوات وجميع العقبات . كي لا يبقى في الحارة الا جد رحيم وأحفاد بررة . ويمحق الفقر والقذارة والتسول والطغيان . وتختفي الحشرات والذباب والنبايب . وتسود الطمأنينة في ظل الحدائق والغناء . واستيقظ من أحلامه على صوت قر وهي تنهر سكينه في غضبة داهمة . انصت متعجباً ثم نادى زوجته ، وسرعان ما فتح الباب وجاءت قر وهي تدفع الجارية امامها وتقول :

— أنظر الى هذه المرأة ! ولدت في بيتنا كما ولدت أمها من قبل ، ولا تتعفف عن التجسس علينا !

فنظر الى سكينه بانكار حتى هتفت بصوتها النحاسي :

— لست خائنة يا سيدي ولكن ستي لا ترحم !

وقالت قر وفي عينها فزع أخفقت في مداراته :

— رأيته تبتسم وتقول لي : « سيجيء العيد القادم ان شاء الله

وسيدي قاسم سيد الحارة كلها كما كان جبل في حي حمدان » .. سلها

عما تعني بذلك ؟

وقطب قاسم مهتماً ، وسألها :

— ماذا تعنين يا سكينه ؟

فقالت الجارية بجرأة غير غريبة عليها :

— أعني ما قلت ، لست خادمة كالخادومات ، أعمل اليوم هنا وغداً

هناك ، اني ربيبة هذا البيت ، وما كان يجوز ان يخفى عني سر .

فبادل الرجل نظرة سريعة مع زوجته ، وأشار الى الطفلة فجاءت

وتلقته منه ، وأمر الجارية ان تجلس فجلست عند قدميه وهي تقول :

— أيصح أن يعلم بسرك غرباء عن البيت وأظلم أجهله أنا ؟!

— أي سر تقصدين ؟

فقالت الجارية بنفس الجراءة :

— حديث قنديل اليك عند صخرة هند !

ندت عن قر آهة ولكن قاسم اشار الى الجارية ان تستمر فقالت :

— كما حدث لجبل ورفاعة من قبل ، لست دونهما يا سيدي ، أنت سيد ، حتى على عهد الرعي كنت سيداً ، وكنت الوسيط الذي جمع بينكما الا تذكر ؟ كان يجب أن اعلم قبل الآخرين ، كيف تأمن الغرباء ولا تأمن جاريتك ! سامحكما الله ، لكنني أدعو لك بالنصر ، نعم أدعو لك بالنصر على الناظر والفتوات ، منذا الذي لا يدعو لك بذلك ؟

فصاحت قمر وهي تهدد الطفلة بحركة عصبية :

— ما كان يجوز أن تنجسي علينا ، وسيظل العيب لاصباً بذقنك .

فقالت سكيئة في حرارة صادقة :

— لم أقصد التجسس وربى شهيد ، ولكن نفذ الي من الباب كلام لم يسعني الا متابعتي ، وما كان في وسع انسان ان يغلق اذنيه دونه ، ان ما يقطع قلبي يا ستي هو انك لا تطمئنين الي ، لست خائنة ، أنت آخر ما أخون ، ولحساب من أخونك ؟ سامحك الله يا ستي .

كان قاسم يتفحصها بعناية ، بعينه وبقلبه ، فلما انتهت قال بهدوء :

— أنت مخلصة يا سكيئة ، لا شك في اخلاصك .

فحدجته بنظرة مستطلعة مؤملة ، وتمتمت :

— عشت يا سيدي ، انا والله كذلك .

فقال بصوت خفيض :

— أنا أعرف المخلصين ، ولن تنبت الحيانة في بيتي كما نبتت في بيت أخي رفاعة ، يا قمر .. هذه المرأة مخلصة مثلك فلا تسيئي اليها بالظن ، هي منا كما نحن منها ، ولن أنسى انها كانت رسول السعادة الي .
فقالت قمر بصوت نم على بعض الارتياح :

— لكنها استرقت السمع !

فقال قاسم باسمًا :

— لم تسترق السمع ، ولكن الصوت نفذ اليها بمشيئة المولى ، كما سمع

ورفاعة صوت جده دون تدبير منه ، مباركة أنت يا سكينه !

فخطفت الجارية يده وانهاأت عليها لثماً وتقبيلاً وهي تقول :

— روحي فداؤك يا سيدي ، والله لتنتصرن على اعدائك واعدائنا
حتى تسود الحارة كلها .

— ليست السيادة مطلبنا يا سكينه !

فبسطت يديها داعية :

— اللهم حقق مطالبه !

— آمين ..

ثم نظر اليها باسمًا وهو يقول :

— وستكونين رسولي اذا احتجت الى رسول ، وبذلك تشتركين في

عملنا !

فتهلل وجه المرأة بشراً ، ونطقت عينها بالعزة ، فأردف قائلاً :

— اذا اذنت الأقدار بأن يوزع الوقف كما نريد فلن تحرم منه امرأة ،

سيده كانت أم خادمة !

عقدت الدهشة لسان المرأة ، فعاد يقول :

— قال الواقف ان الوقف للجميع ، وأنت يا سكينه حفيدة الواقف

مثل قر سواء بسواء .

واكتسى وجه المرأة بالبهجة ورنّت الى سيدها بامتنان . وترامت

من الحارة انغام مزممار راقصة . وصاح صائح : « لهيطة ..

الف مرة » فتحول قاسم نحو الطريق فرأى موكب الفتوات وهم يخطرون

على الجياد المزينة ، والناس تستقبلهم بالهتاف والاتاوات ، ثم

مضوا نحو الحلاء ليتنافسوا كعاداتهم في الأعياد في مضمار السباق

والتحطيب .. وما ان اختفى موكبهم حتى ظهر عجرة في الحارة وهو

يترنح سكرًا . ابتسم قاسم لدى ظهور الشاب الذي يعد من اصدق شباب
النادي وتابعه بعينه حتى وقف في مركز الوسط من حي الجرايع وصاح :
- انا جدع ..

فهبط عليه صوت ساخر من اول ربع في حي رفاعة قائلاً :
- يا زين الجرايع !

فرفع عجرة نحو النافذة عينين حراوين وصاح بصوت مخمور :
- جاء دورنا يا غجر !

والتف حوله غلمان وسكاري ومساطيل في ضجة عالية من الغناء
والزغاريد والطبل والثرر ، واذا بصوت يصيح :

- اسمعوا .. جاء دور الجرايع .. الا تريدون ان تسمعوا !
فهتف عجرة وهو يترنح :

- جد واحد للجميع ، وقف واحد للجميع . والسلام على الفتوة .
ثم غاب في الزحام . وسرعان ما وثب قاسم واقفاً فتناول عباءته ،
وغادر الحجرة مسرعاً وهو يقول :
- الله يلعن الحبرة وزمانها !

٧٧

- تجنبوا الظهور بين الناس وأنتم سكارى .
قال قاسم ذلك جاداً مقطباً وهو جالس تحت صخرة هند يقلب عينيه
في وجوه أصحابه المقربين من اعضاء النادي : صادق وحسن وعجرة
وشعبان وأبو فصادة وحروش . كان الجبل يلوح من ورائهم شامخاً وهو
يتلقى طلائع الليل الهابطة ، ولم يكن في الخلاه الا راعي غنم يقف
معتمداً على عصاه في أقصى الجنوب . وبدا عجرة مطرماً أسيفاً

وهو يقول :

— ليتني متّ قبل ذلك .

فقال قاسم في فتور :

— من الأخطاء ما لا يجدي معه الاعتذار ، المهم عندي الآن ان أعرف مدى أثر هذيالك في أعدائنا !

فقال صادق :

— من المؤكد انه سمع على نطاق واسع .

وقال حسن متجهماً :

— لمست ذلك بنفسني في قهوة جبل حيث دعاني صديق من آل جبل الى مجالسته ، فسمعت رجلاً يحكي بصوت مرتفع ما كان من أمر عجرة ، أجل كان يحكي وهو يضحك هازئاً ولكني لا استبعد ان تثير حكايته ريبة في بعض النفوس ، كما اخشى انتقالها من فم حتى تبلغ أحد الفتوات .

فقال عجرة متنهداً :

— لا تبالغ يا حسن .

فقال صادق :

— المبالغة خير من التهاون والا أخذنا من حيث لا نتوقع !

فقال عجرة :

— أقسم ألا نخاف الموت !

فقال صادق محتداً :

— كما أقسمنا ان نحفظ السر !

فقال قاسم :

— واذا هلكنا اليوم تبددت الآمال الكبار .

واشتد الوجوم مع الظلام الزاحف حتى عاد قاسم الى الكلام قائلاً :

— ينبغي أن نتدبر الأمر :

- فقال حسن :
- فلندبر أمرنا على افتراض أسوأ الاحتمالات .
- فقال قاسم بصوت كثيب :
- هذا معناه القتال .
- ونحركات الرؤوس تتبادل النظرات في الظلام ، ومن فوقها انبثقت النجوم تباعاً ، وهب هواء بطوي في نضاعيفه بقايا من حر النهار كالنوايا السيئة . ثم قال حروش :
- سنقاتل حتى الموت .
- فقال قاسم ممتعضاً :
- ويستمر الحال كما كان !
- فقال صادق :
- ما أسرع ما يقضون علينا .
- فقال أبو فصاده مخاطباً قاسم :
- من حسن الحظ أن هناك أسباب قربي تجمع بينك وبين سوارس ، كما تجمع بين حرمك وحرم الناظر ، وفضلاً عن هذا وذاك كان لهيطة من اصدقاء أبيك في شبابه .
- فقال قاسم يفتور :
- ربما أجل هذا القضاء ولكنه لن يمنع وقوعه .
- فسأل صادق برجاء :
- ألا تذكر أنك فكرت يوماً في الالتجاء الى محام شرعي ؟
- وقيل لنا إنه لن يجرؤ محام على تحدي الناظر والفتوات .
- فقال عجرة محاولاً التخفيف من ذنبه :
- هناك محام في بيت القاضي معروف بالجرأة .
- ولكن صادق عاد يقول مترجعاً :
- أخشى ما أخشاه أن نجهر بالعداوة عن طريق القضية وتكون .

مخاوفنا من عواهب ددم عجرمه سابقه لا واه .

فقال عجرمه :

— فلنشاور المحامي في الأمر ، ولنتفق معه على تأجيل رفع الدعوى حتى تدفعنا الضرورة الى ذلك ، وسنجد من يواليها منا ولو من خارج الحارة .

ووافق قاسم والآخرون على هذا الرأي كاجراء احتياطي . وقاموا من فورهم فذهبوا الى مكتب الشنايفري المحامي الشرعي ببيت القاضي . وقابلهم الشيخ فشرح له قاسم قضيتهم ، وأخبره عن نيته في تأجيل رفع الدعوى الى حين ، على أن يستعد هو للأمر بدراسة الموضوع والتأهب لاتخاذ كافة الاجراءات . وعلى خلاف ظن اكثرهم قبل المحامي القضية ، وقبض مقدم الأتعاب ، فانصرفوا من لدنه مغتبطين . وتفرقوا ، فعاد الصحاب الى الحارة ومضى قاسم الى المعلم يحيى . وجالسه في دهليز الكوخ يدخنان ويتبادلان الرأي . وبدا المعلم آسفاً على ما وقع ووصى قاسم باليقظة والحذر .

وعاد قاسم بعد ذلك الى داره ، ولما فتحت له قمر رأى في وجهها ما أزعجه فسألها عما وراءها فقالت :

— أرسل حضرة الناظر في طلبك !

فخفق قلب قاسم ، وتساءل :

— متى ؟

— آخر مرة منذ عشر دقائق !

— آخر مرة !

— أرسل اليك ثلاث مرات في ظرف ساعة .

واغرورت عينها وهي تتكلم ، فقال :

— ليس هذا ما انتظره منك .

فانتحبت قائلة :

— لا تذهب .

فقال وهو ينظاهر بالهدوء :

— الذهاب آمن من التخلف ، ولا تنسي أن هؤلاء اللصوص لا
يعتدون على أحد في بيوتهم .

وبكت احسان في الداخل فهرعت اليها سكينه ، وقالت قر :

— أجل ذهابك حتى أقابل أمينة هانم .

فقال بحزم :

— هذا لا يليق بنا ، سأذهب من فوري ، ولا داعي للخوف
فلا أحد منهم يعرف عني شيئاً .

فتشبث به قائلة :

— دعاك أنت لا عجربة ، أخشى أن يكون بعضهم قد وثى بك.

فتخلص منها برفق وهو يقول :

— قلت لك منذ اللحظة الأولى إن أيام الراحة ولت ، وجميعنا يعلم
بأننا سنواجه الشر عاجلاً أو آجلاً ، فلا نجزعى هكذا ، وابقى بخير
حتى أرجع .

٧٨

عاد البواب من داخل بيت الناظر وقال لقاسم في فتور وجفاء :

— أدخل .

ومضى أمامه فتبعه قاسم باذلاً جهده للسيطرة على مشاعره ، وسطعته
رائحة الحديد الزكية دون أن يلتفت اليها حتى وجد نفسه أمام مدخل
البهو . وتنحى البواب عن طريقه فدخل ثابت الجنان بدرجة لم يكتشفها
في نفسه من قبل . ونظر أمامه فرأى في أقصى البهو الناظر جالساً على

ديوان ، وكان هناك شخصان ، يجلس احدهما على معقد الى يمين الناظر والآخر الى يساره ، لكنه لم يتبينهما أو يُعَيَّنَ بالالتفات الى أحدهما ، واقترب من مجلس الناظر حتى وقف على بعد أذرع منه ، ورفع يده بالتحية وقال بأدب :

— مساء الخير يا حضرة الناظر .

ولمح دون قصد الجالس الى يمينه فإذا به لهيطة ، ولحظ الآخر لكن عينيه حملت في بلا وعي منه ، وتلقى صدمة كادت أن تهبطه . لم يكن الرجل الا الشيخ الشافري المحامي الشرعي ! أدرك خطورة الموقف ، أن سره انكشف ، إن المحامي النذل خان الأمانة ، وأنه وقع . التحم في قلبه اليأس بالغيظ والغضب . وعرف انه لن ينجيه المكر أو الدهاء فصمم على الصمود والتحدي . ولم يكن في الوسع أن يتراجع خطوة فكان عليه ان يتقدم او يثبت على الأقل . وقد ذكر موقفه هذا فيما تبيح من أيام ، وكان يؤرخ به مولد شخص جديد في ذاته لم يكن يتصور وجوده . وانتزعه من دوامته صوت الناظر الجاف وهو يتساءل :

— أنت قاسم ؟

فأجاب بصوت طبيعي :

— نعم يا سيدي !

فسأله دون ان يأذن له بالجلوس :

— هل أدهشك وجود الأستاذ ؟

فأجاب بنفس النبرة :

— كلا يا سيدي .

فتساءل بازدياء :

— أأنت راعي الغنم ؟

— انقطعت عن رعي الغنم منذ اكثر من عامين .

— وماذا تعمل الآن ؟

— وكيلاً لزوجتي في أملاكها .
فندت عن الناظر هزة رأس ساخرة ، ثم أشار الى المحامي آذناً له
بالكلام فقال الشيخ مخاطباً قاسم :

— لعلك تعجب من موقعي باعتباري محاميك ، ولكن حضرة الناظر
مكانة تعلق على هذه الاعتبارات جميعاً . وسيفسح تصرفي لك مجالاً للتوبة
هو خير من التورط في عداوة كانت ستؤدي بك الى الهلاك ، وقد
أذن لي حضرة الناظر في أن أخبرك بأنني تشفعت لك عنده بالعمو إذا
أعلنت التوبة ، فأرجو ان تقدر حسن نيتي ، وهاك مقدم الأتعاب أردته
اليك .

فرمقه قاسم بنظرة قاسية وتساءل :
— لماذا لم تنصحنني بالحق وأنا في مكتبك ؟
فأخذ المحامي بجراسته : ولكن الناظر أسعفه بقوله !
— أنت هنا لتسأل لا لتسأل :
ونفض المحامي مستأذناً بالانصراف ، ثم مضى وهو يحبك جبته
مداراة لارتباكاه . وعند ذاك تفحص الناظر قاسم بنظرة قاسية وقال
بنبرة كالسب :

— كيف سولت لك نفسك الشروع في رفع دعوى علي ؟
وجد نفسه محاصراً ، فاما القتال واما القتل ، ولكنه لم يدر ماذا
يقول ، فقال الآخر :

— انطق ، خبرني عما ورائك ، هل أنت مجنون ؟
فقال قاسم في وجوم :
— أنا عاقل بحمد الله .
— لا يبدو هذا مؤكداً ، لماذا أقدمت على فعلتك المنكرة ؟ لم تعد
فقيراً منذ رضىبتك المجنونة زوجاً لها ، فإذا أردت من فعلتك ؟
فزجر قاسم كأنما ليأمن الغضب وقال :

- لا أريد شيئاً لنفسى .
- فنظر الناظر نحو لهيطة كأنما يشهده على غرائب ما يسمع ، ثم أعاد عينيه الى قاسم فيما يشبه الثورة ، وصاح :
- إذن لماذا فعلت ما فعلت ؟ !
- فأجاب قاسم :
- ما أردت إلا العدل .
- فضيق الرجل عينيه في حقدٍ وتساءل :
- أتحسب ان علاقة زوجتك بالهائم قادرة على حمايتك ؟
- فغض بصره وهو يقول :
- كلا يا سيدي .
- هل أنت فتوة قادر على تحدي فتوات الحارة جميعاً ؟
- كلا يا سيدي .
- فصرخ الرجل :
- قل انك مجنون وأرحني .
- أنا عاقل والحمد لله .
- لماذا شرعت في رفع دعوى عليّ ؟
- أردت العدل .
- لمن ؟
- فارتسم التفكير في عينيه وهو يقول :
- للجميع .
- فخرس في وجهه مرتاباً في عقله ، وتساءل :
- وما شأنك أنت ؟
- فقال قاسم وكأنه ثمل بشجاعته :
- بذلك تتحقق شروط الواقف !
- فصرخ الناظر :

- أنت يا جربوع تتكلم عن شروط الواقف ؟ !
فقال قاسم بهدوء :
— انه جدنا جميعاً .
- فهب الناظر واقفاً في غضب وهوى بشعر منشته على وجه قاسم بأقصى قوته وصاح :
- جدنا ! ليس فيكم من يعرف أباه ولكنكم تقولون بكل وقاحة جدنا : يا لصوص يا جرابيع يا سفلة ، انما تبادى في وقاحتك استناداً الى حماية هذا البيت لك ولزوجتك ، ولكن كلب البيت يفقد حمايته اذا عض يد المحسنين اليه .
- ووقف لهيطة ليسكن من ثورة الناظر فقال :
- عد الى مجلسك مطمئناً فلا يصح ان تكدر صفوك ذبابة .
- فجلس رفعت وشفته تترتشان من الغضب ، وصاح :
- حتى الجرابيع يطمعون في الوقف ويقولون بكل وقاحة جدنا .
- وعاد لهيطة الى مجلسه وهو يقول :
- الظاهر ان ما تناقله الناس عن الجرابيع صحيح ، ومن سوء حظ حارتنا انها تسعى الى الهلاك باقدامها .
- والتفت الى قاسم وقال :
- كان أبوك من أعواني الأوثل فلا ترغمني على قتلك .
- فصاح الناظر :
- انه يستحق ما هو أقطع من القتل جزاء فعلته ، ولولا الهائم لكان الساعة في الهالكين !
- وواصل لهيطة استجواب قاسم قائلاً :
- اصغ اليه يا بني ، وخبرني عمن وراءك ؟
- فتساءل قاسم وهو ما زال يستشعر الألم عند موقع المنشة من وجهه :
- من تقصد يا سيدي ؟

- من دفعك الى رفع الدعوى ؟
- لا أحد سوى نفسي .
- كنت راعي غنم ثم ابتسم لك الحظ فقيم تطمع أكثر من ذلك ؟
- العدل ، العدل يا معلم .
- فصرّ الناظر على أسنانه وهتف :
- العدل ! يا كلاب يا أراذل ، هذه كلمة السر عندكم إذا اعترتم
- النهب والسرقة .
- ثم ملتفتاً نحو لهيطة :
- قرّره حتى يقر !
- فعاد لهيطة يقول بصوت تنجمع في نبراته نذر الوعيد :
- خبرني عن وراءك !
- فقال قاسم بتحدٍ خفي :
- جدنا ..
- جدنا !
- نعم ، اطلع على شروط وقفه وستعلم أنه هو الذي دفعني .
- وهب رفعت واقفاً مرة أخرى وهو يصيح :
- أبعدته عن وجهي .. لإرمه خارجاً .
- وقام لهيطة فأخذ قاسم من ذراعه ، ومضى به نحو الباب ، وشد
- على ذراعه بقبضة من حديد تحملها الآخر متصبهاً ، ثم همس في أذنه :
- اعقل اكراماً لنفسك ، ولا تضطروني إلى ان أشرب من دمك .

وشعبان وابو فصادة وحمروش . تطلعون الىه في اشفاق وصمت ، ولما
جلس الى جانب زوجته قال عويس :

— ألم أنصحك ؟

فقالت قر في عتاب :

— مهلاً يا عمي حتى يستريح .

فهتف الرجل :

— شر المتاعب ما تجيء صاحبها من نفسه !

وجعل زكريا يتفحص وجه قاسم بعناية ثم قال :

— أهاونوك يا ابن أخي ، اني أعرفك كما أعرف نفسي ، ما كان
أغناك عن هذا كله .

وقال عويس :

— لولا أمينة هانم ما رجعت الينا سالماً .

وقلب قاسم عينيه في وجهه صحبه وقال :

— خائنا المحامي اللثيم !

فتصلبت وجوههم ، وتبادلوا النظرات في انزعاج ، فسبقهم عويس
الى الكلام قائلاً :

— انفضّوا بسلام ، وليحمد كل منكم الله على نجاته .

وسأله حسن :

— ما قولك يا ابن عمي ؟

فتفكر قاسم قليلاً ثم قال :

— لا أخفي عنكم أن الموت يتهددنا ، واني أعفي من معاونتي من
يشاء .

فقال زكريا :

— فلينته الأمر عند هذا الحد .

فقال قاسم بهدوء وتصميم :

— لن أتخلى عن الأمر مهما تكن العواقب ، ولن أكون دون جبل
أو رفاة برأ مجدي وأهل حارتنا .

فقام عويس غاضباً وغادر حجرة الجلوس وهو يقول :

— هذا الرجل مجنون ، وكان الله في عونك يا بنت أخي .

أما صادق فوثب الى قاسم وقبل جبينه وهو يقول :

— رددت إليّ روجي بما قلت .

وقال حسن متحمساً :

— الناس في حارتنا يقتلون بسبب ملهم ، وبلا سبب ، فلماذا نخاف

الموت عندما نجد له سبباً حقاً ؟ !

وارتفع صوت سوارس من الحارة منادياً زكريا فأطل الرجل من

النافذة ودعاه الى الدخول ، وما لبث ان دخل الحجرة وجلس وهو

مقطب متجههم . ثم نظر الى قاسم وقال :

— لم اكن أدري ان في حيننا فتوة سواي .

فقال زكريا مشفقاً :

— ليس الأمر كما قيل لك .

— ما قيل لي أدهى وأمر .

فقال زكريا متأوهاً :

— عبث الشيطان بعقول أولادنا .

فقال سوارس بجفاء :

— أسمعني لهيطة كلاماً ثقيلاً بسبب ابن أخيك ، كنت أحسبه فتى

عاقلاً فإذا بمجنونه يفوق كل جنون . اسمعوا جيداً ، إذا تهاوت معكم

جاء لهيطة ليؤدبكم بنفسه ، ولكنني لن أسمح لأحد بأنه يعرض كرامتي

للمهانة ، فالزموا حدودكم ، والويل لمن تحدّثه نفسه بالعناد .

وراح سوارس يراقب أعوان قاسم فلم يسمح لأحد منهم بالاقتراب

من بيته ، وفي سبيل ذلك أهان صادق ولكم ابو فصادة ، وطلب الى

زكريا ان ينصح قاسم بالتزام داره حتى تنسى الزوبعة . ووجد قاسم نفسه سجيناً في بيته ، لا يزوره أحد سوى ابن عمه حسن . ولكن ما من قوة تستطيع ان تسجن الأخبار في الحارة . فقد تسالت الى حيي رفاة وجبل همسات عما يضطرب في حي الجرايع ، عن دعوى كادت ان ترفع على الناظر ، وعن مزاعم خاصة بالشروط العشرة ، بسل عن اتصال وقع بين قنديل خادم الجبلاوي وبين قاسم . وثارَت النفوس بشئ الانفعالات ، وتطايَرت التهم والسخریات . وقال حسن يوماً لقاسم :
- الحارة تتهامس بالخبر ، وفي كل غرزة لا حديث إلا عنك .
فرفع قاسم إليه وجهاً غائماً بالهم والفكر كشأنه في الأيام الأخيرة
وقال :

- انقلبنا سجناء ، والأيام تمر بلا عمل .

فقالت قمر باشفاق :

- لا يطالب مخلوق بما فوق طاقة البشر .

وقال حسن :

- اخواننا على أشد ما يكون من الحماس .

فسأله قاسم :

- أحق أن آل جبل ورفاعة يرموني بالكذب والجنون ؟ !

فغض حسن بصره مثلاً وقال :

- الجبن أفسد الرجال !

فهز قاسم رأسه في حيرة وتساءل :

- لماذا يكذبني آل جبل ورفاعة ومنهم من قابله الجبلاوي أو

حادثه ؟ لماذا يكذبونني وهم أولى الناس بتصديقي وتأبيدي ؟ !

- ان داء حارتنا الجبن ولذلك فهم يناقون فتواتهم !

وارتفع من الطريق صوت سوارس كالخوار وهو يسب ويلعن فأطلت

الأسرة من الشباك فرأوا سوارس ممسكاً بتلايت شعبله وهو يصرخ فيه :

— ماذا جاء بك هنا يا ابن الزانية ؟

وعبثاً حاول الشاب التخلص من قبضته ، وإذا بسوارس يقبض على عتقه بيسراه وينهال باليمين ضرباً على وجهه ورأسه . وغضب قاسم غضباً شديداً فتراجع عن الشباك وهرع نحو الباب غير مبال بتوسلات قمر . وفي أقل من دقيقة كان يقف امام سوارس ويقول له بحزم وتصميم :
— اتركه يا معلم سوارس .

فلم يكف الرجل عن تكييل الضربات لفريسته وصاح بقاسم :
— احترم نفسك وإلا أبكيك عليك عدوك .

وقبض قاسم على يده الضاربة وشد عليها بقوة هاتفاً بغضب :
— لن أدعك تقتله وافعل ما تشاء .

وترك سوارس شعبان فانهار على الأرض في غيبوبة ، وخطف مقطف تراب من فوق رأس امرأة عابرة وألبسه رأس قاسم . وهمم حسن بالوثوب عليه لولا ان طوقه زكريا بذراعه في الوقت المناسب الذي وصل فيه . ورفع قاسم المقطف عن رأسه فبدا وجهه كالمختنق وانسال التراب على رأسه ووثبه حتى غطاه ، وسرعان ما تملكته نوبة سعال . وصرخت قمر وصوتت سكينه ، وجاء عويس مهرولاً ، وانطلق النساء والرجال والصغار من الأبواب نحو الموقعة فعلا اللغو والضوضاء . وكان زكريا يشد على ذراع ابنه حسن بكل قواه وينظر في عينيه الجاحظتين بتوسل وتحذير . واقرب عويس من سوارس قائلاً :

— امسح العيب في وجهي أنا يا معلم سوارس .
وهتف اكثر من صوت : « شفاعة الله يا معلم ! » .. حتى صرخ سوارس قائلاً :

— هذا قريب وذاك شفيع ، وبين هذا وذاك ضاع سوارس وانقلب مرة بعد ما كان فتوة !
فصاح زكريا :

— استغفر الله يا معلم ، انت سيدنا وتاج راسنا .
ومضى سوارس إلى القهوة ، فرفع رجال شعبان ، وراح حسن ينفذ
التراب عن وجه قاسم وثوبه ، واستطاع المتجمعون — بعد اختفاء
سوارس — أن يبدوا عن أسفهم .

٨٠

وفي مساء ذلك اليوم ضج أحد الربوع بحي الجرايع . بالصوت ينمي
ميتاً . أطلقته حنجرة متهالكة وسرعان ما رددته عشرات الحناجر في
الربع . وأطل قاسم من النافذة فسأل فطين بياع اللب فأجابه الرجل :
« تعيش أنت ، شعبان مات ! » . وغادر الرجل داره قزعاً فقصد
ربع شعبان على مبعدة ربعين من داره . وهناك وجد الخوش مظلاً ومكتظاً
بسكان الشقق التحتانية الذين راحوا يتبادلون كلمات الرثاء والحزن والسخط
على حين تجاوبت دهاليز الادوار الفوقانية بالصوت . وسمع امرأة تقول
بعنف :

— لم يمت ولكن قتله سوارس .

— الهى يخرب بيتك يا سوارس !

فاعترضت ثالثة تقول :

— ما قتله إلا قاسم ! يفترى الأكاذيب ورجالنا تقتل .

فانقبض قلب قاسم حزناً ، وشق طريقه في الظلام حتى صعد الى أول
دور حيث توجد شقة القتيل . ورأى على ضوء سراج مثبت في حائط
الدهليز أمام الشقة أصحابه حسن وصادق وعجربة وابو فصاده وحمروش
وآخرين ، فأقبل صادق نحوه وهو يبكي فعانقه دون ان ينبس . وقال
حسن وقد بدا وجهه مروعاً تحت الضوء الشاحب :

- لن يذهب دمه هدرا .
- واقترع عجربة من قاسم وهمس في أذنه :
- زوجته في حالة سيئة حتى أنها هَلَّتْنا مقتلته .
- فهمس قاسم له :
- كان الله في عونها .
- وقال حسن في نبرة انتقامية :
- القاتل لا بد أن يقتل .
- فقال أبو فصادة بغیظ :
- منذ الذي يشهد عليه في حارتنا ؟
- فقال حسن :
- لكننا نستطيع أن نقتل كالأخرين .
- فلكره قاسم ليسكنه وقال :
- من الحكمة ألا تسبوا في جنازته ولكننا سنجتمع في القرافة .
- واتجه قاسم نحو شقة الفقيد فاعترضه صادق ليمنعه ولكنه نحاه جانباً
- ودخل . ونادى زوجته فجاءت متعجبة تطالعها بعينين دامعتين ، ثم
- تجبرت نظراتها وسأله :
- ماذا تريد ؟
- فقال بحزن :
- جئت أعزبك .
- فقال بحدة :
- أنت فتنته ، ما كان أغنانا عن الوقف ، وأحوجنا إليه هو .
- فقال برقة :
- ربنا يصبرك ، ويهلك المجرمين ، ونحن أهلك كلما احتجت الى
- أهلك ، ولن يضيع دمه .
- رمقته شزراً واستدارت راجعة . وبرجوعها انفجر النواح والعويل ،

فغادر المسكن كثيباً مقيماً .

وعندما طلع الصباح رأى الناس سوارس جالساً عند مدخل قهوة دنجل
يقلب في المارتين وجهاً مدمغاً بالتحدي والاجرام . وحياء الناس مضاعفين
له التودد مداراة لسخطهم . وتجنبوا الاشتراك في الغزاء فلبثوا في دكاكينهم
او وراء عرباتهم او فوق التراب . وخرج النعش محمولاً عند الضحى ،
واقترع المشيعون على الأهل والأقارب ولكن قاسم انضم اليهم غير مهال
بنظرات الفتوة المحرقة . وغضب صهر القتيل فقال لقاسم محدداً :

— تقتل القتيل وتمشي في جنازته !

فلاذ بالصمت والصبر حتى سأله آخر بخشونة :

— لماذا جئت ؟

فقال باصرار :

— لأقاتل كما قاتل صديقي رحمه الله ، كان شجاعاً ، ولستم كما
كان ، وتعرفون القاتل وتصفون غضبكم علي .

فوجم أكثرهم . وتجمهرت النساء وراء الرجال ، حافيات يهولن
بالسواد ، يسفن التراب فوق رؤوسهن ويلطمن الحدود . واخترقت
الجنازة الجمالية نحو باب النصر . ولما تمت مراسم الدفن تفرق المشيعون
الا قاسم ، فقد تباطأ في السير حتى تخلف عنهم ، ورجع الى القبر فوجد
اصحابه في الانتظار . واغرورقت عيناه بالدموع فأجهشوا جميعاً بالبكاء .
وجفف عينيه براحته وقال :

— من يريد السلامة فليذهب .

فقال حروش :

— لو كنا نريد السلامة ما وجدتنا حولك .

فقال وهو يطرح يده على شاهد القبر :

— عز علي فقده ، كان شجاعاً منحمساً ، وذهب غدراً ونحن في

أشد الحاجة اليه .

فقال صادق :

— قتله فتوة غادر ، وسوف يبقى منا بعض ليشهدوا مصرع آخر
فتوة في حازتنا .

فقال حمروش :

— ولكن لا ينبغي أن نضيع غدرأ كما ضاع فقيدنا ، فكروا في الغد
وكيف نحقق النصر !
— وكيف نجتمع لتبادل الرأي . .

فقال قاسم :

— لم يكن لي من أنيس في سجنى الا التفكير في هذا ، واهتديت
الى رأي ، ليس باليسير ولكن لا محيد عنه .
فاستطلعوه مسائلين فأردف :

— أهجزوا حارتنا ، فليدبر كل شأنه وليهاجر ، سنهاجر كما هاجر
جبل قديماً وكما هاجر المعلم يحيى بالأمس ، ولنقيم ناديتنا في مكان آمن
بالخلاء حتى يشتد ساعدنا ويكثر عددنا .
فهتف صادق :

— نعم الرأي .

— لن نظهر حارتنا من الفتوة الا بالقوة ، ولن نحقق شروط الواقف
إلا بالقوة ، ولن يسود العدل والرحمة والسلام إلا بالقوة ، وستكون
قوتنا أول قوة عادلة غير باغية .

استمعوا بقلوب واعية . وتطلعوا الى قاسم ، والى القبر وراء ظهره ،
فخيل اليهم ان شعبان يشاركهم الاستماع ويباركه . وقال عجربة متأثراً :
— نعم فبالقوة تحل المشاكل ، القوة العادلة غير الباغية ، كان شعبان
يقصدهك عندما اعترضه سوارس ، لو كنا معه لاعترض الفتوة قوة لا
يسهل قهرها ، لعنة الله على الخوف والتفرق .

استروح قاسم لأول مرة نسمة ارتياح وابتهاج فقال :

- لقد وضع جدنا ثقته بين ابدينا وهو عن يقين يؤمن بأن في ابنائه
من هم أهل لحملها .

٨١

ورجع قاسم الى بيته عند منتصف الليل ، لكنه وجد قمر مستيقظة تنتظره .
وبالفت أكثر من عاداتها في العناية به والحنو عليه ، وكان يؤله بقاؤها
مستيقظة حتى تلك الساعة ، ثم تبين له ذبول في عينيها واحمرار بخلفه
البكاء كما تخلف الشمس الشفق ، فتساءل في كآبة :

- هل كنت تبكين ؟

لم تجبه كأنما شغلت عنه بكوب اللبن الدافئ الذي تعده له ، فعاد
يقول :

- موت شعبان أحزننا جميعاً ، رحمه الله .

فبادرته قائلة :

- بكيت على شعبان قبل ذلك ، لكنني كنت أبكي كلما تذكرت
اعتداء الرجل عليك ، أنت آخر رجل يستحق ان يهال التراب على
رأسه ووجهه .

فقال محزوناً :

- ما أخف هذا بالقياس الى ما أصاب صاحبنا المسكين .

فجلست الى جانبه وهي تقدم له الكوب وتمتت :

- وكم يضايقني ما يقال عنك .

فابتسم متظاهراً بالاستهانة ورفع الكوب الى فيه ، فأردفت مفيضة :

- ان جلطة يؤكد لآل جبل انك طامع في الوقف لتستأثر به وحدك ،

وهكذا يقول حجاج في آل رفاعة ، ويشيعان عنك انك تنتقص من

جبل ورفاعة .

فقال دون ان تخفي ضيقه :

— أعرف ذلك ، كما أعرف انه لولاك لما كنت حتى اليوم حياً .
فربتت كتفه بخنان . وإذا بها تتذكر الأيام الماضية لغير ما سبب .
أيام لم تكن لأحاديثها نهاية ولا لسعادتها غاية . وأفراح الليالي المضية
بعد مولد احسان . هي اليوم لا تملك منه شيئاً ولا يملك هو من نفسه
شيئاً . حتى آلام المرض التي تنتابها أحياناً تخفيها عنه . انه لا يفكر في
نفسه فكيف تشغله بنفسها . وهي تخجل ان تثقل عليه حتى لا تعين
اعداءه بغير قصد عليه . منذ الذي يطمئن عليها وأيام العمر تولي كما
ولت أيام الراحة . ساحك الله يا حازتنا . وعاد قاسم يقول :

— لا يغيب عني الأمل ولو في الظلام ، وما اكثرت الأصدقاء الصادقين
وان بدوت وحيداً ، تحدى أحدهم سوارس فمن كان يجرؤ على ذلك من
قبل ، والآخرون مثله ، والشجاعة أخطر ما يلزم حازتنا كي لا تقضي
العمر تحت الأقدام ، فلا تنصحيني بالسلامة ، ان الذي قُتل ، قُتل
وهو في طريقه الى داري ، وأنت لا ترضين لزوجك بمذلة الجبن .
ابتسمت قمر وهي تسترد الكوب فارغاً ، وقالت :

— ان زوجات الفتوات يزغردن عند المعارك وهي شر ، فكيف أرضى
بأن أكون دونهن للخير ؟

وأدرك أن حزنها أخطر مما تبديه فربت خدها بحب وقال معزياً :

— أنت كل شيء لي في دنياي ، أنت خير رفيق في الحياة .

فابتسمت استدعاء للسكينة التي يجب ان تسبق النوم .

وعجب عم شنتح مبيض النحاس من اختفاء صديق ، وكان سعى
اليه في داره فلم يجد له ولا لأحد من ذويه أثراً . وعبد المفتاح الفسخاني
كذلك لم يجد لعامله عجربة أثراً في الحارة . ولم يعسد ابو فصاده الى
مقل حمدون ولم ينذره بغيايه . وأين حروش ؟ قال حسونة النران انه

اختفى كأن نيران الفرن التهمت . وآخرون ذهبوا بلا عودة . وانتشر
الخبر في حي الجرابيع وامتدت منه أصداً الى بقية الحارة حتى قال
الناس في حيّ جبل ورفاعة هازئين إن الجرابيع يهاجرون وأن سوارس
لن يجد مع الأيام من يحصل منه الاثاوة . واستدعى سوارس زكريا الى
قهوة دنجل وقال له منذراً :

— ابن أخيك خير من يدلنا على مر الهاربين
فقال زكريا :

— يا معلم سوارس لا تظلمه ، مضت أيام وأسابيع وأشهر والرجل
لا يغادر داره .

فقال الفتوة مزجراً :

— ألا عيب أطفال ، لكني استدعيتك لأحذرك مما قد يصيب ابن
أخيك .

— قاسم من دمك ، ولا تُشمت بنا العدو !

— هو عدو نفسه وعدوي ، انه يتوهم نفسه جبل هذا الزمان ، وهذه
اللعنة هي أقرب سبيل الى باب النصر .

فقال زكريا في جزع :

— حلمك يا معلم سوارس ، نحن جميعاً في حمايتك !

ولما رجع زكريا الى مسكنه صادف حسن راجعاً من بيت قاسم
فأفرغ فيه الخلق الذي ملأه به سوارس ، غير ان حسن قاطعه قائلاً :

— صبرك يا أبي ، قمر مريضة ، مريضة جداً يا أبي .

وعلمت الحارة بمرض قمر حتى بيت الناظر . ولازمها قاسم وهو في
عاية من الكآبة والحزن . وكان يهز رأسه في حيرة ويقول :

— في لحظة واحدة ترقدين بلا حول !

فقالت المرأة بصوت ضعيف :

— كنت أخفي عنك حالي رحمة بقلبك المنقل بالمتاعب .

فقال في حزن شديد :

— كان ينبغي ان اشاركك ألمك من أول الأمر
فانفجرت شفتاها الشاحبتان ، عن ابتسامة كالزهرة الذابلة في غود
ناضب ، وقالت :

— ستعود الصحة الى سابق عهدها .

بذلك دعا قلبه . لكن ما هذا الغيم يغشى العين . وما هذا الجفاف
يسري في الوجه . وما تلك القدرة على اخفاء الألم ؟ ذلك كله من
اجلك أنت . يا الهي احفظها برحمتك . وابقيها لي ، واعطف على
بكاء الطفل الذي لا ينقطع .

— سماحك معي جعلني لا أسامح نفسي .

فابتسمت مرة أخرى فيها يشبه العتاب . وجيء بألم سالم لتبخرها ،
وأم عطية لتعدها بعض المعاجين ، وابراهيم الحلاق ليحجنها ، ولكن
أم احسان استعصت فيما بدا على الشفاء . وقال لها قاسم :

— وددت لو افتديك من ألمك .

فأجابت بصوت واهن كالصمت :

— لا أصابك سوء .

ثم مردفة :

— يا أحب الناس الى قلبي .

وقال لنفسه : « لمنظرها تسود الدنيا في عيني ا » وقالت هي :

— العاقل مثلك آخر من يعز عليه الغراء .

وجاء زائرون وزائرات ولكنه ضاق بالمكان ففر الى سطح البيت .
كانت أصوات النساء ترتفع من نوافذ الربوع ، واللعنات تختلط بنداءات
الباعة في الطريق ، وبكاء طفل حسبه لأول وهلة صوت احسان حتى
رأى صاحبه وهو يتمرغ في تراب سطح مجاور . وكان الظلام يهبط
وثيداً ، وسرب من الحمام يعود الى برجيه ، ونجمة وحيدة تومض في

الأفق . وتساءل عن معنى النظرة الغريبة التي تلوح في عين قمر ، كأنها لا ترى ، وعن اهتزازات جانب فيها غير الارادية ، وعن الزرقة التي تصبغ شفيتها ، وعن شعوره البالغ بالانقباض . ولبث ساعات ثم نزل ، فقابل سكينه في الصالة حاملة احسان بين يديها فقالت له همساً :
- ادخل على مهل كيلا توقظها .

واستلقى على الكنبه المواجهه للفراش في ضوء خافت ينبعث من مصباح فوق أرضية الشباك . ولم يكن ثمة صوت في الحي إلا نواح الرباب ، ثم تلاه طائفا الشاعر قائلاً : « فقال الجلد بهدوء :
- رأيت ان اعطيك فرصة لم تنح لأحد ممن في الخارج ، وهي ان تعيش في هذا البيت ، وأن تتزوج به ، وان تبدأ حياة جديدة فيه .
فتتابعت دقائق قلب همام في نشوة من الأفراح ، وقال :
- الشكر لك على نعمتك .
- انك تستحقها .

واختلج نظر الشاب بين جده وبين السجادة ثم تساءل في اشفاق :
- وأسرني ؟
فقال الجبلاوي في عتاب :
- قلت ما أريد بوضوح .
فقال همام باستعطاف :

- أنهم يستحقون رحمتك وعفوك .
وندت عن النائمة حركة لا تخلو من عنف فوثب فوق الكنبه إليها .
رأى في عينيها بريقاً جديداً حل محل الغيم ، فسألها عما بها فهتفت بصوت قوي :

- احسان ! أين احسان !
غادر الحجرة مسرعاً ، ثم عاد وفي اثره سكينه حاملة الصغيرة النائمة . وأشارت قمر نحو احسان فقربت بها سكينه إليها حتى لثمت خدها ،

على حين جلس قاسم على حافة الفراش . ومالت عيناها اليه ، ثم همست :

— ما بي أعظم !

فقال نحوها متسائلاً :

— ماذا تعنين ؟

— آلمتك كثيراً ولكن ما بي اعظم .

فعض شفته ثم قال :

— قمر ، انا حزين لأنني عاجز عن تخفيف ألمك !

فقالت باشفاق :

— أخاف عليك من بعدي .

فقال في حزن شديد :

— لا تتحدثي عني .

— قاسم ، ارحل ، الحق باصحابك ، سيقتلونك ان بقيت .

— نرحل معاً .

فقالت بمشقة :

— ليس الطريق واحداً .

— لا تريدان ان ترجميني كما عودتني

— آه ، كان ذلك في الأيام الماضية .

وبدت كأنها تقاوم ضغطاً شديداً فلوحت بيدها . واشتد ميله نحوها

حتى امتلأ بانفاسها . وتلاوت ، وامتدت رقبتها كالمتغيثة ، وانطلق

صدرها في عنف ، وزفر حشرجة قاسية ، فصاحت سكية :

— اجلسها ، تريد ان تجلس .

فأحاطها بذراعيه ليجلسها ولكن ندت عنها شهقة كأنها وداع أبكم ،

وانهار رأسها على صدره . وهرولت سكية بالطفلة الى الخارج .

ومن الخارج دوى صوتها يمزق الصمت .

وفي الصباح ازدحم بيت قاسم والطريق امامه بالمعزين . ان لصلات القريبى في الحارة احتراماً متأصلاً لا تحظى بجزء منه شتى الفضائل مجتمعة . فلم يكن بد من ان يجيء سوارس معزياً وما أسرع ان اقبل وراءه الجرايع . ولم يكن بد من ان يجيء الناظر رفعت معزياً فنبهه على الأثر لهيطة وجلطة وحجاج وما أسرع ان اقبل وراءهم كل من هب ودب ، فانتظمت الجنازة جموعاً غفيرة لم تشهد لها الحارة مثيلاً من قبل إلا في جنازات الفتوات . وتحلى قاسم بصبر الرجل الحكيم رغم آلامه الدفينة . وحتى في ساعة الدفن بكى جميع حواسه وجوارحه إلا عينيه . وانصرف المعزون حتى لم يبق في المدفن إلا قاسم وزكريا وعويس وحسن ، وعند ذلك ربت زكريا عضد قاسم وقال بأسى :

— شد حيلك يا ابن أخي ، كان الله في عونك .

فانحنى عوده قليلاً وهو يزفر من الأعماق ، وغمغم :

— قلبي دفن في التراب يا عمي .

فتقلص وجه حسن تأثراً ، وساد صمت المدفن كأشد ما يكون الصمت.

وانتقل زكريا خطوة وهو يقول :

— آآن لنا ان نذهب .

لكن قاسم تشبث بموقفه وهو يقول في استياء :

— ما الذي جاء بهم ؟

فطن زكريا الى من يعني بقوله فقال :

— لهم الشكر على أي حال .

فتشجع عويس قائلاً :

— ابدأ معهم من جديد ، فهذه الخطوة منهم تتطلب منك خطوات ،
ومن حسن الحظ أن ما يقال عنك خارج حيناً لا يؤخذ مأخذ الجد !
فأثر أن يغوص في الصمت والحزن على مجادلته . وإذا بجماعة تقبل
على رأسها صادق وكأنما كانوا يرصدون اختفاء المعزين . كانوا كثرة
وليس فيهم غريب فعانقوا قاسم حتى دمت عيناه . وقلب عويس عينيه
فيهم بامتعاض ولكن أحداً لم يباله ، وقال صادق مخاطباً قاسم :

— لم يعد ثمة ما يبقيك في الحارة .

لكن زكريا قال معترضاً في حدة :

— ابنته وداره واملاكه هناك .

وقال قاسم بلهجة ذات مغزى :

— كان بقائي في الحارة ضرورياً فبفضله ازددتم مع الايام عدداً !
ونظر الى الوجوه المتطلعة اليه كأنما يستشهد بكثرتها على صدق قوله .
فاكثرهم ممن اغراهم بالمهجرة واللحاق بأصحابه حينما كان يتسلل من
داره كل ليلة عقب نوم الحارة فيقصد من يأنس فيهم مودة وحسن
استعداد للاقتناع بكلامه . وسأله عجربة :

— هل يطول بنا الانتظار ؟

— حتى يتجمع عندهم عدد كاف .

وانتهى به جانباً فقبله وهمس له :

— قلبي يتقطع حزناً لك فاني ادرى الناس بقسوة فجيعتك .

فاعوده التأثر ، وهمس :

— صدقت ، ما أقسى الألم .

ورمقه باشفاق ثم قال :

— عجل باللحاق بنا فانك اليوم وحيد .

— كل شيء رهن بوقته .

وقال عويس بصوت مرتفع :

— ينبغي ان نعود .

وتعانق الصحاب مودعين ، وعاد قاسم ورفاقه . ومضت الايام وهو في داره وحيد كئيب حتى خافت عليه سكينه عواقب الحزن . ولكنه واصل جولاته الليلية الخفية بهمة لا تعرف الوهن . ومضى عدد المختفين في النمو وأخذ الناس يتساءلون حيارى . واشتدت السخريه بحج الجرايع وفتوتهم في بقية الحارة ، وقالوا ان نوبة سوارس في الحرب ستجىء اليوم أو غداً . وقال له عم زكريا ذات يوم محذراً :

— هذه حال تدعو الى أشد القلق ، ونحشى عواقبها .

ولكن لم يكن من الانتظار بد . وكانت أياماً مليئة بالعمل والخطر ، وكانت احسان البسمة الوحيدة في وجهها المتجهم . وكانت تتعلم الوقوف معتمدة على أطراف المقاعد ثم تتطلع اليه بوجهها الصافي وتحديثه بلغة العصافير والبلابل . وكان ينعم النظر في وجهها بخنان ويقول لنفسه : ستكون طفلة جميلة ولكن اهم عندي أن تكون كأنها طيبة وحناناً . وسره أن تطالعه بعينه السوداوين في وجه قمر المستدير لتظل رمزاً باقياً للعلاقة المحبوبة التي مزقها الدهر . وترى هل يمتد به العمر حتى يراها عروساً في الحسان أو كتب عليها ألا تجني من دار مولدها الا ألم الذكريات ؟

ويوماً طرق باب الدار طارق فذهبت سكينه تنسأل من القادم فجاءها صوت يافع قائلاً :

— افتحي يا سكينه .

فتحت الباب فرأت فتاة في الثانية عشرة أو تزيد ، ملفوفة على غير المألوف في ملءة وعلى الوجه حجاب . دهشت سكينه وسألها عما تريد ولكنها سارعت الى حجرة قاسم وهي تقول بلهجة :

— مساء الخير يا عمي .

ونزعت النقاب فبدا وجهه بدري فحي بديع القسبات ، يقطر خفة

فقال قاسم متعجباً :
- اهلاً بك ، اجلسي ، اهلاً وسهلاً .
قالت وهي تجلس على حافة الكنية :
- أنا بدرية ، وارسلني اليك أخي صادق .
فقال قاسم باهتمام :
- صادق !
- نعم .
ورنا اليها مستطعماً ، ثم قال :
- ماذا دفعه الى هذه المخاطرة ؟
فقالت باهتمام زادها ملاحظة :
- لا يمكن أن يعرفني أحد في الملاءة .
وادرك ان جسمها اكبر من سننها فهز رأسه كالمطمئن فأردفت في
مزيد من الاهتمام :
- انه يقول لك أن غادر الحارة فوراً ، فان لهيطة وجلطة وحجاج
وسوارس تأمروا على قتلك الليلة .
قطب كالمترعج على حين شهقت سكية ، وسألها :
- كيف علم بذلك ؟
- أخبره المعلم يحيى .
- ولكن كيف عرف يحيى ذلك ؟
- أفشى سكران السر في حانة كان بها صديق للمعلم يحيى ، هذا
ما قاله أخي .
وجعل ينظر اليها صامتاً حتى قامت واخذت تمجك الملاءة حول جسدها
الغض ، فقام بدوره وهو يقول :
- اشكرك يا بدرية ، تخفّي جيداً ، وبلغني تحياتي الى اخيك ،
واذهبي بسلام .

فأسدلت النقاب على وجهها وتساءلت :
— ماذا أقول له ؟
— خبريه بأننا سنلتقي قبل الصباح .
فصافحته ثم ذهبت .

٨٣

اصفر وجه سكبنة ونطق بعينها الذعر ، وهنفت قائلة :
— فلنغادر البيت دون ابطاء .
وتوثبت للتحرك فقال لها :
— لقي احسان واخفيها في شملتك واخرجي كأنك ذاهبة لبعض شأنك
ثم اقصدي مدفن المرحومة وانتظري هنالك .
— وأنت يا سيدي !
— سألحق بك في الوقت المناسب .
فترددت عيناها بين الحيرة والجزع فقال بنبرة مطمئنة :
— سيذهب بكما حسن الى المكان الذي سنقيم فيه .
وفي ثوان تأهبت للرحيل فلم احسان مرات ، ثم قالت له المرأة وهي
تمضي نحو الباب :
— استودعتك الحي الذي لا يموت .
ووقف وراء الحصاص يراقب الطريق فرأى الجارية وهي تسير نحو
الجمالية حتى غيبتها المنعطف . وجعل قلبه يخفق وهو يرنو الى ثنية ذراعها
حول الحمل الثمين . وأجال بصره في الحي فرأى رجالاً من أعوان
الفتوات ، بعضهم يجلس بقهوة دنجل والبعض يتسكع هنا وهناك ، وتكاد
معالمهم تنوب في الظلام الزاحف . الدلائل تقطع بأنهم يتأهبون . ولكن

هل يتربصون به حتى يخرج لجولته الليلية ان كان سرّها انكشف لهم ؟
أو سيطبقون على داره في آخر الليل ؟ انهم ينتشرون منذ الآن على
سبيل الحيلة ان يكون سرّ مؤامرتهم انكشف . وها هم يدبّون في الظلام
كالحشرات تفوح من أنفاسهم رائحة الجريمة ، فهل يلقي مصير جبل أو
مصير رفاة ؟ هكذا وجد رفاة نفسه في ليلة من الليالي المظلمة . وتوارى
في داره بقلب مغمم بالنوايا الطيبة وأسفل الدار تدب اقدام غليظة تنضح
جلود اصحابها بشهوة الدم . متى تكفين عن سفك الدماء يا حارثنا
التعميسة ؟ ومضى يتمشى في الحجرة ذهاباً وجيئة حتى طرق الباب وترامى
اليه صوت حسن وهو يناديه . وجاء حسن بجسمه الضخم وعينه تعكسان
نظرة قلقة ، فقال :

— في الحى حركة غريبة .. مريبة ..

فسأله دون اكتراث للملاحظة :

— هل عاد عمي من تجواله ؟

— كلا ، لكنني اقول انه توجد في حينا حركة مريبة ، انظر من

شيش الشباك .

— رأيت ما ازعجك وعرفت ما وراءه ، حذّرني صادق في الوقت

لمناسب بارسال اخته الصغيرة اليّ ، واذا صدقت رسالته فالفوات
سيحاولون قتلي الليلة ، لذلك هربت احسان مع مسكينة وهما ينتظرانك
في مدفن المرحومة فاذهب اليهما وسيروا جميعاً الى مقر اخواننا .

— وأنت ؟

— سوف أهرب بدوري والحق بكم

فقال حسن بعزم :

— لن اتركك وحدك .

فقال برجاء لم يخل من استياء :

— افعل ما قلت لك دون تردد ، سأهرب بالحيلة لا بالقوة ، ولن

تنفّني قوتك اذا الجأنا الظروف الى المقاومة ، ولكن ذهابك سيحمي

ابنتي ، وبممكنك من ان تضع بعض رجالنا على رؤوس الطرق من الجمالية
حتى الجبل لعلهم يهبون الى مساعدتي ان احتجت لهم عند الحرب .
اذعن حسن لارادته ، فصافحه بقوة وقال :

— ليس كمثلك شيء ، فلعلك اعددت للأمر عدته .

فأجابه بابتسامة مطمئنة ، وذهب حسن بوجه عابس . ولم يمض
طويل وقت حتى جاء عم زكريا وهو يلهمث فأيقن انه عائد من عند
المعلم يحيى بالخبر فبادره قائلاً :

-- أرسل الى صادق بالخبر .

فقال الرجل باضطراب ظاهر :

— علمت به منذ قليل لدى مروري بالمعلم فخشيت الا يكون بلفك .

فأجلسه قاسم وهو يقول كالمعتذر :

— أعف عما أسبب لك من متاعب .

— كنت أتوقع هذا من زمن ، ووجدت من سوارس تغييراً في المعاملة
فرحت اكذب نفسي ، ورأيت اليوم الشياطين منتشرين كالجراد ، وأنت
وحيد وبتعذر عليك الحرب .

فاشتد عوده في تصميم وهو يقول :

— سأحاول ، واذا فشأت فهناك في الجبل رجال لا يغلبون .

فقال زكريا في ضجر :

— ما قيمة هذا كله بالنسبة لحياتك أو طفلك !

فقال قاسم معاتباً :

— اني اعجب كيف لم تكن على رأس اعواني !

فقال وكأنه لم يسمع قوله :

— تعال معي الى سوارس نساومه ونتعهد له بما يشاء !

فضحك قاسم ضحكة مقتضبة ، سخرت من اقتراح عمه دون كلام ،
والتفت زكريا الى الشيش يطالع من خلاله الطريق فبدا مظلماً مخيفاً .

وانتبه على صوت قاسم وهو يتساءل :

— لماذا اختاروا الليلة بالذات ؟

فأجاب زكريا :

— أول أمس جهر رجل من جبل بأن قضيتك كانت لخير الجميع :

وقبل مثل ذلك عن رجل من رفاة ، فلعل ذلك ما دفعهم الى التعجيل .

فتهلل وجه قاسم وقال :

— أرايت يا عمي ؟ أنا عدو الناظر والفنوت ولكني صديق حارتنا :

وسيعلم الجميع ذلك .

— فكّر الآن بما ينتظرك .

فقال قاسم باهتمام :

— أليك خطي ، سأهرب عبر الأسطح حتى يبتك تاركاً مصباحي.

مضاء للتضليل .

— قد يراك أحد .

— لن أشرع في الهرب حتى تخلو الأسطح من السمار .

— واذا سبقوا بالمجوم على دارك ؟

— لن يقع هذا حتى تنام الحارة .

— قد يبلغ بهم الاستهتار حدّاً لا تنصروه .

فقال باسمًا :

— في هذه الحال أموت ، ومنذا يدفع الأجل ؟

فرفع الرجل البه وجهاً ينطق بالرجاء لكنه طالع ابتسامة هادئة ثابتة كأنها التصميم مجسداً فقال يائساً :

— قد يفتشون داري .

— من حسن الحظ أنهم لا يعلمون بتسرب مؤامراتهم إلينا ، ولذلك سأسبقهم الى الهرب ان شاء الله .

وتبادلا نظرة طويلة ، أفصح من الدمع ، ثم تعانقا . ولما وجد نفسه وحيداً تغلب على تأثره واقرب من النافذة يراقب الطريق . بدا الحي في حياته المألوفة . فالصغار يلعبون حول مصابيح العربات ، والقهوة تبعج بالسمار ، والاسطح تضج بأحاديث النساء ؛ وسبعال المدخنين يتخلله الفحش والسباب ، ونواح الرباب ، يرتفع ، وهذا سوارس رابض على عتبة القهوة ، ورسل الموت تحتل الإركان . يا سلالة الحباثة ويا لصوص البشر . منذ اطلق ادريس ضحكته الباردة وانتم تتوارثون الجريمة وتفرقون الحارة في بحر من الظلمات . الم يشن للطير الحبيس ان ينطلق ؟ ومضى الوقت وثيداً ثقيلاً ، ولكنه حمل ليل السمار الى غايته . صمت الأسطح ، وخلا الطريق من العربات والصغار ، وأفقرت المقاهي ، وعلت الى حين أصوات الأشباح العائدة ، ورجع من الجمالية السكارى وهم يهلوسون ، حتى الغرز اطفأت المجامر ، ولم يبق في الظلام الا نداس الموت . وقال لنفسه : « حان وقت العمل » . وسارع الى السلم فرقاه الى السطح . ومضى الى السور الفاصل بين سطحه والسطح الملاصق فعبه دون عناء وهم بالجرى واذا بشبح يعترضه قائلاً : « قف » ، فأدرك ان الأسطح محتلة بالقتلة وان حصاره أحكم . واستدار ليرجع ولكن الآخر وثب نحوه واحاطه بذراعين قويتين . واستدعى قوته التي ضاعفها الخوف وفاجأه بضربة في بطنه ففك حصار ذراعبيه ، ونثى بركلة في بطنه ايضاً فسقط وهو يشهق ثم لم يقم ، وجاءت سعدة مكتومة من السطح الثالث او الرابع جعلته يعدل عن التقدم فتراجع مضطرباً الى سطحه . وقف عند السلم يتصنت فسمع وقع اقدام صاعدة ! وتكتل الصاعدون امام باب شقته . وخبطوا ألباب خبطة شديدة فانفتح وهو يكاد يقتلع ، ثم تدافعوا الى الداخل . وهبط مسرعاً دون ان يضيّع ثانية حتى انتهى الى الحوش . وسارع الى الباب . ولح خارج الدار شبحاً يتحرك فانقض عليه قابضاً على عنقه ، ثم نطحه برأسه ، وطعن

بطنه بركبته ، ودفعه فاستلقى على ظهره دون حراك . واندفع نحو
الجمالية وضربات قلبه تتلاحق . الآن تبين لهم خلو الدار ، ولعل بعضهم
يصعد الى السطح ليغثر على صاحبهم الملقى ، ولعل الآخرين يهبطون في
اعقابه . مر بربع عمه دون ان يتوقف ، ولما اقترب من نهاية الحارة
أطلق ساقيه . وعند اتصال الحارة بالجمالية وثب شبح في طريقه وصاح
بصوت كالرعد لينبه الآخرين : « قف يا ابن اللثيمة » . ورفع نبوته
قبل ان يحيد قاسم عن طريقه . ولكن شبحاً آخر ظهر من زاوية المنعطف
وضرب الشبح الأول بهراوته على رأسه فهوى صارخاً ، ثم قال لقاسم :
— قلنجر بكل ما فينا من قوة .
وانطلق قاسم وحسن يجريان في الظلام دون مبالاة بما قد يعترضهما
من حجر أو نقرة .

٨٤

عند مدخل حارة الوطاويط انضم صادق إليها . وعند نهايتها وجدوا
عجربة وأبو فصادة وحروش حول عربة. كارو ذات اربع عجلات ،
فاستقلوها مبادرين وانطلق الجواد بها يلهيه سوط الحوذني . انطلقت
العربة بسرعة رغم الظلام : محدثة في سكون الليل صوتاً مزعجاً كالفرقة
المتواصلة ، وهم يتلفتون الى الوراء من خشية وتوجس . وقال صادق
جلباً للطمأنينة :

— سيجرون نحو باب النصر ظناً بأنك تلوذ بالخلاء حول المقابر .
فقال قاسم بارتياح :

— لكنهم يعلمون أنكم لا تقيمون عند المقابر .
غير ان سرعة العربة بدت حاسمة ، وبفضلها غلب شعور بأنهم

يبتعدون حقاً عن الخطر . وعاد قاسم يقول في شيء من الارتياح :
— أحسنتم التنظيم والتدبير ، وشكراً لك يا صادق فلولاً تحذيرك لكنك
الساعة في الهالكين .

فشدّ صادق على يده في صمت . وتواصل اندفاع العربة حتى لاح
سوق المقطم على ضوء النجوم ، يلفه الظلام والوحشة عدا نور مصباح
ينبعث من كوخ المعلم يحيي . وعن حذر اوقفوا العربة وسط الميدان ،
ثم تركوها متجهين نحو الكوخ . وما لبث ان جاءهم صوت المعلم
متسائلاً عن القاديين فأجابه قاسم ، فارتفع صوته مرة أخرى بالحمد .
وتعانق الرجلان عناقاً حاراً ، وقال له قاسم :

— اني مدين لك بالحياة .

فقال العجوز ضاحكاً :

— انها الصدفة وحدها ! لكنها وقعت لتتخذ رجلاً هو أول من
يستحق الحياة ، أسرعوا الى الجبل ، فالجبل خير حصن لكم .

وشد قاسم على يده ، ونظر على ضوء المصباح الى وجهه في مودة
وامتنان ، فعاد العجوز يقول :

— اليوم أنت كرفاعة أو كجبل ، وسوف أعود الى حارتنا عندما
يقيض لك النصر .

ابتعدوا عن الكوخ شرقاً يوغلون في الخلاء نحو الجبل . وتقدمهم
صادق إذ كان أخبرهم بالطريق . وكانت ثمة رقة تمازج الظلام مبشرة
بالفجر . والسماء تقطر ندى رطيباً . وترامى من بعيد صياح الديكة
كصرخة المخاض لمولد يوم جديد . وبلغوا السفح فصاروا بحذائه نحو
الجنوب حتى عثروا على الممر الضيق الذي يصعد الى مقامهم الجديد
فوق الجبل . وصعدوا وراء صادق في طابور فرداً فرداً لضيق المشى .
وقال صادق لقاسم :

— اعددنا لك داراً وسط ديارنا ، وفيها الآن تنام احسان .

فقال عجربة :

— بيوتنا من الصفائح والحيش .

فقال حسن في مرح :

— ليست اسوأ كثيراً من بيوتنا في الحارة !

فقال قاسم :

— حسناً ألا نجد بيتنا ناظراً أو فتوة .

وهبطت اليهم أصوات فقال صادق :

— حارتنا الجديدة مستيقظة تنتطرك .

ورفعوا الرؤوس فرأوا خيوط الضياء الأولى تطارد فلول الظلام .

وصاح صادق بأعلى صوته : « هُوَ » فأطلت رؤوس رجال ونساء ،

وتعالى الهتاف والزغاريد ، وانطلقت الحناجر تنشد :

يا محي ديل العصفورة

فاستخف قاسم الابتهاج وقال باكبار :

— يا أكثرهم !

فقال صادق بفخار :

— حارة جديدة فوق الجبل ، سكانها يتزايدون مع الأيام ، وقد

انضم إلينا بارشاد المعلم يحيى جميع المهاجرين من حارتنا .

وقال حمروش :

— لا يتعبنا إلا أننا نسعى إلى إرزاقنا في الأحياء البعيدة خشية أن

يعثر علينا أحد من حارتنا .

ولما صعد قاسم إلى السطح تلقاه الرجال بالعناق ، وصافحته النساء ،

وارتفعت الأصوات بالتحيات والتهليل والتكبير ، وكانت سكينه بين

المستقبلين فأخبرته بأن إحسان نائمة في الكوخ الذي أعده لهم داراً .

وساروا جميعاً نحو الحارة الجديدة التي أقيمت على هيئة مربع من

الأكواخ فوق مسطح من الجبل ، وهم يهللون وينشدون ، وقد ابتهج

الافق بالنور المتدفق كأنه بحيرة من الورد الأبيض . وهتف رجل :

— أهلاً بفتوتنا قاسم .

فتغير وجه قاسم وصاح مغضباً :

— ألا لعنة الله على الفتيات جميعاً ، فلا سلام ولا أمان حيث يوجدون .

وتطلعت إليه الوجوه الجديدة فقال :

— سترفع النبأيت كما رفعها جبل ، ولكن في سبيل الرحمة التي نادى بها رفاة ، ثم نستغل الوقف لنخبر الجميع حتى نحقق حلم أدهم ، هذه هي مهمتنا لا الفتونة .

ودفعه حسن برفق نحو الكوخ الذي أعد له وهو يقول مخاطباً الجميع :

— مضى الليل دون أن يغمض له جفن فدعوه الآن ليأخذ بعض حقه من الراحة .

استلقى قاسم على خيشة جنب ابنته وسرعان ما استغرق في النوم . واستيقظ فيما بين الظهيرة والعصر برأس مثقل وجسد متعب . وجاءته سكبنة باحسان فوضعها في حجره وراح يلثمها في حنان . وقدمت له المرأة كوز ماء وهي تقول :

— هذا الماء يُحمل النساء من الحنفية العمومية كما كانت تحمله زوجة جبل !

فابتسم الرجل ، وكان يحب كل ما يربطه بذكريات جبل أو رفاة . والقي نظرة على داره الجديدة فرأى جدراناً مغطاة بالخيش ولا شيء بعد ذلك ، فضم احسان الى صدره بخنان اكثر . ونهض قائماً فأعطى سكبنة ابنته وغادر الكوخ ليجد صادق وحسن في انتظاره ، فجلس بينهما وهم يتبادلون تحية الصباح . والقي نظرة على الحارة فلم تقع عينه الا على امرأة او طفل ، فقال صادق موضحاً :

— ذهب الرجال الى السيدة وزينهم معي وراء الأرزاق وتحلفنا نحن

حتى نطمئن عليك .
وتابعت عيناه النسوة العاملات في الطوي او الغسل امام الاكواخ ،
والاطفال اللاهين هنا وهناك ثم تساءل :
- ترى هل هن راضيات ؟
فقال صادق :
- انهن يحلمن بامتلاك الوقف والنعيم الذي تنهأ به أمينة هانم
حرم الناظر !
فابتسم ابتسامة عريضة ثم ردد بصره بينهما في بطاء وتساءل :
- ماذا يدور في رأسكما عن الخطوة التالية ؟
فرفع حسن رأسه فوق منكبيه العريضين وقال :
- نحن على بيّنة مما نريد .
- ولكن كيف ؟
- ننتهز غفلة ثم نهجم .
لكن صادق قال معترضاً :
- بل نصبر حتى نضم الينا اكبر عدد من أهل حارتنا ثم نهجم
فنضمن النصر من ناحية وقلة الضحايا من ناحية أخرى .
فهتف قاسم واساريه تنبسط :
- أحسنت !
وشملتهم طمأنينة حائلة ، واذا بصوت يقول في استحياء !
- الطعام !
فرفع قاسم عينيه فرأى بدرية حاملة اناء فول وارعفة وهي ترنو اليه
بعينين باسنتين فما ملك ان ابتم قائلاً :
- أهلاً برسول الحياة إلي .
فوضعت الاناء بين يديه وهي تقول :
- أطال الله عمرك .

وذهبت الى كوخ صادق فيما يلي كوخه . وداخلت نفسه رقة ورضى
فتناول طعامه بشهية . وفي اثناء ذلك قال :

— لدي قدر من المال لا بأس به سينفعنا عند الحاجة .
ثم مردفاً بعد قليل :

— علينا ان نصطاد كل من نأمنس فيه استعداداً الى مشاركتنا من
أهل حارتنا ، وما اكثر المظلومين الذين يتمنون لنا النصر ولا يقعدهم
إلا الخوف .

وما لبث ان ذهب الرجلان الى حيث سبقهم الآخرون فوجد نفسه
وحده . وقام فحصى يتجول في المكان كأنما يتفقدده . مر بأطفال لاعبين
فلم يلتفت اليه أحد منهم . أما النساء فكن يحينه بالدعاء . واستوقفت
نظره عجوز بالغة في الكبر ، ذات رأس مكلل بالبياض الناصع ، وعينين
تغشاهما سحابة الهرم ، وذقن متقلقل كأنهما تزرد لحييها ، فاقرب
منها محيياً فردت التحية بالدعاء فسألها :

— من أمي ؟

فأجابت بصوت كخشخشة الأوراق الجافة :

— أم حروش .

— أهلاً بأنا جميعاً ، كيف هان عليك ان تهجري حارتنا ؟

— أطيب المكان ما يوجد فيه إبني .

ثم كالمستدركة :

— والبعد عن الفتوات غنية .

ثم تشجعت بإبتسامته فقالت :

— رأيت رفاة وأنا شابة !

فسألها باهتمام :

— حقاً ؟

— نعم وحياتك ، كان لطيفاً جميلاً ، ولكن لم يجر لي في خاطر

انه سيكون عنوان حي وحكاية من حكايات الرباب .

فسألها باهتمام متزايد :

... الم تقصديه كالأخرين ؟

— كلا ، لم يكن يدري بنا في حيننا أحد ، ولا كنا ندري بأنفسنا ، ولولاك ما جرى ذكر للجرايبع على لسان .

وتفحصها بغرابة . وتساءل ترى كيف يكون جدنا اليوم ! لكنه ظل يبتسم لها برقة فدعت له طويلاً حتى ذهب . وواصل المشي حتى وقف عند رأس المشى على حافة الجبل . القى نظرة على الخلاء أسفل ثم مد البصر نحو الأفق . تراءت على البعد القباب والاسطح كأنها ملامح متباعدة في كائن واحد . وقال إنه ما ينبغي ان تكون إلا شيئاً واحداً . وهذا الشيء ما أصغره من عل . فلما معنى الناظر رفعت ولا للفتوة لهيطة . ولا فرق هنا بين رفعت وعمه زكريا . ومن العسير ان تهتدي من موقفك الى الحارة المثيرة المتاعب . لولا بيت الواقف الذي يبدو انه يميز من أي موقع . بيت جدنا بسوره العجيب وأشجاره العالية . لكنه طعن في السن وخفت خشيته كهذه الشمس المائلة نحو الأفق . أين أنت وكيف أنت ولم تبدو وكأنك لم تعد أنت . المزيغون لوصيتك على بعد أذرع من منزلك . وهؤلاء النسوة والصغار المبعدون في الجبل اليسوا أقرب الناس الى قلبك ؟ ستعود الى مكانتك عندما تنفذ شروط وقفيتك دون اغتيال ناظر او اعتداء فتوة . كعودة الشمس غسداً الى كبد السماء . ولولاك ما كان لنا أب او حارة او وقف او أمل .

وأيقظه من تهويمته صوت عذب يقول :

— القهوة يا معلم قاسم .

التفت وراءه فرأى بدرية باسطة راحتها بالفنجال فتناولته قائلاً :

— لم التعب ؟

— تعبك راحة يا سيدي ..

وترحّم على قر . وراح يحسو القهوة في رفق . وبين الحسوة والحسوة
تلتقي عيناها في ابتسامة . ما ألد القهوة عند طرف الجبل فوق الحلاء .
- ما عمرك يا بدرية ؟

فنتت شفيتها داخل فيها ثم غمغت :
- لا أدري .

- لكنك تدرين بما جاء بنا الى الجبل ؟
فترددت في استحياء ثم قالت :

- أنت !

- أنا ؟ !

- تريد ان تضرب الناظر والفتوات وتجعل الوقف لنا ، هذا ما
يقول أبي .

فابتسم . وانبه الى انه أتى على ما في الفئجال لكنه سها عن رده ،
نرده اليها ، هو يقول :

- ليت عندي من الشكر بعض ما تستحقين .

فاستدارت باسمّة موردة وجرت ، فتمم قائلاً :
- تصحبك السلامة .

٨٥

وكان وقت الأصيل هو وقت التحطيط فينبري الرجال لممارسة التمرينات
الشاقة بالنبايت . ويبدأ ذلك عقب عودتهم بنقود قليلة وطعام بسيط بعد
يوم شاق كادح ينقضي سعياً وراء الرزق ، هكذا يعودون نساء ورجالاً .
وكان قاسم أول المتبارين . وكّم سره ان يرى حماسة رجاله وتوئبهم
لليوم العصيب . أشداء بين الرجال ولكنهم يكتنون له من الحب ما لم

تعرفه حارتهم الممزقة بالبغضاء . وترتفع النباييت وتتهاوى وتتلاقى في
ارتطامات شديدة ، ويتفرج الغلمان ويقلدون ، على حين تخلد النساء الى
الراحة او يعددن العشاء . وصف الأكواخ بمندطولا بما ينضم الى الحارة
الجديدة من رجال جدد . وأثبت صادق وحسن وأبو فصادة انهم صيادون
مهرة . كانوا يرصدون رجالاً من الحارة في مظانهم وما يزالون بهم
حتى يقنعوهم بالانضمام اليهم فيهجروا الحارة خفية وراء آمال لم تشتعل
من قبل في صدورهم . وكان صادق يقول لقاسم :
- لا اضمن مع هذا النشاط الا يهتدي اعداؤنا الى مقرنا .

فيقول له :

- لا سبيل لنا الا خلال الممر الضيق ، وسيكون الهلاك نصيبهم
اذا جاعوا منه .

وكانت احسان هي سعادته الباقية ، حين يلاعبها وحين يهددها
وحين يناغيها ، لكنها لم تكن كذلك حين تذكره بالراحلة فطبق عليه
الوحشة وتلفحه أنفاس الحنين . تلك التي خطفت من بين يديه في أول
الطريق ، فتركته فريسة للوحشة كلما خلا الى نفسه ، وأحياناً للندم كما
حدث عند حافة الجبل ، عند حافة الجبل يوم القهوة ، أو يوم النظرة
الرفيقة كنسمة العصارى . وذات ليلة حزن النوم أمام عينيه فوقع صيداً
معذباً للوحشة والأرق في ظلمة الكوخ ، فقام من فراشه وانطلق خارجاً .
ومضى في الساحة بين الاكواخ تحت النجوم الساهرة يستقبل هواء منعشاً ،
هواء الصيف عند منتصف الليل فوق الجبل . وإذا بصوت يناديه ثم
تساءل صاحبه :

- إلى أين أنت ذاهب في هذه الساعة من الليل ؟

فالتفت وراءه فرأى صادق وهو يقترب منه ، فسأله :

- ألم تم بعد ؟

- لمحتك وأنا راقد امام الكوخ ، وأنت أطيب عندي من النوم .

- وسارا جنباً الى جنب حتى حافة الجبل ؛ فوقنا هنالك وقاسم يقول :
- الوحدة أحياناً لا نطاق .
- فقال صادق ضاحكاً :
- تباً لها في جميع الاحيان .
- ومدا البصر نحو الأفق فبدت الدنيا سماء متلألئة فوق أرض غارقة في الظلام . وعاد صادق يقول :
- أكثر رجالك أزواج أو ذوو أهل فهم لا يعرفون الوحشة .
- فتساءل قاسم كالمستنكر :
- ماذا تعني ؟
- مثلك لا يستغني عن امرأة .
- واشتد الاحتجاج في صوته بقدر ما استشعر في قول الرجل من صدق ، فتساءل :
- أتزوج بعد قر ؟
- فقال الرجل بإيمان :
- لو استطاعت ان تسمعك صوتها لأعادت على مسمعك رأيي .
- واضطرب قاسم وجاش بالانفعال صدره ، وقال وكأنه يخاطب نفسه :
- كأنها الحياة بعد الحب والرعاية .
- ما أغنى الأموات عن اخلاصنا !
- ماذا يعني الرجل الطيب ؟ يقرر الصديق أم يبرر الهوى ؟ ولكن للحقيقة طعماً مرّاً في بعض الأحوال . وأنت نفسك لا تواجه نفسك بالصراحة التي واجهت بها الأوضاع في حارتك . والذي سوى هذه الأمور في عالمك هو الذي سوى هذه النجوم في السماء . والحق الذي لا مربة فيه أن قلبك يخفق كما خفق أول مرة . وتنهّد بصوت مسموع فقال صادق :
- أنت أول من يحتاج إلى أنيس .

ولما رجع إلى كوخه لمح سكيّنة واقفة عند الباب فتطلعت إليه كالمسائلة وهي تقول بقلق :

- لمحتك خارجاً حين كنت أظنك في عز النوم ؟ !

فقال دون تمهيد لشدة ضغط أفكاره على رأسه :

- أنظري الى صادق كيف يحضني على الزواج !

فقالت سكيّنة كأنما تتلقف فرصة من السماء :

- وددت ان أسبقه !

- أنت ! ؟

- نعم يا سيدي ، شد ما يحز في قلبي ان أراك جالساً وحيدك مستسلماً للوحشة والفكر .

فأشار بيده الى الأكواخ النائمة وقال :

- جميع هؤلاء معي .

- نعم ولكن لا أحد لك في دارك وأنا عجوز ، رجُل فوق الأرض ورجل في القبر .

وشعر بأن تلبّثه دليل تقبّل لما تريد ، ولكنه مع ذلك لم يدخل الى كوخه وقال في نبرة رثاء :

- لن أجد زوجة مثلاً !

- هذا حق ، ولكن توجد بنات يبشّرن بالسعد !

وتبادلا نظرة خلال الظلام ، أردفت بهنيهة صمت ، ثم تمتمت الجارية :

- بدرية ! ما الطفها من فتاة .

فقال بدهشة تعدل خفقة قلبه :

- البنت الصغيرة !

فقالت وهي تداري ابتسامة مأكرة :

- ما أنضجها وهي تقدم الطعام او القهوة !

فتحول عنها وهو يقول :

— يا شيطانة ! لعنة الله على سلالتك !
١. وكان للخبر رنة فرح في خارة الجبل جميعاً . كاد صادق ان
يرقص . وزغردت أمه حتى أسمعت الحلاء . وانهالت الزهاني على قاسم .
واحتفلت الحارة بالزفاف دون استدعاء لأحد من المحترفين ، فرقصت
نساء من بينهن أم بدرية . وغنى أبو فصاده بصوت مليح :
أنا كنت صياد سمك وصيد السمك غيبة
وسارت الزفة حول الاكواخ مستضيئة بأنوار السماوات . وانتقلت
سكينة باحسان الى كوخ حسن على حين خلا كوخ قاسم للعروسين .

٨٦

لذ له حقاً ان يراقب — من مجلسه على الفروة امام الكوخ — بدرية
وهي تعجن . هي صغيرة بلا جدال ولكن أي امرأة تفوقها في النشاط
وتدبير الشئون ! وتمطت من جهد ، وبظهر راحتها رفعت ما تهدل من
شعرها فوق الجبين ، فبدت فاتنة غازية لسويداء القلب . ونم تورده
وجهها على احساسها بمتابعة عينيه حتى توقفت في دلال ، فضحك بسرور
ومال نحوها فتناول صغيرتها وقبلها مـاراً ثم عاد الى جلسته . وكان
سعيداً خالي البال كشأنه في الأويقات التي يعتزل فيها أصدقاءه وأفكاره ،
وعلى بعد يسير مضت احسان تنتقل من موضع الى موضع على مرمى
النظر من سكينة الرابضة فوق حجر . وتعالى ضجة عند رأس الممر .
رأى صادق وحسن وبعض الأصدقاء قادمين نحوه حول رجل عرف فيه
خردة الزبال من حي رفاعه فوقف من فوره لاستقبالهم على حين زغردت
نساء كما يفعلن كلما أنضم الى الجبل رجل جديد من أهمل الحارة .
وعانقه الرجل يقول :

- اني معكم ، وجئت معي بنبوت !
 فقال له هاشاً باشاً :
 - أهلاً بك يا خردة ، نحن لا نفرق بين حي وحي ، فالحارة
 حارتنا ، والوقف للجميع .
 فضحك الرفاعي قائلاً :
 - يتساءلون عن مكانكم ويتوقعون من ناحيتكم شراً ، ولكن قلوباً
 كثيرة تتمنى لك النصر .
 وألقى نظرة على ما حوله فشملت الأكواخ والناس ثم قال باعجاب :
 - كل هؤلاء معك !
 وقال صادق :
 - جاء خردة بخبر هام .
 فحدثه قاسم بنظرة متسائلة فقال خردة :
 - اليوم يتزوج سوارس للمرة الخامسة . وستسير زفته هذه الليلة .
 فقال حسن بحماس :
 - هذه فرصة لا تتكرر للقضاء عليه .
 وتحمس الرجال . وقال صادق :
 - سنهجم يوماً على الحارة ، فكلما تخلصنا من فتوة جاء المهجوم
 أبسر عناء وأضمن نتيجة .
 وتفكر قاسم ملياً ثم قال :
 - سنهاجم الزفة كما يفعل الفتوات ولكن اذكروا دائماً أننا نهاجم
 للقضاء على الفتوة .
 وقبيل منتصف الليل تجمع الرجال عند حافة الجبل ، ثم مضوا يهبطون
 رجلاً رجلاً وراء قاسم وأيديهم قابضة على نبايتهم . كانت السماء صافية ،
 والبدر يحل منها الكبد ، ونوره يضيء على الدنيا وشئ الأحلام .
 وانتهوا الى الخلاء فأنجسوا ناحية الشمال من وراء سوق المقطم ثم ساروا
 بحذاء الجبل حتى لا يضلوا الطريق . ولما اقتربوا من صخرة هنس

أقبل نحوهم شبح رجل كان يتجسس لهم الأخبار فقال لقاسم :

— ستسير الزفة نحو باب النصر .

وتعجب قاسم قائلاً :

— لكن زفاتنا تسير عادة نحو الجمالية .

فقال خردة :

— لعلهم يتعدون عن الأماكن التي يظنون مقامكم قريباً منها !

وفكر قاسم بسرعة ثم قال :

— سيذهب صادق وبعض الرجال الى ما وراء بوابة الفسوح ،

ويمضي عجمة وآخرون الى خلاء باب النصر ، وسأنتظر أنا وحسن وبقية

الرجال وراء باب النصر ، وعندما ادعوك الى الهجوم اهجموا .

وبدأ الرجال ينقسمون جماعات ، وقبل أن يهجموا بالرحيل قال :

— ركزوا الضرب على سوارس وأعوانه ، أما الآخرون فسيكونون

اخوانكم غداً .

ومضت كل جماعة في طريقها وأوغل هو وحسن ومن معها شمالاً

بجذاء الجبل ، ثم عدلوا الى اليسار في طريق القرافة حتى كمنوا وراء

البوابة . وكان رجاله يحاصرون الطريق ، فصادق يتربص يميناً ، وعجمة

يتوثب يساراً ، وهو يكمن وراء البوابة . وقال حسن :

— ستجتمع الزفة في قهوة الفلكي .

فقال قاسم :

— علينا أن نهجمها قبل الوصول الى القهوة كيلا نعتدي على قوم

لا شأن لنا بهم .

ولبثوا في الظلام ينتظرون وقد توترت منهم الأعصاب . وبغتة قال

حسن :

— شد ما أذكر مقتل شعبان .

فقال قاسم :

— للفتوات ضحايا لا يحصيهم العدد .
وأرسل صادق صفيراً وتبعه عجربة فاشتدت عزيمتهم وقال حسن :
— إذا هلك سوارس تسارع أهل حينا إلينا .
— وإذا جاء الآخرون للقضاء علينا أهلكناهم في الممر .
هذه الاحلام مثل ضوء القمر . وما هي الا ساعة حتى يتقرر النصر
لهم أو تتبخر الآمال مع أرواحهم المهذرة . وخيل له أنه يرى شبح
قنديل ، وانه يسمع نبرة قر ، وكأن دهرأ مضى مذ كان يرعى الغنم .
وشدت قبضته على نبوته وقال لنفسه لا يمكن ان ننهزم . وسمع حسن
وهو يسأله :
— ألا تسمع ؟

وأرهف السمع قليلاً حتى التقط أصداء من انغام فقال :
— استعدوا ، الزفة قادمة .
وأخذت الاصوات تقرب ، وتنضح ، ثم ترامى الزمر والطبل ،
وتعالت الآهات ، وأطبق التهليل . ثم على ضوء المشاعل بدت الزفة وهي
تتقدم ، وتراءى سوارس للعين وسط هالة من الراقصين اللاعبين بالنبايت .
وتسأل حسن :
— أصفر لعجربة ؟
فقال قاسم بثبات :

— عندما تصل طليعة الزفة الى وكالة الثوم .
واستمر تقدم الزفة ، واشتد الرقص واللعب . وأخذ راقص بنشوة
الرقص فجعل يثب في الهواء ثم يدور أمام الزفة في سرعة رشيقة راسماً
دائرة متموجة ، والنبوت يدور مرتكزاً على راحته المرفوعة فوق رأسه
كالمروحة ، ومضى يتقدم خطوة عقب كل دورة حتى جاوز وكالة الثوم
والزفة من ورائه تتقدم في بطء شديد حتى بلغ رأسها الوكالة . عند
ذاك صفر حسن ثلاثاً . فهبط عجربة ورجاله من عطفة الطمّارين وانقضوا

على مؤخرة الزفة تسبقهم نبايتهم فاجتاح الاضطراب صفوفها وارتفع صراخ الغضب والخوف . وصفر حسن ثلاثاً مرة اخرى فاندفع صادق . ورجاله من السماكين على وسط الزفة من الناحية الأخرى قبل ان تفيق من الهجمة الأولى . وفي الحال هجم قاسم ورجاله من تحت البوابة على مقدمة الزفة هجمة رجل واحد . استرد سوارس ورجاله أنفسهم من شرك المفاجأة فرفعوا النبايت واشتبكوا في معركة مريرة . وتطايير كثيرون من المسلمين فلاذوا بالجواري والأزقة . واشتد ارتطام النبايت . وسالت الدماء من الأوجه والرءوس . وتحطمت كلوبات وتناثر الورد فطحنته الاقدام . وانطلق الصوات من النوافذ وأغلقت المقاهي أبوابها . وضرب سوارس بقسوة ، وبخفة ، فانطلق نبوته كالمجنون ، مرة في هذه الناحية ومرة في تلك . واشتد الضرب وتكاثف الحقد كقطع الليل . ووجد سوارس نفسه بغتة امام صادق فصرخ :

— يا ابن النجمة !

ووجه اليه ضربة فتلاقت مع ضربة وجهها صادق الذي ارتج وترنح . ورفع سوارس نبوته وهوى به مرة اخرى عليه فتلقاه بنبوته المرتكز على قبضته ، غير انه سقط على ركبتيه من شدة الصدمة . وهم بتوجيه الضربة الثالثة والقاضية لكنه لمح حسن منقضاً عليه كالوحش لانقاذ صاحبه فتحول نحوه وهو يطفح بالغضب صائحاً :

— وأنت أيضاً يا ابن زكريا ! يا ابن الزانية

وأطلق نحوه ضربة هائلة ، لو لم يتفاد منها بوثة جانبية لهلك ، ثم طعن سوارس في أثناء وثبته برأس نبوته فأصاب عنقه . عطلت الطعنة سوارس لحظات عن تسديد الضربة التالية ، فسيطر حسن على توازنه ووجه ضربة شديدة بقوته الحارقة فأصابته جبهة سوارس ، وفجرت نافورة من الدم ، وسرعان ما تراخت قبضته عن نبوته فهوى ، وتراجع خطوات مترنحة ، ثم سقط على ظهره دون حراك ، وعلا على أصوات

النبايت المتلاطمة صباح رجل :

— سوارس قتل !

فأدركه عجربة بضربة نبوت فوق أنفه فصرخ ، وتراجع فغثر بطريح فسقط . وقويت عزيمة رجال قاسم فاشتدت ضرباتهم ، وتخاذل رجال سوارس ، وهالتهم كثرة الساقطين من رجالهم فتهقروا ، ثم أسلموا أرجلهم للفرار . وأخذ رجال قاسم في التجمع حوله وهم يلهثون ، البعض تسبل دماؤهم ، والبعض يحملون جرحاهم . ونظروا صوب الأرض على ضوء الفوانيس الصادر من شراعات أبواب المقاهي أجساداً مطروحة ، منها ما لقي حتفه ومنها ما راح في غيبوبة . ووقف حروش فوق ظل سوارس وهتف :

— ليطمنن جثمانك يا شعبان !

فجذبه قاسم الى جانبه وقال :

— يوم النصر قريب ، يوم يلقي بقية الفتوات نفس المصير ، يوم نصبح سادة حارتنا وأصحاب وقفنا وأخفاداً بررة لجدنا .

وعند عودتهم الى الجبل استقبلتهم النساء بالزغاريد ، وجرت مع الهواء أنباء النصر . وآوى قاسم الى كوخه وبدرية تقول له :

— عليك غبار كثير ودم ، يجب ان تستحم قبل النوم .

ولما استلقى عقب الاستحمام تأوه من الألم . وأنت له بطعام وانتظرت أن يجلس ليتناولوه ، ولكن استولت عليه حال بين اليقظة والنام . شعر بارتياح كأنه السعادة ولكن شابه احساس قلق كأنه الحزن ، وقالت بدرية :

— تناول طعامك .

فنظر اليها بعينين مثقلتين حالمين وقال :

— تشبهين النصر قريباً يا قمر .

وانتهى الى خفوة اللسان اثر وقوعها ، ورأى تغير وجه بدرية ، فجلس

في فراشه الأرضي وقال في توادد وارنبك :
 — ما أشهى طعامك .
 لكنها نفرت من توادده متجهة فتناول قطعة من الطعمية قائلاً :
 — جاء دوري لأدعوك للطعام !
 فلوت عنه وجهها وتمتت :
 — كانت طاعنة في السن ولا جبال لها !
 فتفوضت قامته المنتصبه في كآبة كأنه تهدم وقال في عتاب وحزن
 شديدين :
 — لا تذكرها بسوء ، فثلها لا ينبغي ان يذكر الا بالرحمة .
 فارتد اليه رأسها متوثباً لكنها رأت على صفحة وجهه حزناً خفيفاً
 فترددت ، ثم لاذت بالصمت .

٨٧

رجع المغلوبون يركبهم الخزي . ابتعدوا ما استطاعوا عن الانوار
 المنبعثة من بيت سوارس حيث يتألق الجوبيهجة الفرح والطرب ، وانحجز
 كل رجل في ربهه . وإذا بالانباء السود تنتشر كالخريق ، فتعالى الصوات
 في مساكن كثيرة وانطفأ العرس كأنما أهيل عليه التراب . انطلقت
 الحناجر تنعي سوارس ، ثم تنعي من قتل معه من رجاله . وامتد المصاب
 فشمّل رجالاً من الرفاعية وآخرين من جبل ممن اشتركوا في الزفسة .
 ومن المجرم المعتدي ؟ قاسم ، قاسم الغنام ، قاسم الذي كان ينبغي ان
 يظل متسولاً مدى عمره لولا قمر ! وشهد رجل بأنه تبع عصاة قاسم
 في عودتها حتى اهتدى الى ملجأها فوق المقطم . ونساء كثيرن ذل
 بعنصم بالجبل حتى يقضي على رجال الحارة ؟ واستيقظ النائمون وخرجوا

إلى الحارة والأربع تتجاوب بالصوات . وصرخ أحد رجال جبل في غضب:

— اقتلوا الجرايع .

لكن جلطة أوقفه صائحاً :

لا ذنب لهم ، قتل فتوتهم ، وعدد وافر من رجالهم

— احرقوا المقطم !

— هاتوا جثة قاسم لتأكلها الكلاب .

— علي الطلاق لأشربن من دمه ..

— الجربوع اللثيم الجبان .

— يحسب ان الجبل سيحميه !

— لن يحميه الا القبر .

— كان يأخذ المليم من يدي ويبوس التراب .

— ويظهر بيننا بمظهر اللطيف الودود ثم يغدر بنا فيقتل الرجال .

وفي اليوم التالي بدت الحارة في مأتم شامل . وفي اليوم الثاني اجتمع الفتوات في بيت الناظر رفعت الذي ركبته الغضب والحقن حتى قال لهم في تهكم مر :

— لنحبس أنفسنا في حارتنا كي نأمن الموت .

وكان لهيطة أشدهم حرجاً لكنه أراد ان يهون من الخطب تخففاً من مسؤوليته فقال :

— ما هي الا معركة بين فتوة وبعض رجال حيته !

فقال جلطة معترضاً :

— قتل من حيننا رجل وجرح ثلاثة .

وقال حجاج :

— وقتل منا رجل .

فقال رفعت بمكر مخاطباً لهيطة :

— اللطمة لاصمة بسمعتك يا فتوة الحارة !

فامتقع وجه الرجل غضباً وقال :

- راعي غنم ! والله لقد هزلت !

ولم يخف الناظر قلقه فقال :

- راعي غنم ! فليكن ، لكنه أصبح ذا خطر ، استخففنا بهديانه
زمناً وأعرضنا عنه العين اكراماً لزوجته فاستفحل شره ، وقد تمسكن
حتى تمكن فقضى على فتوته وأعوانه ، وهو الآن معتصم بالجبل ولن
نقف أطاعه عند حد .

وتبادلوا النظرات في غضب فواصل الناظر حديثه قائلاً :

- وهو يلوح للناس باغراء . هذه هي مصيبة حارتنا ، لا ينبغي ان
نتجاهل ذلك ، انه يعد الناس بالوقف ، ومع ان الوقف لا يكفي أصحابه
الا ان احداً لا يصدق ذلك ، المتسولون لا يصدقون ذلك وما اكثرهم ،
حارتنا حارة المتسولين ! وهو يعد بالقضاء على الفتونة فيطرب لذلك
الجبناء وما اكثرهم ، حارتنا حارة الجبناء ، وسيجدون اهلها دائماً مع
الغالب ، ففي القعود هلاكنا .

فهتف لهيطة :

- حوله مجموعة من الفئران وما أيسر ابادتهم .

فتساءل حجاج :

- لكنهم يمتصمون بالجبل ؟ !

فقال جلاطة :

- نراقب الجبل حتى نجد اليهم منفذاً .

فقال رفعت بتحريض :

- اعملوا ففي القعود كما قلت هلاكنا .

واشتد الغضب بلهيطة فقال للناظر بلهجة ذات مغزى :

- أتذكر يا سيدي انني دبرت قتله في حياة زوجته فعارضت الهامم

فحول الناظر عينيه عن الأعين المحدثمة وقال في شبه اعتذار :

- لن يجدينا تذكر الأخطاء .
 ثم مردفاً بعد هنيهة صمت :
 - وهذه العلاقات تراعى في حارتنا منذ القدم !
 وتعاليت ضجة في الخارج غير مألوفة كأنما تنذر بشر مستجد ،
 وكانت الأعصاب متوترة فنادى الناظر البواب وسأله عما هنالك فقال الرجل :
 - يقولون إن الغنام انضم الى قاسم سائقاً معه جميع أغنام الحارة !
 فوقف لهيطة ثائراً وهو يصيح :
 - الكلب .. حارة كلاب ، الويل له !
 وتساءل الناظر :
 - من أي حي هذا الغنام ؟
 فقال البواب :
 - من حي الجرابيع ، ويدعى زقلة .

٨٨

- أهلاً بك يا زقلة .
 وعانقه قاسم فقال الغنام بحماس :
 - لم أكن ضدك قط ، وكان قلبي معك دائماً ، ولولا الخيوف
 لكنت بين أوائل المنضمين اليك ، وما ان سمعت بمقتل موارس أبحرته
 الله حتى سارعت اليك سائقاً أمامي أغنام أعدائك !
 وألقى قاسم نظرة على مجمع الأغنام في الساحة بين الأكواخ حيث
 التف حولها النساء وارتفع ضوضاء الحبور ، ثم ضحك قائلاً :
 - هي حلال لنا لقاء ما نهبوا من أموالنا في الحارة .
 وفي أثناء النهار انضم الى قاسم افراد من الحارة بكثرة لم تعهد من

قبل فاشتدت العزائم ورسخت الآمال . لكن قاسم استيقظ في الصباح الباكر لليوم التالي على ضجة غريبة فغادر كوخه من فوره فرأى رجاله قادمين نحو كوخه في عجلة واضطراب ، وقال له صادق :

— جاءت الحارة للانتقام وهم مجتمعون أسفل المر .

وقال خردة :

— كنت أول ذاهب للعمل فرأيتهم وأنا على مبعدة خطوات من الخلاء فرجعت مسرعاً ، وطاردني بعضهم فأصابوني بحجر في ظهري ، وجعلت اقادي صادق وحسن حتى جاء جماعة من اخواننا الى رأس المر فانتبهوا الى الخطر ورموا المهاجمين بالأحجار حتى تراجعوا .

ونظر قاسم نحو رأس المر فرأى حسن وبعض الرجال واقفين عنده بأيدي قابضة على الأحجار فقال :

— نستطيع ان نصدهم هناك بعشرة رجال .

فقال حمروش :

— ان الصعود على هذه الحال انتحار فليصعدوا اذا شاءوا .

وتجمع الرجال والنساء حول قاسم حتى خلت الأكواخ . جاء الرجال بالنباييت والنساء بمقاطف طوب أعدت لذلك اليوم . وانطلق أول شعاع للشمس من سماء صافية . وتساءل قاسم :

— أما من مسلك آخر الى المدينة ؟

فقال صادق واجماً :

— يوجد مسلك في الجنوب على مسيرة ساعتين في الجبل .

وقال عجرة :

— لا أظن ان لدينا من الماء ما يكفينا اكثر من يومين .

فسرت فيهم همهمة قلق وبخاصة النساء فقال قاسم :

— لقد جاءوا للانتقام لا للحصار ، واذا حاصرونا عمدنا الى المسلك الآخر لفك الحصار .

ومضى الرجل يفكر وهو يحافظ على هدوء وجهه الذي تتطلع اليه
الأبصار . لو حاصروهم لوجدوا أكبر المشقة في احضار المياه من المسلك
الجنوبي . ولو هجم برجاله عليهم فهل يضمن الانتصار على رجال
فيهم لهيطة وجلطة وحجاج ؟ وأي مصير يجنبه مغيب هذا اليوم لهم ؟
ورجع الى كونه ثم عاد قابضاً على نبوته ثم سار الى حسن ورجاله عند
رأس المر ، فقال له حسن :

— لا يجرؤ أحد منهم على الاقتراب .

ودنا قاسم من حافة الجبل فرأى اعداءه متجمعين على هيئة هلال
في الخلاء بعيداً عن مرمى الحجر . هاله عددهم لكنه لم يستطع ان يميز
الفتوات بينهم . ومد بصره خلال الفضاء حتى استقر على البيت الكبير ،
بيت الجبلاوي ، الغارق في صمته كأنه لا يبالي بصراع الأبناء من أجله .
ما أحوجهم الى قوته الخارقة التي دانت لها هذه البقاع في الزمن الحالي .
ولعل القلق لم يكن لساوره لولا ذكرى مصرع رفاة على كשב من
بيت جده . ووجد دافعاً من أعماقه يدعو الى ان يصيح بأعلى صوته
قائلاً : « يا جبلاوي » كما يفعل أهل حارته في أحوال شتى ، لكن
لفت سمعه أصوات النساء المقتربة فاستدار ناظراً حوله فرأى الرجال
منتشرين على حافة الجبل ينظرون الى اعدائهم ، والنساء متجهات الى
المواقع نفسها فصاح بهن ان يرجعن ، وشدد في الصباح لدى تردددهن ،
وأمرهن بأن يعددن الطعام وان يزاوئن مألوف الأعمال ، وما زال بهن
حتى صدعن بأمره . فاقترب منه صادق قائلاً :

— أحسنت ، فان أخوف ما أخاف علينا تأثير اسم لهيطة .

فقال حسن :

— ليس امامنا الا ان نضرب !

ولوح بنبوته مردفاً :

— سيتعذر علينا التجوال سعيًا وراء ارزاقنا بعد ان عرفوا مكمنا ،

- فليس أماننا الا ان نهجم .
- فأدار قاسم رأسه ماداً البصر نحو البيت الكبير وقال :
- بالصواب نطق ، ما قولك يا صادق ؟
- ننتظر حتى يجيء الليل .
- فقال حسن :
- سيضر بنا الانتظار ، ولن ينفعا الليل في عراقك .
- وتساءل قاسم :
- ترى ما هي خطتهم ؟
- فقال صادق :
- ان يجبرونا على النزول اليهم .
- وتفكر قاسم ملياً ثم قال :
- اذا قتل لمبطة ضمت النصر .
- وردد عينيه بين الرجلين ثم أردف :
- اذا سقط تقاتل جلطة وحجاج على الفتوة .
- ومضت الشمس في الارتفاع فتوهج الحصا وانتشرت نذر الحر .
- وتساءل حسن :
- خبّراني ما العمل ؟
- فبدأ تسأله كالحصار ولكن لم يطل بأحد التردد ، فقد انطلق صراخ امرأة من ناحية الساحة ، وتلته على الفور صرخات ، وتميز الصوت وهو يصيح :
- هوجمنا من الناحية الأخرى !
- وارتد الرجال عن الحافة فانطلقوا نحو الساحة فيما يسلي الجنوب .
- أوصى قاسم المدافعين عن الممر بمزيد من الانتباه . أمر خردة ان يدعوا النساء القادرات الى الانضمام الى المدافعين عن الممر . جرى بين صادق وحسن نحو الساحة حتى توسط رجاله . لاح للجميع لمبطة وهو يقود

عصابة كبيرة من الرجال قادمين من جنوب الجبل . قال قاسم بحق :
- شاغلنا برجاله حتى يقوم برحلته حول الجبل ثم يجيئنا من مسلك
الجنوب .

فصاح حسن وجسمه العملاق ينتفخ بالنوب :
- جاء بقدميه الى موته !

فقال قاسم :

- يجب ان نتنصر وسنتنصر .

وامتد رجاله من حوله كدراعين قويتين . ومضى القادمون يقتربون ،
بنابيت مرفوعة ، كأنهم دغل من الأشواك . ودخلوا في مجال الأبصار
فقال صادق :

- ليس فيهم جلطة ولا حجاج !

وأدرك قاسم ان جلطة وحجاج على رأس المحاصرين أسفل الجبل ،
وحدث انهما سيهاجان المررهما كلفهم ذلك من مشقة ، لكنه لم يفض
بوساوسه الى أحد . وتقدم خطوات وهو يلوح بنبوته فشدّ الرجال على
نابيتهم . وجاء الصوت الغليظ ، صوت لهيطة وهو يصيح :
- لن تدفنوا في قبر يا أولاد الزواني .

واندفع قاسم مهاجماً فاندفع حوله الرجال ، وأقبل الآخرون كالصخور
المتقذفة حتى اصطكت النابيت واختلطت الزجوة وارتفع الزئير . وفي
ذات الوقت انهال الطوب من المدافع عن رأس المرر على هجوم من
أسفل الجبل بدأ . لكن كل رجل من رجال قاسم مع آخر من العدو
اشتبك . تضارب قاسم ودنجل بعنف ومكر . وهوى نبوت لهيطة على
ترقوة حموش فانكسر . والتحم صادق وزينهم في هجمات متتابعة .
ودك حسن بنبوته الغضبان فسكت . وضرب لهيطة زقلة في رقبته فانقلب ،
وتمكن قاسم من اصابة دنجل في اذنه فصرخ وتراجع ثم اندلق . وحمل
زينهم على صادق حملة شديدة لكن هذا بادره بطعنة في بطنه فخللته

يداه فثنى بطعنة أخرى فجندله . وتغلب خردة على الحفناوي ولكن
لهيطة شلّ ذراعه قبل ان يهنا بنصرته . ووجهه ضربة الى الهيطة
لكنه زاغ عنها برشاقة ورفع نبوته ليهوى به على لب غير أن قاسم
ساجله بضربة تلقاها بنبوته ، وجاء ابو فصاده كالريح ليقذفه بالضربة
الثالثة لكن لهيطة نطحه برأسه في أنفه فحطمه . بدا لهيطة كأنه قوة لا
تغلب . واشتد القتال . تلاطمت النبايت بلا هوادة . واندفعت سيول
الشتائم واللعنات . وانبتقت الدماء تحت أشعة الشمس المحرقة . وتوالى
الاصابات فخر الرجال تباعاً من الفريقين . واحترق لهيطة غضباً للتماومة
المستبصلة التي لم يتوقعها فتضاعفت هجياته وضرباته وقسوته . ومن الناحية
الأخرى أمر قاسم حسن وعجربة بأن يتحينا الفرصة للهجوم معه على
لهيطة حتى يهدموا الحصن الذي يلوذ به المهاجمون . واذا بأمرأة من
المدافعات عن الممر نجىء وهي تصرخ محذرة :

— انهم يصعدون تحت ألواح العجين !

ففرغت قلوب رجال الجبل ، وصاح شيطنة :

— لن تدفنوا في قبر يا أولاد الزواني .

فصاح قاسم في رجاله .

— انتصروا قبل ان يصعد المجرمون .

واندفع نحو لهيطة بجناحين من حسن وعجربة ، فاستقبله الفتوة بضربة
شديدة تلقاها بنبوته ، وأراد عجربة ان يعاجله بضربة ولكن العفش اصاب
ذقنه فانبطح على وجهه . ووثب حسن أمامه وهما يتبادلا ضربتين ،
ورمى حسن بنفسه عليه فالتحما في صراع مميت . وارتفع صراخ النساء
عند رأس الممر وأخذ بعضهن يلذن بالفرار ، وتخرج الموقف . وسارع
قاسم بارسال صادق وبضعة رجال الى حافة الجبل ، ثم انقض على
لهيطة لكن اعترضه زحلفة فاشتبك في قتال عنيف . ودفع حسن لهيطة
بكل توته فتراجع خطوبة ، فبصق على عينه وهو يهدر ، ثم ركله

فأصاب ركبته ، وبسرعة خاطفة هجم عليه متقوساً فنطح بطنه كأنه
ثور غاضب فاختل نوازن الجيار ووقع على ظهره فبرك الآخر فوقه
وأطبق بنوته على رقبته بكنتا يديه وضغط بكل قواه . وأقبل رجال
للدفاع عن فتوتهم فتصدى لهم قاسم وبعض رجاله . واصطكت قدما
لهيطة ، وجحظت عيناه ، واحتقن بالدم وجهه ، واخذ يختنق . وبغثة
وثب حسن واقفاً فوق غريمه الخائر القوة وهوى على رأسه بنوته
بضربة شرسة حانقة فتحطمت جمجمته وانتهى . وصرخ حسن ،
بصوت كالرعد :

— لهيطة قتل ، فتوكم قتل ، أنظروا الى جثته !
وأحدث موت لهيطة غير المتوقع أثراً عنيفاً ، فاشتدت عزائم
وهنت عزائم ، وانذفع الأمل واليأس في قتال مرير . وانضم حسن
الى قاسم في صراعه فلم تحب له ضربة . وشهد الميدان رجالاً تتوئب
ثم تثب ، ونبايت ترتفع ثم تنقض . وثار الغبار وانتشر ثم أطبق على
المتعاركين كليل دموي . وقذفت الصدور بجيشات وصيحات ولعنات
وصرخات متأوهة وزججرات متوعدة . وبين كل آونة وأخرى يترنج
رجل ثم يسقط ، او يتراجع ثم يفر ، وانتشر المنطرحون على الأرض
والتمعت الدماء تحت أشعة الشمس . وانتحى قاسم جانباً فأرسل بصره
نحو رأس الممر الذي أقلقته أمره فرأى صادق ورجاله يصبون الطوب
بالمقاطف في توتر شديد دلّ على اقتراب الخطر المتصاعد . وسمع النساء
وينهين زوجته ، وهن يصرخن كالمستغيثات . وشاهد بعض رجال
صادق وهم يقبضون على النبايت استعداداً للقاء المصريين على الصعود
تحت وابل الطوب . قدر خطورة الأمر فضى من فوره الى جثة لهيطة
التي ابتعد عنها القتال لتقهقر رجال الحارة ، وراج يسحبها وراءه نحو
رأس الممر . ونادى صادق فجاءه مسرعاً فتعاونوا على حمل الجثة ، وسارا
بها حتى أول الممر ، وقذفا بها معاً فتهافتا ثم تلاحرجتا حتى وقفت

تحت أرجل الصاعدين تحت الألواح . ووقع اضطراب واضح . وجلجل صوت حجاج وهو يصرخ في غضب ،

— اصعدوا ، تقدموا ، الويل للمجرمين !
فصاح قاسم متهكماً ، في ضبط نفس عجيب :

— تقدموا ، هذه جثة فتوتكم ، وورائي جث رجالكم الآخرين ،
تقدموا فنحن في انتظاركم !

وأشار الى الرجال والنساء فأنهال الطوب كالمنطر حتى توقفت طليعة المهاجمين وأخذوا في التراجع البطيء رغم دفع حجاج وجلطة لهم ، وترامت الى قاسم هممة تحرش واحتجاج وتذمر فصاح قاسم :
— يا جلطة ، يا حجاج ، اقدا ولا تهربا !

فارتفع اليه صوت جلطة كأنه نبرة الكراهية وهو يصيح :
— انزلوا إن كنتم رجالا ! انزلوا يا نسوان يا أولاد المواهر !
وصاح حجاج وهو واقف وسط الموجة المرتدة من الرجال :

— لا عشت ان لم اشرب من دمك يا أفذر من رعى الغنم !
فتناول قاسم حجراً وقذف به بكل قوته . وتواصل انهيار الأحجار .
واسرعت الموجة المرتدة حتى اوشكت ان تنقلب جرياً . واذا بجسن ينجي فيقول وهو يمسح عن جبهته دماً سائلاً :

— انتهى القتال ، وفر الاحياء منهم نحو الجنوب .
فهتف قاسم :

— ادع الرجال لتتبعهم !
لكن صادق قال له :

— ان الدم يسيل من اسنانك وذقنك !
فمسح فمه وذقنه براحتيه وبسطها فرآها حمراء قانية . وقال حسن
بأسف .

- قتل منا ثمانية ، وأصيب الأحياء بجروح بالغة فلن يستطيعوا حراكاً .

ونظر إلى اسفل من خلال الاحجار المتهاوية فرأى اعداءه يركضون في نهاية الممر . فقال صادق :

- لو أتموا رحلتهم ما وجدوا مقاتلاً يصمد لهم .

ثم ثم ذفن قاسم الدامي واردف بامتنان :

- أنقذنا عقلك !

وأمر قاسم رجلين بالبقاء عند رأس الممر للحراسة ، وأرسل الآخرين في اعقاب الهاربين لاستطلاع الأنباء ، ثم عاد بين صادق وحسن وهم ينقلون خطوات ثقلاً في اعياء وكلال نحو الساحة التي لم يبق فوق أديمها جثث القتلى . كانت مذبحه واي مذبحه . قتل من رجاله ثمانية ومن اعدائه عشرة غير لهيطة . ولم يسلم من رجاله الأحياء أحد من كسر او جرح ، وقد آووا الى الاكواخ فأخذ النساء في تضמיד جراحهم ، على حين ضجّت اكواخ الضحايا بالبكاء والصوات . وجاءت بدرية في لهف ودعتهم الى الكوخ لتغسل جروحهم ، ثم جاءت سكينه حاملة احسان وهي تبكي بكاء صارخاً . وكانت الشمس تقذف بنيرانها من كبد السماء ، والحدأى والغربان تدور مدومة وهابطة في الفضاء ، والجو يفوح برائحة الدم والتراب . ولم تكف احسان عن البكاء ولكن لم يعرها أحد التفاتاً ، وحتى حسن العملاق بدا وكأنه يترنح . وتتم صادق بصوت حزين :

- ليرحم الله قتلانا !

فقال قاسم :

- ليرحم الله القتلى والأحياء على السواء .

واخذت حسن صحوة ابنهاج طارئة فقال :

- منتصر عما قريب فتودع حارتنا عهد الدم والارهاب .

فقال قاسم :
— سحقاً لعهد الارهاب والدم .

٨٩

لم تشهد الحارة كارثة كهذه من قبل . رجع الرجال صامتين ذاهلين ذابلين غاضبين الأبصار كأنما شُدت جفونهم الى أديم الأرض . ووجدوا أنباء الهزيمة قد سبقتهم الى الحارة وان الربوع ترتج باللطم والعويل . وانتشر الخبر في الحارات والأزقة وبانت سمعة الحارة الرهيبة احدىثة تلوكها ألسنة التشفي . وتبين ان حي الجرابيع بأسره قد غادر الحارة خوفاً من الانتقام فخلت الدور والدكاكين ، ولم يشك أحد في انهم سينضمون حتماً الى ابن حيهم المنتصر فيزداد بهم عدداً وقوة . وخيم الحزن على الحارة المكلفة بالحداد لكن انفاسه الحارة قطرت حقداً ومقتاً ورغبة في الانتقام . واذا برجال من جبل يتساءلون عن فتونة الحارة ولما تكون ، واذا بالسؤال نفسه يتردد على ألسنة في حي رفاعه ، فانتشر سوء الظن انتشار التراب في العاصفة . وعلم الناظر رفعت بما تهجس به الخواطر فدعا حجاج وجلطة الى مقابلته . وذهب الرجلان وحوله كل رجاله الأشداء حتى غص بهم بهو الناظر ، واحتل كل فريق جناحاً من البهو ، فكأنه لم يعد يأمن الاختلاط بجيرانه ، وقد ادرك الناظر مغزى ذلك فازداد غماً على غم ، وقال :

— تعلمون ان كارثة حلت بنا ، لكننا لم نمت ، ولم يقض علينا ، ولم يزل في وسع سواعدنا ان نحقق لنا النصر على شرط ان نحافظ على وحدتنا ، والافقولوا علينا السلام .

فقال رجل من جبل :
— ستكون الضربة الاخيرة لنا وما شدة الا وبعدها الفرج .
وقال حجاج :

— لولا اعتصامهم بالجبل لهلكوا عن آخرهم .

وقال ثالث :

— لاقاهم لهيطة بعد رحلة طويلة شاقة ترك بعدها الجبال .

فقال الناظر بامتناع :

— حدثوني عن وحدتكم ما شأنها ؟

فقال جلطة :

— نحن بفضل الله اخوان وسنظل كذلك .

— هذا قولك ، لكن مجيئكم بعددكم الوفير هذا ينم على الارثياب

الذي يفرق بين قلوبكم !

فقال حجاج :

— بل دعت الى ذلك رغبة الجميع في الانتقام !

فوقف الناظر متوتر الأعصاب وقال مقلباً عينيه في الوجوه الكالحة :

— كونوا صريحين ، انكم تنظرون الى بعضكم بعين ، وتنظرون

بالأخرى الى فتونة الحارة ، الى مكان لهيطة الخالي ، ولن تعرف الحارة

الأمان ما دامت هذه الحال ، وأخشى ما أخشاه ان تتداخل النبائيت في

الأمر فتهلكوا جميعاً ويأكلكم قاسم لقمة سائغة !

فارتفعت أصوات كثيرة تقول في نفس واحد :

— نعوذ بالله من ذلك .

فقال الناظر بصوت قوي واضح :

— لم يعد بالحارة الا حياً جبل رفاعة ، فليكن عليها فتوتان ، ولا

ضرورة للفتوة الواحد ، ولتعاهد على ذلك ، ولكن يداً واحدة على

الخارجين .

وانقضت ثواني صمت رهيبية ثم رددت أصوات في فتور :

— نعم .. نعم .

وقال جلطة :

- سنرضى بذلك رغم اننا سادة الأحياء منذ القدم .

فقال حجاج محتجاً :

- ليكن القبول بلا من ، لا سادة هنا ولا خدم وبخاصة بعد ذهاب

الخرابيع ، ومنذا ينكر ان رفاة كان أنبل من عرفت حارتنا ؟

فهتف جلطة محتداً حائقاً :

- حجاج ! انا عارف قلبك .

وهم رفاعي بالكلام ولكن الناظر صرخ غاضباً :

- خبروني هل عزمتم على ان تكونوا رجالاً او لا ، ان أي نبأ

يطير عن ضعفكم سيعقبه زحف الخرابيع من الجبل كالذئب ، خبروني

هل تستطيعون ان تقفوا صفاً واحداً او أرى لنفسى وجهة أخرى ؟

فصاح افراد من هنا ومن هناك :

- هس ، عيب يا رجال ، حارتنا على وشك ان تفقد كل شيء .

وتطلعت اليه الوجوه في تسليم ، فقال :

- ما زلتم متفوقين في العدد والقوة ، ولكن لا تهاجموا الجبل مرة

أخرى .

وارتسم التساؤل على الوجوه فاردف قائلاً :

- سنحبسهم فوق الجبل ، سنربص لهم أمام المسلكين المفضيين

للجبل ، فاما يموتون جوعاً وأما يضطرون الى النزول اليكم فتقتضون عليهم .

فقال جلطة :

- نعم الرأي ، به أشرت على لبيطة رحمه الله ولكنه اعتد الحصار

جناً وأبى الا ان يهاجم .

وقال حجاج :

- هو الرأي ، ولكن ينبغي تأجيل تنفيذه حتى يرتاح الرجال .

وطلب الناظر اليهم ان يتعاهدوا على الاخاء والتعاون ، فتصافحوا

ورددوا الأقسام . وبدا لكل ذي عينين فيما تبع ذلك من أيام ان جلطة

وحجاج يشندان في معاملة أتباعها لتغطية آثار الهزيمة التي لحقتها . وأذاعا في الحارة انه لولا حماة لهيطة لقضي على قاسم بلا مشقة ، ولكن اصراره على صعود الجبل أنك رجاله فذهب بقوتهم وشجاعتهم ، ولا قاهم عدوهم وهم على أسوأ حال . وصدق الناس ما قيل لهم ، ومن أبدى شيئاً من الارتياح سب ولعن وضرب . أما فتوة الحارة فلم يكن يسمح لأحد بالخوض فيها ، على الأقل في الجهر ، ولكن كثيرين — من الرفاعية والجبيلية على السواء — جعلوا يتساءلون في الغرز عن سيخلف لهيطة بعد النصر . وتولد في الحارة رغم التعاهد والأقسام جو خفي من الريبة ، فاحتاط كل فتوة لنفسه فلم يكن بنأى عن مركزه إلا وسط جماعة من أعوانه . لكن الاستعداد ليوم الانتقام لم يتوقف لحظة واحدة . واتفقوا فيما بينهم على ان يعسكر جلطة ورجاله أمام مسلك المقطم عند السوق ، وان يعسكر حجاج ورجاله أمام مسلك القلعة . وسوف يلزمون اماكنهم ولو بقوا عمرأ ، وستسرح النساء للبيع والشراء ويحجنهم بالطعام . وعند مساء اليوم السابق ليوم الخروج تجمعوا في شتى الغرز ، وجاءوا بقدور البوظة والنبيد ، وراحوا يحششون ويسكرون حتى ساعة متأخرة من الليل . وودع الأعوان حجاج أمام ربه بجي رفاعية وهو في نهاية من الانبساط والسلطنة . ودفع الباب ومضى في الدهليز وهو يدندن :

الأوله آه ..

لكنه لم يتمتها . انتفض عليه شبح من وراء ، فسد فاه بيد ، وطعن بسكين قلبه بالأخرى . انتفض الجسم بقوة بين يديه فلم يتركه ان يحدث سقوطه صوتاً . وأنامه برفق على الأرض لا حراك به في الظلام الدامس .

استيقظت الحارة في باكر الصباح على ضجة صارخة مفزعة . فتحت النوافذ وأطلت الرؤوس ، وسرعان ما انجهت نحو الربيع الذي يقم فيه حجاج فتوة رفاعية ، حيث نجمهر جمع غفير واختلط اللغط بالصراخ والعيول . وامتلاً دهليز الربيع بالرجال والنساء ، وكثر التساؤل والتعليق ، وانذرت الأعين المحمرة بالبكاء بكل شر خطير . وهرع الى الربيع الرفاعية من كل ربيع ودار وجحر . وما لبث ان جاء جلطة ورجال فأوسع الناس لهم حتى انتهوا الى الدهليز ، وصاح جلطة :

— مصيبة ولا كل المصائب ، ليتني كنت فذاك يا حجاج .

كف الباكون عن البكاء والصارخون عن الصراخ والحانقون عن التساؤل ، لكنه لم يسمع كلمة مجاملة واحدة . فعاد يقول :

— مكيدة دنيئة ! ليس الغدر من شيم الفتوات ، لكن قاسم راعي غنم متسول لا فتوة ، ولن يهنا لي بال حتى أرمي بجثته الى الكلاب . وصاحت امرأة في حدة ملئعة :

— مباركة عليك فتوة الحارة يا جلطة .

وتقلصت سحتته بالغضب فوجم القريبون منه وسرت الدمدمة فيأوراء

ذلك ، وصاح بغلظة :

— فلتنلق النسوان افواههن في هذا اليوم الأغبر !

فعادت المرأة تقول :

— ليفهم كل ذي عقل !

وصوتت فهاج الصوات ، وانتظر جلطة حتى هدأت العاصفة وقال :

— مكيدة مأكرة دبرت بليل للايقاع بيننا .

فهتفت امرأة أخرى :

— مكيدة ! قاسم وجرابيعه في الجبل ، وحجاج قتل في حارته بين قومه
وجيرانه الطامعين في الفتوة !
فصاح جلطة :

— مرة مجنونة ، ومجنون كل من يتقبل ظلها ، وإذا تماديتم فسيقتل
بعضنا بعضاً كما يفسد قاسم .
وإذا بقلّة تموي فتتحطم عند قدمي جلطة فتراجع ورجاله وهو يقول :
— عرف ابن الزانية كيف يفسد بيننا .

ومضى من توه نحو بيت الناظر . واشتد اللغط عقب ذهابه . وإذا
برجلين — رفاعي وجبلي — يتشابكان في شجار عنيف ، وتبعتهما على
الأثر امرأتان . وتضارب غلمان من الحيين . واستعرت معارك قذف
وسب من النوافذ . وشاع الاضطراب في الحارة حتى تجمهر في كل
سحي رجاله وارتفعت النبايت . وخرج الناظر من بيته بين خدام ورجال
فسار حتى توسط الحيين وصاح بأعلى صوته :

— اعقلوا .. الغضب سيعميكم عن عدوكم الحقيقي ، قاتل المعلم حجاج !
فصاح أحد الرفاعية :

— من ادراك بذلك ؟ وأي جربوع يتجرأ على دخول الحارة ؟
فصاح رفعت :

— كيف يقتلون حجاج اليوم وهم في أشد الحاجة اليه ؟
— سل المجرمين ولا تسلنا نحن .

— الرفاعية لا يخضعون لفتوة من جبل !
— سيدفعون ثمن دمه غالياً .

نعاد الناظر يصبح :

— لا تطيعوا المكيدة ولا رأيتم قاسم زاحفاً عليكم كالرباء .
— فليات قاسم اذا شاء ، ولكن لن يكون جلطة فتوة علينا .

فقال الناظر وهو يضرب كفّاً بكف :

— انتهينا وسيدركنا الخراب .

فتعالت الاصوات :

— الخراب خير من جلطة .

وقدفت طوبة من حي رفاعه فاستقرت بين الرجال في حي جبل .
وأجاب حي جبل بالمثل . ورجع الناظر مسرعاً . وإذا بالطوب ينهمر
من الجانبين ، وسرعان ما اشتبك الحيان في معركة دامية . واشتد الضرب
في قسوة بالغة . وامتدت المعركة الى بعض الأسطح حيث تبادل نساء
من الحين قذف الطوب والحصا والتراب والأخشاب . وتواصل الاشتباك
فترة طويلة رغم أن الرفاعية كانوا يقاتلون بغير فتوتهم ، ولكن كثر
صرعاهم أمام ضربات جلطة التي لا تحيب . وإذا بأصوات نساء تنطلق
من النوافذ في ضوضاء غير متميزة ضاعت في ضوضاء المعركة ، غير
أن النساء بدون وهن يشرن بأيديهن في فرع تارة نحو طرف الحارة الشرقي
وطوراً نحو الطرف الآخر . والتفت أناس الى حيث تشير النساء . رأوا
قاسم أمام البيت الكبير ، يتقدم في عصبة من رجاله تسبقهم نبايتهم .
ورأوا في الطرف الآخر حسن يتقدم في عصبة أخرى . ضج المكان
بصيحات التحذير وتتابعت الأحداث في سرعة خاطفة . أمسكت الأيدي
عن الضرب كأنما شلت . وبدافع عفوي تكتلوا وتداخلوا ، الضارب
منهم والمضروب ، وانقسموا فرقتين لمواجهة القادمين . وصاح جلطة بحق :

— قلت انها مكيدة فلم تصدقوا ..

استعدوا للقتال وهم من الجهد واليأس على أسوأ حال . لكن قاسم
توقف فجأة عن التقدم ، ومثله فعل حسن كأنهما ينفذان خطة واحدة .
وصاح قاسم بأعلى صوته :

— لا نريد أذى لأحد ، لا غالب ولا مغلوب ، أبناء حارة واحدة
وجدت واحد ، والوقف للجميع .

فصيح جملته :

- مكيدة جديدة !

فقال قاسم غاضباً :

- لا تدفعهم الى القتال دفاعاً عن فتونتك ، دافع عنها وحدك
اذا شئت ..

وصرخ جملته :

- اهاجموا ..

وانقض على مجموعة قاسم . تبعه رجال . وانقض آخرون على حسن
ورجاله . تردد كثيرون . تسلل الجرحى الى الربوع ، وكذلك المنهكون ،
ثم تبعهم المترددون . لم يبق الا جملته وعصابته . لكنهم خاضوا معركة
شديدة رغم ذلك واستماتوا في الدفاع . تضاربوا بالنبايت والرءوس
والاقدام والأيدي . وركز جملته هجموه على قاسم بمحمد أعمى . تبادلوا
ضربات عنيفة ، ثم مضى قاسم يتلقى ضربات خصمه بنبوته في خفة
وحذر . لكن رجال قاسم أطبقوا بكثرتهم على عصابة جملته حتى غابت
تحت عشرات النبايت . وانقض حسن وصادق على جملته وهو مشتبك
مع قاسم ، فضرب صادق نبوته وهوى حسن بنبوته على رأسه ، مرة
وثانية وثالثة ، فسقط النبوت من يده واندفع يجري كالثور الذبيح ثم
انكب على وجهه كمصراع بوابة . انتهت المعركة . سكنت أصوات
النايت وصرخات الرجال . وقف المنتصرون وهم يلهثون ويمسحون الدماء
عن الوجوه والرءوس والمعاصم لكن ثغورهم افترت رغم ذلك عن ابتسامة
الفوز والسلام . كان العويل يترامى من النوافذ ، ورجال جملته مبعثرين
على الأرض ، والشمس ساطعة ترسل أشعة حامية . ونخاطب صادق
قاسم قائلاً في ثقة وطمأنينة :

- انتصرت ، نصرك الله ، ان جدنا لا يخطيء في اختياره ، ولن
تسمع حارتنا للعويل بعد اليوم .

فابتسم قاسم ابتسامة هادئة ، ثم استدار في عزم موجهاً بصره نحو بيت الناظر فاتجهت الرؤوس اليه ..

٩١

سار قاسم على رأس رجاله الى بيت الناظر فوجدوا الباب والنوافذ مغلقة ، والصمت والكآبة يخيمان عليه . وطرق حسن الباب بقوة ولكن أحداً لم يرد . وتجمع نفر من الرجال وراحوا يدفعون الباب بشدة حتى انفتح على مصراعيه . ودخل الرجل ، ورجاله وراءه . فلم يعثروا للبواب على أثر ولا لأحد من الخدم . وتسارعوا الى البهو ، ببقية الحجرات ، ثم الادوار الثلاثة ، فتبين لهم أن الناظر وأهله وخدمه قد غادروا البيت هاربين . والحق أن قاسم لم يأسف على ذلك اذ كان في أعماقه رغباً عن الفتك بالناظر اكراماً لزوجته التي لولاها لقضي عليه من أول الأمر ، ولكن حسن والآخريين غضبوا غضباً شديداً لنجاة الرجل الذي أذاق الحارة الفقر والهوان طوال عهده بها . وهكذا تم النصر لقاسم وأصبح رجل الحارة دون منازع . وتولى شئون النظارة اذ انه كان لا بد للوقف من ناظر . وعاد الجرابيع الى حيثهم ، وعاد معهم كل ما هاجر من الحارة خوفاً من الفتوات وعلى رأسهم المعلم يحيى . ومضت أربعون يوماً في هدوء فالتأمت الجراح وسكنت النفوس واطمأنت القلوب . ويوماً وقف قاسم امام البيت الكبير ودعا اليه أهل الحارة رجالاً ونساء من جميع الأحياء فوضوا اليه في لهفة وتطلع قلوبهم تخفق بشتى الخواطر . واكتظ بهم المكان واختلط جرابيعهم بآل جبل وآل رفاعه . وبدأ قاسم باسماء متواضعاً رقيقاً مهيباً معاً فأشار الى أعلى ، الى البيت الكبير وقال :

— هنا يقيم الجبلأوي ، جدنا جميعاً ، لا تميز في الانتساب اليه بين

حي وحى ، أو فرد وفرد ، أو رجل وامرأة .
هملت الوجوه في دهشة وبشر وبخاصة وجوه الذين توقعوا أن يسمعوها
مقالة رجل ملك وانتصر .
وأردف قاسم قائلاً :

- وحولكم وقفه ، وسيكون لكم جميعاً على السواء كما وعد أدهم
حين قال له : « سيكون الوقف لذريتك » ، علينا أن نحسن استغلاله
حتى يكفي الجميع وينبض ، فنحيا كما تمنى أدهم أن يحيا ، في رزق
موفور وطمأنينة شاملة وسعادة صافية غناء .

وتبادل الناس النظرات كأنهم في حلم فواصل كلامه قائلاً :

- ذهب الناظر الى غير رجعة ، واختفى الفتوات ، لن يوجد في
حارتنا بعد اليوم فتوة ، لن تؤدوا أناوة الجبار ، أو تخضعوا لعرييد
متوحش ، فتمضي حياتكم في سلام ورحمة ومحبة .

وقلب عينيه في الوجوه المستبشرة وقال :

- وببذكم أنتم الا يعود الحال كما كان ، راقبوا ناظركم فإذا خان
اغزله ، وإذا نزع أحدكم الى القوة اضربوه ، وإذا ادعى فرد أو حي
سيادة أدبوه ، بهذا وحده تضمنون ألا ينقلب الحال الى ما كان ،
وربنا معكم .

في ذلك اليوم تعزى قوم عن موتاهم ، وآخرون عن هزيمتهم ، ونظر
الجميع الى الغد كأنما ينظرون الى بزوغ البدر في ليلة من ليالي الربيع .
ووزع قاسم الربيع على الجميع بالعدل بعد الاحتفاظ بقدر للتجديد
والإنشاء . أجل كان نصيب الفرد ضئيلاً ولكن إحساسه بالعدل والكرامة
فاق كل حد . ومضى عهده في تجديد وبناء وسلام . ولم تنعم حارتنا
قبله بمثل ما نعمت به في أيامه من الوحدة والألفة والسعادة . أجل كان
ثمة آحاد في آل جبل يضربون غير ما يظهرون ويتهايمسون فيما بينهم :

« أنتم من جبل وبحكمنا جربوع من الجرابيع ؟ » ومثلهم وحد في

ل رفاعة . بل لم يتخل الجرابيع من تقرر أخذتهم العزة والزهو . ولكن صوتاً لم يرتفع لتعكير الصفو في عهده . ورأى الجرابيع فيه طرازاً من الرجل لم يوجد مثله من قبل ولن يوجد مثله من بعد . جمع بين القوة والرفقة ، والحكمة والبساطة ، والمهابة والمحبة ، والسيادة والتواضع ، والنظارة والأمانة ، والى ذلك كله كان ظريفاً بشوشاً أنيقاً ، وعشيراً نطيب مودته ، فضلاً عن ذوقه الجميل وحبه الغناء والنكتة . لم يتغير من شأنه شيء اللهم الا أنه توسع في حياته الزوجية كأنما جرى فيها مجراه في تجديد الوقف وتنميته . فعلى حبه بديرية تزوج حسناء من آل جبل وأخرى من آل رفاعة ، وتعشق امرأة من الجرابيع ثم تزوج منها أيضاً . وقال أناس في ذلك انه يبحث عن شيء افتقده مذ فقد زوجته الأولى قمر . وقال عمه زكريا انه يريد ان يوثق اسبابه بأحياء الحسارة جميعاً . لكن حارتنا لم تكن بحاجة الى تفسير أو تعليل لما حدث ، بل الحق انها اذا كانت أعجبت به لأخلاقه مرة فقد اعجبت به لحيويته مرات . وان حب النسوان في حارتنا مقدرة يتيه بها الرجال ويزدهون ومنزلة تعدل في درجتها الفتونة في زمانها أو تزيد .

ومها يكن من أمر فان حارتنا لم تشعر قبله بالسيادة حقاً ، وبأن أمرها قد آل الى نفسها دون ناظر يستغل أو فتوة يستدل ؛ ولا عرفت قبله ما عرفت أيامه من الاخاء والمودة والسلام . وقال كثيرون انه اذا كانت آفة حارتنا النسيان فقد آن لها أن تبرأ من هذه الآفة ، وانها ستبرأ منها الى الأبد .

هكذا قالوا ..

هكذا قالوا يا حارتنا !

عرفة

المتأمل لحال حارتنا لا يصدق ما تقول الرباب في القهوات . من جبل ومن رفاة ومن قاسم ؟ ! وأين الآثار التي تدل عليهم خارج نطاق القهوات ؟ أما العين فلا ترى إلا حارة غارقة في الظلمات وربابا تتغنى بالأحلام . وكيف آل بنا الأمر الى هذه الحال ؟ أين قاسم والحارة الواحدة والوقف المبذول لخير الجميع ؟ وماذا جاء بهذا الناظر الجشع وهؤلاء الفتوات المجانين ؟ ستسمع حول الجوزة الدائرة في الغرز ، بين الحسرات والضحكات ، أن صادق خلف قاسم على النظارة فسار سيرته . وأن قوماً رأوا ان حسن أحق منه بالنظارة لقربته من قاسم ولأنه الرجل الذي قتل الفتوات . وأنهم حرضوا حسن على رفع نبوته الذي لا يقاوم فأبى ان يعود بالحارة الى عهد الفتونة . لكن الحارة كانت قد أنقسمت على نفسها ، ومضى أناس في آل جبل وآل رفاة يجاهرون بما كانوا يضمرون . ولما رحل صادق عن الدنيا أسفرت الرغبات المكبوتة عن وجهها الشائه ونظراتها العدوانية . واستيقظت البابيت بعد رقاد ، وسال الدم في كل حي على حدة ، وبين كل حي وآخر ، حتى قتل الناظر نفسه في إحدى المعارك . وافلت الزمام ووثد الأمن والسلام فلم يجد الناس بدأ من إعادة آخر ذرية الناظر رفعت الى النظارة التي يقاتل الطامعون عليها . هكذا عاد الناظر قدري الى النظارة . وانقلب

الأحياء الى عصبيتها القديمة ، وإذا كل حي يسيطر عليه فتوة ، ثم دارت المعارك على فتوة الحارة حتى فاز بها سعد الله ، فاحتل بيت الفتوة وصار الناظر الأول ، واستأثر يوسف بآل جبل ، وعجاج بآل رفاعه ، والسنطوري بآل قاسم . ووزع الناظر الربع بالأمانة أول الأمر فاستمرت حركة التعمير والتجديد . وسرعان ما لعب الطمع بقلب الناظر ، والفتوات من بعده كما كان المتوقع ، فارتدوا الى النظام القديم ، أي ان الناظر يستأثر بنصف الربع ويوزع نصفه الآخر على الفتوات الأربعة الذين استأثروا به من دون المستحقين ، ولم يقفوا عند ذلك بل جاوزوه بكل وقاحة الى فرض الاناوات على اتباعهم المساكين . وتعطلت حركة الانشاء حتى توقف البناء في بيوت لم يشيد منها الا نصفها او ربعها . وبدا وكأن شيئاً من القديم لم يتغير الا ان حي الجرايع أصبح حي آل قاسم ، يرأسه فتوة كالفتوات الآخرين ، وتقوم على جانبه الربع مكان الاكواخ والحرائب . أما أهل الحارة فانقلبوا الى ما كانوا عليه في الزمان الأسود ، بلا كرامة ولا سيادة ، تنهكهم الفاقة وتهتدهم النبايت وتنهال عليهم الصفعات . وانتشرت القذارة والذباب والقمل ، وكثر المتسولون والمشعوذون وذوو العاهات . ولم يعد جبل ورفاعة وقاسم الا اسماء ، واغاني ينشدها شعراء المقاهي المستولون . وتباهى كل فريق برجله الذي لم يبق منه شيء وتنافسوا في ذلك الى حصد الشجار والعراك . وذاعت شعارات المساطيل ، فيقول أحدهم وهو داخل الى الغرزة : « ما فيها فائدة » يعني الدنيا لا الغرزة . ويقول آخر : « هناك نهاية واحدة هي الموت ، فلنمت بيد الله خير من ان نموت بنبت فتوة ، وأحسن ما نفعل سكرة او تحشية ! » . وكانوا يتغنون بموايل حزينة ، ينسجونها من خيوط الخيبة والفقر والذل ، او يترنمون بأغنيات فاحشة داعرة يقذفونها في آذان النساء والرجال الباحثين عن السلوى والعزاء ولو في خرابة مظلمة . وعندما يشتد الكرب بأحدهم يقول : « المكتوب مكتوب ،

لا جبل أجدى ولا رفاعة ولا قاسم ، حفظنا من الدنيا الذباب ومن الآخرة
التراب » . ومن عجب ان تبقى حارتنا بعهد ذلك ، كله الأثرة بين
الحواري ، يشير اليها الرجل من جيراننا ويقول في اكبار : « حسارة
الجبلاوي » ، ونقع في أركانها ساهمين واجمين كأننا بننا قانعين بالذكريات
العزيزة الماضية ، او اننا نجتز الاصفاء الى هاتف في أعماقنا يهمس بصوت
خافت : « ليس من المستحيل ان يقع في الغد ما وقع بالأمس ، نتحقق
مرة أخرى أحلام الرباب ونختفي من دنيانا الظلمات » .

٩٣

في يوم من الأيام ، قبيل العصر ، رأت الحارة فتى غريباً قادماً من
ناحية الحلاء ، يتبعه آخر كالقزم . كان يرتدي جلباباً ترابي اللون على
اللحم ، ويشد على وسطه حزاماً شطر جلبابه شطرين انداح اعلاهما وتدلى
وامتلاً بأشياء فيه ، وانتعل مركوباً باهتاً متهتكاً ، أما رأسه فبدا عارياً
مشعث الشعر غزيره . وكان أسمر اللون ، مستدير العينين ، حاد البصر ،
تلوح في محجريه نظرة قلقة نافذة ، وفي حركاته ثقة واعتداد . وقف
قليلاً أمام البيت الكبير ثم تقدم على مهل يتبعه صاحبه . وتطلعت نحوه
الأبصار وكأنما تتساءل : « غريب في حارتنا ! يا للوقاحة ! » قرأ
ذلك في أعين الباعة وأصحاب الدكاكين والجالسين في القهوات والمطلات
من النوافذ ، بل في أعين الكلاب والقطط ، حتى خيل اليه ان الذباب
نفسه سيتجنبه ازدراء واحتجاجاً . والتفت نحوه الغلمان في تحرش ، واقرب
بعضهم منه ، وأخذ الآخرون يملأون النبال او يبحثون في الأرض عن
طوبى ، فابتسم لهم متودداً ، ودس يده في عبئه فأخرج شوية نعناع
وراح يوزعه عليهم فأقبلوا نحوه فرحين ، ومضوا يصون النعناع وهم

يرمقونه باعجاب . وقال لهم والابتسامة لا تفارق وجهه :
— أما من بدروم خال للابجار ؟ هيا يا رجال ، من يدلني منكم
عليه فله قرطاس نعناع .

وسألته امرأة كانت مقتعدة الأرض امام أحد الربوع :
— يا ألف مصيبة عليك ، من أنت حتى تسكن في حارتنا ؟
فضحك الرجل وقال :
— محسوبك عرفة ، من أولاد حارنكم كالآخرين ، وهو عائد بعد
غيبة طويلة .

فدققت المرأة فيه النظرات وتساءلت :
— ابن من يا روح أمك ؟
فبالغ في الضحك تودداً وقال :
— خالدة الذكر جحشة ، ألا تعرفينها يا ست النساء ؟
— جحشة ؟ بنين زين ؟ !
— بعينها ولحمها .

وقالت المرأة مستندة الى جدار ، كانت تتابع الحديث وهي تقلي
رأس غلام :
— كنت تتبع أمك في تلك الأيام وأنت غلام ، ما زلت أذكرك ،
وتغير كل شيء فيك إلا عينيك .
فقالت المرأة الأولى :

— أي والله ، وأين أمك ؟ ماتت ! الله يرحمها ، ياما قعدتُ قدام
مقطفها سائلة عن الغيب ، أوشوش الذكر وترمي هي بالودع وتتكلم ،
الله يرحمك يا جحشت !
فقال بارتياح :

— الله يطول عمرك ، ستدليني أنت على بدورم خال بإذن الله .
فحدجته المرأة بنظر أعمش وسألته :

- وماذا عاد بك بعد الغيبة الطويلة ؟
 فقال محاكياً لهجة الحكماء :
 - مسير الحى الى حارته وأهله .
 فأشارت المرأة الى ربيع في حى رفاعه وقالت :
 - عندك هناك بدروم ، خلا مذ ماتت ساكنته حرقاً الله يرحمها ،
 ألا تخيفك ذلك ؟
 فضحكت امرأة مطلّة من نافذة وقالت :
 - هذا رجل تخاف منه العقاريت .
 فرفع رأسه متظاهراً بالضحك والانبساط وقال :
 - يا حارتنا يا حلوة ، ما أرق ظرف أهلك ، الآن أعرف لماذا
 نصحتني أمي عند الوفاة بالعودة اليك !
 ثم نظر الى المرأة القاعدة وقال :
 - الموت حق علينا يا زبونة المرحومة أمي ، سواء جاء من جرق
 او غرق او عقرت او نبوت .
 وحياها ومضى نحو الربيع الذي أشارت اليه . وأصبح محط أنظار
 كثيرين فقال رجل ساخراً :
 - عرفنا أمه فنذا يعرف أباه ؟
 فقالت عجوز :
 - ربنا أمر بالستر !
 فقال ثالث :
 - يمكنه ان يدعي انه ابن رجل من جبل او رفاعة او قاسم ، كما
 يشاء او تشاء مصلحته ، الله يرحم امه !
 فهمس صاحبه في أذنه ساخطاً :
 - لماذا عدت بنا الى هذه الحارة ؟
 فقال عرفة والابتسامة ما زالت في شفثيه :

- في كل مكان أسمع هذا الكلام ، وهذه حارتنا على أي جال ،
وهي الحارة الوحيدة التي يمكننا الإقامة بها ، حسبنا تخبطاً في الأسواق
ونوماً في الخلاء والخرابات ، ثم ان هؤلاء الناس طيبون رغسم قدارة
ألستهم ، أغبياء رغم نبايتهم ، فهنا يسهل علينا كسب رزقنا ، تذكر
هذا يا حنش !

فhez جنش منكبيه الضيقين كأنما يقول : « الأمر لله » . واعترضهما
رجل مسطول فسأل عرفة :

- ماذا نسليك ؟

- عرفة .

- ولقبك ؟

- عرفة ابن جحشة !

فضج الواقفون بالضحك مسرورين بهوانه ، فعاد المسطول يقول :
- طالما ساءلنا أنفسنا في ذلك الزمان حينما حملت أمك ترى من يكون
أبوه ؟ فهل خبرتك بالحقيقة ؟

فقال عرفة مذارياً ألمه بمزيد من الضحك :

- ماتت هي نفسها قبل ان تعرفه !

ومضى وهم يضحكون . وسرى نأ عودته في الأحياء . وقبل ان
يتسلم البدروم جاء صبي قهوة الرفاعية وقال له :
- المعلم عجاج فتوة حينما يطلبك .

ذهب الى القهوة على مبعدة قريبة من الربع . لفت نظره أول ما
اقترب منها الصورة المنقوشة على الجدار الأوسط فوق أريكة الشاعر .
كانت تبدأ من أسفل بصرة لعجاج ممتطياً جواده ، وفوقها صورة
للناظر قلدوي بشاربه الفخيم وعباءته الأنيقة ، ثم فوقها صورة لجشة
رفاعة بين يلدي الجلاوي وهو يرفعها من الحفرة ليأخذها الى بيته .
تأمل ذلك المنظر باهتمام ولكن بسرعة ، ثم دخل القهوة فرأى عجاج

يجلس على أريكة تتوسط الجناح الأيمن ، ومن حوله يجلس الاتباع والاعوان .

مضى عرفة اليه حتى مثل بين يديه قرقمقه الفتوة بنظرة ازدراء طويلة كأنما ينومه بعينه قبل ان ينقض عليه . وقال عرفة رافعاً يديه الى رأسه :
- التحيات المباركات على فتوتنا ، من نخمي بجماه ونسعد بجواره .
فلاحت السخرية في العينين الضيقتين وقال :
- كلام حلو يا ابن القديمة ولكنه 'عملة' لا نعترف بها وحدها !
فقال عرفة باسماء :

- ستحيي العملة الأخرى في أقرب وقت ان شاء المولى .

- عندنا متسولون اكثر من الحاجة !

فقال عرفة بكبرياء ضاحك :

- لست متسولاً يا معلم ولكني ساحر اعترفت بفضل الملايين !
وتبادل الجلاس النظرات فقطب عجاج متسائلاً :

- ماذا تعني يا ابن المجنونة ؟

فدس عرفة يده في عبه وأخرج 'حقاً صغيراً دقيقاً' في حجم النبقه وتقدم في خضوع من المعلم ومد به يده فتناوله المعلم بعدم اكتراث ، وفتحه ، فرأى مادة قاتمة ، رفع اليه عينيه متسائلاً فقال عرفة في ثقة لا حد لها :

- قمحة منه على فنجال شاي قبل « لاماؤاخدة » بساعتين ، وبعدها فاما ترضى عن محسوبك عرفة واما تطرده من الحارة مشفوعاً باللعنات .
اشربت الأعناق باهتمام شديد لأول مرة ، وحتى عجاج لم يستطع ان يخفي اهتمامه ، لكنه تساءل في استهانة مصطنعة :

- أهذا هو سحرك ؟

- عندي أيضاً البخور النادر ، الوصفات العجيبة ، الطب والدواء ، الأحجية ، ويعرف قدرتي حقاً عند المرض والعقم والضعف .

- فقال عجاج فيما يشبه الوعيد :
- الله .. الله .. فلنبشر باللاطوات !
- فانقبض قلب عرفة لكن وجهه زاد انبساطاً وهو يقول :
- كل ما املك تحت أمرك يا معلم .
- فضحك الفتوة بغتة وقال :
- لكنك لم تخبرنا من أبوك !
- فقال دون ان يزايله المرح .
- لعلك به اعلم !
- وضجت القهوة بالضحك . وتلاقت التعليقات الساخرة في شراريب الدخان السابحة في الجو . ولما ابتعد غرفة عن القهوة قال لنفسه حانقاً :
- « من يدري من يكون ابوه حقاً ، ولا أنت يا عجاج ، آه يا اولاد الكلب ! » . وتفقد هو وحنش البدروم في ارتياح ، ومضى يقول :
- اوسع مما كنت اتوقع ، مناسب جداً يا حنش ، فهذه الحجرة صالحة للمقابلات ، والتي بالداخل للنوم ، والأخيرة للعمل .
- فسأله حنش بقلق :
- ترى في أي حجرة احترقت المرأة ؟
- فضحك عرفة ضحكة عالية رنت بين الجدران الخالية وقال :
- أتخاف من العفاريث يا حنش ؟ اننا نتعامل معهم كما كان يتعامل جبل مع النعابين .
- ونظر فيما حوله بارتياح وقال :
- ليس عندنا إلا نافذة واحدة في الحجرة المطلة على الطريق ، سرى الطريق من تحت من خلال النافذة ذات القضبان الحديدية ، فلهذه المقبرة ميزة جلية وهي انها لا يمكن ان تسرق .
- قد تنهب !
- قد !

ثم وهو يتنهد :
- كل ما عندي فيسه فوائد للناس ، لكني لم الت في حياتي الا
الاساءة .

فقال حنش :
- سيعوضك النجاح عن كل ما نالك من أذى ، او ما نال المرحومة
امك من قبل .

٩٤

في اوقات الفراغ كان يحلو له ان يجلس على كنية قديمة ليتفرج على
ما يجري من النافذة المطلّة على ارض الحارة . جلس مسند الجبين الى
قضبان النافذة فبدت الأرض على مستوى بصره بكل ما يدب عليها من
اقدام وعجلات وكلاب وقطط وحشرات وأطفال ، اما الوجوه والصدور
فلم يكن ليراها الا بتخفيض قامته ورفع رأسه . ووقف امامه طفل عار
وهو يلعب بفأر ميت ، ثم مسر عجزو ضرير يحمل على يسراه صينية
خشبية تحمّلت لباً وفولاً وحلوى وذباباً ويتوكأ بيميناه على عصا غليظة ،
وكان صوت عويل يترامى من شباك بدروم ، ومعركة تدور بين رجلين
حتى تدفق الدم من وجهيهما . وابتهج للطفل العاري وسأله برقة :

- ما اسمك يا شاطر ؟

فأجاب :

- اوتة .

- قصدك حسونة ، هل يعجبك هذا الفأر الميت يا حسونة ؟
فرماه به ، ولولا ان حجزه قضيب لأصاب وجهه ، وجرى الصغير
كقارب يتمايل . والثفت نحو حنش وكان يهوم عند قدميه وقال :

- في كل شبر من هذه الحارة نجد دليلاً على وجود الفتوات ،
ولكنك لن تجد دليلاً واحداً على وجود اناس مثل جبل او رفاعه
او قاسم .

فقال حنش وهو يتثائب :

- نحن نرى امثال سعد الله ويوسف وعجاج والسنطوري ولكننا نسمع
فقط عن امثال جبل ورفاعة وقاسم .

- لكنهم وجدوا ، اليس كذلك ؟

فأشار حنش الى ارض الحجرة بأصبعه وقال :

- ربنا رفاعي ، كل سكانه رفاعية ، أي رجال رفاعه الذي
تؤكد الرباب كل مساء انه عاش ومات في سبيل الحب والسعادة ، ومع
ذلك فنحن نغير ريقنا كل صباح على سبابهم ومشاجراتهم ، هكذا هم
نساء ورجالا .

فلوى عرقه شفتيه امتعاضاً وقال :

- لكنهم وجدوا ، اليس كذلك ؟

فواصل حنش كلامه قائلاً :

- السباب أهون ما يقع في حي رفاعه ، اما المعارك فأجارك الله
منها ، أمس فقط فقد ساكن غيبه .

وقف عرقه محتداً وقال :

- حارة عجيبة ! الله يرحمك يا أمي ، انظر الينا مثلاً ، الكل

يتنفع بنا ولا احد يحترمنا !

- لانهم لا يحترمون احداً .

فأصر على أسنانه وقال :

- إلا الفتوات !

فقال حنش ضاحكاً :

- حسبك انك الوحيد في هذه الحارة الذي يتعامل معه الجميع من

جبيلة ورفاعة وقاسية .

— عليهم اللعنة -جميعاً .

وصمت ملياً وعيناه تلمعان في ضوء البدرود الخافت ثم قال :

— كل واحد منهم يفاخر برجله بغباء وعمى ، يفاخرون برجال لم يبق منهم الا أسماءهم ، ولا يحاولون قط ان يجاوزوا الفخر الكاذب بخطوة واحدة ! أولاد كلب جبلاء .

وكان أول من قصده من زبائن امرأة من رفاعة ، في الأمنوع الاول من استقراره في مسكنه . وإذا بها تسأله بطوت خفيض :

— كيف يمكن التخلص من امرأة دون ان يدري أحد ؟

فارتاع الرجل ، ونظر اليها باستغراب ، ثم قال :

— لست لذلك يا ستي ، إذا أردت أدوية للجسد او للروح فأنا

خادمك !

فتساءلت بانكار :

— ألسنت ساحراً ؟

فقال بوضوح :

— في كل ما فيه فائدة للناس ، اما القتل فله أناس آخرون !

— لعلك خائف ! ؟ لكننا سنكون شريكين سرهما واحد .

فقال برقة تطوي سخرية :

— لم يكن رفاعة كذلك !

فهتفت :

— رفاعة ! عليه الرحمة ، نحن في حارة لانجدي فيها الرحمة ،

ولو كانت تجدي ما هلك رفاعة نفسه !

وتركته يائسة لكنه لم يندم . ان رفاعة نفسه — اول الطيبين — لم يظفر بالسلامة في هذه الحارة ، فكيف يأمل فيها من يبدأ عمله بالجريمة ؟ وأمه ! كم لاقت من آلام دون ان تتعرض لأحد بأذى . فليكن على

خير صلة بالناس جميعاً كما يجدر لكل تاجر لبق . ومضى يتردد على جميع المقاهي فيجد في كل قهوة زبوناً يعرفه . واستمع الى قصص الرباب في جميع الأحياء حتى اختلطت في رأسه وكان يدور بها ذلك الرأس . وكان أول زبون جاءه من حي قاسم رجلاً طاعناً في السن فقال له همساً وهو يبتسم :

— سمعنا عن الهدية التي اتخفت بها عجاج فتوة رفاة .

فتفرّس في وجهه المجمع باسماً ، فقال الرجل :

— اتخفنا بما عندك ولا تدهش ، فيّ وحياتك رمق !

وتبادلا ابتسامة كالسرفقال العجوز متشجعاً :

— أنت قاسميّ ، أليس كذلك ؟ هكذا يعتبرك اهل حيّنا .

فسأله عرفة ساخراً :

— هل يعرفون أبي عندكم !

فقال الرجل بجدّ واهتمام :

— القاسمي يُعرف بسماء ! لذلك فأنت قاسمي ، نحن الذين رفعنا

الحارة الى قمة العدالة والسعادة ، ولكنها واسفاه حارة مشتومة .

ثم تذكر الرجل الغرض الذي جاء من أجله فقال بركة :

— الهدية من فضلك .

وذهب الرجل وهو يقرب الحق من عينه العشاء وقد دبّت في مشيته

المنهالكة صحوة نشاط وأمل . وكان آخر من زاره شخص غير متوقع .

كان يجلس في حجرة الاستقبال على شلّة أمامها مبخرة تنفث دخاناً

رقيقاً ساحراً حين دخل عليه حنش بن يدي نوبي عجوز وهو يقول :

— عم يونس بواب حضرة الناظر .

فانتفض عرفة واقفاً ومدّ له يديه مرحباً وهو يقول :

— أهلاً .. أهلاً ، زارنا النبي .. نفضل يا مولانا !

جلسنا متجاورين ، وقال البواب بصراحة معهودة :

— الهانم ، نظيرة هانم حرم الناظر ، تحمل أحلاماً سيئة حتى قل نومها .
بدا الاهتمام في عيني عرفة ودق قلبه دقة الأمل والطموح ، لكنه
قال ببساطة :

— حال عارضة تمر بسلام ..

— لكن الهانم مترعجة وقد أرسلتني اليك لتجد لها شيئاً مناسباً .
شعر رفاعة بسعادة وسيادة لم يعرفها طوال حياة التشرد التي فيها
في ظل أمه الراحلة وقال :

— الأفضل أن أحادثها بنفسني ؟

فقال البواب بحدة :

— محال ! لن تجيء اليك ولن تدخل إليها !

وغالб عرفة اليأس مستميتاً في الدفاع عن فرصته الذهبية فقال :

— يلزمني منديلها أو شيء من طرفها !

وأخى البواب رأسه المعمم وقام ليذهب . وعندما بلغا باب البدروم
تلكا البواب قليلاً ثم مال على أذن عرفة قائلاً في همس :

— سمعنا عن هديتك لعجاج فتوة رفاعة !

ولما ذهب البواب بالهدية ضحك عرفة وحنش طويلاً وتساءل الأخير :

— لمن أخذ الهدية يا نزي ؟ لنفسه أم للناظر أم للهانم ؟

وهتف عرفة ساخراً :

— يا حارة الهدايا والنبايت !

ومضى الى النافذة ينظر الى الحسارة في الليل . بدا الجدار المواجه
لعينيه مفضضاً بضوء القمر ، وتعالّت زفرات الصراخير ، وارتفع صوت
الشاعر من قهوة الحبي وهو يقول :

» وتساءل أدهم :

— متى تقر بأنه لم تعد تربطنا صلة ؟

فقال ادريس :

— لترحمنا الله ، أأنت أخي ؟ هذه رابطة ليس في الامكان
فصمها .

— ادريس ! كفاك ما فعلت بي ..

— الحزن قبيح ، ولكن كلانا مصاب ، أنت فقدت همام وقدري وأنا
فقدت هند ، أصبح للجبلأوي العظيم حفيذة عاهرة وحفيد قاتل ..
فعلا صوت أدهم وهو يهدير :

— اذا لم يكن جزاؤك من جنس عملك فعلى الدنيا العفاء .
وتحول عرفة عن النافذة في سأم . متى تكف حارتنا عن حكي الحكايات ؟
ومنى يكون على الدنيا العفاء ؟ وأمي رددت يوماً هذا القول : « اذا
لم يكن الجزاء من جنس العمل فعلى الدنيا العفاء » . أمي المسكينة ساكنة
الخلاء . لكن ماذا أفدت من الحكايات يا حارتنا ؟

٩٥

كان عرفة وحش يعملان بهمة في حجرة البدروم الخلفية على ضوء
مصباح غازي مثبت في الجدار . لم تكن الحجرة تصلح للحياة العسادية
لرطوبتها وظلامها ولموقعها آخر البدروم فجعل عرفة منها مقراً لعمله .
وبدت على أرضها وفي أركانها مجموعات من أوراق الأحجية ، والأثربة
والجبر ، ونباتات وتوابل ، وحيوانات وحشرات مجففة كالفتران والضفادع
والعقارب ، واكوام من قطع الزجاج ، وقوارير ، ومياه في صفيائح ،
وسوائل غريبة ذات رائحة نفاذة ، وفحم ، وكانون ، وقد ركبت
على الجدران رفوف حملت بانواع شتى من الأوعية والآنية والأكياس .
وكان عرفة منهمكاً في خلط بعض المواد وعجنها في وعاء من الفخار
كبير ، وكان العرق يتصبب من جبينه فيجففه بكم جلبابه من حين

لآخر ، هذا وحش رابض عن كذب ، يراقبه باهتمام ، واستعداد لتلبية
أية إشارة تصدر منه ، وكأنما أراد ان يعزبه أو يتودد اليه فقال :
- هذا التعب لا يبذل جزءاً منه اكبر عامل في هذه الحارة المنكودة ،
وفي سبيل أي جزاء يبذل ؟ ملائيم أو قرش على خير الفروض !
فقال عرفة بارتياح :

- رحم الله أمي ! لا يعرف فضلها سواي ، ويوم سلمتني لذلك
الساحر العجيب الذي يقرأ لك جميع ما يحول في خاطرك تغيرت حياتي
تغيراً كلياً ، فلولاها لكنت على خير ظن نشالاً أو متسولاً ..
فأصر حنش على أسفه قائلاً :

- ملائيم !

- النقود تكثر بالصبر ، لا تيأس من ذلك ، ليست الفتنة هي
السيبل الوحيد الى الثروة ، ولا تنس المنزلة السامية التي اتمتع بها ، فان
من يقصدني انما يعتمد كل الاعتماد عليّ ويضع سعادته أمانة بين يدي ،
وليس هذا بالشيء القليل ، ولا تنس ايضاً لذة السحر نفسه ، لذة
استخراج مادة مفيدة من مواد قلدة ، لذة الشفاء حين يأتمر بأمرك ،
وهناك القوى المجهولة التي تتشوف للاتصال بها وامتلاكها ان استطعت .
ونظر حنش الى الكانون وقال منقطعاً فجأة عن تيار صاحبه :

- الأوفق أن أوقد الكانون في دهليز المنور والا اختنقنا .

- أوقده في جهنم ، ولكن لا تخرجني عن افكاري ! ان أي مغفل
من يحسبون انفسهم معلمين في هذه الحارة لا يستطيع ان يدرك خطورة
الأشياء التي تصنع في هذه الحجرة المعتمدة القدرة ذات الروائح الغريبة ،
أدركوا فائدة « الهدية » ولكن ليست الهدية كل شيء ، ان اعاجيب
لا يحيط بها الخيال يمكن ان تخرج من هذه الحجرة ، المجانين لا يدركون
قيمة عرفة الحقيقية ، لعلمهم يعرفونها يوماً ما ، وعندئذ ذلك يجب ان
يتروحوا على أمي لا ان يعرضوا بها كما يفعلون .

وكان حنش قد قام نصف قومة فعاد يجلس القرفصاء وهو يقول
بامتعاض :

— كل هذا الجلال قد تطيح به عصا فتوة أحمق .

فقال عرفة بحدة :

— نحن لا نؤذي أحداً وندفع الاتاوة فكيف نتعرض للأذى يا ابن
جلجل ؟

فضحك حنش قائلاً :

— وما كان ذنب رفاة ؟

فحدجه بنظرة غاضبة وقال :

— لماذا تقرني بهذه الأفكار ؟

— أنت تأمل ان ثري وهنا لا يثري الا الفتوات ، وتأمل أن تصير

قوياً وهنا لا يسمح بالقوة الا للفتوات ، فاعمل حسابك يا أخ !

وصمت عرفة حتى يتأكد من حسن تقديره في الخلط بين المواد ،
ثم نظر الى حنش فرأى سحته ما زالت محتفظة بصورة التحذير فضحك
قائلاً :

— حذرتني امي من قبلك ، شكراً يا حنش يا ابن جلجل ، لكني

عدت الى الحارة وفي رأسي خطة !

— يبدو انه لم يعد يهلك إلا السحر .

فقال عرفة في جذل كالنشوة :

— السحر شيء عجيب حقاً ، لا حد لقوته ، ولا يدري احد اين

يقف ، وقد تبدو النبائيت نفسها لمن يملكه لعب اطفال ، تعلم يا حنش
ولا تكن غيباً ، تصور لو كان جميع اولاد حارتنا سحرة ؟

— لو كانوا جميعهم سحرة لماثوا جوعاً !

فضحك عرفة ضحكة كشفت عن اسنان حادة وقال :

— لا تكن غيباً يا حنش واسأل نفسك ماذا كان يمكن ان يصنعوا ،

والله كانت الأعاجيب تخرج من حارثنا في غزارة السباب والشتائم .

— نعم ، على شرط الا يموتوا جوعاً قبل ذلك !

— نعم ، ولن يموتوا ما داموا في غير ..

لكنه سكت قبل أن يتم قوله ، ومضى يفكر في اهتمام حتى كفت

يداه عن العمل ، ثم رجع يقول :

— شاعر آل قاسم يقول ان قاسم اراد استغلال الوقف حتى يجد

كل حاجته فيستغني عن العمل ويفرغ للسعادة الغناء التي حلم بها أدهم .

— ذلك قول قاسم !

فقال وعيناه تلمعان بشدة :

— لكن الغناء ليس هو الهدف الأخير ! تصور ان يمضي العمر في

فراغ وغناء ؟ وهو حلم جميل لكنه مضحك يا حنش ، الأجل حقاً

ان نستغني عن العمل لنصنع الأعاجيب .

هز حنش رأسه الكبير — الذي يبدو منغرساً في جسده دون رقبة

تذكر — محتجاً على حديث لا معنى له ، ثم استرد لهجة العمل الجدية

وهو يقول :

— دعني الآن أوقد الكانون تحت المنور .

— افعل ، وضع نفسك فوق اللهب فما تستحق الا الحرق .

وغادر عرفة غرفة العمل بعد ساعة فضى الى الكنبه وجلس ينظر

من النافذة الى الخارج . اقتحمت أذنيه ضجة الحياة بعد صمت فتلات

فيها نداءات الباعة وأحاديث النساء المتبادلة ونكات صارخة ومختارات من

الشتائم ، تصاحب تيار الراحين والغادين الذي لا يتقطع . واذا به

يلحظ ان شيئاً بجديداً اتخذ مكانه عند الجدار المواجه لنافذته . قهوة

متنقلة مكونة من قفص مغطى بملاءة قديمة صُفّت عليه علب البن والشاي

والقرفة وموقد وكنجات وفناجيل واكواب ومعالق ، وقد جلس عجوز

على الأرض يروح على الموقد ليسخن ماء ، على حين وقفت وراء القفص

فتاة في ربيع العمر وهي تنادي بصوت دافئ : « قهوة مزاج يا جدد ! »
كانت القهوة تقع عند ملتقى القاسمية بالرفاعية ، وبدا أن أكثر زبائننا
من أصحاب عربات اليد والمساكن . وجعل رفاعية يطيل النظر الى الفتاة
من بين القضبان . هذا الوجه الأسمر المتلفع بخمار أسود ما أطفه ، وهذا
الجلباب البني الغامق الذي يغطيها من العنق حتى القدمين ويتجرجر منه
طرف على الأرض اذا مشت بطلب أو عادت بقدر فارغ ، هذا الجلباب
حشمة وأدب ، وهذه القامة الرشيقة ، والعينان العسليتان ما أجملها لولا
احمرار اشفار يسراها لرمد أو قذارة ! هي ابنة العجوز كما يشهد الوجهان
ويبدو أنه أنجبها في سن متأخرة كما يقع كثيراً في حارتنا . ودون تردد
صاح بها :

— يا شابة .. فنجال شاي وحياتك .

فامتدت اليه عيناها ، وبسرعة ملأت قلدحا من ابريق مدفون حتى
منتصفه في الرماد ، ومضت به اليه عبر الطريق فتسلمه وهو يقول باسماء :

— عاشت يدك ، كم ثمنه ؟

— نكلة .

— غال ! ولكن لا يغفلو لك ثمن !

فقال باحتجاج :

— في القهوة الكبيرة بتعريفه وهو لا يمتاز عما في يدك ببشيء .

وذهبت دون انتظار لكلام فراح يحسوه قبل أن يبرد ودون أن يحول
عينيه عنها . ما أسعد أن يملك فتاة بهذا الشباب ! لا عيب فيها الا حمرة
عينها وما اسهل ان يداويها ، ولكن الأمر يحتاج الى قدر من النقود لم
يُوجد بعد . والبدروم جاهز وما على حنش الا ان ينام في الدهليز أو
في حجرة الاستقبال اذا شاء على شرط ان يغليها من البق أول بأول .
وانتبه على هممة غريبة ورأى الناس ينظرون نحو أعلى الحارة ويقول
البعض منهم : « السنطوري .. السنطوري » فنظر بميل على قدر ما سمحت

القضبان له فرأى الفتوة قادمة في حالة من الأعوان . ولما من بالقهرة
المنقلة وقع بصره على الفتاة فسأل رجلاً من رجاله :
— من الفتاة ؟

— عواطف بنت عم شكرون .

فلعب الرجل حاجبيه في ارتياح ومضى نحو حبه . وشعر عرفة
بضيق وقلق . لوح للفتاة بالقدح الفارغ فجاءته في خفة فأخذته وتناولت
من يده النكلة ، وعند ذاك سأها وهو يشير بذقنه الى الناحية التي ذهب
اليها السطوري :

— ألم يضايقك شيء ؟

فقالت ضاحكة وهي تستدير لتذهب :

— سأستعين بك عند اللزوم ، فهل تعين ؟

فحزت في نفسه سخريتها . سخرية حزينة لا متحدية فتضاعف ضيقه .
وهنا سمع صوت حنش وهو يتناديه فوثب الى ارض الحجرة واندفع
الى الداخل ..

٩٦

تكاثر زباين عرفة مع الأيام ، لكن قلبه لم يفرح بزبون كما فرح
بعواطف يوم رآها مقبلة عليه في حجرة الاستقبال . نسي مهابة المعلم
التي يرتديها امام زباينه فوقف مرحباً بها ، ثم أجلسها على شلثة أمامه
وتربّع في مجلسه والدنيا لا تسعه من السرور ، حيّاها بنظرة شاملة لكنها
سرعان ما وقفت على عيبتها اليسرى التي كادت تختفي وراء ورم ملتهب ،
فقال محتجاً :

— أهملتها يا شابة ، كانت حمراء منذ أول يوم رأيتك .

فقال كالمعتذرة :

— اكتفيت بغسلها بالماء الساخن ، والمشغول بالعمل مثلي ينسى .
— لا يجوز ان تنسي صحتك ، وبخاصة اذا تعلق الأمر بعضو عزيز
مثل عينك الجميلة !

ابتسمت متأثرة بالثناء على حين كان هو يمد يده الى رف خلفه
ليجىء بكوز ، ثم اخرج منه لفافة صغيرة وقال وهو يشير اليها :
— صرتي ما فيها في منديل ، وحطيه فوق بخار ماء يغلي ، ثم اربطيه
على عينك ليلة بعد أخرى حتى تعود عينك الى جمال اختها .
تناولت اللفافة ، وأخرجت كيساً من جيبها وهي تسأله بعينها اليمنى
عن الثمن فقال ضاحكاً :

— لا عليك من هذا فنحن جيران وبيننا صداقة !

— لكنك تدفع ثمن ما تشرب من شاي .

فقال متهرباً :

— اني أدفع في الواقع لأبيك ، هذا الرجل الوقور ، كم أودّ أن
أعرفه ، وكم أسفت على اضطراره للعمل حتى هذه السن المتأخرة !
فقال في مباهاة :

— لكن صحته جيدة ، وهو يأبى أن يقعد في البيت ، غير ان
طول عمره من دواعي حزنه في الحياة ، اذ انه كان ممن شهدوا الأحداث
على عهد قاسم .

فتجلى الاهتمام في وجه عرفة وسألها :

— حقاً ! أكان من أعوانه ؟

— كلا ، لكنه ذاق السعادة في أيامه وما زال يتحسر عليها .

— أريد أن أعرفه وأن استمع اليه .

فبادرته قائلة :

— لا تجرّه الى هذا الحديث ، فاني أود أن ينساه الى الأبد حرصاً على

سلامته . كان مرة في خماره يشارب بعض أصحابه ، ولما سكر وقف بينهم يطالب بأعلى صوته بأن تعود الحياة الى ما كانت عليه ايام قاسم ، وما ان عاد الى حارثنا حتى وجد السنطوري امامه فانهاه عليه ضرباً وصيحاً ولم يتركه حتى أغمي عليه .

تفكر عرفة في امتعاض شديد ثم لحظ عواطف بمكر وقال :

— لا أمان لأحد مع وجود هؤلاء الفتوات !

فرمقته بنظرة خاطفة كأنما تتساءل عما وراء مقصده الظاهر وقالت :

— صدقت ، لا أمان لأحد معهم .

وتريث وهو بعض شفتيه كالتردد ، ثم قال :

— رأيت السنطوري وهو ينظر اليك نظرة كلها وقاحة .

فدارت ابتسامة بحركة من رأسها الى اسفل ، وقالت :

— ربنا يأخذه .

لكن عرفة تساءل في ارتياب :

— أليس مما يسر الفتاة ان يعجب بها فتوة مثله ؟

— انه زوج لأربع !

فغاص قلبه في أعماقه ، وتساءل :

— واذا كان عنده متسع ؟

فقال بجدة :

— كرهته منذ اعتدى على أبي ، وهكذا جميع الفتوات لا قلوب

لهم ، يأخذون الاتاة وكأنهم لاستكبارهم هم الذين يعطون .

فانتعش بالارتياح وقال بحماس :

— أحسنت يا عواطف ! كما احسن قاسم من قبل يوم قضى عليهم ،

لكنهم يعودون مثل بعض الدمايل الغامضة .

— لذلك يتحسر أبي على ايام قاسم .

فهز رأسه في غير اكثراث طارئ وقال :

— ويوجد غيره من يتحسرون على أيام حبل ورفاعة ، لكن الماضي لا يعود .

فقلت في استياء مليح :

— تقول ذلك لأنك لم تشهد قاسم مثل أبي .

— وهل شهدته أنت ؟

— أبي قال لي .

— وأمي قالت لي ، ولكن ما جدوى ذلك ؟ انه لا يخلصنا من الفتوات ، وأمي نفسها كانت ضحية لهم ، وها هم يعرضون بها بعد موتها .

— حقاً ؟ !

فقال بوجه متجهم كأنه قدح ماء صاف تعكر فجأة باثارة رواسبه .
— لذلك أخشى عليك يا عواطف ، الفتوات يهددون الرزق والعرض والحب والسلام ، واصارحك بانني اقتنعت منذ رأيت الوحش يتطلع اليك بوجوب القضاء عليهم .

فقلت عواطف باهتمام :

— يقولون إنه في وصية جدنا الواقف .

— أين جدنا ؟

فقلت ببساطة :

— في البيت الكبير

فقال بهدوء وبوجه لا ينم عن السرور :

— نعم ، أبوك يحدث عن قاسم ، وقاسم حدث عن جدنا ، هكذا نسمع ، ولكننا لا نرى إلا قدرتي وسعد الله وعجاج والسنطوري ويوسف ، نحن في حاجة الى قوة لتخلصنا من العذاب ، فماذا تجدي الذكريات !
وانتبه الى ان مجرى الحديث كاد يفسد عليه اللقاء ، فقال وهو يعدل عن السيكا الى الصنبا :

— الحارة . في حاجة الى قوة كما انا في حاجة اليك !
فحدثته بنظرة استنكار فابتسم في جرأة بدت غير غريبة عن عينيه
الجارحتين وقال بجديّة ليتحاشى غضبة منوثة في حاجبيها :
— شابة طيبة مجتهدة جميلة ، تنسى في غمرة العمل عينها حتى تورم ،
ثم تجيئي وهي تظن انها في حاجة إلي فتتضح لها الحقيقة وهي اني انا
الذي في حاجة اليها .

قالت وهي تهتم بالقيام :

— آن لي ان انصرف .

— بغير غضب من فضلك ، واذكري اني لم اصرح بمجديده ، فلا شك
انك استشففت اعجابي بك طوال الأيام الماضية اذ نظراتي تذهب ونجيء
ما بين نافذتي وقهوتك ، ان أعزب مثلي لا يمكن ان يعيش وحده الى
الأبد ، وان بيته المشحون بالعمل في حاجة للرعاية ، وان ارباحه تفيض
عن حاجته فلا بد ان يشاركه فيها انسان .

غادرت الحجرة . وقف في نهاية الدهليز لبودتها . وكأنها لم ترض
ان تذهب دون تحية فقالت :

— فتك بعافية .

ولبت مكانه وهو يترنم بصوت مهموس :

خدك المباس يا بدري واملا لي الكاس من بدري

وانت احلى الناس في نظري

ثم مضى في فتوة ونشاط الى حجرة العمل فوجد حنش منهمكا في
واجباته ، فسأله :

— ماذا عندك ؟

فعرض امامه زجاجة وهو يقول :

— معبأة ومحكمة الاغلاق ، ولكن ينبغي ان تجرب في الخلاء .

فتناولها عرفة وراح يمتحن سدادتها ، ثم قال :

- نعم ، في الخلاء والا افتضح أمرنا .
فقال حنش بقلق :
- الرزق بدأ يجيء والحياة تبسم ، فلا تفرط فيما وهبك الله من سعادة .
أخذ حنش يضيّق بالحياة بعد أن حلّت في عينيه . ابتسم عرفة عند
هذا الحاطر . ونظر الى حنش ملياً ثم قال :
- كانت أمك كما كانت أُمي .
- نعم ولكنها توسلت اليك ألا تفكر في الانتقام .
- كان رأيك غير ما تبدي الآن !
- سنقتل قبل أن نتقم .
- فضحك عرفة وقال :
- لا أخفي عنك انني كففت عن التفكير في الانتقام من زمن .
فتهلل وجه حنش وهو يقول :
- هات الزجاجة لفرغها يا أخي .
- لكن عرفة شدد قبضته على الزجاجة وهو يقول :
- بل سنجرّبها حتى تبلغ الكمال .
- فقطب حنش في استياء احتجاجاً على المزء به فأردف عرفة قائلاً :
- انا اعني ما أقول يا حنش ، ثق انني عدلت عن الانتقام ، لا
اذعائاً لتوسلات أُمنا ، وانما لاعتناعي بوجوب القضاء على الفتوات بصرف
النظر عن انتقامنا .
- فقال حنش محتداً :
- بسبب حبك لهذه الفتاة .
- فضحك عرفة حتى بان حلقه ، وقال :
- حب الفتاة ، حب الحياة ، اسمه بما تشاء .. كان قاسم على حق !
- مالك انت وقاسم ! كان قاسم يحقق رغبة جده !
- فقط بوزة وقال :

- من يدري ؟ ! حارتنا تحكي الحكايات ، اما نحن فنقوم بأعمال حاسمة في هذه الحجرة لا شك فيها ، وأين الأمان في حياتنا ؟ سيجيء عجاج غداً لينهب رزقنا ، واذا قدمت بدأً للزواج من عواطف اعترضني نبوت السنطوري ، وهذا حال كل رجل في حارتنا حتى المتسول ، فاما يكدر صفوي هو ما يكدر صفو حارتي ، وما يؤمني هو ما يؤمنها . حق ما انا فتوة ، ولا برجل من رجال الجبلاني ، ولكني املك الأعاجيب في هذه الحجرة ، ومنها قوة لم يحز عشرها جبل ورفاعة وقاسم مجتمعين . ورفع بالزجاجة بيده متخذاً هيئة الموثب للقفز بها ، ثم اعادها الى حنش قائلاً :

- سنجرها الليلة بالجبل .. ابسط وجهك واستعد حماسك . وغادر حجرة العمل الى النافذة . وتقرص فوق الكنبه مرسلًا ناظره الى القهوة المتنقلة . وكان الليل يهبط رويداً ، وصوتها يعلو منادياً بالقهوة والشاي . وتجنب النظر الى نافذته فدل التجنب على خطوره بياها . وومض بالابتسام فيها مثل ذلك النجم . وابتسم عرفة ، كيانه كله ابتسم ، وفاض من قلبه الرضى حتى أقسم ليمشطن شعره كل صباح . وترامت من الجمالية ضجة اقوام يطاردون لصاً ، ثم انبعثت من القهوة انغام الرباب وترامى صوت الشاعر مفتتحاً ليلته بقوله :

الأولى آه مي قدرني ناظرنا
والثانية آه سعد الله فتوتنا
والثالثة آه عجاج فتوة حتنا

فانتزع من حلمه بلا رحمة . وقال بلبل وتمرد ، سنبداً الحكايات ، متى تنتهي هذه الحكايات ؟ وماذا افاد الاستماع اليها طوال الليالي ؟ سيغني الشاعر ونستيقظ الغرز يا حارة الحشرات ..

وظراً على حياة عم شكرون اضطراب غامض . كان يتكلم احبائاً بصوت مرتفع جداً كأنه يخطب فيقول بعطف : « الكبر .. انه الكبر » . وكان يغضب شديد الغضب لأنفه سبب او لغير ما سبب فيقولون : « الكبر » . وكان يصمت طويلاً حتى حين تتطلب الحال الكلام فيقولون : « الكبر » . وكان يقول أقوالاً تعد في الحارة كضراً فيقولون في اشفاق : « الكبر اللهم احفظنا » . وكان عرفة يراقبه كثيراً من خلال القضبان في عطف واهتمام . ومضى يراقبه ذات يوم وهو يقول لنفسه : رجل مهيب رغم اسماله البالية وقذارته ، وعلى صفحة وجهه الناحلة نقشت النكسة التي عدت على الحارة عقب أيام قاسم ، اذ انه من سوء حظه انه عاصر قاسم ، فنعم بأيام العدل والأمانة ، ونال نصيبه كاملاً من ريع الوقف ، ورأى الأبنية تشيد باسم الوقف ثم تتوقف بأمر قدرى ، وبالجملية هو رجل بائس طال به العمر اكثر مما ينبغي ! ورأى عواطف قادمة بوجه لا تشويه شائبة بعد ان شفيت عينها فتحول عن الرجل اليها وهتف باسماً :

— الشاي يا أهل النظر !

وجاءته بالقدرح فقال قبل ان يتناولوه من يدها ليضمن بقاءها :

— مبارك عليك الشفاء يا وردة حارتنا .

فقالت باسمه :

— الفضل لله ولك .

وتناول القدرح متعمداً ان تمس أنامله أناملها ، فرجعت ومرح مشيتها ينبىء عن القبول والرضى . ما أجدر ان يخطو الخطوة الحاسمة . وهو

رجل لا تعوزه المرأة غير انه يجب ان يعمل للسنتوري ألف حساب .
الحق على عم شكرون الذي جاء بفتاته الى طريق السنتوري ! لكنه
مسكين أعياه التجوال وراء عربته حتى عجز عن الاستمرار ففتح هذه
القهوة المشنومة . وترامت من بعيد ضجة وهتاف فتطلعت الرؤوس نحو
الجمالية ، وما لبث ان ظهرت عربة كارو حملت النساء المغنيات المصفقات
في وسطهن عروس عائدة من الحمام فجرى الغلمان نحو العربية مهللين
وتعلقوا بأطرافها وهي صاعدة نحو حي جبل ، ويضطرم الجو حيناً
بالزغاريد والتهاني والهمسات الفاحشة . ووقف عم شكرون كالغاضب
وصاح بصوت كالرعد :

— اضرب .. اضرب !

فهرعت اليه عواطف وأجلسته وهي تربت ظهره في أمي وحنان .
وتساءل عرفة ترى هل يحلم الرجل او يهلوس ؟ ما ألن الكبير . كيف
إذن يعيش جدنا الجبلاوي ؟ وجعل ينظر الى الرجل حتى سكن ثم
سأله برقة :

— يا عم شكرون هل رأيت الجبلاوي ؟

فأجابه دون ان ينظر اليه :

— يا مغفل ألا تدري انه اعتكف في بيته من قبل أيام جبل !

فضحك عرفة ، كما ابتسمت عواطف ، وقال بصوت باسم :

— ربنا يمد في عمرك يا عم شكرون .

فصاح شكرون :

— دعاء كان له قيمة حقاً عندما كان العمر له قيمة .

وجاءت عواطف لتأخذ القدح فقالت له همساً :

— دعه في حاله ، انه لا ينام من الليل ساعة !

فقال باهتمام حار :

— قلبي عنذك يا عواطف .

ثم بسرعة قبل ان تمهم بالسير :
- أود ان احدثه في أمرنا .

فحذرته بأصبعها وذهبت . وراح يتسلى برؤية صغار يلعبون « وطي البصلة » . وبغثة ظهر السنطوري قادماً من حي آل قاسم فراجع رأسه عن القضبان بحركة غريزية . ماذا جاء به ؟ من حسن حظه انه اقام في حي رفاعة فأصبح له من عجاج حام ، عجاج الغارق في « هداياه » . اقرب الفتوة حتى وقف امام قهوة شكرون ، وتفحص وجه عواطف وهو يقول :
- واحد سادة .

لعلت ضحكة امرأة في نافذة وتساءلت أخرى :
- أي شيء حمل فتوة قاسم على طلب السادة من قهوة المتسولين ؟
بدا السنطوري غير مكترث لشيء . قدّمت عواطف له الفنجال فتلوى قلب عرفة في صدره . وانتظر الفتوة حتى تذهب حرارة المشروب وهو يبتسم الى الفتاة ابتسامة وقحة كشفت عن اسنانه المذهبة . وتوعده عرفة في نفسه بضربه بجبل المقطم . ورشف السنطوري رشفة وقال :
- تسلم يدك الجميلة .

وخافت ان تبسم كما خافت ان تقطب على حين تطلع شكرون اليها بارتياح . ثم اعطاها الفتوة قطعة من ذات الخمسة القروش فدست يدها في جيبيها لاحضار الفكّة ولكنه لم ينتظر ولم يبد انه يطالب بشيء ، وعاد الى قهوة القاسمية . وحارت عواطف في امرها فقال لها عرفة بصوت منخفض :

- لا تذهبي اليه .

فتساءلت :

- وبائي النقود ؟

فنهض عم شكرون رغم ضعفه وأخذ الباقي وذهب الى المقهى . وبعد

قليل عاد العجوز الى مجلسه . وما لبث ان أغرق في الضحك حتى
اقتربت منه ابنته وقالت برجاء :
- كفك ضحكاً .

ونفض قائماً مرة أخرى . وقف مستقبلاً بيت الواقف في نهاية
الحارة ، وصاح :
- يا جبلاوي .. يا جبلاوي ..

والتفت نحوه الأعين من النوافذ وابواب الأربع والمقاهي والبدرومات ،
وهرع نحوه الغلمان ، حتى الكلاب رمقته بأعينها ، وعاد شكرون يصيح :
- يا جبلاوي ، حتى متى تلازم الصمت والاختفاء ، وصاياك مهمة
وأموالك مضيعة ، انت في الواقع تُسرق كما يُسرق احفادك يا جبلاوي .
وهتف الصغار « هيه » ، وقهقهه كثيرون ، اما العجوز فاستدرك
صراخه :

- يا جبلاوي ألا تسمعي ؟ ألا تدري ، بما حل بنا ؟ لماذا عاقبت
لديرس وكان خيراً ألف مرة من فتوات حارتنا ! يا جبلاوي !
خرج عند ذاك السنطوري من المقهى وهو يصيح به :
- يا مخرف احتشم .

ثمالتفت نحوه غاضباً وهتف :

- عليك اللعنة يا وغد الأوغاد !

همس كثيرون في اشفاق : « ضاع الرجل » . واتجه السنطوري نحوه
وقد أعماه الغضب وضربه على رأسه بقبضته . ترنح الرجل وكاد يهوي
لمولا ان ادركته عواطف . ورآها السنطوري فرجع الى مجلسه .
وقالت الفتاة باكية :

- لنعد الى البيت يا أباي .

وانضم اليها عرفة في مساندته ، ولكن العجوز حاول في ضعف ان
يبغدهما عنه . وثقلت انفاسه على حسين ساد الأقربين وجوم . وقالت

- امراة من نافذة :
- الحق عليك يا عواطف ، فالأحسن انه كان يبقى في البيت .
 - فقلت عواطف وهي ما زالت تبكي :
 - مالي حيلة .
 - وراح شكرون يقول بصوت ضعيف :
 - يا جبلاوي .. يا جبلاوي ..

٩٨

- وقبيل الفجر شق صوات مولول السكون ، ثم عرف الناس ان شكرون قد مات . كانت حادثة غير غريبة على الحارة . وقالت بطانة السنطوري : « الله يحجمه ، عاش قليل الأدب ، وقلة الأدب كانت السبب في موته » . وقال عرفة لحنش :
- قتل شكرون ، كما يقتل كثيرون في حارتنا ، والقنلة لا يبالون باخفاء جرائمهم ، ولا يتجرأ احد على الشكوى او يجد شاهداً واحداً !
 - فقال حنش بتقزز :
 - يا للمصيبة ! لماذا جئنا الى هنا !
 - انها حارتنا .
 - أمنا غادرتها منكسرة الخاطر ، حارة ملعونة هي ومن عليها .
 - فقال باصرار :
 - لكنها حارتنا .
 - كأننا نكفر عن ذنوب لم نجنها .
 - التسليم هو اكبر الذنوب جميعاً .
 - فقال حنش بيأس :

— خابت تجربة الزجاجة في الجبل !
— لكنها ستنجح في المرة القادمة .
ولما حمل نعش شكرون لم يكن وراءه الا عواطف وعرفة ، وهكذا
بدا امام الربع . وعجب الجميع من اشتراك عرفة الساحر في الجنازة
وتهامسوا بمجرأته العجيبة ذلك الساحر المجنون .
وكان الأعمج من ذلك ان السنطوري انضم الى الجنازة عندما توسطت
حي آل قاسم . بأي جرأة وقحة فعل ! لكنه فعل بلا حياء وقال
لعواطف :

— البقية في حياتك يا عواطف !
وادرك عرفة ان الرجل يمهّد بذلك لطلبه القادم . والمهم ان حال
الجنازة تغير في غمضة عين اذ تسارع اليها الجيران والمعارف الذين منعهم
الخوف حتى ملأت الطريق . وعاد السنطوري يقول :

— البقية في حياتك يا عواطف !
فنظرت اليه في تحدّ وقالت :
— تقتل القتل وتمشي في جنازته .
فقال السنطوري بصوت سمعه الكثيرون :
— قيل مثل هذا لقاسم من قبل .
وتعالت أصوات كثيرة وهي تقول :
— وحدي الله ، الأجل بيد الله وحده !
فصاحت به عواطف :

— "قتل أبي بضربة يدك !"
فقال السنطوري :
— الله يسامحك يا عواطف ، لو كنت ضربته ضربة حقيقية لقتل
في الحال ، والحق اني ما ضربته ولكن هوشته والكل يشهدون بذلك .
واستبقت الحناجر قائلة :

— هوشه ! ما لمستہ يده ، والله ما لمسہ ، وليأكل الدود عيوننا
كنا كاذبين .

فهتفت عواطف :

— ربنا المنتقم !

فقال السنطوري بحلم 'ضرب مثلاً عهداً طويلاً' :

— الله يسامحك يا عواطف .

ومال عرفة على أذن عواطف وقال فيما يشبه الحمس :

— نخلي الجنازة تسير بسلام .

وما يدري عرفة إلا ورجل من أعوان السنطوري يدعى العضاض يهوي
بكفه على وجهه ويصيح به :

— يا ابن المبولة ، ما أدخلك انت بيتها وبين المعلم !

التفت عرفة نحوه في ذهول فتلقى ضربة أشد من الأولى ، وآخر صفعه ،
وثالث بصق على وجهه ، ورابع اخذ بثلابيه ، وخامس دفعه بقوة فسقط
على ظهره ، وسادس قال له وهو يركله :

— سندفن في القرافة إذا ذهبت اليها .

لبث مطروحاً على الأرض في ذهول ، وتجمع ، وقام في ألم غير
يسير ، وراح ينفض التراب عن جلبابه ووجهه ، وكان جمع من
الصغار قد التفتوا حوله وراحوا يهتفون : « العجل وقع .. هاتوا
السكين » . رجع الى البدروم وهو يعرج وقد جن جنون غضبه .
ونظر حنش اليه بأسى وقال :

— قلت لك لا تذهب !

فصرخ في حلق أهوج :

— اسكت ، الوليل لهم .

فقال له بلين وحزم معاً :

— اصرف النظر عن هذه البنت وإلا فعلينا السلام .

فصمت ملياً وهو ينظر الى الأرض مفكراً ، ثم رفع وجهاً مكفهاً
بالاصرار المخيف وقال :

— ستراني متزوجاً بها أقرب مما تتصور !

— هذا هو الجنون بعينه .

— وسوف يرأس عجاج الزفة .

— انك تبلى ثيابك بالكحول وترمي بنفسك في النار .

— وسأعاود تجربة الزجاجة الليلة في الحلاء .

ولزم داره لا يبرحها أياماً ، ولكن صلته بعواطف لم تنقطع عن طريق
النافذة ذات القضبان . ثم قابلها خفية عقب انقضاء أيام الحداد في دهليز
ربيعها وقال لها في صراحة :

— يحسن بنا ان نتزوج في الحال .

ولم تفجأ الفتاة بطلبه ولكنها قالت في حزن :

— ستسبب موافقتي لك من المتاعب ما لا تحتمل .

فقال بثقة :

— قبل عجاج ان يشرف حفلنا ، ولذلك معنى لا يخفى عليك .

واتخذت الخطوات في تكتم شديد حتى تم كل شيء . وعلمت الحارة
دون سابق انذار ان عواطف ابنة شكرون تزوجت من عرفة الساحر ،
وانتقلت الى داره وان عجاج فتوة آل رفاعة قد شهد الزواج . ذهل
كثيرون وتساءل آخرون كيف تم ذلك ، كيف تجرأ عرفة عليه ،
وكيف اقنع عجاج بمباركته ، أما اهل الخبرة فقد قالوا يا داهية دقي .

فاجتمع بأعوانه في قهوة آل رفاعة . ودرت الحارة بالاجتماعين فتوتر
جوها ، وسرعان ما خلا الموقع بين القاسمية والرفاعية من الباعة والمتسولين
والأطفال وأغلقت الدكاكين والنوافذ . وخرج السنطوري برجسالة الى
الحارة فخرج عجاج برجالة كذلك . واحتدم الشر حتى فاحت رائحته
الكريهة فلم يبق على اندلاع اللهب إلا لمسة . وصاح رجل طيب من
فوق سطح :

— ماذا أغضب رجالنا ؟ فكروا قبل ان تجرى الدماء .

فقال عجاج من خلال صمت الرهبة وهو ينظر إلى السنطوري :

— لسنا غاضبين ولا داعي عندنا للغضب .

فقال السنطوري بغلظة :

— أنت خرجت على حدود الزمالة يا معلم ، ولا يمكن أن يترك فترة

علي ما فعلت .

— وما الذي فعلت ؟

فقال السنطوري وكأن الكلام يخرج من فمه وعينه معاً :

— حيث رجلاً وهو يتحداني .

— ما فعل الرجل إلا ان تزوج بنتاً وحيدة بعد وفاة أبيها ، وأنا

أشهد زواج كل رفاعي .

فقال السنطوري بازدياء :

— ما هو برفاعي ، ولا يعرف أحد أباه ، ولا هو نفسه ، وقد

تكون أنت أباه وقد اكونه أنا ، او أي متسول في الحارة .

— لكنه يقيم اليوم في حيبي .

— ليس إلا أنه وجد به وما خالياً !

— ولو !

فصرخ السنطوري بصوت مدوّ

— أعرفت انك خرجت على حدود الزمالة ؟

فصاح به عجاج :
 - لا تصرخ يا معلم ، الأمر لا يستوجب ان ننأقر 'كالديوك !
 - لعله يستوجب .
 فقال عجاج بنبرة كأنها أمر بالاستعداد :
 - اللهم طولك يا روح .
 - عجاج .. انبه لنفسك !
 - ملعون أبو القفا .
 - ملعون أبوك !
 وارتفعت النبأيت لولا ان ادر كها صوت كالخوار يصيح بلهجة آمرة :
 - عيب يا رجال .
 اتجهت الرعوس نحو مصدره فأروا المعلم سعدالله فتوة الحسارة وهو
 يشق طريقه بين الرفاعية حتى وقف في المنطقة بين الحين وهو يقول :
 - نزلوا النبأيت .
 فهبطت النبأيت كرعوس المصلين ، ونظر سعدالله مرة الى السنطوري
 وأخرى الى عجاج زقال :
 - لا أحب الآن ان اسمع كلام أحد ، تفرقوا بسلام ، مذبة من
 أجل مرة ؟ يا خسارة الرجولة !
 تفرق الرجال في سكون ، ورجع سعدالله صوب داره .
 وكان عرفة وعواطف داخل البدروم لا يصدقان أن الليلة ستمر
 بسلام ، كانا يتابعان ما يدور في الحارج بقلبين واجفين ووجهين
 ممتعنين ، ولم يبتلّ لهما خلق حتى سمعا صوت سعدالله بنبرته الآمرة التي
 لا ترد . تنهدت عواطف من الأعماق وقالت :
 - ما أقسى هذه الحياة !
 وأراد ان يبت في نفسها شيئاً من الطمأنينة فقال وهو يشير
 الى رأسه :

— أنا أعمل بهذا ، هكذا كان جبل ، وهكذا كان قاسم
الداهية !

فازدردت ريقها بعشقة وقالت .

— ترى هل تدوم السلامة ؟

ضمها الى صدره في مرح ظاهري وقال :

— ليت كل زوجين يسعدان مثلنا .

فطرحت رأسها على كتفه ريثما تسترد أنفاسها وهمست قائلة :

— ترى هل تنتهي المسألة عند ذلك ؟

فنفخ قائلاً في صراحة :

— أي فتوة لا يؤمن جانبه .

فرفعت رأسها وهي تقول :

— أعرف ذلك ، وبسي جرح لن يلتئم حتى أراه صريعاً .

وعرف من تعني ، ونظر في عينيها بتفكير وقال :

— الانتقام في مثل حالتك واجب ولكنه لا يؤدي الى نتيجة حاسمة ،
ان سلامتنا مهددة لا لأن السنطوري يود البطش بنا ، ولكن لأن سلامة
حارتنا كلها مهددة ببطش الفتوات ، ولو تغلبنا على السنطوري فن
يضمن لنا الا يتحرش بنا عجاج غداً او يوسف بعد غد ؟ فاما أمن
للجميع أو لا أمن لأحد .

فابتسمت في فتور متسائلة :

— أتريد ان تكون كمجبل او رفاعه او قاسم ؟

فقبل شعر رأسها وهو يتشمم رائحته القرنفلية دون ان يجيب
فعادت تقول :

— أولئك كلفوا بالعمل من قبل جدنا الواقف .

فقال بضجر :

— جدنا الواقف ! كل مغلوب على أمره يصيح كما صاح المرحوم

ابوك : « يا جيلوي ! ولكن هل سميت عن احفاد مثلنا لا يرون
جدهم وهم يعيشون حول بيته المغلق ؟ وهل سمعت عن واقف يعيث
العابثون بوقفه على هذا النحو وهو لا يحرك ساكناً ؟

فقالت ببساطة :

— انه الكبير !

فقال بارتباب :

— لم أسمع عن معمر عاش طول هذا العمر .

— يقال لأنه يوجد رجل في سوق المقطم جاوز المائة والخمسين من

العمر ، ريك قادر على كل شيء .

فصمت ملياً ، ثم غغم قائلاً :

— كذلك السحر فهو قادر على كل شيء !

فضحكت من غروره وهي تنقر بأصبعها على صدره وقالت :

— سحرك قادر على مداواة العين .

— وعلى اشياء لا تحصى !

فتنهدت قائلة :

— يا لنا من مساطيل ! نتسلى بالأحاديث كأننا لا يتهددنا شيء !

لم يأبه لمقاطعتها فواصل حديثه قائلاً :

— وقد يتمكن، يوماً من القضاء على الفتوات انفسهم ، وتشيد

المباني ، وتوفير الرزق لكافة أولاد حارتنا .

فساءلت ضاحكة :

— هل يمكن ان يحدث ذلك قبل قيام القيامة ؟

فرقت عيناه الحادثان بنظرة حاملة وقال :

— آه لو كنا جميعاً سحرة !

— لو !

ثم أردفت قائلة :

— في زمن قصير حقق قاسم العدالة بغير سحرك !
— وسرعان ما ولت ، أما السحر فأثره لا يزول ، لا تستغني
بالسحر يا عسليّة العين ، انه لا يقل عن حينا خطورة ، ويخلق مثله
حياة جديدة ، ولكنه لن يؤتى اثره الحق الا اذا كان اكثرنا سحرة !
فتساءلت في دهابة :

— وكيف يتأتى ذلك ؟
ففكر طويلاً قبل ان يجيب قائلاً :
— اذا تحققت العدالة ، اذا نفذت شروط الواقف ، اذا استغني
اكثرنا عن الكد وتوفروا على السحر .
— أتريدنا حارة من السحرة !
وضحكت ضحكة لطيفة واستدركت قائلة :

— وما السبيل الى تنفيذ الشروط العشرة وجدنا قعيد الفرائس ، ويبدو
انه ما عاد بوسعه ان يكلف احداً من أحفاده بعمل !
فنظر اليها نظرة غريبة وتساءل :
— لماذا لا نذهب نحن اليه ؟
فضحكت مرة اخرى وقالت :
— هل نستطيع ان ندخل بيت الناظر ؟

— كلا ، ولكن ربما استطعت دخول البيت الكبير .
فصربت يده وهي تقول :

.. كفالك مزاحاً حتى نطمئن على حياتنا أولاً !
فابتسم ابتسامة غامضة وقال :

— لو كنت أحب المزارع ما عدت الى حارتنا .
فأفزعها شيء في نبرته فحلجته بدهشة وهتفت :
— أنت تعني ما تقول .

فطالعتها بنظرة صامتة فعادت تقول :

- تصور ان يقبضوا عليك في البيت الكبير !
فقال بهدوء :
- ما العجب في وجود حفيد بيت جدّه !
- قل إنك تمزح ، رباه ! مالك تنظر جاداً هكذا ، شيء عجيب ،
لماذا تريد ان تذهب اليه ؟
- ألا تستحق مقابلته المخاطرة ؟
- كلمة ندّت عن لسانك فكيف انقلبت حقيقة مرعبة .
فربت راحتها ليهديء مخاطرها وقال :
- مذ عدت الى حارتنا وانا افكر وسدي في اشياء لا تخطر ببال ..
فتساءلت بتوسل :
- لم لا نعيش في حالنا ؟
- يا ليت ! لانهم لا يتركوننا نعيش في حالنا ، ولا بد للإنسان
من ان يؤمن حياته .
- لاذن نهرب من الحارة .
فقال باصرار :
- لا أهرب وفي يدي السحر !
وجذبها برقة حتى ألصقها بنفسه ، وجعل يربت منكبها وهو يهمس
في اذنها :
- سنجد للكلام فرصاً كثيرة ؛ اما الآن فليطمئن قلبك .

١٠٠

ترى "جنّ الرجل" أم أعماه الغرور ؟ هكذا جعلت عواطف نساء.
وهي تراقب عرفة في عمله وتفكيره . ومن ناحيتها هي لم يكن يكدر

صفو أيامها السعيدة إلا رغبته في الانتقام من السنطوري قاتل أبيها ،
والانتقام في الحارة تقليد مقدس من قديم الزمان . وحتى هذا التقليد
المقدس يمكن ان تتناساه ولو على مضض لإكراماً للحياة السعيدة التي
وهبها الزواج . لكن عرفة كان يؤمن بأن الانتقام من السنطوري ما هو
إلا جزء من عمل كبير آلى على نفسه - كما خيل اليها - القيام به ،
ولم تفهمه . أحسب انه احد الرجال الذين تنغى بهم الرباب ؟ لكن
الجبلاوي لم يعهد اليه بشيء ، وهو لا يبدو كبير الثقة بالجبلاوي ولا
بما تحكي الرباب . ومن المؤكد أنه بات يعطي السحر من جهده ووقته
أضعاف أضعاف ما يتطلبه الرزق . وإذا فكر جاوز تفكيره شخصه
وأسترته الى مسائل عامة لا يعنى بها أحد ، كالحارة والفتونة والنظارة
والوقف والريع والسحر . وكان يحلم احلاماً عريضة عن السحر والمستقبل
مع انه كان الرجل الوحيد في الحارة الذي لم يُقبل على الحشيش لحاجة
عمله في الحجرة الخلفية الى اليقظة والانتباه . ولكن كل هذا هان الى
جانب رغبته الجنونية في التسلل الى البيت الكبير . لماذا يا رجُلِي ؟
لأسأله المشورة فيما ينبغي ان تسير عليه الحارة . انت تعلم بما ينبغي ان تسير عليه
الحارة ، وكلنا نعلم ، فما الضرورة الى تعريض نفسك للهلاك ؟ أريد معرفة
شروط الوقف العشرة . ليست العبرة في المعرفة ولكن في العمل فإذا
تستطيع ان تفعل ؟ الحق اني اريد ان اطلع على الكتاب الذي طرد بسببه
أدهم إن صدقت الحكايات . وماذا يهمك في ذلك الكتاب ؟ لا أدري
ما الذي يجعلني أؤمن انه كتاب سحر وأعمال الجبلاوي في الخلاء لا
يفسرهما إلا السحر لا العضلات والنبوت كما يتصورون . وما الداعي الى
هذه المخاطر وانت سعيد ورزقك موفور بغيرها ؟ لا تظني ان السنطوري
نسينا . . كلما خرجت كدت اتعث في نظرات رجاله الحائقة . حسبك
السحر ودع البيت الكبير جانباً . هناك الكتاب . . كتاب السحر الاول . .
سر قوة الجبلاوي الذي ضن به حتى على ابنه ، قد لا يكون شيئاً مما

نتصور ، وقد يكون ، والأمر يستحق المخاطرة . وإذا به يخطئ خطوة حاسمة في طريق الصراحة فقال لها :

— هكذا أنا يا عواطف ، ما العمل ؟ لست الا ابناً حقيراً لامرأة نمية وأب مجهول والكل يعرف هذا ويتندر به ، ولكن لم يعد لي من هم في الدنيا الا البيت الكبير ، وليس غريباً على مجهول الأب ان يتطلع بكل قوته الى جده ، وحجرتي الخلفية علمتي الا أؤمن بشيء الا اذا رأيته بعيني وجريته بيدي ، فلا محيد عن الوصول الى داخل البيت الكبير ، وقد أجد القوة التي انشدها وقد لا اجد شيئاً على الاطلاق ولكني سأبلغ برأ هو على أي حال خير من الحبرة التي أكابدها ، ولست أول من اختار المتاعب في حارتنا ، كان بوسع جبل ان يبقى في وظيفته عند الناظر ، وكان بوسع رفاعه ان يصير نجار الحارة الأول ، وكان في وسع قاسم ان يهنا بقمر واملاكها وان يعيش عيشة الأعيان ، ولكنهم اختاروا الطريق الآخر .

فقال حنش بأسى :

— ما اكثر الذين ينجون نحو الهلاك بأرجلهم في حارتنا .

فقال عرفة بحدة :

— قليل منهم من عنده لذلك اسباب وجيهة .

غير ان حنش لم يتخلف عن معاونة أخيه . تبعه كظله في الهزيع الأخير من الليل الى الخلاء . ولما يشد عواطف من مقاومته رفعت يديها بالدعاء له . كانت ليلة مظلمة ظهر الهلال في أولها ساعة ثم اختفى . سار الاخوان بلبصق الجدران حتى بلغا السور الخلفي للبيت الكبير فيما يلي الخلاء . وقال حنش همساً :

— كان رفاعه يقف في مكاننا عندما ترامي اليه صوت الجبلوي .

فقال عرفة وهو ينظر فيما حوله مدقفاً :

— هكذا تقول الرباب وسوف أعرف حقيقة كل شيء .

فأشار حنش الى الخلاء وقال برهبة :
— وفي هذا الخلاء كلم بنفسه جبل وأرسل خادمه الى قاسم .
فقال عرفة بامتعاض :

— وفيه ايضاً قتل رفاعه واغتصبت امنا وضربت ولم يحرك جذك ساكناً !
وحط حنش مقطفاً به ادوات حفر على الأرض ، ثم شرعاً في حفر
الأرض تحت السور ورفع الأتربة بالمقطف . عملاً بمجد وعزم حتى امتلأ
صدرهما برائحة ترايبية . وتبين ان حنش لم يكن دون عرفة حماساً ،
كأنما كانت تدفعه نفس الرغبة وان غلبه الخوف . ولم يكن رأس عرفة
فوق الأرض إلا بشبر حين قال من جوف الحفرة :
— حسبنا هذه الليلة .

ثم وثب الى سطح الأرض معتمداً على راحتيه ثم قال :
— علينا ان نسد الفوهة باللوح الخشبي ثم نغطيها بالتراب حتى لا
ينكشف أمرها .

ثم رجعا مسرعين والفجر في أعقابهما كان يفكر في الغد . الغد
العجيب . حين يسير في البيت الكبير المجهول . ومن يدري فلعله يلقي
الجبلاوي ولعله يحادثه ، فيستوضحه عما مضى وعما هو راهن وعن
شروط وقفه وسر كتابه . ذلك الحلم الذي لا يتحقق إلا بين سحابات
الدخان الذي تنفثه الجوز .

وفي البدروم وجد عواطف ما تزال ساهرة تنتظر فلما رأته حذجته
بنظرة عتاب ناعسة وغمغت :

— كأنك راجع من مقبرة !

فقال بمرح يداري به قلقة :

— ما أحلاك !

وارتمى الى جانبها فقالت :

— لو كنت عندك شيئاً لما استهنت برأسي .
فقال مداعباً :

— ستغربين رأيك عندما تشهدين ما يحدث غدا .

— لي في السعادة فرصة وفي الهلاك ألف !
فضحك عرفة ثم قال :

— لو رأيت الأعين الحاقدة لأيقنت ان ما ننعيم به من سلام ما هو
إلا خيال .

ومزق سكون الفجر صوات حاداً ، وتبعه عويل ، فعبست عواطف
وتمتمت :

— فآل غير حسن !

فهز منكبيه باستهانة ، ثم قال :

— لا تلوميني يا عواطف وأنت مسئولة بعض الشيء عما أنا فيه .
— أنا !

فقال جاداً :

— عدت الى الحارة مدفوعاً برغبة خفية الى الانتقام لأمي ، ولما
وقع الاعتداء على ابيك تأصلت تلك الرغبة في الانتقام من جميع الفتوات
ولكن حبي لك أضاف اليها جديداً كاد يطمس على الأصل ، وهو ان
اقضي على الفتوات لا للانتقام ، ولكن ليهنأ الناس بالحياة ، وما قصدت
بيت جدنا إلا لأحصل على سر قوته .

ورنت اليه بنظرة طويلة قرأ فيها بوضوح على ضوء النواية الاشفاق
الاليم من ان تفقده كما فقدت أباهما ، فابتسم إليها مشجعاً متودداً ،
وكان العويل يستفحل في الخارج .

وشد حنث على يد عرفة مودعاً والأخير في أعماق الحفرة . وانبطح
 عرفة على وجهه وراح يزحف خلال المر المعبق برائحة الأرض ، وما
 زال في زحفه حتى برز رأسه من أرض الحديقة داخل البيت الكبير .
 استقبل أنفه شذاً عجيباً كأنه خلاصة خلاصات من الورد والياسمين والحناء
 مذابة في ندى الفجر . أسكره الشذا رغم شعوره البالغ بالخطورة . ها
 هو يتشم الحديقة التي مات أدهم حسرة عليها . ما يبدو منها الا ظلام
 ضارب تحت الأنجم الساهرة . وعليها صمت رهيب يند عنه من آن لأن
 هسيس الأوراق المستجيبة للنسائم . ووجد الأرض طرية رطبة فيبت في
 نيته ان يخلع نعليه عند تسله الى البيت كيلا يطبع على الأرض آثاره .
 ترى أين ينام البواب والبستاني وغيرهما من سائر الخدم ؟ وزحف على
 أربع في حذر شديد ان يحدث صوتاً متجهاً نحو البناء الذي بدا شبح
 هيكله متربعاً في الظلام . ولاقى في رحلته نحو البيت من الارتباغ ما لم
 يلاق في حياته على ايلافه خوض الظلمات والمبيت في الحلاء والخرائب .
 ومضى يزحف لصق الجدار حتى مست يده أولى درجات السلم المفضي
 الى السلامك ان صدقت الرباب . هنا دفع الجبلوي بادريس ليطرده
 خارجاً . ذلك كان مصير ادريس جزاء تخديه لأمر أبيه ، فما عسى ان
 يفعل الجبلوي بمن يقتحم عليه داره ليسرق سر قوته ؟ ولكن مهلاً فان
 أحداً لا يمكن ان يتوقع تسلل لص الى البيت الذي ظل آمناً مدّرعاً بمهايته
 طيلة الأعوام الماضية . ودار زاحفاً حول الدرازين ثم اخذ يرقى في الدرج
 على يديه وركبته حتى بسطة السلامك . وخلع نعليه وتأبطهما ثم زحف

نحو الباب الجانبي الذي تقول الرباب انه يفضي الى المخدع . وبغثة سمع
سعلة ! سعلة قادمة من الحديقة . فلبد اسفل الباب مرسلًا ناظريه نحو
الحديقة ، فرأى شبحاً يقترب من السلامك . كتم أنفاسه لأنه خيل اليه
ان اضطراب قلبه سيُسمع مدويًا . وأخذ الشبح يقترب . ومضى يرقى
في الدرج . لعله الجبلاوي نفسه . ولعله يضبطه متلبساً بجريمته كما ضبط
أدهم من قبل في نفس الساعة على وجه التقريب . وبلغ الشبح بسطة
السلامك على بعد ذراعين من مكمنه . لكنه مضى الى الجانب الآخر
من السلامك ، ووقد على شيء يشبه الفراش ! خف التوتر مخلفاً وراءه
أعياء . ولعل الشبح لم يكن الا خادماً ذهب لقضاء حاجة ثم عاد الى
مرقده وها هو يعلو شخيره . استرد شيئاً من جرائته فرفع يده متحسباً
موضع الأكرة حتى عثر عليها ، وادارها بهوادة ، ومضى يدفع الباب
برفق حتى انفرج عن فتحة تسعه ثم زحف داخلاً ورد الباب وراءه .
وجد نفسه في ظلمة حالكة ، فأجال يده أمامه حتى مس اولى درجات
السلم ، وجعل يصعد في خفة الهواء . انتهى الى ردهة طويلة مضاءة
بمصباح في كوة بالجدار . وكانت تنعطف يمينا الى الداخل ، وتمتد يساراً
بعرض البيت ، ويتوسطها باب المخدع مغلقاً . عند ذلك المنعطف
وقفت أميمة ، ومن موقفه انطلق أدهم ، وها هو ينطلق وراء الشيء
نفسه . تراكت على صدره الرهبة ، فتأدى ارادته وجرائته ، وكان
من السخرية ان يرجع . قد يظهر خادم في أية لحظة ، وقد يفيق من
جنونه على يد تقبض على كتفه ، فما أجدره أن يسرع . سار على أطراف
أصابه نحو الباب . ادار المقبض اللامع فدار مع يده ، ودفع الباب
فانفتح برفق ، ثم تسلل راداً الباب وراءه . أسند ظهره الى الباب في
ظلام لا يرى فيه شيئاً ، وتنفس بحذر وكأنما يضمن بأنفاسه . وخبثاً
حاول أن يرى شيئاً . وبعد قليل شم رائحة بخور زكية أفعمت قلبه
قلقاً وحزنًا غريباً لم يدرك له من سبب ولم يعد يشك انه في مخدع

الجبلاوي . متى يألف الظلمة ؟ وكيف يلم نفسه المبعثرة ؟ ومن وقفه موقفه هذا من قبل ؟ وكيف يشعر بأنه سينهار الى الحضيض اذا لم يستمسك بكل ما أوتي من قوة وعزم وجراءة ! وتوعد نفسه بالهلاك اذا لم يحسب لكل حركة حسابها الدقيق . وتذكر السحب في جريانها الذي يرسم لها اشكالاً غريبة بطريقة عفوية فيرسم جبلاً كما يرسم قبراً . ومس الجدار بأصبعه فاتخذ منه مرشداً وسار بحذائه متقوساً حتى لمس كتفه مقعداً . لكن حركة مفاجئة ندت من ركن الحجرة البعيد تصلبت لها شرايينه . لبد وراء المقعد متجه العينين نحو الباب الذي دخل منه . وسمع وقع أقدام خفيفة وحفيف ثوب . وتوقع ان يغمر الظلماء نور وأن يرى الجبلاوي واقفاً حباله . سيسجد عند قدميه مستعطفاً ويقول له اني حفيدك ، لا أب لي ، ولا هدف الا الخير ، فافعل بي ما تشاء . رأى رغم الظلمة شبحاً يقترب من الباب . ورأى الباب وهو يفتح برفق ونور الردهة الخارجية يتسرب الى ما ورائه . وخرج الشبح تاركاً الباب موارباً واتجه بمنة فتيينه على ضوء المصباح الخارجي ، امرأة عجوز سوداء نحيلة الوجه طويلة بصورة لا يمكن ان تنسى . ترى أهى خادماً ؟ وهل يمكن ان تكون هذه المسجرة من جناح الخدم ؟ ونظر من جانب المقعد الى المكان ليراه على الضوء الباهت المتسلل من الباب ، فميز اشباح المقاعد والكنب ، وتراءى له في الصدر رسم فراش كبير ذي عمد وفاموسية يليه عند قدميه فراش صغير لعله هو الذي غادرته العجوز . ان يكون هذا الفراش الضخم الا للجبلاوي . انه نائم الآن هناك غير دارٍ بحريمته . كم يود ان يلقي نظرة عليه ولو من بعيد لولا هذا الباب الموارب الذي ينلر بعودة الذاكرة . ونظر الى يساره فلمح رسم باب الخلوة مغلقاً على سره الرهيب . هكذا تطلع اليه أدهم في القديم فله الرحمة . وزحف وراء المقاعد متناسياً الجبلاوي نفسه حتى صار أسفل الباب الصغير . لم يستطع مقاومة الاغراء فرفع يده حتى دس أصبعه في ثقب المفتاح ثم ضغط الى

أسفل جاذباً إياه إليه فأطاع . وسرعان ما رده وقلبه يرتجف ، انفعلاً واحساساً بالفوز . وإذا بالضوء الضئيل يختفي وتفرق الحجرة مرة أخرى في الظلام . وسمع مرة أخرى كذلك وقع الأقدام الخفيفة ، ثم طقطقة فراش وشت باستلقاء العائدة ، ثم ساد الصمت . وانتظر متصبراً حتى تنام المعجوز . ومضى يمين النظر نحو الفراش الكبير ولكنه لم ير شيئاً . واقنع بأنه من الجنون أن يحاول الاتصال بجده ، إذ قبل ذلك ستينقظ المعجوز وتملأ الدنيا صراخاً ثم يكون الوداع . ولكن حبه الكتاب الخطير بما يتضمن من شروط الوقف وآيات السحر التي سيطر بها جده في الخلاء والناس في زمانه الأول . إن احداً قبله لم يتصور أن الكتاب كتاب سحر لأن احداً قبله لم يمارس السحر . وعاد يرفع يده ويدس أصبعه ويجذب الباب ، ثم تسلل زاحفاً ورده وراءه . وقف في حذر وهو يتنفس في عمق ليريح شيئاً ما اعصابه المرهقة . لماذا ضن الجلاوي على أبنائه بسر كتابه ؟ حتى أحبهم إلى قلبه أدهم ! هنالك مر بلا ريب وسينكشف السر بعد ثوان ، بعد إشعال شمعة . وقد بدأ أشعل أدهم الشمعة ، وها هو مجهول الأب يشعلها مرة أخرى في نفس الموقف ، وسوف تغني الرباب بهذا إلى الأبد . أشعل الشمعة فرأى عينيّن تنظران إليه . رغم ذهوله أدرك أن العينيّن لمعجوز أسود برقد على فراش في مواجهة الداخل . ورغم ذهوله ورعبه تبين له أن المعجوز يجاهد للخروج من الغيبوبة الفاصلة بين النوم واليقظة التي ربما كان أحدثها صوت حلك عود الثقاب . وبحركة غير ارادية ولا شعورية انقض عليه فأطبق يمينه على رقبتة وشد بكل قوة أعصابه . تحرك المعجوز بعنف وقبض على يده فضربه بقدمه في بطنه ونحاعف من قوة الضغط على عنقه . وسقطت الشمعة من يسراه فانطلقت وساد الظلام . وفي الظلام تحرك المعجوز حركة أخيرة من أعماقه ثم همد لكن يده المجنونة لم تكف عن الضغط حتى

تراخت أصابعها . وتراجع لاهثاً حتى التصق ظهره بالبواب . ومرت
الثواني وهو في جحيم من العذاب الصامت، وشعر بقواه تنحور وبأن الزمن
بات انقل من الذنوب . سيقع على الأرض أو فوق جثة ضحيته اذا
لم يتغلب على ضعفه . وناداه الهرب كقوة لا قبل له بها . لن يستطيع
ان يتخطى الجثة الى الكتاب الأثري . الكتاب المشئوم . ولا شجاعة
عنده ليشعل الشمعة من جديد . العمى احب اليه من ذلك . وشعر بألم
في ساعديه لعله من أثر اظافر الرجل عند المقاومة اليائسة . وارتعد جسده
للك الفكرة . كانت جريمة أدهم العصيان، اما جريمته هو فالقتل . قتل
رجل لا يعرفه ولا يعرف لمصرعه على يده سبياً . وهو قد جاء سعيّاً
وراء قوة يناضل بها المجرمين فانقلب وهو لا يدري مجرمّاً . واتجه رأسه
في الظلام الى الركن الذي ظن الكتاب معلقاً به . ودفع الباب ثم تسلى
وهو يرده وراءه . وزحف بحذاء الجدار الى الباب . وتريث وراء المقعد
الأخير . لا يرى في هذا البيت الا الخدم فأين سيده ؟ متحول هذه
الجريمة بينهما الى الأبد . وشعر بالحيرة والفشل حتى أعمق أعماقه . وفتح
الباب برفق فأعشى التور عينيه وخيل اليه انه ينقض عليه في ضوضاء
صاخبة ووميض صارخ . أغلق الباب ومضى على أطراف أصابعه . وهبط
السلم في ظلمة خالكة . وعبر السلامك الى الحديقة وقد قل من الاعياء
والحزن حذره . واذا بالنائم في السلامك يستيقظ متسائلاً : « من ! »
قليل عرقه لصق الجدار اسفل السلامك وقد أمده الفزع بقوة . ونادى
الصوت كرة اخرى فأجابت قطرة بنوائها . لبث في مكمنه وهو ينحس
أن يساق الى جريمة جديدة . ولما استقر الصمت زحف على ارض الحديقة
الخلفية حتى السور ، وراح يتحسس موضع الشجرة حتى عثر عليها .
ودخلها زحفاً كما جاء . ولما بلغ النهاية او كاد ارتطم بقدم 1 واذا
بالقدم تركله في رأسه بسرعة فاقت خاطره .

وثب على صاحب القدم فاشتبكها في صراع لم يدم طويلاً اذندت
عن الآخر صيحة غضب كشفت عن شخصه لعرفة فهتف في ذهول :
- حنش !

تعاوننا على الخروج معاً الى سطح الأرض وقال حنش :
- طالت غيبتك فدخلت لانتسم الاخبار .
فقال عرفة وهو يتنفس بمشقة :
- انحطأت كعادتك ولكن هلم بنا .

عادا الى الحارة المستغرقة في النوم . ولما رآته عواطف هتفت :
- اغتسل .. رياه .. ما هذا الدم يسيل من يدك وعنقك !
فارتعد لكنه لم يجب . ومضى ليغتسل وسرعان ما أغمي عليه . وأفاق
بعد قليل وبمساعدة عواطف وحنش . جلس على الكنبه بينهما وهو يشعر
بأن النوم بات ابعد عنه من الجبلأوي . ولم يعد يتحمل عبء سره وحده
فقص عليها ما وقع له في رحلته العجيبة . وانتهى والأعين تملقن فيه
برعب ويأس . ودمست عواطف :
- كنت ضد الفكرة من أول الأمر .

غير ان حنش قصد ان يخفف من وقع الكارثة فقال :
- ليس في الامكان تجنب مثل هذه الجريمة !
فقال عرفة بجزن :
- لكنها أبشع من جرائم السنطوري وسائر الفتوات !
فقال حنش :

- هيهات ان تتجه الظنون اليك .
- لكني قتلت عجوزاً لا ذنب له ، ومن يدري فلعن الخادم الذي أرسله الجبلاوي الى قاسم !
- وغشيتهم فترة صمت قاتمة كالسهاد المرير حتى قالت عواطف :
- ألا يحسن بنا ان ننام ؟
- فقال عرفة .
- نأما انما ، اما انا فلا نوم لي الليلة .
- وانحط الصمت مرة أخرى فوق رؤوسهم . واذا بحنش يسأله :
- ألم تلمح الجبلاوي او تسمع صوته ؟
- فهز رأسه في ضيق قائلاً :
- كلا .
- لكنك رأيت في الظلام فراشه !
- كما نرى بيته !
- فقال حنش في حيرة :
- ظننت غيابك انقضى في محادثته !
- ما أسهل الخيال خارج البيت !
- فقالت عواطف بقلق :
- انت تبدو كالمحموم ومن الأفضل ان تنام .
- من أين يجيء النوم ؟
- لكنه شعر بصدق قولها فيما يتنابه من حرارة وذهول . وعاد حنش يقول بحسرة :
- كنت على بعد ذراع من الوصية لكنك لم تنظر فيها !
- وتقلص وجهه من الألم فقال حنش :
- يا لها من رحلة شاقة وخاسرة !
- نعم !

ثم بنبرة جديدة حادة :

— لكنها علمتني انه لا ينبغي ان نعتد على شيء سوى السحر الذي
بين أيدينا ! الا ترى انني غامرت برحلة جنونية جرياً وراء فكرة ربما
كانت أبعد ما يكون عن ظني ؟

— نعم ، لم يقل غيرك أحد إن كتابه المشهور كتاب سحر .
فقال عرفة وقد بدا أكثر من قبل أنه يكابد حال اضطراب في العقل
والنفس :

— تجربة الزجاجة ستنتج أقرب مما تتصور ، وستكون جد نافعة اذا
احتجنا للدفاع عن النفس !

وأذلر الصمت المخيف بالعودة ، فقال حنش :
— ليتك عرفت من السحر ما يمكنك من الوصول الى البيت الكبير
وصاحبه دون تلك المغامرة !

فقال عرفة بحماس :

— السحر لا نهاية له ، ليس بين يدي منه اليوم الا بعض الأدوية
ومشروع زجاجة للدفاع او للهجوم ، اما ما يمكن ان يوجد فلا يحيط
به خيال .

فقالت عواطف في ضجر :

— ما كان ينبغي ان تفكر اطلاقاً في تلك المغامرة ، جدنا من دنيا
ونحن من دنيا أخرى ، وما كنت لتفيد شيئاً من محادثته لو وقعت ،
ولعله نسي الوقف والنظارة والفتوات والأحفاد والحارة !
وغضب عرفة بلا سبب ظاهر ، ولكن حالته الطارئة كانت تبرر
كل غريب ، وقال بحدة :

— هذه الحارة المغرورة الجاهلة ! ماذا تدري من الأمر ؟ لا شيء ،
ليس لديها إلا الحكايات والرباب ، وهيهات ان تعمل بما تسمع ،
ويظنون حارتهم قلب الدنيا ، وما هي الا مأوى البلطجية والمتسولين ،
كانت في البدء مرتعاً قفراً للحشرات ، حتى حل بها جدكم الواقف !

وأجفل حنش ، على حين بللت عواطف خرقة وهمت بوضعها على
جبينه ، ولكنه ابعد يدها بحدة وقال :
- انا عندي ما ليس عند أحد ، ولا الجبلابي نفسه ، عندي
السحر ، وهو يستطيع ان يحقق لحارتنا ما عجز عنه جبل ورفاعة وقاسم
مجتمعين .

قالت عواطف بتوسل :

- متى تنام ؟

- عندما تخمد النار المشتعلة في رأسي

فتمتم حنش باشفاق :

- أو شك الصبح ان يطلع .

فهتف عرفة :

- فليطلع ، ولن يطلع حتى يقضي السحر على الفتوات ، ويطهر
النفوس من عفاريتهما ، ويجلب من الخير ما يعجز الوقف عن جزء منه ،
ويصير هو الغناء المنشود الذي كان يحلم به أدهم .
وتنهّد من أعماقه : ثم طرح رأسه على الجدار في أعياء ، فأملت
عواطف ان يجيء النوم عقب ذلك . وإذا بصوت يجلس في السكون
بقوة هزت النفوس . وتبعته اصوات صراخ وعويل . وثب عرفة قائماً
وهو يقول برعب :

- جنة الخادم اكتشفت !

فقالت عواطف من حلق جاف :

- من أدراك ان الأصوات قادمة من البيت الكبير ؟

وجرى عرفة الى الخارج فتبعاه على الأثر . وقفوا أمام الربيع برعوس
متجهة نحو البيت الكبير .

كانت آخر الظلمة ترق وتشف عن أمارات الصباح . وفتحت نوافذ
وأطلت رعوس ، وانجهت جميعاً نحو البيت الكبير . وجساء رجل من
أقصى الحارة مهرولاً نحو الجمالية فلما مر بهم سأله عرفة :

— ماذا جرى يا عم ؟
فأجابه دون توقف :
— لله الأمر ، من بعد العمر الطويل مات الجبلابي ١

١٠٣

انقلب ثلاثتهم الى البدر ، وعرفة لا تكاد تحمله قدماءه ، فأنحط على
الكنبة وهو يقول :
— الرجل الذي قتلته كان خادماً أسود تعيس المنظر ، وكان نائماً في
الخلوة .

لم ينبس أحد منها ، ودفنا نظريهما في الأرض متحاشين عينيه الزائغتين ،
فقال بحدة :

— أراكما لا تصدقان ! أقسم لكما انني لم اقرب من فراشه .
فتردد حنش ملياً لكنه شعر بأن الكلام خير على أي حال من تركه
للصمت فقال بحذر :

— لعلك لم تتبين وجهه من شدة المفاجأة ؟
فهتف بياس :

— ابدأ ، انت لم تكن معي !
فهست عواطف بخوف :
— أخفت من صوتك .

وغادرهما مهرولاً الى الحجرة الخلفية ، وقعد في الظلام وهو يرتجف
من الاضطراب . أي جنون دفعه الى تلك الرحلة المشؤمة ! أجل كانت
رحلة مشؤمة . ان الأرض تميد به وتنثف من جوفها الاحزان . ولم يعد
له من أمل إلا هذه الحجرة العجيبة .

وأشرق أول شعاع للشمس ، فاذا الناس جميعاً مجتمعون في الحارة حول
البيت . وتسربت الأخبار وشاعت ، وبخاصة عقب زيارة الناظر للبيت زورة
قصيرة ثم عودته الى بيته . وتناقل الناس ان لصواً سطوا على البيت
الكبير من خلال نفق حفروه تحت السور الخلفي ، فقتلوا خادماً أميناً ،

ولما علم الجبلالوي بالخبر تأثر تأثراً لم تحمله صحته الواهية في تلك الذروه
من العمر ففاضت روحه . وثار الغضب بالنفوس حتى غطى دخانه
الأسود على الدموع والصراخ . وهتف عرفة لما بلغته الأنباء بزوجه وحشش :
- ها هي الأنباء تصدقي !

ثم ذكر من توه انه على اي حال تسبب في موته فلاذ بصمت الحجل
والألم . ولم تجد عواطف ما تقوله فغمغمت :

- فليرحمه الله !

وقال حنش :

- لم يمت ناقص عمر !

فقال عرفة بنبرة الرباب الحزينة :

- لكنني انا سبب موته ! انا من دون أحفاده جميعاً حتى الاشرار
منهم وما اكثروهم !

فبكّت عواطف وهي تقول :

- ذهبت بنفس لا تشوبها شائبة سوء .

واذا بحنش يتساءل في قلق :

- ألا يمكن ان يستدل علينا ؟

فهتفت عواطف :

- فلنهرب .

فأشار اليها عرفة حائقاً وهو يقول :

- وبذلك تقدم اسطع دليل على جريمتنا !

وترامت من الطريق المحتشد اصوات متلاطمة :

- يجب قتل الجاني قبل دفن الرجل !

- يا ألن جيل في حارتنا ، حتى كبار الأشرار احتراموا هذا البيت

طيلة ماضينا ، وحتى ادريس نفسه ، علينا اللعنة الى يوم القيامة .

- ليس القتلة من حارتنا ، منذاً يتصور ذلك !

- سوف يعرف كل شيء .

- علينا اللعنة الى يوم القيامة .

واشد اللطم والندب ، حتى انهارت اعصاب حنش فقال :

- وكيف نبقى في الحارة بعد اليوم !

واقترح آل جبل ان يدفن الجبلاوي في مقبرة جبل لاعتقادهم من ناحية انهم اقرب نسباً اليه من الآخرين ، ولأنهم كرهوا ان يدفن في المقبرة التي تضم ادريس فيما تضم من رفات اسرة الواقف من ناحية اخرى . وطالب آل رفاعه ان يدفن في القبر الذي دفن فيه رفاعه بيديه ! وقال آل قاسم إن قاسم خير احفاد الواقف وإن قبره هو أليق قبر بجمان الجدد العظيم . وكادت ان تقع فتنة في الحارة ولما يدفن الرجل . لكن الناظر قدري أعلن ان الجبلاوي سيدفن في المسجد الذي أقيم في مكان حجرة الوقف القديمة بالبيت الكبير . ولأقضى هذا الحل ارتياحاً عاماً ملحوظاً وان اسف أهل الحارة على حرمانهم من مشاهدة جنازة الجدد كما حرموا من قبل من مشاهدة الرجل في حياته . وتهامس آل رفاعه فرحين بأن الجبلاوي سيدفن في القبر الذي دفن فيه رفاعه بيديه . لكن أحداً غيرهم لم يكن يصدق تلك الحكاية القديمة ، وراحوا يسخرون منهم حتى ثار عجاج فتوتهم وأوشك ان يلتحم في معركة بالسنطوري . وعند ذلك تصدى سعد الله للجميع وصاح مندرأ :

- سأكسر رأس اي مكابر يحاول النيل من احترام هذا اليوم الحزين !

ولم يشهد الغسل إلا خدمة المقربون . وهم الذين كفنوه وأودعوه نعشه . وحملوا النعش الى البهو الكبير الذي شهد اخطر احداث الأسرة كعهده بالنظارة الى أدهم وثورة ادريس عليه . ثم دعي للصلاة عليه الناظر ورءوس جبل ورفاعة وقاسم . ووري بعد ذلك في قبره والشمس تميل نحو الغروب . وفي المساء أم السراشق جميع أولاد الحارة . وذهب اليه عرفة وحنش فيمن ذهب من آل رفاعه . وبدأ وجه عرفة الذي لم يذق طعم النوم منذ ارتكب جريمته كوجه ميت . ولم يكن للناس من

حديث الا أيجاد الجبلأوي ، قاهر الخلاء وسيد الرجال ورمز القوة والشجاعة ، صاحب الوقف والحارة والأب الأول للأجيال المتعاقبة .
ريدا عرفة حزينا ولكن ما كان يدور بنفسه لم يخطر لأحد على بال .
ذلك الذي اقتحم البيت غير مبال بجلاله . الذي لم يتأكد من وجود جده إلا عند موته ! الذي شذ عن الجميع ولوث يديه الى الأبد . وتساءل كيف يمكن التكفير عن هذه الجريمة ؟ ان مآثر جبل ورفاعة وقاسم مجتمة لا تكفي . القضاء على الناظر والفتوات وانقاذ الحارة من شرورهم لا يكفي . تعريض النفس لكل مهلكة لا يكفي . تعليم كل فرد السحر وفتونه وفوائده لا يكفي . شيء واحد يكفي هو ان يبلغ من السحر الدرجة التي تمكنه من إعادة الحياة الى الجبلأوي ! الجبلأوي الذي قتله اسهل من رؤيته . فلتهبسه الأيام القوة حتى يقصد الجرح النازف في قلبه . وهؤلاء الفتوات ذوو الدموع الكاذبة . ولكن آه ثم آه لم يأثم أحدهم كما أثم . وكان الفتوات يجلسون واجمين ، يركبهنم الخزي والهوان . ستقول الحواري إن الجبلأوي قتل في بيته ومن حوله الفتوات الكبار يحششون . لذلك تتوعد نظراتهم بالانتقام . الويل والموت يطلان من عيونهم . وعندما عاد عرفة الى البدروم في آخر الليل جذب عواطف اليه وسألها في استغاثة يائسة :

— عواطف ، صارحيني برأيك ، هل تربيني مجرمًا ؟
فقالته برقة :

— انت رجل طيب ، انت أطيب من صادفت في حياتي ، ولعلك أنتسهم حظًا !

فأغمض عينيه وهو يقول :

— لم يتجرع أحد قبلي الألم كما تجرعه .
— نعم .. اعرف ذلك .

وقبلته بشفتين باردتين وهمست :

— اخشى ان تحل بنا اللعنة .

فحول عنها وجهه ، وقال حنش :
 - لست مطمئناً ، سيكتشف امرنا اليوم او غداً ، لا أتصور ان
 يُعرف كل شيء عن الجبلاوي ، أصله ، وقفه ، سيرته في ابنتائه ،
 اتصالاته بجبل ورفاعة وقاسم ، وان يجهل فقط موته !
 فنفتح عرفة في ضيق وسأله :
 - هل عندك حل غير الحرب ؟
 فلزم حنش الصمت ، فعاد الآخر يقول :
 - اما انا فعندي خطة ، غير اني اود ان اطمئن الى نفسي قبل
 الشروع في تنفيذها ، اذ لا استطيع ان اعمل ان كنت مجرمًا .
 فقال حنش بفتور :
 - انك بريء .
 فقال بمحبة :
 - سأعمل يا حنش ، لا تخف علينا ، فان الحارة ستشغل عن الجريمة
 الكبرى بالأحداث ، ستقع عجائب ، وستكون ذروة العجائب ان تعود
 الحياة الى الجبلاوي .
 تأوهت عواطف ، اما حنش فقال مقطباً :
 - هل جننت ؟
 فقال بصوت المحموم :
 - ان كلمة من جدنا كانت تدفع الطبيب من احفاده الى العمل حتى
 الموت ، موته اقوى من كلماته ، انه يوجب على الابن الطبيب ان يفعل
 كل شيء ، ان يحل محله ، ان يكونه ، أفهمت ؟

١٠٤

تأهب عرفة لمغادرة البدروم بعد ان سكت آخر صوت في الحارة .
 أوصلته عواطف حتى الدهليز محمرة العينين من البكاء ، وكانت تقول
 في تسليم من لا حيلة له :

— فلتحرسك العناية .

اما حنش فتساءل في اصرار :

— لم لا أصبحبك ؟ !

فقال عرفة :

— الهرب أيسر على واحد منه على اثنين .

فقال له ناصحاً وهو يربت ظهره :

— لا تستعمل الزجاجة الا عند اليأس .

فأوماً برأسه موافقاً وذهب .لقى نظرة على الحارة الغارقة في الظلام ثم مضى نحو الجالية . ودار دورة كبيرة شملت حارة الوطاويط والدراسة والخلاء فيما وراء البيت الكبير، حتى انتهى الى سور بيت سعدالله المشرف على الخلاء من ناحية الشمال . واتجه نحو موضع في منتصف السور ، وتحسس الأرض حتى عثر على حجر فأزاحه ثم غاص في الممر الذي دأب على حفره — هو وحنش — ليلة بعد أخرى . زحف على بطنه حتى نهايته، ثم عالج بيديه القشرة الرقيقة التي تسده ونفذ منها إلى حديقة بيت الفتوة . كمن وراء السور وألقى نظرة على المكان فرأى في البيت نافذة مغلقة تنضح بضوء خافت ، أما الحديقة فقد غشيها النوم والظلام الا نور نافذة المنطرة الساهرة . ومن المنطرة ترامت بين آونة وأخرى عربدات الساهرين وضحكاتهم الغليظة . استل من صدره خنجراً ولبث متوثباً والوقت يمر أثقل من الذنوب . لكن الغرزة انفضت عقب وصوله بنصف ساعة . فتح بابها وخرج الرجال تباعاً نحو الباب الخارجي المفضى الى الحارة والبواب يتقدم بفانوس في يده . واغلق الباب وعاد البواب متقدماً سعدالله نحو السلامك . تناول عرفة من الأرض حجراً بيسراه ، وتسلى متفوساً والخنجر بيمنه ثم كمن وراء نخلة حتى هم سعدالله بارتقاء أول درجة من درجات السلم فانقض عليه وأغمد خنجره في ظهره فوق القلب . نددت عن الرجل صرخة ثم تقوض بناؤه . التفت البواب مدعزراً

لكن الحجر أصاب الفانوس فأطفأه وحطمه ثم جرى عرفة مسرعاً نحو
 السور الذي نجا منه . وصرخ الباب صرخة مدوية . وسرعان ما
 تدافعت أقدام وتلاطمت اصوات في الداخل وفي آخر الحديقة . وعثر
 عرفة في جريه بقائمه كأنه أصل شجرة مقطوعة ، فسقط على وجهه وهو
 يحس بألم يهرسه في ساقه وكوعه ، لكنه تغلب على ألمه وقطع بقية المسافة
 الى النفق زحفاً . وارتفعت الاصوات واشتد وقع الاقدام . رمى بنفسه
 في النفق وزحف بسرعة حتى خرج الى الخلاء . ونهض وهو يئن ثم
 اندفع شرقاً . وقبل ان يدور مع سور البيت الكبير التفت ورائه فرأى
 اشباحاً تندفع نحوه وسمع صوتاً يصيح : « من هنا » ! فضاعف من
 سرعته رغم ألمه حتى بلغ نهاية السور الخلفي للبيت الكبير . وعندما عبر
 الفراغ الذي يفصل بين البيت الكبير وبيت الناظر لمح اضواء كالمشاعل
 وسمع ضجة فاندفع في الخلاء متسماً سوق المقطم . وشعر بأن الألم
 سيقهقه عاجلاً او آجلاً ، وبأن اقدام المطاردين تقرب واصواتهم تنعالي
 صارخة في السكون « امسك .. حلق » . عند ذاك اخرج الزجاجة
 من عبه ، الزجاجة التي قضى الشهور في تجربتها ، ثم توقف عن الجري
 واستقبل القادمين بوجهه ، وأحسد بصره حتى تراءت له اشباحهم ثم
 قذف الزجاجة عليهم . وما هي الا ثانية حتى دوى انفجار لم تعرفه
 اذن من قبل . وتتابعت صرخات وتأوهات . وواصل جريه وقد كفت
 الاقدام عن مطاردته . وعند حافة الخلاء ارتدى على الأرض وهو يلهث
 ويئن . لبث في ألم وعجز وحيداً تمت النجوم . ونظر ورائه فلم ير إلا
 ظلاماً وصمتاً . وجعل يمسح الدم السائل على ساقه بيده ثم جفها في
 الرمال . وشعر بأنه ينبغي ان يذهب معها كلفه الأمر فقام معتمداً على
 يديه ، وسار متمهلاً نحو الدراسة . وفي اول الدراسة رأى شبحاً قادماً
 فنظر نحوه بحذر وخوف ، ولكن القادم مر به دون ان يلتفت اليه فتنهد
 في ارتياح . ومضى راجعاً في نفس الدورة التي جاء بها . ولما اقترب

من حارة الجبلاني ترامت الى اذنه ضجة حارة غير مألوفة في ذلك
الهزيع من الليل . خليط من الاصوات المادرة والبكاء والصرخات الغاضبة
ونذر "شر" تتطاير في الظلام . تردد ملياً ثم تقدم ملتصقاً بالجدران .
والقى نظرة من عين واحدة عند ركن الحارة فرأى خلقاً كثيراً متجمعاً
في الآخر فيما بين بيتي الناظر وسعد الله على حين بدا حي قائم خائلاً
مظلماً . وتسلل بجذاء الجدار حتى غيبه الربع . ارتدى بين عواطف
وحش ، ثم كشف عن ساقه الدامية فارتاعت عواطف وذهبت مسرعة
لعمود بطبق القلة المملوء بالماء ، وراحت تغسل الجرح وهو يعرض على
اسنانه حتى لا تفلت منه صرخة ألم . وساعدها حنش وهو يقول بقلق :
- الغضب يشتعل في الخارج كالنار .

فسأله عرفة بوجه متقبض :

- ماذا قالوا عن الانفجار ؟

- وصف الذين كانوا يطاردونك ما وقع فلم يصدقهم أحد ، لكنهم
وقفوا ذاهلين امام الجراح التي اصابته الوجوه والاعناق ، وكادت
حكاية الانفجار تغطي على مقتل سعد الله !
فقال عرفة :

- قتل فتوة الحارة ، وغداً يبدأ التناحر بين الفتوات على مكانه !

ثم نظر الى زوجته المنهمكة في تضميد جراحه برقة وقال :

- عهد الفتوات موشك على الزوال ، وأولهم قاتل أبيك !

لكنها لم تجب . وظلت عينا حنش قمرضان في قلق . ثم اسند عرفة
رأسه الى يده من شدة الألم .

١٠٥

في باكر الصباح طرق طارق باب البدر ، ولما فتحت عواطف
رأت أمامها عم يونس بواب بيت الناظر ، فحيته برقة ودعته الى الدخول ،
لكنه قال وهو ثابت في مكانه :

— حضرة الناظر يطلب عم غرفة الى مقابلته لاستشارة عاجلة !
ذهبت عواطف لابلأغ غرفة دون ان تجد للدعوة العالية السرور
الخليق بها في غير الظروف التي تعانيها .
ومضت فترة قصيرة ثم جاء غرفة مرتدياً خير ملابسه ، جلباباً ابيض
ولاسة منقطة ومركوباً نظيفاً ، غير انه كان يتوكأ على عصا لعرج
طارىء غير خاف ، فرفع يده تحية وغفل :
— تحت الأمر .

فسار البواب وهو يتبعه . وكانت الكآبة تغشى الحارة من اولها الى
آخرها ، فالأعين قلقة كأنما تتساءل في خوف عما سيجيء به الغد من
الكوارث ، وأعوان الفترات تجمعوا في المقاهي يشاورون ، على حين
تتابع العويل والنواح في بيت سعد الله . ودخل بيت الناظر وراء البواب ،
فسارا في الممر المسقوف بعريشة الياسمين حتى بلغا السلامك . وتخيّل
أوجه الشبه بين هذا البيت والبيت الكبير فوجدوها كثيرة حتى ظن الا
اختلاف إلا في الدرجة ، وقال لنفسه بحق : « تقلدونه فيما ينفعكم لا
غما ينفع الناس ! » . وسبقه البواب ليستأذن له ثم عاد ليشير اليه
بالدخول فمضى الى البهو الكبير حيث رأى الناظر قدري جالساً في انتظاره
في أقصى المكان . وقف على بعد ذراع منه وهو ينحني احتراماً حتى
تقوس ظهره . وبدا لعينيه من أول لمحة طويل القامة قوي البنيان ممتليء
الوجه باللحم والدم ، ولما ابتسم اليه رداً على تحيته افترقه عن اسنان
صفير قدرة لا تناسب بهاء منظره بحال . وأشار اليه ان يجلس الى جانبه
على ديوانه ، لكن غرفة اتجه الى اقرب مقعد وهو يقول :

— عفواً يا حضرة الناظر !

لكن الناظر اصرّ على دعوته فأشار الى الديوان قائلاً بلطف وأمر معاً :
— هنا .. اجلس هنا .

هلم يجد بدأ من الجلوس الى جانبه في أقصى الديوان وهو يقول

لنفسه : لا شك انها حالة سرية ! وتأكد ظنه حينما رأى البواب وهو
يغلق باب البهو ! ولبث صامتاً في حال خضوع والناظر يرمقه بهدوء ،
ثم قال الناظر في نبرة هادئة كالمناجاة :
- عرفة ! لمَ قتلت سعدالله ؟

تجمد البصر تحت البصر . وسابت المفاصل . ودار كل شيء .
وانقلب المستقبل ماضياً . ورأى الرجل ينظر اليه بعين الواصل فلم يشك
في انه عرف كل شيء كالقضاء والقدر . ثم لم يمهله فقال بشيء من الحدة :
- لا ترتعب ! لماذا تقتلون اذا كنتم هكذا ترتعبون ؟ تمالك مشاعرك
لنستطيع ان نجيبني ، وخبرني صراحة لمَ قتلت سعدالله ؟
وكره الصنت فقال وهو لا يدري ما يقول :
- سيدي .. أنا !

فقال الناظر بحدة :

- يا ابن الحفيرة أحسبني أهذي ! او انني اتكلم دون دليل ؟
أجيني لماذا قتلته ؟

وهو يتمزق من الحيرة واليأس جالت عيناه في أرجاء البهو بمحركة
لا معنى لها ، فقال الناظر بصوت بارد كالموت :
- لا مهرب يا عرفة ! وفي الخارج أناس لو علموا بأمرك لمزقوك
بأسنانهم ولشربوا دمك .

وكان النواح يشتد في بيت الفتوة ، أما آماله فقد ووريت في التراب .
وفتح فيه دون ان يقول شيئاً .
فقال الناظر بقسوة :

- الصمت مهرب في متناول اليد ، سأدفع بك الى الوحوش في
الخارج وأقول لهم هاكم قاتل سعدالله ، وان شئت اقول لهم هاكم
لاتل الجبلاوي !
هتف بصوت مبحوح :
- الجبلاوي !

— حافر الانفاق وراء الأسوار الخلفية ! نجوت في المرة الأولى
ووقعت في الأخرى ، لكن لماذا تقتل يا عرفة ؟
وقال في يأس بلا قصد ولا معنى :
— بريء يا حضرة الناظر ، انا بريء !
فقال في تهكم :

— اذا اعلنت تهمتك فلن يطالبني أحد بدليل ، في حارتنا الاشاعة
حقيقة ، والحقيقة حكم ، والحكم هو الاعدام ، ولكن خبرني عما دفعك
الى اقتحام البيت الكبير ؟ ثم قتل سعد الله ؟
هذا الرجل يعرف كل شيء . كيف ؟ لا يدري لكنه يعرف كل
شيء . والا فلماذا صب عليه اتهامه دون أهل الحارة جميعاً ؟
— هل كنت تقصد السرقة ؟
غضب بصره في يأس لكنه لم يتكلم فهتف الناظر في غضب :
— انطق يا ابن الافاعي !
— سيدي .

— لماذا تسعى الى السرقة وانت افضل حالاً من كثيرين ؟
فقال بنبرة الاعتراف اليائسة :
— النفس امارة بالسوء .

ضحك الناظر بظفر ، أما عرفة فساءل نفسه في حيرة : عما جعل
الرجل يؤجل الفتك به الى الآن ! . بل لم لم يفض بسره الى احسد
الفتوات بدلا من استدعائه على ذلك النحو الغريب ؟ وتركه الناظر لنفسه
كأنما يعذبه ، ثم قال :

— يا لك من رجل خطير !

— انا رجل مسكين .

— أبعد في المساكن من يحوز سلاحاً كسلاحك الذي هزيء بالنبايت ؟
لا يبكي ميت على فقد بصره . هذا الرجل هو الساحر حقاً لا هو .
وجعل الناظر يتلذذ بياسه ملياً ثم قال :

— انضم أحد خدمني الى مطاردتك ، وكان متأخراً عنهم فلم يصبه سلاحك ، ثم تبعك وحده في هدوء فلم يشعر بمطاردته الخفية ، ثم عرفك عند الدراسة فلم يهاجمك خوفاً على نفسه من مفاجأتك ، وسارع الي فأخبرني .

فقال عرفة بلا وعي :
— الا يمكن ان يخبر أحداً غيرك ؟
فقال مبتسماً :

— انه خادم أمين .
ثم بنبرة ذات معنى :
— الآن حدثني عن سلاحك .

أخذت الغيوم تتكشف لناظريه . الرجل يطمع قيا هو أئمن من حياته ! لكن يأسه كان محيطاً . وأين المفر ؟ قال بصوت منخفض :
— هو أبسط مما يتصور الناس !
فقت نظرتة وتجههم وجهه وقال :
— في وسعي ان افتش بيتك الآن لكنني اتحاشى لفت الانظار اليك ،
ألا تفهم ؟

وسكت ملياً ثم أردف :
— لن تهلك ما دمت تطيعني !
كان يتكلم ونذر الوعيد تتطاير من عينيه ، فقال عرفة وقد طفت باليأس روحه :
— ستجدني رهن مشيتك .
— بدأت تفهم يا ساحر حارتنا ، لو كان مقصدي قتلك ، لكنت الساعة في بطون الكلاب .

ثم تمنحنج وواصل حديثه قائلاً :
— دعنا من الجبلاوي وسعد الله وحدثني عن سلاحك ، ما هو ؟
فقال بدهاء :

- زُجاجة سحرية !
- فحدجته بنظرة ارتياب وقال :
- أفصح !
- فقال وهو يسترد شيئاً من الطمأنينة لأول مرة :
- لغة السحر لا يتكلمها الا اهلها .
- ألا تفصح حتى ولو وعدتك بالسلامة ؟
- فضحك باطنه ولكنه قال بمجدّ ظاهر :
- ما قلت الا الحق .
- فنظر الرجل الى الأرض قليلاً ثم رفع رأسه متسائلاً :
- الديك منها الكثير ؟
- ليس لديّ منها شيء الساعة !
- فعض الناظر على اسنانه هاتفاً :
- يا ابن الأفاعي !
- فقال عرفة ببساطة :
- فتش بيتي لترى صدقي بعينك .
- أ تستطيع ان تصنع مثلها ؟
- فقال بثقة :
- بكل تأكيد .
- فشبك ذراعيه على صدره من شدة الانفعال ، وقال :
- أريد منها الكثير .
- فقال عرفة :
- سيكون لك منها ما تشاء .
- وتبادلا نظرة تفاهم لأول مرة ، واذا بعرفة يقول بجرأة :
- سيدي يريد الاستغناء عن الفتوات الملاحين .
- فومضت بعيني الرجل نظرة غريبة وسأله :
- صارحني بما دفعتك الى اقتحام البيت الكبير ؟

- فقال عرفة ببساطة :
- لا شيء الا حب الاستطلاع ، وقد ساءني مقتل الخادم الأمين عن غير قصد مني .
- فحدجه بنظرة ارتباب وقال :
- تسببت في موت الرجل الكبير !
- فقال عرفة بحزن :
- شد ما ينقطع قلبي حزناً لذلك .
- فهز الناظر منكبيه قائلاً :
- ليتنا نحيا مثله !
- يا لك من منافق اثم ! لا شيء يهلك الا الوقف ! وقال :
- أمد الله في عمرك .
- فعاد يسأله بارتباب :
- ألم تذهب الاجرياً وراء الاستطلاع ؟
- بلى .
- ولماذا قتلت سعد الله ؟
- فقال بصراحة :
- لأنني مثلك أود القضاء على جميع الفتوات .
- فابتسم الرجل وقال :
- أنهم شرّ مستحکم !
- لكنك في الحق تبغضهم لما يأخذون من أموال الوقف ، لا لشرهم .
- بالحق نطقت يا سيدي .
- فقال باغراء :
- ستري فوق ما كنت تحلم .
- فقال عرفة بمكر :
- ولا غاية لي الا ذلك .
- فقال الناظر بارتباح :

— لا تهرق نفسك بالعمل نظير الملائم ، نفرغ لسحرك في حمايتي ،
وسيكون لك كل ما تشتهي نفسك !

١٠٦

جلس ثلاثتهم على الكنيسة ، عرفة يقصّ ما حدث له وعواطف
وحش يتابعانه بانتباه وانفعال وفزع ، حتى ختم عرفة حديثه المنير بقوله :
— لا اختيار لنا ، ان جنازة سعد الله لم تخرج بعد ، فاما القبول
واما الابداء .

فقال عواطف :

— واما الهرب .

— لا مهرب من عيونه التي تحيط بنا .

— لن نكون في كنفه آمين .

تجاهل قولها كما يودّ أن يتجاهل أفكاره وتحول الى حش فاذلاً :

— ما لك لا تتكلم ؟

فقال حش بجدة وحزن :

— عدنا الى هذه الحارة يوم عدنا بأمال بسيطة محدودة ، أنت وحدك
المستول عن التغير الذي وقع بعد ذلك ، عن تعلقنا بالأمال الكبيرة ،
وكنت أعارض طموحك بادىء الأمر ، ولكني عاوتك دون تردد ، وأخذت
أفتنع بأرائك رويداً رويداً ، حتى لم يعد لي من أمل الا أمل حارتنا
في الخلاص والكمال ، واليوم تفاجئنا بخطة جديدة سنصبح بها آلة رهيبة
لاستدلال حارتنا ، آلة لا يمكن أن تقاوم ولا أن تبعد وان جاز أن
يقاوم فتوة او يقتل .

وقالت عواطف :

— ولا أمان لنا بعد ذلك ، فقد ينال منك ما يريد ثم يتخلص منك
خيلة كما يدبر الآن للفتوات .

كان مقتنعاً في أعماقه بما يقولان ولا يكف عن التفكير فيه ، لكن
قال وكأنما يحاور نفسه :

— سأجعله دائماً في حاجة الى سحري !
فقال عواطف :

— ستكون على خير الأحوال فتوته الجديد .
فقال حنش مؤيداً :

— نعم ، فتوة سلاحه زجاجة بدلاً من النبوت ، واذكر مشاعره
نحو الفتوات لتعرف ما ستكون عليه نحوك .
واحتد عرفة غضباً فقال :

— ما شاء الله ، كأني الطامع وانما الزاهدان ! انما انا الايمان الذي
أصبحتما به تؤمنان ، وما سهرت الليالي في الحجرة الخلفية وما عرضت
نفسى للموت مرتين الا لخبر حارتنا ، فاذا كنتما ترفضان ما فرض علينا
دون اختيار فأشير علي بما يجب فعله .

ونظر اليها بتحدٍ غاضب فلم ينبس منها أحد . وكان الألم يعصره
والدنيا تبدو كابوساً خانقاً لعينيه . ودهمه شعور غريب بأن ما يعاينه ما
هو الا انتقام لتهجمه القاسي على جده ، فازداد ألماً وحزناً . وهست
عواطف بتوسل يائس :

— الهرب !

فتساءل بحدة وحنق :

— وكيف الهرب ؟ !

— لا أدري ! لكنه لن يكون أصعب عليك من التسلل الى بيت
الجبلاوي !

فنفخ يائساً وقال بهدوء كالرثاء :

— الناظر الآن بانتظارنا ، عيونه حولنا ، كيف ندبر الهرب ؟

وكان صمت ، يا له من صمت ، كصمت القبر الذي يضم الجبلاوي .
فقال بتشفٍ :

— لا أريد ان اتحمل الهزيمة وحدي .

فتأوه حنش قائلاً كالمعتذر :

— لا خيار لنا .

ثم بحرقة :

— قد يلد المستقبل فرصة للنجاة .

فقال عرفة بلبث شارد :

— من يدري !

ومضى الى الحجرة الخلفية وحشش في اثره . وأخذوا يعيثان بعض القوارير بقطع من الزجاج والرمل وغيرها . واذا به يقول :

— ينبغي ان نتفق على رموز للدلالة على خطوات أعمالنا السحرية :
وان نسجل صورها في كراسة أمينة سرية حتى لا يتعرض جهدنا للضياع
او يكون موتني نذير النهاية لهذه التجارب . ومن ناحية أخرى أرجو
ان يكون لديك الاستعداد لتعلم السحر، فما ندري شيئاً عما يحببه القدر لنا !
وواصل عملهما مهمة عالية . وحانت من عرفة التفاتة الى صاحبه
فراه متجهماً فلم يخف عليه سره ، لكنه قال مداراة للموقف الغريب :

— ستقضي هذه القوارير على الفتوات !

فقال حنش فيما يشبه الهمس :

— لا لحسابنا ولا لحساب حارتنا .

فقال دون ان تكفّ يده عن العمل :

— ماذا علمتلك رباب الشاعر ؟ وجد في الماضي رجال أمثال جبل

ورفاة وقاسم ، فإذا يمنع ان يجيء أمثالهم في المستقبل ؟

فقال حنش متنهداً :

— كدت أحسبك في بعض الأوقات أحدهم .

فضحك عرفة ضحكة جافة مقتضبة ونساءل :

— وهل عدلت بك عن ذلك هزيمتي ؟

فلم يجب ، فعاد الآخر يقول :

- لن أكون مثلهم في ناحية واحدة على الأقل ، وهي أنهم كانوا ذوي اتباع من أولاد حارتنا ، اما انا فلا يفهمني أحد .
ثم وهو يضحك :

- كان في وسع قاسم ان يكتسب تابعاً قوياً بكلمة حلوة ، اما انا فتلزمي أعوام وأعوام حتى أستطيع ان أدرب رجلاً على عملي وأجعل منه تابعاً .

وفرغ من تعبته زجاجة فأحكم سدadtها وعرضها أمام ضوء المصباح في إعجاب ، ثم قال :

- هي اليوم ترعب الافئدة وتدمي الوجوه بالجراح ، وغداً قد تقتل قتيلاً ، قلت لك إنه ليس للسحر من نهاية !

١٠٧

من فترة حارتنا ؟ مضى الناس يتساءلون عنه منذ رقد سعد الله في قبره . وأخذ كل فريق يزكي رجله . قال جبل قالوا إن يوسف أقوى فتوات الحارة وأوثقهم نسباً بالجبلأوي . وقال آل رفاعة لأنهم حي أنبل من عرفته الحارة في تاريخها ، الرجل الذي دفنه الجبلأوي في بيته وبيده . وقال آل قاسم أنهم هم الذين لم يستغلوا النصر لصالح حياتهم ولكن لصالح الجميع فكانت الحارة على عهد رجلهم وحدة لا تتجزأ يسودها العدل والأخوة . وكالعادة بدأت الخلافات همساً في الغرز ، ثم تطايرت في الجو فثار الغبار وتحفرت النفوس لشر المهالك . ولم يعد فتوة يسير بمفرده ، وإذا سهر في قهوة او غرزة أحاط به الاتباع مدحجين بالنبايت . وراح كل شاعر يدعو بالرباب الى فتوة حيه . وتجههم أصحاب الدكاكين والباعة وكدر التشاؤم وجوهم . وتناسى الناس موت الجبلأوي ومقتل سعد الله بما ركبهم من همس وتوجس للخوف ، وبنى لأم نبوية بياعة النابت ان تقول بأعلى صوت :

— قطعت العيشة وبانحت من كان الموت نصيبه .

و ذات مساء ترمى صوت من فوق سطح بحى جبل وهو يصيح :

— يا أولاد حارتنا ، اسمعوا واجعلوا العقل حكماً بيننا وبينكم ، حى جبل اقدم أحياء الحارة ، وجبل أول رجالها الكرام ، فلا مذلة لأحد اذا ارتضيتم يوسف فتوة لحارتكم .

فتعالت أصوات الاستهزاء من حيتي رفاعه وقاسم ، مصحوبة بقذائف السب واللعن ، وما لبث ان تجمع الصغار امام الربوع وراحوا ينشدون :

يا يوسف يا وش القمله من قللك تعمل دي العمله

واشدت القلوب غلظة وسواداً . ولم يؤجل وقوع الكارثة الا ان التناحر كان يقوم بين ثلاث قوى متضادة معاً ، وانه كان لا بد من ان يتحد حيان او ان ينسحب من التنافس حى مخاراً . ووقعت احداث بعيداً عن الحارة ذاتها . فقد التقى بائعان في بيت القاضي ، احدهما من جبل والاخر من قاسم ، فاشتبكا في معركة حامية فقد فيها القاسمي اسنانه والجبلي عينا . وفي حمام السلطان نشبت معركة اخرى بين نسوة من جبل ورفاعة وقاسم وهن عرايا في المغطس فانفرست الاظافر في الحدود والأسنان في السواعد والبطون والأيدي في الضفائر ، وتنطابرت الاكواز وأحجار الحلك والياف التدليك وقطع الصابون ، وانجالت المعركة عن اغماء امرأتين واجهاض ثلاثة وبض أجساد لا حصر لها بالدم . وعند ظهيرة اليوم نفسه ، عقب عودة المتعاركات تباعاً الى الحارة ، استؤنفت المعركة من جديد من فوق الاسطح ، واستعمل فيها الطوب والسباب الفاحش ، وسرعان ما امتلأت سماء الحارة بالقذائف وارتفع صراخها الى السحاب . واذا برسول من قبل الناظر يتسلل خفية الى يوسف فتوة جبسل ويدعوه الى مقابلة الناظر . وحرص الفتوة على ان يقابل الناظر دون ان يدري به أحد . واستقبله الناظر بلطف وطلب اليه ان يعمل على تهدئة الخواطر في حيتّه وبخاصة ان ذلك الحى هو التالي

موقعه لبيت الناظر . وعندما صافحه مودعاً قال له إنه يتمنى ان يستقبله في المرة الآتية وهو فتوة الحارة كلها ا وخرج الرجل من بيت الناظر ثملاً بتأييده الصريح له ، وآمن بأن الفتونة باتت في متناول يديه . وما لبث ان ألزم حيةً بالنظام . وتهامس الناس في حيه بما يدخره الغد لهم من سيادة وجاه . وتسربت من حيهم الأنباء الى بقية الحارة فهاجت الخواطر . ولم تمض أيام بعد ذلك حتى تقابل عجاج والسنتوري سرّاً فانفقا فيما بينهما على القضاء على يوسف من ناحية ، ثم على الاقتراع على الفتونة بعد النصر من ناحية أخرى . وعند فجر اليوم التالي تجمع الرجال من آل قاسم ورفاعة فهاجموا حي جبل ، فدارت معركة شديدة ، لكن يوسف وكثرة من اتباعه قتلوا وهرب الباقون ، وأذعن آل جبل للقوة يائسين . وحدد العصر لاجراء القرعة المتفق عليها . وعند المسير مرع القاسمية والرفاعية رجالاً ونساء الى رأس الحارة امام البيت الكبير ، وامتدت جموعهم جنوباً حتى بيت الناظر وشمالاً حتى بيت الفتوة الذي سيصبح ملكاً للفائز بالقرعة . وجاء السنتوري وعصابته كما جاء عجاج وعصابته فتبادلوا تحيات السلام والتعاهد . وتعانق عجاج والسنتوري امام الجميع ، وقال عجاج بصوت سمعه جميع المتطعين :

— انا وانت أخوان ، وسنبقى أخوين في جميع الأحوال .

فقال السنتوري بحماس :

— على الدوام يا سيد الجلعان !

وقف الحيّان متقابلين ، يفصل بينهما فراغ أمام مدخل البيت الكبير . وجاء رجلان — أحدهما من قاسم والآخر من رفاعة — بمقطف مليء بالقراطيس فوضعا وسط الفراغ ثم تقهقر كل الى قومه . وأعلن على الجميع ان القادم هو رمز عجاج وان الساطور هو رمز السنتوري ، وانه وضعت نماذج مصغرة منها في القراطيس مناصفة . وجيء بغلام ليأخذ — وهو معصوب العينين — من المقطف قرطاساً . مدّ الغلام يده في

صمت متوتر ثم استردها بقرطاس . فتحه وهو ما يزال معصوب العينين
وتناول ما فيه ورفع به يده فهتف القاسمية :
— الساطور .. الساطور .

مد السنطوري الى عجاج يده فتناولها الآخر وشد عليها باسماء . وتعالى
هتاف حار :

— يعيش السنطوري فتوة حارتنا .

ومن صفوف الرفاعية تقدم رجل الى السنطوري مفتوح الذراعين ، ففتح
له السنطوري ذراعيه ليعانقه ، لكن الآخر طعنه بسكين في قلبه بمنتهى القوة
والسرعة . سقط السنطوري على وجهه قتيلًا . سيطر الذهول لحظة ثم
انفجر الصياح والوعيد والغضب . وتلاقى الحيان في معركة دامية قاسية . لكن
لم يكن يوجد في القاسمية من يستطيع الوقوف امام عجاج ، فسرعان ما
نفذت الى قلوبهم الهزيمة ، وسقط من سقط ، وجرى من جرى ، ولم
يجيء المساء حتى كانت الفتوة قد تقررت لعجاج . وبينما ضج حي قاسم
بالعويل ، انطلقت الزغاريد من حي رفاعية ، وراحوا يرقصون في الطريق
حول فتوتهم — فتوة الحارة — عجاج . وإذا بصوت يرتفع فوق
الزغاريد صائحًا :

— هس ، اسمعوا ! اسمعوا يا غم !

تطلعوا في عجب الى مصدر الصوت فرأوا يونس بواب الناظر يسير
بين يدي الناظر نفسه الذي جعل يتقدم في هالة من خدمه . مضى عجاج
تجو موكب الناظر وهو يقول :

— محسوبك عجاج فتوة الحارة وخادمكم !

حدجته الناظر بنظرة ازدراء وقال في الصمت الرهيب الذي غشي

الحارة جميعًا :

— يا عجاج ، لا أريد في الحارة فتوة ولا فتوة !

ذهل رجال رفاعية ، وماتت على شفاههم بسمات الظفر والطرب ،
وتساءل عجاج في دهشة :

— ماذا يقصد حضرة الناظر ؟ !

فقال الناظر بقوة ووضوح :

— لا نريد فتوة ولا فتوة ، دعوا الحارة تعيش في أمان .

فهتف عجاج ساخراً :

— أمان ! ؟

فسدد الناظر نحوه نظرة قاسية لكن الآخر تساءل في تحد :

— ومنذا يحملك أنت ؟ !

وإذا بالقوارير تنهال من ايدي الخدم على عجاج وأعوانه ، ودوي الانفجارات يزلزل الجدران ، وشظايا الزجاج والرمال تصيب الوجوه والاطراف وتفجر الدماء . وانقض الفزع على النفوس كما تنقض الحداى على الفراخ ، فطاشت العقول وسابت المفاصل . وسقط عجاج وأعوانه فأجهز الخدم عليهم . وتعالى الصوات في حي رفاعه ، وزغاريد الشمانة في جبل وقاسم . وتوسط يونس الحارة داعياً الجميع الى الانصات حتى ساد الصمت ، ثم صاح قائلاً :

— يا أولاد حارتنا ، جاءكم السعد والأمان بفضل حضرة الناظر أطال الله بقاءه ، فلا فتوة يذلكم او يغتال أموالكم بعد اليوم .
وارتفعت اصوات الهتاء الى السماء .

١٠٨

انتقل عرفة وأسرته ليل من بדרوم حي الرفاعية الى بيت الفتوة على يمين البيت الكبير . بذلك أمر الناظر وليس لأمره رد . وجدوا أنفسهم في مأوى كالحلم . وراحوا يطوفون بالحديقة الغناء والمنظرة الأنيقة ، والسلامك ، والبهو ، الى غرف النوم والجلوس والسفرة في الدور الثاني والسطح وما يزدحم بمجدرانه وأركانه من بيوت الدجاج وبلاليص الارانب وأعشاش الحمام . ارتدوا لأول مرة ملابس فاخرة وتنفسوا هواء نقياً ،

ونشتموا روائح ركية . وراح عرفة يقول .
 - صورة صغرى من البيت الكبير ولكن بلا أسرار ؟
 فتساءل حنش :
 - وسحرك ؟ ألا يعد من الأسرار .
 ولاح الدهول في عيني عواطف وهي تقول :
 - لا يحلم أحد بشيء كهذا .
 وتغير الثلاثة منظرًا ولونًا ورائحة . ولكن لم يكد يستقر بهم المقام
 حتى جاءهم جمع من الرجال ومن النساء ، قال أولهم إنه البواب وثانيهم
 الطادي وثالثهم البستاني ورابعهم مربى الطيور والأخريات للدار ، فعجب
 عرفة لهم وسألهم :
 - من أذن لكم بالمجيء ؟
 فقال البواب انابة عنهم :
 - حضرة الناظر .
 وسرعان ما دعي عرفة الى مقابلة الناظر فذهب من فوره . ولما
 جلسا جنباً الى جنب فوق الايوان بالبهو قال قدرى :
 - سنقابل كثيراً يا عرفة فلا يزعجك استدعائي لك .
 الحق قد أقلقك المكان والمجلس والرجل لكنه قال ببشاشة :
 - سيدي الخير والبركة !
 - سحرك أصل الخير كله ، ترى هل أعجبتك الدار ؟
 فقال عرفة في حياء :
 - هي فوق الأحلام ، وبخاصة أحلام قوم فقراء مثلنا ، واليوم جاءنا
 الخدم اشكالاً والواناً !
 فتفرس الناظر في وجهه وهو يقول :
 - هم من رجالي أرسلتهم اليك ليعدموك وليحموك !
 - بحسبوني !
 فقال قدرى وهو يضحك :

- نعم ، ألا تعلم ان الحارة لا حديث لها إلا انتقالك الى بيت الفتوة ؟
ويقولون فيما بينهم / هو هو صاحب القوارير السحرية ، وأهل الفتوات
موتورون كما تعلم ، والآخرون يموتون خسداً ، لذلك كله فأنت في
خطر محيط ، ونصيحتي اليك ألا تأمن أحداً او تسير بمفردك او تبعد
عن دارك !

تجهم وجهه . ما هو الا سجين يحيط به الغضب والمقت . واستدرك
قدري قائلاً :

- لكن لا تخف فان رجالي حولك ، واستمتع بالحياة ما شئت في
بيتك وفي بيتي ، ماذا تخسر وراء ذلك الا الخلاء والحرائب ؟ ولا تنس
ان اهل حارتنا يقولون ان سعد الله قتل بالسلاح الذي قتل به عجاج ،
وان الوسيلة التي تسلل منها القاتل الى بيت سعد الله هي نفس الوسيلة
التي تسلل منها الى البيت الكبير من قبل ، فقاتل عجاج وسعد الله
والجلاوي شخص واحد هو عرفة الساحر .
فهتف عرفة متشجعاً :

- هذه لعنة مطلقة على .. .

فقال الناظر في هدوء :

- لا تخف ما دمت في كنفني ومن حولك خدمي .

أبها اللئيم الذي أوقعني في سجنه ، ما أردت السحر الا للقضاء عليك
لا لخدمتك ، واليوم يمقتني من أحبه وأود خلاصهم ولعلي أقتل بيد
أحدهم . وقال برجاء :

- وزع أنصبة الفتوات على الناس يرضوا عنك وعنا !

فضحك قدري هازئاً ثم تساءل :

- ولم اذن كان القضاء على الفتوات ؟

وأردف وهو يتفحصه بقسوة :

- انك تتلمس سبيلاً الى رضاهم ! دعك من هذا ، وتعود مثلي

على مقت الآخرين لك ، ولا تنس ان ملاذك الحق هو رضي عنك .

فقال في قنوط :

— كنت وما زلت في خدمتك !

ورفع الناظر رأسه نحو السقف كأنما يتسلى بتأمل زخارفه ، ثم اعاد رأسه اليه قائلاً :

— أرجو الا بلهيك متاع الحياة الجديدة عن سحرك !

فهز رأسه بالاجاب فقال الرجل :

— وأن تكثر ما استطعت من القوارير السحرية !

فقال عرفة بحذر :

— لست بحاجة الى اكثر مما لدينا منها .

فدارى الآخر حنقه بإبتسامة وقال :

— اليس من الحكمة ان ندخل منها عدداً موفوراً ؟

لم يجب . ودهمه بأس . وتساءل هل جاء دوره هكذا سريعاً ؟
وسأله بغتة :

— سيدي الناظر ، اذا كان مقامي يضايقك فاسمح لي بالذهاب الى
غير عودة .

فتظاهر الرجل بالانزعاج وتساءل :

— ماذا قلت يا رجل ؟

فقال وهو يواجهه بنظره صريحة :

— أنا أعلم أن حياتي رهن بحاجتك اليّ .

فضحك الرجل ضحكة لا مرجح فيها ثم قال :

— لا تظنني أستهين بذكائك ، وأعترف لك بسلامة تفكيرك ، لكن

كيف توهمت ان حاجتي اليك تقف عند القوارير ؟ أليس في وسع

سحرك ان يصنع أعاجيب أخرى ؟

لكن عرفة واصل حديثه الأول قائلاً بحفاء :

— رجالك هم الذين اذاعوا سر ما قدمت لك من خدمات ، لست

أشك في ذلك ، لكن يجب ان تذكر كذلك ان حياتك في حاجة الى ...
قطب الناظر متوعداً لكن عرفة قال دون تردد :

— أنت اليوم لا فتوات لك ، ولا قوة عندك الا بالقوارير ، وما
لديك منها لا يغني عنك شيئاً ، فاذا مت أنا اليوم تبعني غداً او بعد غد .
مال الناظر عليه كالوحش فجأة فطوق عنقه بيديه وشد عليه حتى
ارتعد جسمه . لكنه سرعان ما خفف من قبضتيه ، ثم سحبها ، ثم
ابسم ابتسامة مقيته وقال :

— أنظر ما كانت ستدفعني اليه سلاطة لسانك ! بينما لا توجد لدينا
دواعي للخصومة ، وفي وسعنا ان نستمتع بالنصر وبالحياة في سلام .
تنفس عرفة بعمق ليسترد روحه المذعورة على حين واصل الآخر
حديثه قائلاً :

— لا تخف على حياتك مني ، فسأحرص عليها حرصي على الحياة
نفسها ، تمتع بالدنيا ولا تنس سحرك الذي يجب ان ننجي أزاهر ثماره ،
واعلم بأن من يغدر منا بصاحبه فقد غدر بنفسه !

تجهم وجهها عواطف وحش وهو يعيد على مسمعيها ذلك الحديث
في البيت الجسديد . وبدا أن ثلاثتهم تعوزهم الطمأنينة الحققة في ظل
حياتهم الجديدة . لكنهم تناسوا أسباب قلقهم عند العشاء حول مائدة
حفلة بما لذ وطاب من طعام شهوي ونبيل معتق . ولأول مرة ارتفع
صوت عرفة وهو يضحك واهتز جذع حنش وهو يقهقه . ومضيا في
حياتهما كما شاءت الظروف . كانا يعملان معاً في حجرة وراء البهو
أعداهما للسحر . ودأب عرفة على تسجيل الرموز التي اصطلمها عليها في
كراسة لم يعلم بها سواهما احد . ومرة قال له حنش في اثناء العمل :

— يا لنا من سجناء !

فقال له محذراً :

— أخفض من صوتك فان للحيطان آذاناً

مد حنش بصره نحو الباب في حقد ثم عاد يقول فيها يشبه الممس :
- أليس من الممكن ان تصنع سلاحاً جديداً تقضي به عليه من
حيث لا يدري ؟
فقال عرفة بامتعاض :

- لن يتاح لنا ان نجربه سرّاً بين هؤلاء الخدم ، فهو لن يخفي عليه
شيء من أمورنا ، وإذا قضينا عليه قضى علينا الموتورون من أهل
حارتنا قبل ان تدافع عن أنفسنا حيالهم !
- لماذا تعمل إذن بهذا الجحد كله ؟
فتنهّد قائلاً :

- لأنه ليس لي الا ان أعمل .

وكان يذهب عند الأصيل الى بيت الناظر فيجالس به ويشاربه ، ثم
يعود ليلاً الى داره فيجد حنش قد هبأ له الحديقة او الشريبة غرزة
صغيرة فيحششان معاً . ولم يكن معدوداً في الحشاشين من قبل ، ولكن
التيار جرفته . وطارده الملل . وحتي عواطفه أخذت تتلقن تلك الأشياء .
كان عليهم ان ينسوا الملل والخوف واليأس واحساساً مخزناً بالذنب ،
كما كان عليهم ان ينسوا آمال الماضي العريضة . ورغم ذلك فقد كان
للرجلين عمل . اما عواطف فما كان لها من عمل . كانت تأكل حتى تنخم ،
وتنسام حتى تمل الرقاد ، وتقضي الساعات الطويلة في الحديقة مستمتعة
بشئ ألوان جلالها . وذكرت انها باتت تنعم بالحياة التي تحسّر عليها أدهم .
ما أثقلها من حياة . وكيف تعد مطلباً تذهب النفس حسرات عليه !
لعلها كانت تكون كذلك لو لم تكن سجناء ولم يكن ما يحيط بها عداوة
وبغضاء . لكنها ستلبث سجناء مطوقاً بالكراهية ، ولا مهرب منه الا
حول المجرمة ! ومرة تأخر عرفة في بيت الناظر فخطر لها ان تنتظره
في الحديقة . وتقدمت قافلة الليل وراء حادي القمر وهي جالسة تصغي
الى انعام الفصون ونقيق الضفادع . وانتهت الى صوت الباب وهو يفتح

فاستعدت للغاء القادم ، غير ان حفيف ثوب قادماً من ناحية البدروم
لفت سمعها ، ثم رأت من موقفها شبح خادمة على ضوء القمر مضت
نحو الباب دون ان تدري بها . وتقدم عرفة كالمترنح فانتحت الخادمة
ناحية الجدار الممتد من السلامك فلحق بها ، ثم رأتهما يلتحجان وقد
اختفاهما ظل الجدار من ضوء القمر ..

١٠٩

انفجرت عواطف كما ينبغي لامرأة من حارة الجبلأوي . انقضت على
الكائن المتلاحم كاللبوة فهوت بقبضتها على رأس عرفة فتراجع ذاهلاً
مترنحاً حتى اختل توازنه فوق ، ثم أنشبت أظافرها في عنق الخادمة
وانهالت على رأسها نطحاً حتى مزق صراخها سكون الليل . وقام عرفة
من سقطته لكنه لم يجرؤ على الدنو من المعركة . وجاء حنش مهرولاً
وفي اعقابه عدد من الخدم ، فلما عرف الموقف على حقيقته صرف
الخدم ، وختاص بين المرأتين بكياسة ولباقة حتى استطاع ان يعود
بعواطف الى البيت وهي تقذف بسيل من السباب والشتائم واللعنات .
ومضى عرفة مترنحاً الى المشربية المطلّة على الخلاء وارتمى على شلّة
وحيداً في الغرزة ، ثم مد ساقيه وأسند رأسه الى جدار وهو في شبه
غيوبة . ولحق به حنش بعد فترة قصيرة فاتخذ مجلسه امامه حول المجرمة
صامتاً ، ورمقه بنظرة سريعة ثم عاد ينظر الا الأرض حتى قطع
الصمت قائلاً :

- كان لا بد للفضيحة ان تقع .

فرفع اليه عينين خجلتين وقال ممعناً في الهرب :

- أشعل النار !

ولبثا في المشربية حتى قبيل الصباح . وذهبت الخادمة فحلت محلها
أخرى . وبدأ لعواطف أن ذلك الجو المحيط بها يغري بزلة بعد

أترى . وأخذت تؤول كل حركة تصدر عن زوجها تأويلاً سيئاً
يناسب مع ارتيابها حتى انقلبت الحياة جحيماً . وفقدت العزاء الوحيد
الذي كانت تتسلى به في سجنها المليء بالمخاوف . فلا البيت بينها ولا
الزوج زوجها . سجن بالنهار وماخور بالليل . وأين عرفة الذي أحبته ؟
عرفة الذي تحدى بالزواج منها السنطوري ، والذي عرض نفسه للهلاك
مرات في سبيل الحارة حتى ظننته رجلاً من رجال الرباب ، ما هو اليوم إلا
وغد مثل قدري ومثلاً كان سعد الله . والحياة الى جانبه عذاب مشعل
وخوف مؤرق . وعاد عرفة ليلة من بيت الناظر فلم يجد لمواطف أثراً .
وشهد البواب بأنه رآها تغادر البيت أول الليل ثم لم تعد . ونساء عرفة
ورائحة الخمر تتطاير مع أنفاسه :

— أين ذهبت يا ترى ؟

فقال حنش باشفاق :

— ان تكن في الحارة فهي عند جاريتها القديمة أم زنفل بائعة المفتقة .

فقال عرفة غاضباً :

— المرأة لا تؤخذ باللين ، هذه حكمة أهل حارتنا ، فلأهلها حتى

تعود بنفسها ذليلة !

لكنها لم ترجع ، وانقضت عشرة أيام ، فقرر عرفة ان يذهب ليلاً
الى أم زنفل متوخياً الا يشعر بذهابه أحد . وفي الميعاد المضروب تسلك
من البيت متبوعاً بحنش . وما كادا يقطعان خطوات حتى سمعا اقداماً
تبعهما فالتفتا وراءهما فرأيا خادمين من خدم البيت ، فقال عرفة لهما :
— إرجعا الى البيت .

فأجابه أحدهما :

— نحن نحرسك بأمر حضرة الناظر .

تميز غيظاً لكنه لم يعقب . وساروا نحو ربع قديم في حي قاسم ،
وصعدوا الى طابقه الأخير حيث توجد حجرة أم زنفل . طرق عرفة

الباب مرات حتى فتح عن عواطف نفسها بوجهه يعلوه الناس .
تبينت وجهه على ضوء مصباح صغير بيدها قطبت متراجعة ، فتبعها راد
وراءه الباب . واستيقظت أم زنفل في ركن الحجرة وراحت تنظر بذهول
نحو القادم . اما عواطف فقالت بحدة :

— ماذا جاء بك ؟ ماذا تريد ؟ إرجع الى بيتك المبارك عليك .
وهمست أم زنفل بانزعاج وهي تحديق في وجهه :
— عرفة الساحر !

وقال عرفة لزوجه دون ان يلقي بالاً الى المرأة المتزعجة :

— اعقلي وتعالى معي .

فقالت بالحدة نفسها :

— لن أعود الى سجنك ، ولن أفرط في راحة البال التي أجدها في
هذه الحجرة .

— لكنك زوجتي .

فارتفع صوتها وهي تقول :

— زوجاتك هناك بالخير والبركة !

وقالت أم زنفل في نبرة احتجاج :

— اتركها لنومها وُعد في الصباح .

فرماها بنظرة قاسية دون ان يوجه لها كلمة واحدة ثم نظر الى
زوجته قائلاً :

— كل رجل وله زلة !

فهتفت :

— أنت نفسك زلة ولا كل الزلات .

فقال نحوها قليلاً وقال محركاً الحان الرقة في أوتار صوته :

— عواطف . أنا لا يمكن أن استغني عنك .

— لكني أنا استغنيت !

فتساءل بامتعاض :

— ببيعيني لفلطة أفلتت وأنا سكران ؟

فهمت بتشنيج :

— لا تعتذر بالسكر ، حياتك كلها أخطاء ، وستحتاج الى عشرات الأعدار لتبررها ، ولن أجي من ورائها إلا المتاعب والعذاب .

— هي على أي حال أفضل من الحياة في هذه الحجرة !

فابتسمت ابتسامة مريرة ساخرة ونساءلت :

— من يدري ؟ خبرني كيف تركك السجنانون لتجيء إلي ؟

— عواطف !

فقالت باصرار :

— لن أعود الى بيت لا عمل لي فيه الا التناوب ومعاشرة عشيقات

زوجي الساحر العظيم .

وعبثاً حاول ان يثنيها عن اصرارها . قابلت لينه بالعناد ، وغضبه

بالغضب ، وسبه بالسب ، فارتد عنها يائساً ، ثم غادر المكان متبوعاً

بصاحبه والخادمين . وسأله حنش :

— ماذا أنت فاعل ؟

فقال بامتعاض وفتور :

— ما فعله كل يوم .

وسأله قدرى الناظر :

— هل من جديد عن زوجك ؟

فأجاب وهو يتخذ مجلسه الى جانبه :

— عنيدة كالبلبل ربنا يحفظ مقامك !

فقال الناظر باستهانة :

— لا تشغل بالك بامرأة عندك خير منها !

وجعل يتفحص عرفة باهتمام ، ثم سأله :

- هل تعرف امرأتك شيئاً من اسرار عملك ؟
- فبادره عرفة بنظرة مريبة ثم قال :
- السحر لا يعرفه الا ساحر !
- أخشى أن...
- لا تخش شيئاً لا ظل له من الوجود .
- وامتد الصمت ثواني فعاد يقول في جزع :
- لن تمتد لها يد بسوء وأنا على قيد الحياة !
- فكظم الناظر غيظه ، وابتم ، وأشار الى الكأسين المترعتين داعياً وهو يقول :
- من قال إن بدأ ستمتد إليها بسوء ؟

١١٠

ولما توثقت الألفة بين قدري وعرفة ، جعل يدعوها الى سهراته الخاصة التي تبدأ عادة عند منتصف الليل . شهد عرفة سهرة عجيبة في البهو الكبير ، حفلت بكل ما لذ وطاب من مأكول ومشرب ، ورقصت فيها نساء جميلات وهن عرايا حتى كاد عرفة يجن من الشراب والمنظر . في تلك السهرة رأى عرفة الناظر يعربد بلا حدود ، مثل وحش مجنون . ودعاه الى سهرة في الخديقة ، في خيلة يحرق بها مجرى ماء مضاء الوجه بنور القمر . وكان بين أيديهما فاكهة ونبيذ ، وأمامهما مليحتان احدهما لخدمة المجرمة والأخرى لخدمة الجوزة . وهب نسيم الليل يحمل عرف الازهار ونغم عود واصوات تغني :

يا عود قرنفل في الجنينة مننع
يعجب الجدعان الحشاشة المجدع
كانت ليلة بدرية يلوح قرها مكتملاً اذا مال غصن التوت الريسان
مع النسيم ، أو يبدو أعيناً من الضياء خلل شبكة من الأغصان والأوراق

إذا رجع الفصن الى مستقره . وسرت من يد المليحة والجميزة نشوة الى رأس عرفة فدار مع الأفلاك ، وقال :

— رحم الله أدهم .

فقال الناظر باسمًا :

— ورحم الله لإدريس ، ماذا ذكرك به ؟

— مجلسنا هذا !

— كان أدهم يحب الأحلام ، ولا يعرف منها الا ما أدخله الجبلوي

في رأسه .

ثم وهو يضحك :

— الجبلوي الذي أرحته أنت من عذاب الكبر !

انقبض قلب عرفة وانطفأت نشوته فغمغم محزونًا :

— لم أقتل في حياتي الا فتوة مجرمًا .

— وخادم الجبلوي ؟

— على رغي قتلته .

فقال قدري هازئًا :

— أنت جبان يا عرفة .

فهرب الى القمر ينظر اليه خلل الفصون تاركًا الغرزة لانغام العود ، ثم جعل يسترق النظر الى يد المليحة وهي ترص الحجر . واذا بالناظر

سهتف به :

— أين انت يا ابن المدهول !

فالتفت نحوه باسمًا وهو يسأل :

— أنسهر وحدك يا حضرة الناظر ؟

— لا أحد هنا يليق بمساهرتي .

— وحتى انا لا سمير لي إلا حنن !

فقال قدري باستهانة :

- عند درجة من السطول لا يهملك ان تكون وحدك .
تردد عرفة قليلاً ثم تساءل :
- ألسنا في سجن يا حضرة الناظر ؟
فقال الآخر بحدة :
- ماذا تريد ما دمنا مطوقين بأناس يمتقوننا !
وذكر كلمات عواطف وكيف فضلت مسكن أم زنفل على بيته ،
فقال متنهداً :
- يا لها من لعنة ..
- احذر ان تفسد علينا صفونا .
فتناول الجوزة وهو يقول :
- لتصف الحياة الى الأبد .
فضحك قدرى قائلاً :
- الى الأبد ؟ حسبنا ان نضمن نفحة من نفحات الشياح مدى
عمرنا بفضل سحرك !
فلأ صدره من عبر الحديقة المتطيب بنداوة الليل العميق ثم قال :
- من حسن الحظ ان عرفة لا يخلو من فوائد !
ترك الناظر الجوزة ليد المليحة وهو يزفر دخاناً كثيفاً بدا مفضضاً
في ضوء القمر ثم قال بحسرة :
- لم يدركنا الهرم ؟ ألد الطعام نأكله وأبهج الشراب نشربه وأطيب
العيش نهنا به لكن المشيب يزحف في اوانه لا يرده شيء كأنه الشمس
او القمر .
- لكن اقراص عرفة تحبل برودة الشيخوخة حرارة !
- ثمة شيء تقف أمامه عاجزاً !
- ما هو يا سيدي ؟
بدا الناظر حزيناً في ضوء القمر ، وتساءل :

- ما ابفض الأشياء الى قلبك ؟
لعله السجن الذي وضع فيه ، لعلها الكراهية المحدثه به ، لعله
الهدف الذي تنكب عنه . لكنه قال :
- ضباغ الشباب !
— كلا ، لا خوف عليك من ذلك .
— كيف وزوجي غاضبة ؟
— سيجلدن دائماً سيئاً او آخر للفضب .
واشده هبوب النسيم مرة فارتفع حفيف الفصون وتوهجت الحمرات
في المجرمة . وتساءل قلدي :
- لماذا نموت يا عرفة ؟
فرمقه بكآبة ولم ينبس فأردف الآخر :
- حتى الجبللاوي مات .
كان ابرة انغرزت في قلبه ، لكنه قال :
- كلنا أموات وأبناء أموات .
فقال في ضجر :
- لست في حاجة الى تذكيري بما قلت .
— ليطل عمرك يا سيدي .
— طال او قصر فالنهاية هي تلك الحفرة التي تعشقها الديدان .
فقال عرفة برقة :
- لا تدع الأفكار تكدر صثوك .
— انها لا تفارقني ، الموت .. الموت .. دائماً الموت ، يجيء في أية
لحظة ، ولأنفه الأسباب ، أو بلا سبب على الاطلاق ، أين الجبللاوي ؟
أين الذين تنغني بأعمالهم الرباب ؟ هذا قضاء ما كان ينبغي ان يكون .
رسلظه عرفة فرأى وجهه شاحباً وعينيه تنطقان بالفزع ، فبدا التناقض
صارخاً بين حاله وبين مجلسه ، فداخله قلق وقال برقة :

- المهم ان تكون الحياة كما ينبغي .
 فلوّح بيده غاضباً وقال بحدة نعت الصفو نعيّاً :
 - الحياة كما ينبغي وأحسن ، لا ينقصها شيء ، حتى الشباب تعيده
 الأقراص ، ولكن ما جدوى ذلك كله والموت يتبعنا كالظل ؟ كيف
 انساه وهو يذكرني بنفسه كل ساعة ؟
 سر لعذابه ، لكنه سرعان ما سخر من مشاعره ، وتابع يد الحسناء
 بشوق وحنان ، وتساءل في سره منذا يضمن لي أن أرى القمر ليلة
 أخرى ، ثم قال :
 - لعلنا في حاجة الى مزيد من الشراب !
 - سنفيق في الصباح .
 وجد نحوه ازدراء . وظن ان ثمة فرصة متاحة فأراد ان يخطفها فقال :
 - لولا حسد المحرومين من حولنا لتغير مذاق الحياة في افواهنا !
 فضحك الناظر ضحكة ساخرة وقال :
 - قول بالعجائز أجدر ! هبنا استطعنا ان نرفع حياة أهل حارتنا
 الى مستوى حياتنا فهل يقلع الموت عن اضطيادنا ؟
 فهز عرفة رأسه في تسليم حتى خفت حدة الرجل ثم قال :
 - الموت يكثر حيث يكثر الفقر والتعاسة وسوء الحال .
 - وحيث لا يوجد منها شيء يا أحمق .
 فقال وهو ييسم :
 - نعم ، لأنه معد مثل بعض الامراض !
 فضحك الناظر قائلاً :
 - هذا أغرب رأي تدافع به عن عجزك .
 فقال متشجعاً بضحكة :
 - نحن لا ندري عنه شيئاً فلعلله أن يكون كذلك ، واذا حسنت
 احوال الناس قل شره ، فازدادت الحياة قيمة وشعر كل سعيد بضرورة

- مكافحته حرصاً على الحياة السعيدة المتاحة .
- ولن يجدي ذلك قتيلًا .
- بل سيجمع الناس السحرة ليتوفروا لمقاومة الموت ، بل سيعمل بالسحر كل قادر ، هنالك يهدد الموتُ الموت .
- وندت عن الناظر ضحكة عالية ، ثم أغضض عينيهِ مستسلماً للحلم . وتناول عرفة الجوزة وشدّ نفساً طويلاً حتى اشتعل الحجر . وعاد العود بعد انقطاع يترنم وغنى الصوت الحنون « طول يا ليل ، فقال قدري :
- أنت حشاش يا عرفة لا ساحر .
- فقال عرفة ببساطة :
- بذلك نقتل الموت .
- لم لا تعمل انت وحدك ؟
- اني اعمل كل يوم ولكن ما اعجزني وحدي أمامه .
- واستمع الناظر الى الغناء ملياً دون حماس ثم سأله :
- آه لو تنجح يا عرفة ! اي شيء تفعله لو نجحت ؟ !
- فقال وكأنما أفلت منه القول :
- أردّ الى الحياة الجبلأوي .
- فلوى الرجل شفتيه بفتور وقال :
- هذا شأن يعينك بصفتك قاتله !
- فقطب عرفة متألاً وغغم بصوت غير مسموع :
- آه لو تنجح يا عرفة !

١١١

وعند الفجر غادر عرفة بيت الناظر . كان من السّطل في عالم مسحور غائم المسموعات والمراثيات ولا تكاد تحمله قدماه . مضى ناحية بيته في

حارة غارقة في النوم مفروشة الأديم بضوء القمر . وعند منتصف المسافة
بين بيت الناظر وبيته - امام باب البيت الكبير - اعترضه شبح لم بدر
من أين أتى ، وقال له فيها يشبه الهمس :

- صباح الخير يا معلم عرفة !

دهمه خوف لعله من المفاجأة انبعث ، لكنّ تابعيه انقضا على الشبح
وأمسكا به ، وتفرس فيه فوضح لعينيه رغم ذهولها انه شبح امرأة سوداء
مرتدية جلباباً أسود يلفها من العنق حتى القدمين . أمر خادميه ان يتركها
فتركها ثم سألها :

- مالك يا وليّة ؟

فقالت بصوت اكد انها سوداء :

- أريد ان احديثك على انفراد .

- له ؟

- مكروبة تشكو اليك كربها !

فقال بضمجر وهو يهم بالذهاب :

- الله يحن عليك .

فقالت بضراعة نافذة :

- وحياة جدك الغالي ألا ما سمحت لي .

فحلجها بنظرة غاضبة لكنه لم يحول عن وجهها عينيه ! تساءل أين
ومتى رأى ذلك الوجه ! وإذا بقلبه يخفق خفقة أطارات السطل من
رأسه . هذا الوجه الذي رآه على عتبة حجرة الجبلأوي وهو مخنف وراء
المقعد في الليلة المشثومة ! وهذه هي خادمة الجبلأوي التي كانت تشاركه
حجرته ! وركبه خوف تخالخت له مفاصله فحملق في وجهها فرعاً .
وسأله أحد الخادمين :

- نظردما ؟

فخاطبها قائلاً .

— اذهبا الى باب البيت وانتظرا .
انتظر حتى ذهبا ، فخلا لها المكان أمام البيت الكبير ، وراح يتفردس
في وجهها الأسود الناحل وجبينها الضيق العالي وذقنها المدبب والتجاعيد
المحدقة بغيها وجبينها . وقال يطمئن نفسه لأنها من المؤكد لم تره تلك
الليلة ، ولكن أين كانت منذ وفاة الجبلأوي وماذا جاء بها ؟ وسألها :

— نعم يا ستي ؟

فقالت بهدوء :

— لا شكوى لي ، وإنما أردت ان أدخل اليك لأنفذ وصية !

— أية وصية ؟

فقال رأسها نحوه قليلاً وهي تقول :

— كنت خادمة الجبلأوي وقد مات بين يدي !

— أنت !

— نعم أنا فصدقني .

ولم يكن في حاجة الى دليل فسألها بصوت مضطرب :

— كيف مات جدنا ؟

فقالت المرأة بنبرة حزينة :

— اشتد به التأثير عقب اكتشاف جثة خادمة ، وبغته احتضر فسارعت

اليه لأسند ظهره المختلج ! ذلك الجبار الذي دان له الخلاء !

زفر عرفة بصوت حار كدر سكون الليل ، وانخفض رأسه في حزن

كأنما يداريه عن ضوء القمر ، وإذا بالمرأة ترجع الى حديثها الأول

قائلة :

— جئتلك تنفيذاً لوصيته .

فرفع رأسه اليها مرتعشاً ، متسائلاً :

— ماذا عندك ؟ تكلمي .

فقالت بصوت هادئ كنور القمر :

- قال لي قبل صعود السر الالهي « اذهبي الى عرفة الساحر وأبلغيه عني
 ان جدّه مات وهو راض عنه » .
 فانقض عرفة كالملدوغ وهتف بها :
 - يا دجالة ! ماذا تمكرين ؟ !
 - سيدي ، حفظتك العناية .
 - خبريني اي لعبة تلعبين ؟
 فقالت ببراءة :
 - لا شيء غير ما قلت والله شيهدي .
 فسألها بارتياح :
 - ماذا تعرفين عن القاتل ؟
 - لا أدري شيئاً يا سيدي ، منذ وفاة سيدي وأنا طريحة الفراش ،
 وأول ما فعلت بعد شفائي ان قصدتك .
 - ماذا قال لك ؟
 - اذهبي الى عرفة الساحر وأبلغيه عني ان جدّه مات وهو راض عنه .
 فقال عرفة بتحدّ :
 - كاذبة ! انت تعرفين يا مأكرة انني .. (ثم مغيراً نبرته)
 كيف عرفت بمكاني !
 - سألت عنك أول ما جئت فقالوا لي إنك عند الناظر فليثت انتظر ..
 - ألم يقولوا لك إنني قاتل الجبللاوي !
 فقالت بارتياح :
 - ما قتل الجبللاوي أحد ! وما كان في وسع أحد ان يقتله .
 - بل قتله الذي قتل خادمه .
 فهتفت بغضب :
 - كذب وافتراء ، لقد مات الرجل بين يدي .
 وجد عرفة رغبة في البكاء لكنه لم يسفح دمعة واحدة ، ورنّا الى المراقفة .

بطرف منكسر فقالت ببساطة :

— افوتك بعافية .

فسألها بصوت غليظ متحشرج كأنه صوت ضميره المעذب :

— اتقسمين على انك صادقة فيما قلت ؟

فقالت بوضوح :

— أقسم بزبني وهو شهيد .

ومضت والوان الفجر تخضب الأفق فأتبعها ناظره حتى اختفت ثم ذهب . وفي حجرة نومه سقط مغشياً عليه . وأفاق بعد دقائق فوجد نفسه متعباً لحد الموت فنام ، لكن نومه لم يستمر أكثر من ساعتين ثم ايقظه القلق الباطني . ونادى حنش فجاءه الرجل ، فقص عليه قصة المرأة والآخر يحملني في وجهه كالمنزعج ، فلما فرغ من قصته ضحك حنش قائلاً :

— هنيئاً لك سطل الأمس .

فغضب عرفة وهتف به :

لم يكن ما رأيت سطلاً ، ولكن حقيقة لا شك فيها .

فقال حنش برجاء :

— نعم ، أنت في حاجة الى نوم عميق .

— ألا تصدقني ؟

— كلا طبعاً ، وإذا نمت كما أود واستيقظت بعد حين فلن تعود

الى هذه القصة .

— ولم لا تصدقني ؟

فضحك قائلاً :

— كنتُ في النافذة وأنت تغادر بيت الناظر فرأيتك، وأنت تقطع

عرض الحارة نحو بيتك ، وقفت قليلاً أمام باب البيت الكبير ثم واصلت

السبر يتبعك خادماك !

فوثب عرفة واقفاً وهو يقول بظفر

— إليّ بالخدامين .

فأشار حنش إليه محذراً ثم قال :

— كلا ، وإلا شكنا في عقلك .

فقال باصرار :

— ساستشهد بهما على مسمع منك .

فقال حنش متوسلاً :

— لم يبق لنا إلا شيء من الكرامة حيال الخدم فلا تبدده .

فلاححت في عيني عرفة نظرة جنونية ، وراح يقول ذاهلاً :

— لست مجنوناً ، وليس هو بالسلطان ! مات الجبلأوي وهو غني راض .

فقال حنش بعطف :

— فليكن ولكن لا تدع أحداً من الخدم .

— اذا وقعت كارثة فستقع أول ما تقع فوق رأسك .

فقال بحلم :

— لا سمح الله ، فلندع المرأة لتحدثنا بنفسها ، أين ذهبت ؟

فقطب متذكراً ، ثم قال باشفاق :

— نشيت ان أسألها عن مسكنها !

— لو كان حقيقة ما رأيت لما تركبتها تذهب !

فهتف عرفة باصرار :

— كان حقيقة ، لست مجنوناً ، وقد مات الجبلأوي وهو غني راض .

فقال حنش بعطف :

— لا تجهد نفسك فأنت في حاجة الى الراحة .

واقترب منه فربت رأسه ، وبجنون دفعه نحو الفراش ، وما زال به

حتى أرقده . أغمض الرجل عينيه اعياء ، وما لبث ان نام نوماً عميقاً .

قال عرفة بهدوء وتصميم :

— قررت ان أهرب .

فدهش حنش دهشة فوق ما يطبق حتى توقفت يداه عن العمل .
ونظر بحذر فيما حوله ، ورغم ان حجرة العمل كانت مغلقة الا انه بدا
خائفاً . ولم يكثر عرفة لدهشته ، ولم تكف يداه عن العمل ، وراح
يقول :

— هذا السجن لم يعد يمدني الا بافكار الموت ، وكأن الطرب والشراب
والراقصات ليست إلا الحسان الموت ، وكأنني أشم رائحة القبور في
أصص الأزهار .

فقال حنش بقلق :

— لكن الموت نفسه ينتظرنا في الحارة .

— سينهرب بعيداً عن الحارة .

ثم وهو ينظر في عيني حنش :

— وسنعود يوماً لنتنصر .

— اذا استطعنا الهرب !

— اطمأن لنا الأوغاد فلن يعجزنا الهرب .

وواصل العمل ملياً في صمت ، ثم تساءل عرفة :

— أليس هذا ما كنت تود ؟ !

فتنم حنش في حياء :

— كدت أنسى .. ولكن خبرني ما الذي دعاك اليوم الى هذا القرار ؟

— ابتسم عرفة وهو يقول :

— ان جدي أعلن رضاه عني رغم اقتحامي بيته وقتلي خادمه .

فعاودت الدهشة وجه حنش وهو يتساءل :

— أنغامر بحياتك لحلم رأيت في السّطل ؟
— سمع بما تشاء ، لكنني واثق من انه مات وهو عني إراض ، لم
يغضبه الاقتحام ولا القتل ، لكن لو اطاع على حياتي الراهنة لما وسعته
الدنيا غضباً .

ثم بصوت خافت :
— لذلك نبهني بلطف الى سابق رضاه !
فقال حنش وهو يهز رأسه عجباً :
— لم يكن من عادتك ان تتحدث عن جدنا باحترام .
— كان ذلك في الزمان الأول وأنا كثير الارتياب ، اما وقد مات
فحقّ للميت الاحترام .
— الله يرحمه .

— وهيهات ان انسى انني المنسب في موته ، لذلك فعلي ان أعيده
الى الحياة اذا استطعت ، وان تيسر لي النجاح فلن نعرف الموت .
فرمقه حنش بأسى وقال :
— لم يسهلك السحر حتى اليوم الا باقراص منشطة وقارورة مهلكة !
— نحن نعرف من اين يبدأ السحر لكن لا نستطيع ان نتخيل اين
ينتهي .

وأجال بصره في الحجرة قائلاً :
— مستلف كل شيء الا الكراسية يا حنش ، فهي كثر للاسرار ،
وسأجعلها فوق صدري ، ولن نجد الهرب عسيراً كما تتوهم .
ومضى عرفة كهاده مساء الى بيت الناظر . وقبل الفجر عاد الى
بيته . وجد حنش مستيقظاً في انتظاره فلبثا في حجرة النوم ساعة حتى
يعلّمثنا الى نوم الخدم . وتسلا معاً الى السلامك في خفة وحذر . وكان
شخير الخادم النائم في شرفة السلامك يتصاعد في انتظام ، فهبطا السلم ،
وانجها نحو الباب . ومال حنش الى فراش الباب فرفع يده هراوة

وهوى بها عليه لكنها أصابت جسماً قطنياً فارغاً وأحدثت صوتاً مزعجاً في سكون الليل . ثبت لها ان البواب ليس في فراشه . وخافا ان يكون الصوت قد ايقظ أحداً فلبثا وراء الباب بقلب خافق . ورفع عرفة المزلاج وفتح الباب على مهل ثم خرج وحش في اثره . وردا الباب وسارا لصق الجدران نحو ربيع أم زنفل يخترقان ظلمة صامتة . واعترضهما في منتصف الحارة كلب رابض فوقف مستطعاً ، وجرى نحوهما متشهماً ، وتبعهما خطوات ثم توقف وهو يتشاءب . ولما بلغا مدخل الربيع قال عرفة همساً :

— سنتظرنى هنا ، وإذا رابك شيء فصفر لي واهرب الى سوق المقطم .
دخل عرفة الربيع فاجتاز الدهليز الى السلم ورتى فيه حتى غرقة أم زنفل ، وتقر على الباب حتى سمع صوت زوجته وهي تسأل عن الطارق فقال بسرعة وحرارة :

— أنا عرفة ، افتحي يا عواطف .
ففتحت الباب فطالعه وجهها الشاحب من أثر النوم على ضوء مصباح صغير بيدها . قال مباشرة :
— أتبعيني ، سنهرب معاً .
وقفت تنظر اليه في ذهول على حين ظهرت وراء كتفها أم زنفل ، فقال :

— سنهرب من الحارة ، سنعود كما كنا ، اسرعى .
ترددت قليلاً ، ثم قالت بنبرة لم تحل من من غيظ :
— ما الذيذكرك بسي ؟
فقال بلهفة ولهوجة :

— دعي الملام لحينه فللدقيقة الآن ثمنها .
واذا بصغير حنش ينطلق وضجة تترامى فهتف في فرع :
— الكلاب ! ضاعت الفرصة يا عواطف .

وثب الى رأس السلم فرأى في فناء الربع أضواء وأشباحاً فارتدّ يائساً ،
وقالت عواطف :
- أدخل .

فقالت أم زنقل بخشونة دفاعاً عن نفسها .
- لا تدخل .

وما قائدة الدخول ؟ وأشار الى نافذة صغيرة بدهليز المسكن وسأل
زوجته بسرعة :
- علام تطل ؟
- المنور .

فاستخرج الكرامة من فوق صدره واندفع نحو النافذة منحياً عن
سبيله أم زنقل ، ثم رمى بها . وغادر المسكن مسرعاً فأغلق الباب
وراءه . وصعد درجات السلم القليلة المؤدية الى السطح ونبأ . أطل من
فوق السور على الحارة فرآها تعج بالاشباح والمشاغل . وترامت الى
أذنيه ضجة الصاعدين اليه . وجرى الى السور الملاصق للربع المجاور من
ناحية الجمالية فرأى اشباحاً تسبقه اليه وراء حامل مشعل . ارتد الى السور
الآخر الملاصق لأحد ربوع الرفاعية فرأى من خلال باب سطحه انوار
مشاعل قادمة ! وتملكه يأس خائق . وخيل اليه انه سميع صراخ أم
زنقل . ترى هل اقتحموا مسكنها ؟ هل قبضوا على عواطف ؟ وإذا
بصوت عند باب السطح يصيح به :

- سلم نفسك يا عرفة !

وقف مستلماً دون ان ينبس بكلمة . لم يتقدم منه أحد لكن
الصوت قال :

- إذا رميت بزجاجة انهالت عليك الزجاجات !
فقال :

- لا شيء معي .

انقضّوا عليه فطرقوه . ورأى بينهم يونس يواب الناظر الذي اقرب
منه وصاح به :

- يا مجرم .. يا كافر .. يا كافر .. يا كافر .. يا كافر .. يا كافر ..
- وفي الحارة رأى رجلين يسوقان أمامها عواطف فقال بثوسل حار :
- دعوها فلا شأن لها بي .
- لكن لطمة الموت هوت على صدغه فأسكتته .

١١٣

أمام الناظر الغاضب وقف عرفة وعواطف مقيدي الدين الى ظهرهما
انهاال الناظر لطمأ على وجه عرفة حتى كالت يدها وصاح به :

- كنت تناديني وأنت مبيّت الغدر يا ابن الزانية !
- فقال عواطف بأعين دامعة :
- ما جاءني الا ليصالحني !
- فبصق الناظر على وجهها وصاح :
- اخبرني يا مجرمة .
- فقال عرفة :
- انها بريئة ولا ضلع لها في شيء .
- بل شريكك في قتل الجبلوي وسائر جرائمك .
- ثم وهو يهمل :
- أردت الحرب وسأهربك من الدنيا كلها .
- ونادى رجاله فجاءوا بمجولين . دفعوا عواطف فسقطت على وجهها
- فسرعان ما قبدوا قدميها وأدخلوها في الجوال وهي تصرخ ثم ربطوا
- قومته ربطاً محكماً . وصاح عرفة بانفعال جنوني :

— اقلنا كما تشاء ، سيقنلك الحاقدون غداً .

فضحك الناظر ضحكة باردة وقال :

— عندي من القوارير ما يحميننا الى الأبد .

فصاح عرفة :

— خنش هرب ، بكل الأسرار هرب ، وسوف يعود يوماً بقوة

لا تقاوم فيخلص الحارة من شرك .

فركله في بطنه فسقط يتلوى . وانتفض عليه الرجال ففعلوا به ما

فعلوه بزوجه ثم حملوا الجوالين خارجاً ، ومضوا بهما نحو الخلاء . وما

لبث عواطف نان اغمي عليها ولكن بقي هو يعاني العذاب . الى اين

يسبرون بهما وماذا اعدوا لهما من الوان الموت ؟ ايقتلونهم ضرباً بالنبايب ؟

بالاحجار ؟ بالنار ؟ أم رماً من فوق الجبل ؟ يا لهذه الدقائق الأخيرة

من الحياة المشحونة بأفطع الآلام ! حتى السحر لا يستطيع أن يجد لهذا

المأزق الحائق مخرجاً . ان رأسه المتورم من لطبات الناظر يرقد اسفل

الجوال فيكاد ان يختنق . ولم يعد له من أمل في الراحة الا بالموت .

سيموت وتموت الآمال وربما عاش طويلاً ذو القهقهة الباردة . وسيشمت

به الذين ودّ لهم الخلاص . ولن يدري احد ماذا سيفعل خنش ..

والرجال الذين يحملونه الى الموت صامتون ، لا تندّ عن أحدهم كلمة ،

فليس ثمة الا الظلام ، وليس وراء الظلام الا الموت وخوفاً من هذا

الموت انطوى تحت جناح الناظر فخرس كل شيء وجاء الموت . الموت

الذي يقتل الحياة بالخوف حتى قيل أن يحى . لو رد الى الحياة لصاح

بكل رجل .. لا تخف .. الخوف لا يمنع من الموت ولكنه يمنع من

الحياة . ولستم يا اهل حارثية احياء ولن تتاح لكم الحياة ما دمتم

تخافون الموت .

وقال رجل من القتلة :

— هنا ..

فقال آخر من القنلة معترضاً :

— هناك الارض طرية .

ارتعد قلبه رغم انه لم يفهم للكلام معنى ، لكنها كانت لغة الموت على أي حال . واشتد به عذاب المتوقع حتى أوشك ان يصبح بهم ان يقتلوني ولكنه لم يفعل . وفجأة هوى الجوال الى الارض فشقق وارتطم رأسه بالارض فهصر الالم عنقه وعموده الفقري . وانتظر بعد لحظة وأخرى انقضااض النباييت او ما هو أقطع . ولعن الحياة كلها من أجل الشر حليف الموت . وسمع يونس وهو يقول :

— أحفروا بسرعة حتى نعود قبل الصبح .

لم يحفرون القبر قبل القتل ؟ وخيل اليه انه يحمل المقطم فوق صدره . وسمع أنيناً ما لبث ان ميز فيه نبرة عواطف فندت عن جسده المقيد حركة عنيفة . ثم ملأت دقائق الحفر أذنيه ! فعجب من غلظة اكباد الرجال . واذا بيونس يقول :

— سيلقي بكما الى قعر الحفرة ثم يهال عليكما التراب دون ان يمسكما إنسان بسوء !

فصرخت عواطف رغم اعيائها ، وهتفت اعماقه بلغة لم يدرها أحد . ورفعتها أيد شديدة ، ثم رمت بهما الى قعر الحفرة ، فأنهال التراب ، وارتفع الغبار في الغسق .

١١٤

انتشر خبر عرفة في الحارة . لم يعرف أحد أسباب مصرعه الحقيقية ، ولكن بالتخمين عرفوا انه أغضب سيده فدفعه هذا الى مصيره المحتوم . وذاع حيناً ما ان عرفة قتل بنفس السلاح السحري الذي قتل به

سعد الله والجبلاوي . وفرح الجميع لقتله رغم مقتهم للناظر، وكثر الشامتون من أهل الفتوات وانصارهم ، فرحوا لمقتل الرجل الذي قتل جدهم المبارك وأعطى ناظرهم الظالم سلاحاً رهيباً يستدلهم به الى الأبد ! وبدأ المستقبل قاتماً او اشد قتامة مما كان بعد ان تركزت السلطة في يد واحدة قاسية ، واختفى الأمل في ان ينشب بين الرجلين نزاع فيفضي الى اضعافها معاً ولجوء أحدهما الى أهل الحارة . وبدأ انه لم يبق لهم الا الخضوع ، وأن يعبروا الوقف وشروطه وكلمات جبل ورفاعة وقاسم أحلاماً ضائعة قد تصلح الحاناً للرباب لا للمعاملة في هذه الحياة .

ويوماً اعترض رجل أم زنفل وهي ذاهبة الى الدراسة فحيّاها قائلاً :
— مساء الخير يا أم زنفل .

فرمقته بنظرة فما عتمت أن قالت بدهشة :
— حنش !

فاقترب منها باسمًا ثم سأها :

— ألم يترك المرحوم شيئاً في مسكنك ليلة القبض عليه ؟
فقالت بلهجة من يقصد دفع الشبهة عن نفسه :

— لم يترك شيئاً ! رأيته يرمي بأوراق الى المنور ، فتسللت اليه في
نهار اليوم التالي فعثرت بين القاذورات على كراسة لا فائدة منها ولا
عائدة فركتها ورجعت .

التمعت عينا حنش بنور عجيب وقال برجاء :

— مدّي لي يدك حتى أعثر على الكراسة :

فأجفلت العجوز وهي تهتف :

— ابعدوا عني ، لولا رحمة ربنا لهلك في المرة الماضية .

فأودع يدها قطعة من النقود حتى سكن فزعها ، وواعدها آخر
الليل حين تنام العيون . وفي الموعد المضروب تسلل بارشادها الى أسفل
المنور . وأشعل شمعة ، وجلس القرفصاء بين اكوام الزبالاة وراح يفتش

على كراسه عرفة . فرز الاكوام ورقة ورقة وخرقة خرقه : وتخللت
اصابعه الرماد والتراب وبقايا المعسل وفتات الأطعمة المنتنة ، لكنه لم
يعثر على ضالته . وصعد الى أم زنفل فقال لها بيأس غاضب :
— لم أجد شيئاً .

فهتفت المرأة ساخطة :

— لا شأن لي بكم ! انكم تجيئون ثم تتبعكم المصائب !

— حلمك يا أمي !

— لم تترك لنا الأيام حلماً ولا عقلاً ، خبرني ماذا يهملك في تلك
الكراسة ؟

فتردد حنش قليلاً ثم قال :

— انها كراسه عرفة .

— عرفة ! الله يساعه . قتل الجبلوي ، ثم أعطى الناظر سحره
وذهب .

فقال حنش بحزن :

— كان من أولاد حارتنا الطيبين لكن الحظ خاناه ، كان يريد لكم
ما اراد جيل وعرفة وقاسم ، بل وأحسن مما أرادوا .

فحدجته المرأة بنظرة ارتياب ، ثم قالت بغية التخلّص منه :

— لعل الزبال اخذ الزباله التي تركت الكراسه فيها ففتش عنها
في مستوقد الصالحية .

وذهب حنش الى مستوقد الصالحية وسأل عن زبال حارة الجبلوي ،

ثم سأل عن زباله الحارة ، فسأله الرجل :

— تبحث عن شيء ضائع ! ما هو ؟

— كراسه ..

فلاحت في عين الزبال نظرة مريبة لكنه قال وهو يشير الى ركز

في الحجرة الملاحقة للحمام :

— أنت وحظك ، فاما نجدها عندك واما تكون في النار .
ومضى حنش يفتش في الزباله بصبر وأمل . لم يبق له من أمل في
الحياة الا تلك الكراسه . هي أمله وأمل الحارة . قتل عرفة السيء الحظ
مغلوباً على أمره ، لم يترك وراءه الا الشر وسوء السمعة ، فهذه الكراسه
جديرة باصلاح اخطائه والقضاء على اعدائه وبعث الآمال في الحارة
المتجهمة . واذا بالزبال يسأله :

— ألم تعر على مطلوبك ؟

— أمهلني ربنا يكرمك .

فهرش الرجل أبطينه متسائلاً :

— ما أهمية الكراسه ؟

فقال حنش دفعاً للقلق الذي انتابه :

— فيها حسابات المحل وستراها بنفسك !

وواصل بحته رغم تزايد مخاوفه ، حتى سمع صوتاً غير غريب

عنه يقول :

— أين قدرة الفول يا متولي ؟

ارتعدت فرائصه لدى سماع صوت عم شكل بياع الفول بالحارة
لم يلتفت نحوه ولكنه تساءل في جزع : ترى هل لمحى الرجل ؟ وهل
يحسن به ان يهرب ؟ وزادت سرعة يديه في التفتيش حتى بدا كالأرنب
الذي يحفر مأوى له .

وعاد عم شكل الى الحارة ليقول لكل من يصادفه إنه رأى حنش
رفيق عرفة في مستوقد الصالحية مكباً على التفتيش في الزباله عن كراسه
كما أخبره الزبال . وما ان بلغ الخبر بيت الناظر حتى ذهبت قوة من
الخدم الى المستوقد ولكنها لم تجد لحنش أثراً . ولما سئل الزبال قال :
إنه ذهب لبعض شأنه ، ولما عاد كان حنش قد ذهب ، ولم بدر ان كان
عثر على ضالته أم لا . ولا يدري أحد كيف أخذ الناس يتهايمسون فيما

بينهم بأن الكراسية التي أخذها حنش ما هي إلا كراسية السحر التي أودعها عرفة أسرار فنونه وأسلحته ، وأنها ضاعت أثناء محاولته الحرب فحملت في الزباله الى مستوقد الصالحية حيث عثر عليها حنش . وانتشرت الاخبار من غرزة الى غرزة بأن حنش سيتم ما بدأه عرفة ثم يعود الى الحارة لينتقم من الناظر شر انتقام . وأكد الأقوال والظنون ان الناظر وعد من يجيء بحنش حياً أو ميتاً بمكافأة كبيرة كما أعلن ذلك رجاله في المقاهي والغرز . فلم يعد أحد يشك في الدور المنتظر ان يلعبه حنش في حياتهم . وارتفعت في الأنفس موجة استبشار ونفاؤل قدفت بعيداً بزبد القنوط والحنوع . وامتألت القلوب عطفاً على حنش في مهجره المجهول ، بل امتد العطف الى ذكرى عرفة نفسه . وتمنى الناس لو يتعاونون مع حنش في موقفه من الناظر لعلهم يحرزون بانتصاره عليه نصراً لهم ولحارثهم ، وضماناً لحياة خير وعدالة وسلام . وصمموا على التعاون ما وجدوا اليه سبيلاً باعتباره السبيل الوحيد الى الخلاص ، اذا كان من المسلم به انه لا يمكن التغلب على القوة السحرية التي يحوزها الناظر الا بقوة مثلها مما قد يعدها حنش . ونما الى علم الناظر ما الناس يتهايمسون به فأوحى الى شعراء المقاهي ان يتغنوا بقصة الجيسلاوي ، وخاصة مقتله بيد عرفة ، وكيف ان الناظر اضطر الى مهادنته ومصادفته خوفاً من سحره حتى تمكن منه فقتله انتقاماً للجد الكبير .

ومن عجب ان تلقى الناس أكاذيب الرباب بفتور وسخرية ، وبلغ بهم العناد ان قالوا : « لا شأن لنا بالماضي ، ولا أمل لنا إلا في سحر عرفة ، ولو خيرنا بين الجبللاوي والسحر لاخترنا السحر » ؟
وبوماً بعد يوم مضت حقيقة عرفة تتكشف للناس . لعلها تسربت من ريع أم زنفل التي علمت بالكثير عنه من عواطف على عهد اقامتها عندها . ولعلها جاءت عن طريق حنش نفسه فيما كان يعرض للبعض عن مقابلته في الاماكن النائية . المهم ان الناس عرفوا الرجل ، وما

كان ينشده من وراء سحره للحارة من حياة عجيبة كالأحلام الساحرة .
ووقعت الحقيقة من انفسهم موقع العجب فأكبروا ذكره ورفعوا اسمه
حتى فوق اسماء جبل ورفاعة وقاسم . وقال أناس إنه لا يمكن ان يكون
قاتل الجبلاوي كما ظنوا ، وقال آخرون إنه رجل الحارة الأول والأخير
ولو كان قاتل الجبلاوي . وتنافسوا فيه حتى ادعاه كل حي لنفسه .
وحدث ان اخذ بعض الشبان من حارتنا يخفون تباعاً ، وقيل في
تفسير اختفائهم إنهم اهتدوا الى مكان حنش فانضموا اليه ، وأنه
يعلمهم السحر استعداداً ليوم الخلاص الموعود . واستحوذ الخوف على
الناظر ورجاله ، فبثوا العيون في الأركان ، وفتشوا المساكن والدكاكين ،
وفرضوا أقسى العقوبات على أتفه الهفوات ، وانهالوا بالعصي للنظرة أو
النكتة أو الضحكة ، حتى باتت الحارة في جو قاتم من الخوف والحقد
والارهاب لكن الناس تحمّلوا البغي في جلد ، ولاذوا بالصبر .
واستمسكوا بالأمل ، وكانوا كلما أضرب بهم العسف قالوا : لا بد للظلم
من آخر ، ولليل من نهار ، ولزمن في حارتنا مصرع الطغيان ومشرق
النور والعجائب .

روايات من منشورات دار الآداب

* * *

- | | |
|--------------------|------------------------------|
| سهيل ادريس | - الحى اللاتيني |
| » » | - الخندق الغميق |
| » » | - اصابعنا التي تحترق |
| حضا مينه | - بقايا صور |
| » » | - الثلج يأتي من النافذة |
| » » | - الربيع والحريف |
| جبرا ابراهيم جبرا | - البحث عن وليد مسعود |
| » » » | - السفينة |
| عبد الرحمن منيف | - النهايات |
| عبد الكريم غلاب | - صباح ويزحف الليل |
| نوال السعداوي | - امرأتان في امرأة |
| » » | - موت الرجل الوحيد على الارض |
| » » | - امرأة عند نقطة الصفر |
| حميدة ننع | - الوطن في العينين |
| غائب طعمة فرمان | - ظلال على النافذة |
| يحيى يخلف | - نجران تحت الصفر |
| عبد الرحمن الربيعي | - الافواه |
| شريف حتانه | - قصة حب عصرية |
| سحر خليفة | - مذكرات امرأة غير واقعية |